
قبيلة خولان
أخبارها وأشعارها في الجاهلية والإسلام
جمع وتحقيق ودراسة
د. هفل فاضل اليونس

مقدمة

الحمد لله البارئ لهذا اللِّسان المبين، الكَالِئ لمقاله القويم، ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١] بل أنزله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]. والصَّلاة والسَّلام على أبلغ العرب بياناً، وأفصحهم لساناً، أبي القاسم محمّد بن عبد الله القرشيِّ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعـدُ:

انبرى علماؤنا القدامى الغيارى على تركة أجدادنا لجمع ما انفرط من عِقْدِ لغتنا البهيَّة وتراثنا الضَّخم، وكانت أشعار القبائل وشعراؤها ممّا اهتمُّوا به وتناولوه بالعناية والرِّعاية في مخطوطات نفيسة، ورأَوا أن تكون في أسفارٍ خاصَّةٍ؛ لكلِّ عشيرٍ سفرُهُ، ولكلِّ شاعرٍ كرَّاسُه، فنحَوا تلك السَّبيلَ، حتَّى عُدَّ لأبي عمرٍو الشَّيبانيِّ ـ وحدَه ـ جَمْعُ ثمانينَ قبيلةً ونيِّفٍ، غير أنَّ صوارفَ الدَّهر وغوائلَ الأيَّام أبت إلَّا أنْ تتقرَّط تلك النَّفائسَ عقداً ثميناً تزدان به وتتسوَّر، حتَّى صارضياعُ تلك الأسفار شيةً مازت تراثنا الشعريَّ الكبيرَ، فلم ينجُ منها سوى ديوانِ هُذَيْلٍ الَّتي لم تكن في العرب سوى بيتٍ من بيوتاتها، هذا الدِّيوان الَّذي سعى إلى تطلابه من أفوَاه الرُّواة ثلَّةٌ من العلماء، كان تُكـأةً توكَّـأ عليـها ـ فيما بعد ـ نفرٌ من الباحثين، أنفقوا دهراً من حياتهم للملمة قوافي بعض القبائل، كلُّ قبيلة في مجموعٍ مستقلٍّ، فحذوا حذو أسلافهم مع درايتهم أنَّ جمع ما تفرّق من أشعار شاعرٍ واحدٍ من شعراء الجاهليَّة وصدر الإسلام والعصـر الأمويِّ سبيلٌ وعرةٌ، وتنائفها جدُّ صعابٍ، قد يعكف الباحث أشهراً في تنوفة واحدةٍ؛ ليأتيَ على كلِّ ما يمكن أن يقال فيها من نُخَالةِ القول ومُصَفَّاه، وأنَّ الضَّـرب في متون الكتب والتَّنقيرَ في بطونها يشقُّ على ذي العزيمة والصَّبر، «ومن دون ذلك خرط القتاد».

ولَمَّا كانت محبَّتي الأدبَ العربيَّ القديمَ مالكةً على نفسـي أَمْرَهَا، وغالبةً عليها أيَّما غلبةٍ، ارتضيتُ الرحلة في مفاوز خولان وحواضـرِهَا، أتنقَّل في أمواهها، وأتتبَّع أيَّامَها وأخبارَهَا، وأستنشد أشعارها، وأتعرَّف عقيدتها، ذلك يوم كانت في غابر أزمانها قبيلةً كبيرةً بسطت رَيْطَتَها على أصقاعٍ ليست بهيِّنةٍ من أجزاء اليمن، وخصوصاً في مرحلة ما قبل الإسلام الَّتي يُصْعَدُ بها وَفْق ما تُفْصِحُ عنه النُّقوشُ إلى الألْفِ الأول قبل الميلاد، حينما صاقبَتْ حميرَ، وطانبت مذحِجَ، وناصبت همْدَان، حتَّى مجيءِ الإسلامِ واعتناق اليمانيةِ له، ثمَّ مشاركتِهم في حركة الفتح الإسلاميّ، ووصولهم معها إلى أرض (الخضـراء).

ورأيتُ أنَّ جمع ما تفرّق من شتات أشعارها ودراستها يسهم في إماطة اللِّثام عن صَبَاحةِ وَجه درَّةٍ من درر تراثنا العربيّ، ولا سيَّما من قطن في العربيَّة السَّعيدة الَّتي نَحُلَتْ أخبارها، وهَزُلَتْ جسومُ أشعارها، حتَّى كادت تكونُ معدومةً في أيدي النَّاس، لولا أن قيّض الله لها أحمدَ بنَ محمَّدٍ الهمدانيَّ (334 هـ) الَّذي أنهبها شطراً من حياته؛ فدوَّنَ أخبارها، ولملم قوافيَ شعرائها، وقبائلها، في مصنَّفات غنيَّة في مادَّتها، فريدةٍ في بابها، عظيمة في تحضُّـرها لكلِّ صغيرة وكبيرة، هي ليست في غيرها.

وقبل السَّعي إلى غدران خولانَ ورياضهَا؛ لنضـربَ رؤوس أوتادنا بجوارها، ونشفيَ صدانا منها، لا بدَّ من القول: إنَّه لم يكن لخولانَ طالعُ أخواتها القبائلِ العربيَّة ـ لا سيَّما اليمانيَّةِ منها ـ من الاشتهار وذيوع الصِّيت والنَّباهة، بل أصابها في مصنَّفات العلماء ـ عدا الهمدانيّ ـ اختصارٌ لبُدْنِ أنسابها، وإغفالٌ لكثيرٍ من أخبارها، وفلول لأشعارها بالضَّياع والاندثار، ذلك ما جعلها هزيلةً نحيفةً، يضاف إلى مصابها هذا حيفٌ وأذًى شوَّها وجهها، وغمزا في حُسْنِهَا، فساءت مُنَاجَاتُها، وعزف كثيرٌ من خاطبي ودِّ أغراضها عنها؛ لتنكُّبها مُلَاءَةً رثَّةً ليست لها؛ لأنَّها في أصل مَحْتِدِهَا من الحسن، البدرُ في تمامه، يتكشَّف ذلك جليًّا حينما يُسَـرِّح الباحث عينيه في أشعارها، مبتهجاً بتكرار قوافيها وترديدها؛ فمن حسن السَّبك، وقوَّة الإحكام، وفخامة اللَّفظ، وتشقيق المعاني، ومناسبتها للبوسها: هي بمكان؛ فهذا عمرٌو العوفيُّ الَّذي أنزله أحدُ الباحثينَ منازلَ الشُّعراء الفرسان في الجاهليَّة؛ لما لشعره من شيات تجعله في موضعه، وسواه من شعراء خولان ممَّنِ ازدانت أشعارهم بالأقراط والحليِّ نفسها.

ولأجل هذا وذاك ولدت الرَّغبة لديَّ في تتبُّع ما أبقت لنا حدثان الدَّهر وصوارفُهُ من قوافي خولانَ أنفِ قضاعةَ، الَّتي خفيت على النَّاس لاختفاء كثيرٍ من مصنَّفات الهمدانيِّ وغيرها من الكتب المخطوطة؛ إمَّا القابعةِ في رفوف المكتبات الغربيَّة تعاني آلام حبسها ونسيانها من قبل أهلها وذويها، وإمَّا الَّتي امتدّت إليها يدُ الضياع فانطمست معالمها، وتحولَّت نضارة مُقَدَّمِهَا إلى قباحةٍ لا يُسَرُّ برؤيتها، فغاب وسمها، واندثرت صفحات كثيرة منها.

ولَّما استدّت عزيمتي، دَبَبْتُ إلى جمع شَتَاتِ أشعار هذه القبيلة القضاعيَّةِ دبيبَ غيري ودَلَفَهُ، يقلِّبني خفضٌ له وصعودٌ، تتقاذفني قفافُ البحث وحزونُه، حتَّى إذا تصـرَّم على عملي حولٌ ونصفهُ، أُخْبِرتُ أنَّ عَمَلاً يشابه عملي في واحدٍ من جوانبه قد سكن في رفوف قسم الآثار من جامعة صنعاء منذ ستة أعوام، فضاقت عليَّ الأرضُ بما رحبت؛ لما للأمر من خطرٍ «إذ لا تبرك عليه الإبل»، فأخبرتُ أستاذيَ المشـرف ـ وهو «جُذَيْلُهَا المُحَكَّك، وعُذَيقُهَا المُرَجَّبُ» ، وبرأيه يشتفى ـ فأشار بالسَّعي إليه، والتَّرفُّق في طلبه حتَّى لا يحالَ بيني وبينهُ، وطال الأَبَدُ على لُبَدٍ، أقلِّب ناظريَّ في أديم السَّماء مغتمًّا ومهتمًّا، حتَّى

أعيانيَ الأمرُ وشقَّ عليَّ، ووقتئذٍ ما شُقَّ لأستاذي غُبَارٌ؛ إذِ استلَّ ليَ العملَ من جامعة صنعاء؛ فإذا هو دراسة نحيلةٌ دون ما تُصوِّر لها، وَسَمَهَا صاحبُهَا بـ «خولان الأرض والقبيلة في المصادر التَّاريخيّة، دراسة تحليليّة»، وجعلها في مقدِّمة وثلاثةِ فصولٍ: وهب الأوَّلَ منها لأماكنِ القبيلةِ وبواديها معتمداً في تطلابها على كتب البلدان المشهورة؛ ولا سيَّما صفة جزيرة العرب للهمدانيِّ. وأوقف الثَّاني منها على نسب خولان، وإلحاقها بغيرِ أرومةِ نسبٍ، من دون أن يبحث عللَ ذلك الإلحاق وأسبابَهُ. وأمَّا الثَّالث فخصَّهُ للحديث عن خولان في المادَّة النقشيَّة القديمة بعصريها: السَّبئيِّ الأوَّل، والسَّبئيِّ الحميريِّ الثَّاني، ثمَّ ذيَّل دراستَهُ الَّتي لم تتجاوز تسعين صفحةً بهوامشها ومصادرها، كلُّ ذلك اتَّشح بأسلوب ركيك، ولغة ضعيفة مهلهلة، لم ترقَ إلى مستوى العمل الأكاديميِّ، يضاف إلى ذلك خلوُّ الدِّراسة من التَّحليل الَّذي ادَّعاه صاحبها في العنوان، والدِّقَّة في تناول الأخبار وعِراض بعضِهَا على بعضٍ، وخلوّها من الصِّبغةِ الأدبيَّةِ؛ إذ لا يكاد يصادف القارئ بيتاً من الشِّعر فيها. وإذا كانت هذه الدِّراسة، تشابه في عنوانها طرفاً يسيراً من صنعتي، فإنَّ في ضبط أسماء المواضع واستقصائها من مظانِّها في المعجم الَّذي ذيَّلتُ بِهِ الدِّراسةَ، ما يفرّق بين العملين ويفصل بينهما، وهذه الدِّراسةُ ـ على ما فيها من هناتٍ قادحةٍ وهفواتٍ ـ لم تعدمِ الفائدة؛ لاضطلاع صاحبها بمصادرَ مخطوطةٍ لم أتمكَّن من الوصول إليها.

أمّا بحثي فكسرتُه على قسمين وَفقاً لمادَّته العلميَّة؛ هما: الدِّراسةُ والدِّيوانُ؛ فأمَّا الدِّراسة فجعلتها في أربعة فصولٍ؛ جعلت الأوَّلَ منها خالصاً لوجه القبيلة، بحثت فيه أصلَ تسميتها، وبسطت القول في نسبها، وعلَّلت إلحاقها بغير نسب من العرب متوكئاً في ذلك على أدلَّة دامغة، ثمَّ بحثتُ نواقلَها الَّتي كانت بتأثير علاقاتِ مصاهرةٍ وغيرِها، وأَصَخْتُ السَّمعَ إلى تلبياتها الَّتي كانت جزءاً من ابتهالات قضاعة، وأفضت القول في أيَّامِهَا وعلاقاتِهَا ما أمكن إلى ذلك سبيلٌ.

وأمَّا الفصل الثَّاني فكان لدراسة أشعار القبيلة وتوثيقها، ولم يكن نصيبه من صحائف الدراسة كنصيب أقرانه؛ لقلَّة المصادرِ الَّتي حفظت لنا أشعارَ خولانَ، ولانعدامِ الاضطرابِ في نسبةِ الشِّعرِ؛ لعدم تَرْحَالِ تلك الأشعار وسيرورتها في مصنَّفات التُّراث العربيِّ كلِّها، ثمَّ قلَّةِ مواضع النحل؛ لاحتجاب أشعار خولان عن أفواه الرُّواة وأقلام العلماء، فظلَّت صافيةً، لا تشوبها شائبةٌ، بعيدةً عن سُعَاة المآثر والمناقب، بل جلُّهَا كانَ الإكليلُ أُمًّا رؤوماً لها، حفظت شتات أشعارها، وجعلتها مصونةً من الضَّياع.

وأمَّا الفصلُ الثَّالثُ فوهبتهُ لموضوعاتِ ما اجتمع لدينا من أشعار خولان، فتبيَّن فيه فزعُ معظم شعرائهم إلى التّفيُّؤ بظلِّ الحماسة والفخر، والتَّقصير عن بقيَّة الأغراض المعروفة من وصف ورثاء

وهجاء وحكمةٍ ومدحٍ، والعزوف عن الغزل الَّذي غاب بكلِّيَّته؛ لأنَّ ما أثر عن خولانَ من كرٍّ وفرٍّ وميلِ أهلها إلى حياة الحرب، فيه من العُذْرِ ما يُسَوِّغُ ذلك الفزعَ والتَّقصير، وحال كثير من العرب النَّأيُ عن الغزل، الذي فطر عليهِ العربيُّ القابض على سيفه، المتنكّب لقوسه، الحامل لرمحه، اللّائذ بصهوة جواده، وكلّ ذلك ممَّا لا يتَّفق مع رقَّة القلب، ولينِ العريكة، ونعومةِ الطّبع.

وختمت بالفصلِ الرَّابعِ الَّذي جعلته للخصائصِ الفنيَّة؛ المعنويَّةِ منها واللَّفظيَّة. أمَّا المعنويَّةُ منها فرصدت فيها وضوحَ المعاني، وسهولةَ تناولها، وغموضَ بعضها، متلمِّساً لذلك الغموض بعضَ العلل الَّتي تزول بمشورةِ معجمات اللُّغة، وتناولتُ الصُّورَ البيانيَّةَ من تشبيه واستعارة وكناية، ثمَّ المحَسِّناتِ المعنويَّةَ الَّتي وجدتُ لها أثارةً في أشعار القوم؛ مثلَ الطِّباقِ والمقابلةِ، كما تناولتُ مصادرَ معانيهم المختلفةِ والمعاني الَّتي استُلَّت منها، فجعلوها في أشعارهم عِبَراً وأمثالاً تُحْكى في مقالات العرب، يضاف إلى هذا ما استجدَّ من معانٍ استلهمها شعراء الإسلام والعصر الأمويِّ من القرآن الكريم.

وأمّا اللَّفظيَّةُ فرصدتُ فيها ثلاثةَ جوانبَ: الأوَّلُ ما تعلَّقَ بمنهجِ بناء القصيدة الَّتي غلبت عليها المقطَّعاتُ والنُّتفُ والأبيات النَّادّة، فَنُظِرَ فيها جميعاً، وبانَ ممَّا ذكرته في موضعِهِ غيابُ المقدِّمةِ في قصائدهم الَّتي لم تبلغ - فيما وصلَ إلينا - ما قاله شويعرٌ من الدَّهماء.

وثانيها: موسيقا الشِّعر - داخليَّةً كانت أو خارجيَّةً - وما يمكن أن يقالَ فيها من ظواهرَ لها أوثقُ الصِّلة بالوزنِ والقافيةِ وعيوبها.

وثالثها: الظَّواهرُ اللُّغويَّةُ والنَّحويَّةُ والعروضيَّةُ.

ثمَّ ختمتُ هذه الدِّراسةَ بخاتمةٍ، أبرزتُ فيها ما توصَّل إليه البحثُ فيما تقدَّمَ ذكره من نتائجَ وأحكامٍ، وألحقت بالدِّراسة معجمَ بلدانِ خولانَ، وشجرةً لنسبِ القبيلةِ تضمُّ أهمَّ بطونِها وأعلامِها وأنسابِ شعرائها، كما لحقَ بهذه الشَّجرة خريطةٌ تبيِّنُ مواقعَ أهمِّ تلك الأمكنةِ.

وأمّا القسم الثاني: فهو ديوانُ القبيلةِ، وهنا لابدَّ من كلمةٍ لصانعه قد تكونُ شفيعاً له بين يدي أهلِ العلمِ والفضلِ؛ وهي: إنَّ يُتْمَ مصادرِ الشِّعرِ وذهابَ (الإكليلِ) بمعظمه، حمَّلَ الباحثَ عبءَ عِراضِ كلِّ لفظةٍ استغلق معناها على كتب المعجمات لمشورتها في مرامها، هو أيضاً ما أفقر الشِّعر من تعاليق القدماء ومذاهبهم فيه، التي لو كانت لأثرتِ المقال وزادت في حسنه، ورفعت من شأوه على شاكلةِ كثيرٍ من أشعار القبائل المعروفة لدى الخاصة والعامة، التي تناهبتها مصنّفات الشّروح والتفسير

والأدب، فتسوّرت بكلام أصحابها وتفسيراتهم، علاوةً على ضبطها وتوجيه طلبتها وامتطائها سبلاً سليمةً.

وجهدتُ في هذا الديوان إلى تحقيق الأشعار تحقيقاً علميًّا قدر الوَسْعِ والمَجْهُودِ، فأرجعتُ أسماء الأعلام إلى مظانّها مترجماً لها بإسهابٍ وترتيبٍ دقيقين؛ لعدم وجودها في المصنّفات العامّة، ولصعوبة تحصيلها من كتب الهمدانيّ نفسه؛ إذ كان الاسم الواحد يتناثر على صفحاتٍ كثيرة، يُضاف إليها أسماء المواضع التي شَفَعْتُ ذكرها بما جاء في مظانّها، ورأيتُ كتابة هذه وتلك بخطٍ عريض.

وقد تضمّنَ الدّيوانُ أشعارَ قبيلةِ خولانَ من الجاهلية حتى نهاية عصر بني أميّة، وبعض الذين تراخت مناياهم إلى دولة بني العبّاس فأدركوا ذؤابة زمانهم، والذين لم تسعفِ المصادر في تحديد عصورهم؛ خوف أن يكونَ بعضُهُم ممّن عاش في حقبة ما بين الجاهليّة وعصر بني أميّة.

وقَسّمتُ الدّيوانَ على أربعةَ أقسامٍ: الأوّل منها ضمَّ أشعار الجاهليّين، وذُيِّل بأشعار المجهولين منهم. وضمَّ الثّاني أشعارَ المخضرمينَ وشعراءِ صدرِ الإسلامِ، وفي آخره أشعارُ المجهولينَ منهم. واحتضنَ الثّالثُ أشعارَ الأمويّينَ منهم، وخُتِمَ بأشعارِ المجهولين منهم. أمّا الرّابع فكان لأشعار مجهولي العصور، وبآخره أشعارُ مجهولي الأسماءِ والعصور.

وقدّمتُ لكلِّ شاعرٍ بترجمةٍ تكشفُ الغطاءَ عن نسبه، وشُفِعت بما وُقِفَ عليه من أخبارهِ وتحديدِ زمنهِ بالأدلّةِ والقرائن المتاحة، مع إبرازِ موضوعات الشِّعر التي طرق بابها وفتق رتوقها. وجعلتُ كلَّ واحدٍ من شعراءِ هذا الدِّيوان في مكانه بحسب وفرة شعره؛ المكثرُ فالمقلُّ، ورتَّبتُ شعر كلِّ شاعر بحسب الرَّويِّ هجائيًّا، وقدَّمت الرَّويَّ المكسورَ، فالمضمومَ، فالمفتوحَ، فالمُقيَّد، وجعلت القصائد ضمن الرَّويِّ الواحدِ والحركة الواحدة على دوائر العروض، ورتَّبت أشعار المجهولين في كلِّ قسمٍ، وأَتْبَعْتُ ذلك بفهارسَ تأخذُ بيدِ القارئِ، وتعينُهُ على الوصولِ إلى مراده، بيسر وسهولة.

وإذا كان من كمال الفضل شكرُ ذويهِ، فإنِّي أتقدَّم بأصدقِ الشُّكرِ وعظيمِ العرفانِ لأستاذي الجليل الدُّكتور أحمد دهمان، الَّذي تحمَّل أعباء الرِّحلة مع صاحبها في مفاوزِ خولانَ وأمواهِها، يؤثره ويقدِّم له على سَعَةِ علمه ورحب صدره ما يقيل عثرته، ويذلِّل صَعْبَهُ، ويسهِّل دربه، حتَّى أسره بإحسانه، وطوَّقه بفضله، ولست بالغاً شأوَ فضله وإن تخيَّرتُ له كريم اللَّفظ وشريف المعنى؛ فإنَّه قد ينأى البيان ويعجز اللِّسان إذا جلَّ الصَّنيع وعظم. والشُّكرُ موصولٌ للدُّكتور محمَّد شفيق البيطار، الَّذي أنهبني من وقته ما ضنَّ به غيره، وأرشدني إلى مواطنَ في البحث لا عهد لي بها، فكان انتفاعي من علمه

واضحاً؛ ولا سيّما في حذوي حذوَهُ في صنعه ديوانَ بني كلبِ بنِ وبرةَ.

وكذا الشكر موصول للدكتور مقبل التام عامر الأحمدي، الذي وضع بين يدي مخطوط الجزء الأول من الإكليل، وكتبًا نادرة، أسهمت في بناء هذا البحث، منها أطروحته العالية التي أفردها لجمع أشعار حمير.

وأشكر أساتذتي أعضاء لجنة المناقشة والحكم، على ما بذلوه من جهدٍ في قراءة هذا البحث، وسدُّ ما فيه من ثغراتٍ، وإغنائه بآرائهم السّديدة ومقالاتهم العالية، التي ستكون لي هادياً إلى سُبُلِ الرَّشاد، راجياً العليّ القدير لهم المثوبة والأجر.

والله أسألُ أن أكون قد وُفّقت إلى ما سعيتُ إليهِ، وإذا كانت بضاعتي مزجاةً فحسبي أنّي عزمت وأخلصت النيّة، والكمال لله وحده، وهو ولي السّداد والتوفيق.

الفصل الأول

نسب خولان

أولاً ـ نَسَبُ خَوْلان:

تواجه الباحثَ في أصول خولانَ وبطونها المتعدّدة، وما قاله أهلُ العلم المهتمّون بعلم النَّسب من أقوالٍ متباينة، صعوباتٌ جمَّةٌ، وعثراتٌ عِظَامٌ تعتاص علىٰ البصير بأخبار القبائل اليمانيّة وأنسابها، وتلك شِكَاية كبيرٌ جرمها، واضحٌ أمرها؛ في الحيف الذي لحق بنسب القبائل اليمانية وأخبارها التي ضرب النُّسَّابُ صفحاً عنها، إلاَّ طرفاً يسيراً لا يؤبه له بالقياس إلىٰ نصيب القبائل العربيّة الأخرىٰ، وهذا بيِّنٌ بنظرة عَجْلىٰ إلىٰ ما تبقىٰ من مصنَّفات الأنساب؛ كالنَّسب الكبير لابن الكلبيّ (أو الموسوم بنسب معدّ واليمن الكبير)[1]، والنّسب لأبي عبيد[2]، وجمهرة أنساب العرب[3]، والأنساب للعوتبيّ الصُّحاريّ[4]، ولا ملامةَ علىٰ أبي محمد الحسن بن أحمد الهمدانّي (334هـ) في تشكّيه علىٰ هؤلاء العلماء؛ ولا سيّما مَن كان منهم بالشّام والعراق، الذين قلَّت رحلتهم إلىٰ مَنْ قَطَنَ باليمن، فَنَحُلَتْ أنساب اليمن في مصنّفاتهم، حتىٰ كادت تكون معدومةً لولا ما سمعوه من هنا وهناك، فدوّنوا النّزير من الكثير، وأخذوا الحلق من العقد.. فقال ـ وهو الـمُوْقِفُ سَمْعَهُ علىٰ أنباء العصور، المتتبّع للمعروف من أخبار القبائل وأيّامها، الـمُنقِّرُ عن غامضها، المتبيّنُ في ملتبِسِهَا، المتنكِّبُ لمجهولها؛ حتّىٰ وقف علىٰ العين الجليَّة ـ: «رأيت نُسَّاب تلك النَّواحي ـ ولا سيّما الكلبيِّينَ ـ استقصَوا في أنساب ولد مالك بن حمير [أي: أولاد قضاعة بن مالك بن حمير] لَـمّا كانوا منهم وعنهم بمرأىً ومَسْمَع، وأتَوا من نسب أخيه الهَمَيْسع بن حمير بمثل أَثَرٍ في عفر؛ لا دارس فيعفو، ولا بيِّن فيبدو، لَـمّا قلَّت رحلتهم إلىٰ مَنْ قَطَن منهم باليمن، ولم يلقوا بِنُهوجِهم مِنْ ذوي معرفتهم غيرَ أعقاب مَنْ ظَعَن، فَنُتِفَ ذاك واختُصِر ذا، وأتوا منها بعُنُقٍ يختلف عنها بَدَنُها، وكذلك غيرهم من النُّسّاب، حتّىٰ إنَّ ابن إسحاق أتىٰ ـ فيما سمعنا عنه ـ بنسب ولد الهَمَيْسع في خمسة أسطر»[5].

وكذا الحال في نسب خولان التي شسع صقعُها، وعُدَّت في قبائل اليمن، فهزُلَتْ أنسابها وأخبارها في مصنَّفاتِ أهل الشّام والعراق، حتّىٰ قيَّض الله عزَّ وجلَّ لها أبا الحسن الهمدانيّ الذي أنفق شطراً

---

(1) انظر: النّسب الكبير: 1/ 251.

(2) انظر: النّسب لأبي عبيد: 314.

(3) انظر: جمهرة أنساب العرب 2/ 418، 485.

(4) انظر: الأنساب 1/ 261، 282.

(5) انظر: الإكليل «المخطوط 1/ 3ـ4، والمطبوع 1/ 84ـ85».

من حياته في تقصّي أخبارها وأنسابها، فكانت معرفته بها عالية في بابها، غنيّة في مادّتها؛ لقربه من حملة العلم منها، واطّلاعه علىٰ كل ما قيل فيها في السّجلّات والزُّبُرِ والمساند الحميريَّة، يقول: «قد ذكرنا قبائل قضاعة ذكراً مجملاً؛ لشهرتها عند النّاس، ووقوف العامّة عليها، واستعمالهم لها، وعمران قلوبهم بها وأسماءهم، سوىٰ خَوْلَانَ، فإنّنا رأينا أنْ نُشْبِعَ القول فيها لتلحق في التّشجير والتّعريف بباقي إخوتها من قضاعة، ونحرص أن نأتي من ذلك بما يعرفه أهل نجد، وبعض أهل الحجاز، وكافّة أهل اليمن ونجران، ومن يبلغه رحلتهم، ويبلغهم رحلته، ولو كانت صعدة في القديم من البلدان التي رحل إليها أصحاب الحديث، لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء، فهذه الآن بطونها، علىٰ ما روىٰ خولان وحمير بصعدة، وقد سكنتُ بها عشرين سنة، فأَطْلَلْتُ علىٰ أخبار خولان وأنسابها ورجالها، كما أَطْلَلْتُ على بطن راحتي، وقرأتُ بها سجل محمّد بن أبان الخنفريّ المتوارَث من الجاهليّة، فمن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب، ومنها ما دخل في كتاب الأيّام»[1].

وثمّة صعوبةٌ تتعلّق بأسماء أعلام خولان، ولا سيّما البطون منها التي ورد اسمها في النّقوش القديمة، تتجسَّدُ في أنَّ معظمها قد تغيَّر مع تقادم العهد عليه، فعفا عليها الزّمن، وحلَّ محلّها أسماءٌ أُخَر؛ مثل «الأُخْنُوب»[2] الذي اختفىٰ من بقيَّة النّقوش الأخرىٰ ومن مصنَّفات الهمدانّي نفسه، والأُخْنُوبُ بلا شكٍّ هم الفرع الأساسي من قبيلة خولان، ممن تولّوا أمر هذا التَّجمُّع، ولكن بمرور الأيّام وتعاقب السّنين حلَّ آخر مكان هذا الاسم الذي جاء بصيغة اسم الجمع علىٰ زِنَةِ (أُفْعُول)، وهي صيغة تكثر في النّقوش عامّة، ولا سيّما النّقوش التي تخصُّ قبيلة خولان بحسب ما نبَّه عليه الهمدانيُّ؛ ففيها: الأَجْبُول، والأَسْوُوق، والأَخْضُوض، والأَقْدوم، والأَجْدُود، والأَزْنُوم، والأَوْكُول، والأَعْبُوس، والأَبْقُور، وصِيَغٌ أخر دلّت علىٰ شعوبٍ وبطونٍ انتسبت إلىٰ خولان، واختفىٰ ذكرها في النّقوش الأخرىٰ ومصنَّفات أهل اليمن؛ مثل: الشّبَارِقَةِ، والشّمَالِقة، والغَرَانِقَةِ[3].

وثمّة صعوبة أخرىٰ تتعلّق بقلّة المصادر المصنّفة في أخبار خولان، التي لم يتناولها إلّا الهمدانيُّ،

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 60، المطبوع 1/ 274 ـ 275».

(2) الأحنوب: الأصل لهذه المادة (حنب)، والتَّحنيبُ: احديداب في وظيفي يدي الفرس، وليس ذلك بالاعوجاج الشّديد، وقيل: هو اعوجاج في الضّلوع، وقيل: هو انحناءٌ وتوتيرٌ في صلبها ويَدَيْهَا، والتَجْنِيْبُ: هو الانحناءُ والتوتيرُ في الرِّجْلِ، اللّسان والتّاج (حنب). وعلّق الأستاذ مطهّر علي الإرياني علىٰ هذه المادّة بقوله: «إنّ الأحنب من مادّة (حنب) القاموسية أو اليمنيّة، ولكنّنا لا نعرف الأصل المفرد منها؛ هل هو (يحنب) أو (حناب) أو (حنبة) أو نحوها من صيغ مادة (حنب)؟ وإن كنت أرجح أنّ الأصل (بني يحنب) التي قد تكون تحرفت إلىٰ (يجنب) التي ترد في أنساب القبائل القضاعية...» نقوش مسنديّة 499.

(3) انظر: نقوش مسنديّة 498، 502 ـ 503.

ومَن نقل عنه من العلماء أمثال ياقوتِ الحمَويّ (626هـ) في معجمه، وعبد العزيز البكريّ (487هـ) في (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع)، ونشوان الحميريّ (573هـ) في (شمس العلوم)، وعنه في (منتخبات في أخبار اليمن)، وابن خرداذبه (235هـ) في (المسالك والممالك)، وبعض النّقوش المسنديّة القديمة التي حاول نفرٌ من العلماء الوقوفَ عليها، وحلّ رموزها، وترجمتها ما أمكن إلىٰ ذلك سبيلًا[1].

وَخَوْلَانُ: بفتح الخاء المعجمة، وسكون الواو، وبعدها لام ألف، ثُمَّ نون[2]. أمّا دلالة هذه اللفظة التي آمن بها علماء اللّغة، واطمأنّ إليها أرباب الأنساب وجزموا بها، فمأخوذةٌ من (الخَوَل)؛ وهم الأَتْبَاعُ والرَّعيّةُ والخدمُ والعَبيْدُ، حتّىٰ قيل: هؤلاء خَوَلُ فلان، إذا اتخذهم عبيداً وقهرهم وجعلهم مُلْكاً له[3]. وحينما ولد خولان قيل: خَوِّلُوا له؛ أي: اجعلوا له خَوَلًا، فجمعوا له أخلاطاً خَوَلًا، فهؤلاء الخَوَلُ: خَوْلَان[4]، الذي يعود في أصل التّخوُّلِ إلىٰ: التَّعَاهُدِ، ومنه في الحديث: «كان يتخوّلنا بالموعظة؛ أي: يتعهدنا مخافة السَّآمة»[5]، وقال الأصمعيُّ: يَتَخَوَّنُهُم، وهي لغةٌ فيها[6]. والرّاجح أنّ الأصل في التّسمية عائدٌ إلىٰ التّعاهد والحفاظ علىٰ الشّيء؛ لقول ابن دريد: «وقد سمَّتِ العرب خَوْلَانَ، وخَوْلَه، وخَوْليًّا، كُلٌّ إلىٰ هذا راجع»[7]. أي: تعاهدوه بالحماية والرّعاية الكريمة؛ ليصبح خولان فيما بعد رجلاً عظيماً يغلب علىٰ مرحلة من اليمن السّعيد، وكانت من ذريّته ومَنْ تناسل من صلبه هذه القبيلة العظيمة[8].

وقريب من التخوُّل في معناه ومبناه ما جاء لدىٰ الهمدانيّ حين أشار إلىٰ أنّ معانيَ التَّكَلُّعِ والتَّبَكُّلِ والتَّقَرُّشِ والتَّحبُّشِ والتَّحمُّرِ والتَّسَبُّؤِ والتَّقشُّبِ والتَّحَشُّدِ تدلُّ علىٰ التَّجمُّعِ[9]، وهي كَلَاع، وبكيل

---

(1) انظر: نقوش مسنديّة 482 ـ 498.

(2) جمهرة اللّغة 2/ 243، الاشتقاق 327، الصّحاح 4/ 1691، المحكم 5/ 182، المحيط في اللّغة 4/ 413، شمس العلوم 2/ 1947، وفيات الأعيان 2/ 511، الأنساب للسّمعانيّ 5/ 211 ـ 212، اللُّباب في تهذيب الأنساب 1/ 472، القاموس المحيط 2/ 477، معجم مقاييس اللّغة واللّسان والتّاج (خول).

(3) جمهرة اللّغة 3/ 240، تهذيب اللّغة 7/ 564، المحكم 5/ 182، المحيط في اللّغة 4/ 413، اللّسان والتّاج (خَوَلَ).

(4) النّسب الكبير 1/ 216 ـ 217، مختصر جمهرة النّسب 2/ 184.

(5) جمهرة اللّغة 3/ 240، الاشتقاق 327، الصّحاح 4/ 1691، المحكم 5/ 182، تهذيب اللّغة 7/ 561، وفيه: يَتَخَوَّنُهُم، أساس البلاغة، التّاج (خول).

(6) جمهرة اللّغة 3/ 240 وفيه بلا نسبة إلىٰ خولان، اللّسان ومقاييس اللّغة والتّاج (خَوَلَ).

(7) الاشتقاق 327.

(8) التّاج (جيش).

(9) الإكليل 2/ 244.

بن همدان، وحاشد أخوه، وقريش، وحمير، وسبأ، وقشيب، وكلُّها بطون يمانية.

وقد جاء في معنىٰ بكيل بن جُشَم بن حَبْرَان بن نوف بن همدان: زعيم، وتبكّلت بالأمر: تزعَّمت به، والتّبكيل والتّحشّد: التّجمُّع[1]. ومثل هذا في سَبَأٍ وخولان وغيرها من الأسماء اليمانيّة[2].

وقبل الولوج في رفع نسب خولانَ لا بدَّ من التّنبيه علىٰ مشكلات ثلاث؛ هي:

الأولىٰ: اختصار نُسَّاب العرب وعلمائهم ـ غير الهمدانيّ ـ أنساب خولان، ولا سيّما ابن الكلبيّ وابن حزم، وغيرهما؛ إذ لم يذكروا من أنسابها إلا حذفاً يسيراً لا ينقع بِلَّة، ولا يشفي غليلاً، بل ما ذكروه من نسب خولان يُوهِمُ القارئ بأنّ خولان بطنٌ صغيرٌ من قضاعة أو غيرها من العرب، وهي علىٰ خلاف ذلكَ وفقاً لما ذكره أحد الباحثين ـ وهو المطّلع علىٰ ما جاء في النّقوش القديمة ـ أنّها من القبائل الكبيرة التي ذكرت في عددٍ من الكتابات الجنوبيّة الحيّة[3].

وتجدر بنا الإشارة هنا إلىٰ اندثار أنساب العرب، وضياع معظمها أيّام بخت نصَّـر، يدل على ذلك كلام الهمدانيّ علىٰ نسب مالك بن حمير إذ يقول: «وأولد مالك بن حمير: زيد بن مالك، وزهران بن مالك، حيٌّ عظيمٌ، ولهم كانت اليمامة، وإليهم انضافت جديس، وهوازن الأولى بن مالك، والغمور بن مالك، والأحظور بن مالك، وإليهم يذهب كثير من النّاس أنّهم الذين أوقع بهم بخت نصَّـر، ويدلّ علىٰ ذلكَ قول ابن عبَّاس: إنَّ بخت نَصَّـر أفنىٰ أهل حضورا وعزبايا؛ لأنّ هذين الاسمين لا يعرفان باليمن.... وأصحاب السّجلّ يقولون مثل قول بعض النّاس فيما بين عدنان وإسماعيل: إنّه تخرَّم بعد أيّام بخت نصّـر شـيء من علم العرب من ساكني الحجاز والشّام بالأنساب والأيّام»[4].

أمّا المشكلة الثّانية: فهي الخلاف في نسب قضاعة؛ هل هي حميريَّة أو معدِّيَّة؟

كشف الهمدانيُّ اللِّثام عن هاتين القضيَّتين في الجزأين الأوَّلين من كتابه الإكليل؛ ولهذا يحسن بدء الكلام عليهما بما أبداه الهمدانيّ في الجزء الأوّل من كتابه هذا، وهو مصـروفٌ لتبيين أنساب العرب والعجم، ونسب ولد حمير، وخولان التي جاءت في نصفه الثّاني، وكذا حال الجزأين الثاني والعاشـر، ويدلّ هذا الاستهلال علىٰ شغف الهمدانيِّ بتتبّع أنساب خَوْلانَ وحِمْيَر وهَمْدَان ـ صقعه

---

(1) الإكليل 10/ 105، وانظر: اللّسان والتّاج (بكل، حشد)، وانظر شعراء مَذْحِج للاطلاع على اجتهادات أهل العلم في تفسير الأسماء اليمانية عامّة، وذهابهم مذاهبَ شتّىٰ في تناول موضوع النّسب، ص17.

(2) الإكليل: 2/ 284.

(3) انظر: المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 2/ 400.

(4) الإكليل: «المخطوط 1/ 48، المطبوع 1/ 208».

اليمانيّ - وتطلابها أنّىٰ كانت مَحَالُّ أصحابها، وفي ذلك يقول: «وما زلت منذ عضضتُ علىٰ جذمي موقفاً سمعي علىٰ أنباء العصور، مُتَتَبِّعاً للمعروف من الأخبار وأيّام النّاس، مُنَقِّراً عن غامضها، مُتَبَيِّناً مُلْتَبِسَها، مُتَنَكِّباً لمجهولها، حتّىٰ وَقفتُ منها علىٰ العين الجليّة، وسلكتُ منها الجادّة السويّة، فوجدتُ أكثر النّاس يخبط فيه خَبْط عشواء، ويَعْمَهُ في حِنْدِسٍ طخياء[1]، وإذا الخبر الواحد ترويه الجماعةُ في وُجُوهٍ مختلفةٍ من زيادةٍ ونقصانٍ، وتقديمٍ وتأخيرٍ؛ إذْ كان عِلْم الأخبار علماً طَلْقاً غير مقصورٍ بنظامٍ، ولا محصورٍ بقياس.

كما لم أزل كَلِفاً بالبحث عن الأنساب، والفحص علىٰ صحيحها، والوقوف عند سقيمها، والتّصفّح لما أتىٰ به النُّسّاب، فأخذنا نسب كل قبيلة، مُتْقِناً لأنساب من قاربَهُ وعاشَـرَهُ وساكنَهُ وخالطَهُ، راجماً فيما نأىٰ عنه بالغيب، نجمع من سِيَرِهمُ الحقير، ومن أنسابهمُ اليسير، ومن علمهم وحكمهمُ النَّزْر من الكثير، ويزلّ عنه منها الجَمُّ الغفير؛.... فقلت: أين مَنْ لم يزل بعدهم مُوْجِفاً يَغُور ويُنْجد، ويقرب ويبعد، في طلب مَنْ يعلم ذلك علىٰ كماله، عن مثل شيخ حمير وناسبِهَا وعلّامتها وحامل سفرِها، ووارث ما ادخرته ملوك حمير في خزائنها من مكنون علمها، وقارئ مساندها والمحيط بلغاتها، أبي نصر الحنبصي، وما زال لنا معوّلاً في المشكلات، وربّما وردتُ منه بحراً زاخراً لا تكدِّره الدِّلاء، ولا تَلُوب دونه الظِّماء، فأغناني نَهَلُهُ دون عَلَله، وأوسعني كفاية البعض دون كمله، وكان بحَّاثةً قد لقي رجالاً، وقرأ زُبُرَ حِمْيَرَ القديمة ومساندها الدّهريّة، فربّما نقل الاسم علىٰ لفظ القُدْمان من حمير...، فما أخذته عنه ما أثبتّه في كتابي هذا من أنساب بني الـهَمَيْسَع بن حمير وعدّة الأذواء، وبعض ما يتبع ذلك من أمثال حِمْيَر وحِكمها، إلّا ما أخذته عن رجال حِمْيَر وكَهْلَان من سجلّ خولانَ القديم بصَعْدة، وعن علماء صنعاء وصَعْدَة ونَجران والجوف وخَيوان، وما خبّرني به الآباء والأسلاف»[2].

واتّكاءً علىٰ ما سلف، فإنّ أنساب خولان في غير الإكليل ليست إلا بتراً مُخِلًّا لا يُعْتَدُّ به؛ ولهذا سَيُعَوَّلُ التّعويل كلّه علىٰ ما جاء به الهمدانيُّ من أنسابهم، وعلى من نقل عنه من علماء الأنساب أو حذا حذوه في اقتفاء أثره، مع عِرَاض ذلك ما أمكن بما ساقه علماء الأنساب الذين تَشَكّىٰ منهم الهمدانيّ نفسه. وسأضرب صفحاً عن القول في هذه المشكلة لسببين؛ هما:

الأول: بَسْطُ د. شفيق البيطار القولَ في الخلاف في نسب قضاعة، وإفراده مبحثاً عميقاً عالج فيه

(1) حِنْدِس: الظُّلمة، وقيل: اللّيل الشديد الظلمة. طخياء: الظلمة الشَّديدة.

(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 3-5، المطبوع 1/ 83-89». يندرج كلام الهمداني علىٰ كل ما لملمه من أنساب حمير وخولان وهمدان (صقعه اليماني).

المشكلة، معتمداً في مذهبه الذي انتهىٰ إليه علىٰ أدلّة دامغة؛ إذ انتهى إلى نتيجة فحواها أنَّ قضاعة معدِّيونَ[1]. وقضاعة ـ إذا ما أردنا القول ـ تعدل نصف العرب في نسب بطونها الصّحيح، ولا قدرة لأحدٍ بمناوشتها؛ فهي في قبائل العرب «أكثر من ربيعة ومضـر عدداً»[2].

الثاني: بَسْطُ الهمدانيّ باباً نادراً من كتابه الإكليل للحديث عن هذا الخلاف، وَسَمَه بـ(باب تصحيح نسب قضاعة)، ذهب فيه إلىٰ أنَّ قضاعة حميريَّة، وليس لِـمعَدٍّ فيها نصيب، وأنَّه لم يرضَ من قضاعة النّسب إلىٰ مَعَدٍّ إلّا طالب مالٍ أو ساعٍ إلىٰ جاه أو سلطان[3]، إلاَّ أنَّ د. شفيق البيطار ذهب إلى خلاف ذلك، متكئاً في مذهبه علىٰ أدلّة دامغة، علىٰ أنّه لم يتسنَّ له حينما جمع أشعار كلب بن وبرة الوقوفُ علىٰ كلام الهمدانيّ في الإكليل.

أمّا المشكلة الثالثة: فهي الخلاف في نسب خولان، وهو خلاف كبيرٌ جرمه، عظيمٌ شأنه، فهل خولان قضاعيّة أم كهلانيّة أم مذحجيّة؟ وما فعله النَّسّابة من إلحاق خولان بقبائل عربيّة وجُذَمٍ لا تنتمي إليها صلبيةً؛ فتارة تكون في كهلان ـ وعليه درج معظم علماء النّسب من دون أن يوضحوا سبب هذا الإلحاق بأرومة القحطانيّة ـ وتارة تكون في مَذْحِج، وهي قالَة قلَّ ذاكروها، وعزَّ شاكروها، وليس لها من الصّواب نصيبٌ، وثالثة قَرَّت في قضاعة مع أخواتها مثل بليّ وبهراء وحيدان ونهد وجرم، وهو ما درج عليه الهَمْدَانيُّ واستقام قوله فيه.

وسوف أناقش هذه الأقوال الثّلاثة، وسأقف عند رسم أسماء بطون خولان، وما اعتراها من علل التّصحيف والتّحريف، مبيِّناً الحيف الذي لحق بها، هذه القبيلة الكبيرة التي انتشـرت أخبارها في النّقوش المسنديّة التي ما تزال أرضها بكراً تحتاج إلىٰ من يجيد حرثها؛ حتَّىٰ يفيد منها الباحثون؛ ففيها ما يزيل اللَّبس، ويكشف الخطأ ويصوّبه، ويقيل العثرة التي يمكن أن تعترض الباحث في قلّة المصادر وشحوب المظانّ.

أمَّا نسب خولان وإلحاقها بمذحج أو بأحد بطونها ـ كما جاء عند عددٍ من العلماء؛ منهم ابن هشام (218هـ) الذي قال: «خولان بن عمرو بن سعد العشيرة بن مذحج»[4] ـ فهي رواية مُزْجَاةٌ عزَّ خاطبو

---

(1) انظر: ديوان بني كلب (الدّراسة) 12 ـ 31.

(2) اختيار الممتع في علم الشّعر وعمله 307، وعنه في ديوان بني كلب 2/ 675. وشعراء حمير (الدّراسة) 12.

(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 47 ـ 55، المطبوع 1/ 209 ـ 255»، وعنه في شعراء حمير (الدّراسة) 12.

(4) انظر: السّيرة النّبويّة 1/ 79، وذهب مذهَبُه ابنُ قتيبة في المعارف 106، والسّهيلّي في الرّوض الأنف 1/ 104، واليعقوبيّ في تاريخه 1/ 248، وابن سعيد الأندلسيّ في نشوة الطّرب 1/ 241، والحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق 21/ 363. وابن خلدون في تاريخه 2/ 307، وجعل ابن فضل العمري «خولان» بطناً في أرومة مذحج. مسالك الأبصار 4/ 260.

وُدِّها؛ لأنَّه لم تَنْتَمِ خولان أو أحد بطونها في يوم من الأيّام إلىٰ مَذْحِج برابطة عَصَبٍ، أو صلة قربىٰ، إلّا أنَّ بني الحارث بن كعب بن عمرو بن عُلَةَ بن جَلَد بن مَذْحِج، سكنوا أرضاً لخولان ودخلوا فيها زمناً، أو جاوروها في جزءٍ من صقعها، وهي أودية العَوْهَل الأعلىٰ، والعَوْهَل الأسفل، وحِمْض[1]، وهي أودية لخولان، يضاف إلىٰ هذه الأودية وادي السَّرِّ، وهو من أودية مخلاف ذي جُرْت وخولان الكبيرة التي نزلها رهط ابن الرَّوية المذحجيّ وافترشها أرضاً له إلىٰ جوار خولان، وآل ذي جُرْت بن يكلىٰ بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد، اللذين يقطنان فيه[2].

واتكاءً علىٰ هذا يُرَجَّحُ لدينا أنَّ مذهب هؤلاء العلماء في إلحاق خولان بِمَذْحِج عائدٌ إلىٰ سكن بعض بطون مذحج في أصقاعٍ خولانيّة، وهو ما أدّىٰ إلىٰ إلحاق خولان بمذحج، وهنا يجدر بنا التّنبيه علىٰ أمرٍ مهم قبل أنْ يتساءل القارئ: لِـمَ لحقت خولان بمذحج، وكان من الصّواب أن تلحق مذحج بخولان؟ أقول ـ ولعلَّ في قولي ما يزيل اللّبس ـ: إنَّ مذحجاً أكثر حضوراً واشتهاراً من خولان في مصنَّفات العلماء الذين ذهبوا ذلك المذهب، وأخبارها ضربتِ الآفاق وطبّقت الأصقاع ببروز رجالاتها وشعرائها وأيّامها وعلاقاتها بغيرها من القبائل اليمانية والعدنانيّة، وهي إحدىٰ جماجم العرب المعدودة فيهم[3].

يضاف إلىٰ هذا أنّ هؤلاء العلماء الذين سلكوا هذا المذهب، ليسوا من أهل النّسب وعلمائه، ولا ممن راضوا أرضه، وتقيّلوا في فيئه، إلاّ ما يجده المرء لهم من جهودٍ عالية في ميادين علومهم.

أمّا نسب خولان وجعلها في شجرة كَهْلان ففيه من المشكلات ما يُعْيي؛ لكثرة مَنْ رَدَّدَ هذه المقالة، ولكثرة ما فيها من تصحيف وتحريف، شوَّهَا سلسلة النسب، فتغيَّرت صورتها حتّى كادت تشبه أسماء الجنِّ والسَّعالي، فقيل: خولان هو [يكلى] بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[4].

---

(1) صفة جزيرة العرب 151.

(2) الأعلاق النّفيسة 113 ـ 114، صفة جزيرة العرب 236.

(3) الدّيباج: 113. جمهرة أنساب العرب 487، وانظر: مقدّمة شعراء مذحج 7.

(4) أخبار عبيد بن شَـرِيَّة الجرهميّ 411، وفيه ورد اسم خولان (لكل) مُصَحَّفاً، النّسب الكبير 1/ 215 وفيه (فكل)، وكذا الأمر في مختصـر جمهرة النّسب 2/ 182، والسّيرة النّبويّة 1/ 78 ـ 79 وقد أسقط (مالك بن الحارث) من سلسلة النّسب، النّسب لأبي عبيد 314، الاشتقاق 380، العقد الفريد 3/ 403، الإكليل 10/ 28 «يكلىٰ»، جمهرة أنساب العرب 2/ 418 ورد فيه «فكل»، الإنباه علىٰ قبائل الرّواة 117، 138، الأنساب للسّمعانيّ 5/ 211، الرّوض الأنف 1/ 104، عجالة المبتدي: 56 وفيه «أفْكَل»، المقتضب من جمهرة النّسب 273 ـ 274، اللُّباب في تهذيب الأنساب 1/ 395 وفيه أُسْقِطَ «زيد بن يشجب»، وفيات الأعيان 2/ 511 وفيه «أفكل»، لبُّ اللُّباب في تحرير الأنساب 1/ 302، نهاية الأرب 2/

إنَّ مذهب الهمدانيّ في نسبة خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد إلىٰ كهلان بن سبأ، عائدٌ إلىٰ قوله: «أولد مرة بن أدد: الحارث... وأولد الحارث بن مرة: مالكاً وعدياً، فأولد مالك بن الحارث: عمراً ويعفرَ المعافر، وأولد عمرو بن مالك: [يكلىٰ] خولان (خولان العالية)، فأولد يكلىٰ ذا جُرْت (بطن، وهم الجُرْتِيّونَ باليمن)، وذو جُرْت وخولان هذه حِلَالٌ»[1]. ليتبينَّ لنا أنّ خولان الكهلانيّة المذكورة آنفاً هي خولان العالية التي سكنت جبال شرقي صنعاء، بعد أن كانت تقيم بمأرب بصرواح - وهو قصرٌ لهم -[2]، و«هم من أوّل الدّهر إلىٰ آخره ينتسبون إلىٰ حمير، ولا ينكرون أُخُوَّتهم من خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة بحقل صعدة ونواحيه، وإنّما قيل: خولان العالية؛ للفرق بين البلاد لا الفرق بين النسب؛ كما يقال في أزد شنوءة، وأزد عمان، ولا إشكال في أنّ الجميع من الأزد»[3].

ونلاحظ هذا النّسب عند ابن الكلبيّ (204هـ)، ومن قبله عند عبيد بن شَرِيَّة الجُرْهُمِي (67هـ) في أخباره[4]. ويظهر من خلال ما وقف عليه أحد الباحثين في أصل التّسمية التي لم يكشف عن سبب إلحاق خولان بنسب كهلان بصورة واضحة[5]، طغيانُ الكهلانيّة علىٰ قبائل اليمن في معظمها، وانتسابها فيها، ولا سيّما أنّ خولان قضاعيّة فرّت من تهامة مع أخواتها إثر حرب ضروس شتَّتْ بطونَ قضاعةَ (بليّ وبَهْرَاء وخَوْلَان) التي حطَّ بها الرّحل في مأرب[6]. فانتساب القبائل التي سكنت الصّقع اليماني - مثل: مذحج وهمدان وطَيِّئ - إلىٰ كهلان أثّر في جعل خولان في عداد تلك القبائل؛

286، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب 231، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة 1/ 365، المستدرك علىٰ أنساب الأشراف 16/ 252، الموسوعة اليمنية (المجلّد الثّاني) 1277، قلائد الجمان في التّعريف بقبائل عرب الزمان 101، سبائك الذهب 68، وقد نبّه الشيخ محمود شاكر علىٰ الآفات التي ابتُلي بها كتاب التّيجان وبذيله أخبار عبيد بن شَرِيَّة؛ فقال وهو يتكلّم علىٰ قصيدة ابن أخت تأبّط شرّاً: «وكتاب التّيجان فيه آفاتٌ عظيمةٌ، وأخباره لا يطمئن إليها أحد من أهل العلم، والشّعر الذي فيه خليطٌ فاسدٌ جدًّا...» نمط صعب ونمط مخيف: 53. وقوله: «فاسدٌ جدًّا» سيتبين في بيتين سنأتي عليهما لعبيد بن شَرِيَّة ساقهما لشاعرٍ، وقد أُتخما تصحيفاً وتحريفاً.

(1) الإكليل 10/ 28. وجاء في حاشية المحقّق: «لفظ (حلال) يستعمل في اليمن إلى يومنا هذا للاختلاط والتجاور. والواقع أنّ خولان وسنحان - وفيها ذو جُرْت - متجاورتان مختلطتان في حدودهما قديماً وحديثاً».

(2) انظر: صفة جزيرة العرب 235، شمس العلوم 7/ 4724، وعنهما في خولان الأرض والقبيلة (رسالة ماجستير قدمت في جامعة صنعاء في قسم الآثار) 59.

(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 60، المطبوع 1/ 280».

(4) انظر: النّسب الكبير 1/ 215، وأخبار عبيد بن شريّة 411، ولاحظ تصحيف الاسم عند الأول (فكل)، والثاني (لكل)، الذي هو (يكلىٰ) عند الهمداني، وهو ما درج عليه غيرهم في الحاشية المسوقة آنفاً.

(5) خولان الأرض والقبيلة: 47 وما بعدها.

(6) انظر: معجم ما استعجم (المقدّمة) 27.

لأنّها نزلت أرضاً قريبة من أصقاع كهلان حتىٰ عُدَّت فيها، وهذا كان ديدن الهمدانيّ الذي ألحق عدداً من بطون خولان بحمير لمجاورتها لها، أو افتراشها أرضاً هي من أملاكها، من ذلك ما نجده في بيتين أنشدهما عبيد بن شَـرِيَّة الجُرْهُمِي في حضـرة معاوية بن أبي سفيان لِتُبَّع بن ملكي كرب المشهور بأسعد أبي كرب يذكر خولان؛ يقول:

وخَــوْلَانُ سَـحْـمَـانُـهـا والــرَّدَاعُ   يَـشُـبُّـونَ إِيْـقَـادَهَـا بـالـلَّـهَـبْ

لِـعَـمْـرِو أَبِـيْـهِـمُ عَـقْـدُ الـلِّـواءِ   إِذَا رَامَ دَاهِـيَــةً لـم يَـهَـبْ[1]

إنَّ أَوَّلَ ما يستوقفُ المرءَ في هذين البيتين قولهُ: (وخولان سحمانها والرَّداع)، البطنان اللذان نبَّه عليهما ابن الكلبيّ في قوله: «فإذا سألت الخولانيّ من أهل اليمن، قال: أنا من آل ذي سُحَيْمٍ، أو آل ذي رَدَاع، أو بني سعد بن خولان»[2]، التي ينسبها الهمداني إلىٰ قحطان ويجعلها فيهم، ناقلًا عن أحد السِّجلَّات المهمّة قائلاً: «أولد قحطان بن هود أربعة وعشـرين رجلاً؛ وهم يعرب... وخَوْلَانُ رَدَاع التي في القفاعة»[3].

وهنا يمكن بنظرة عجلىٰ ملاحظة التّصحيف الواقع علىٰ أسماء الأمكنة: الذِّرَاع، رُدَاغ، رَدَاع[4]، وهي مكان واحد؛ وهو رَدَاع، مخلاف مستقل واقع بين رُعَيْن ونجد مَذْحِج، يسكنه خليط من بعض حمير، وخولان، وبلحارث بن كعب، وعَنْس المذحجيّين، ويكتنفه في باديته الرّبيعيّون، والزّياديّون من مذحج، وبنو حُبَيْش من زُبَيْد[5].

ثمّ إنَّ مخلاف رَدَاع وثَات مُتَدَاخَلٌ بين بعض بطون حِمْيَر ومَذْحِج وخَوْلَان[6] التي ألحقت باسم المخلاف نسبةً إليه؛ لأنّها نزلت فيه، وافترشته أرضاً لها.

ونجد كياناً خولانيًّا آخر يحمل النّسبة إلىٰ رَدَاع التي ارتبطت بخولان الكائنة في القفاعة[7] هو

---

(1) أخبار عبيد بن شَـرِيَّة الجرهميّ: 488، وانظر: «خولان سحيم» في المسالك والممالك 137، 148، 192، والخراج وصناعة الكتابة 86، وجاء في البيت الأول «وخولان.... والذِّراع» تصحيف. لم يهب: لم يخف.

(2) النّسب الكبير 1/ 217، وفيه (رِدَاغ) تصحيف. المسالك والممالك 137، 148، 192، الخراج وصناعة الكتابة 86.

(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 46، المطبوع 1/ 204 ـ 205» ونحو هذا في المسالك والممالك: 138، 141، معجم البلدان 3/ 39، البلدان لليعقوبي 319 ـ 320، أحسن التّقاسيم: 91.

(4) انظر: المسالك والممالك 138، أحسن التّقاسيم 89، البلدان اليمانية عند ياقوت الحمَوي 127 ـ 128.

(5) صفة جزيرة العرب 81، 220.

(6) انظر: الإكليل 2/ 51 ـ 52، 283، صفة جزيرة العرب 180 ـ 181.

(7) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 46، المطبوع 1/ 204 ـ 205».

نفسه؛ رَدِيعَةُ بن القَفَاعَة بن عبد شمس[1].

والقَفَاعَةُ مخلافٌ واسعٌ يُستخرج منه الذَّهَب، ويسكنه بطن الأُجْدُود من خولان[2]، وهذا ما أكده علماء البلدان[3]، بخلاف ما ذهب إليه ابن الكلبيّ الذي يجعل القَفَاعة من قبائل ذي الكَلَاع الحميريّ قائلاً: «وقبائل ذي الكَلَاع: نَجْلَان، والأَشْـرُوع، وعزية، وعُنَّة، ويُكَالِم، وبَكِيل، وبَهِيل، وزُلْجَم، والقَفَاعة، وذو ساح، وزِيمَان، وعَزْوَان، وبَعْدَان، والحَبَائِر...»[4]. والقفاعة هذه هي نفسها التي ارتبطت بخولان رداع الكائنة في القَفَاعة؛ وفقاً لما يورده الهمدانيُّ في سلسلة نسب ولد الهَمَيْسع بن حمير، ليتبيّن لنا اقتران أسماء الأعلام بالأمكنة، والنّاظر في مصنَّفات البلدان يجد كثيراً من البلدان قد سُمِّيَتْ بأسماء أعلام؛ لسكناهم فيها.

ونقف أيضاً علىٰ كيانٍ خولانيٍّ آخر يحمل النّسبة إلىٰ رَدَاع التي يقول عنها الهمدانيّ: «خولان رداع، وهم بتهامة»[5]، التي كانت وطناً لبعض البطون والأفخاذ الخولانيّة علىٰ طول أودية زُبَيْد ورَمْع وما بينهما، وخصوصاً باتجاه الشّمال إلىٰ سـردد[6]، التي تملَّكَ بها بنو حَيٍّ، وشادوا ملكاً عظيماً[7].

وقد أفصحت المصنَّفات المتأخّرة عن عصـر الهمدانيّ عن الوجود الخولانيّ في تلك الأصقاع[8]، علىٰ أنَّ ذلك الإفصاح لم يكن تأريخاً لبداية وجودهم؛ بدليل ما حكاه الهمدانيّ في عصـره عن بني حيّ بن خولان وإقامتهم ملكاً في جُبْلَان؛ وهذا ما يوحي بعمقٍ زمنيٍّ لوجودهم في ذلك الصّقع.

ونجد بعض خولان يجتمع فيما تجمَّع منه الأوزاع الذي ينتمي إلىٰ الـهَمَيْسع بن حمير، وهم في اليمن في ناحية ذَمَار الـمَخْدَر حيث التقت بطون مُقْرَىٰ، وعَنْس، وحِمْيَر، وأَلْهَان، وخَوْلَان، والتَّوحَم

---

(1) انظر: الإكليل 2/ 107.

(2) انظر: صفة جزيرة العرب 99، 117، 130، 250.

(3) انظر: المسالك والممالك: 141، البلدان لليعقوبي: 318، صفة جزيرة العرب: 99، أحسن التّقاسيم: 91.

(4) النّسب الكبير 2/ 549.

(5) الإكليل 2/ 369.

(6) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 86، 93، المطبوع 1/ 365ـ366، 385»، وصفة جزيرة العرب 125، 146، 239، 250، 348، 222.

(7) انظر: صفة جزيرة العرب 222 ـ 223، وفيها (جُبْلان العُرْكُبَة) الذي يشمل منطقة (وَصَاب) وفيها بلد (عُمْتَة)، انظر: رسم (جُبْلَان) في معجم أسماء مواضع خولان الذي ذيّلت به الدراسة.

(8) انظر: المفيد في أخبار صنعاء وزبيد 186، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي 115، السلوك في طبقات العلماء والملوك 2/ 291، 298، خولان الأرض والقبيلة 47 وما بعدها.

بن وائل[1]، وتتداخل ذمَار الـمَخْدَر في بعض أجزائها مع مخلاف رداع الذي يسكنه خَلِيطٌ قبليٌّ تُشَكِّلُ خولان جزءاً كبيراً منه[2]. ويلاحظ لدىٰ الهمدانّي انتساب بعض خولان أيضاً إلىٰ مالك بن زيد بن سدد بن زُرْعَة بن سبأ الأصغر ـ وهو حمير الأصغر ـ الذي يعدّه الأبرهيّ ـ وهو أحد علماء النّسب ـ الأوزاعَ نفسه الذي سبق الحديث عنه آنفاً.

إنّه لمن الصَّعب علىٰ ذي الـجَهْد أن يتبيَّن حقيقةَ الخلاف الواقع في سلاسل نسبِ خَوْلَان، ولا سيَّما حين لا يوجد دليلٌ دامغٌ علىٰ نسبتها إلىٰ مالك بن زيد بن سدد بن زرعة، سوىٰ الهمدانيّ نفسه الذي سمع هذا النّسب من الخولانيّـين أنفسـهم، من غير أن يبيّـنوا سبـب هذا الانتساب إلىٰ مالك بن زيد بن سدَدَ بن زُرْعَة[3]. وهنا ننبّه علىٰ أمرٍ مهمٍّ؛ وهو أنّه لا علاقة لمالك بن زيد بن سَدَد بن زُرْعَة بالأوزاع، إلا فيما ينصّ عليه الهمدانيّ مِنْ أن الأبرهيّ يَعُدُّ مالك بن زيد هو الأوزاع، وهو رأيٌ يرفضه الهمدانيّ نفسه الذي نفىٰ علاقة مالك بالأوزاع، وجعلها في ابن أخيه (يزيد) من غير أن يأتي علىٰ ذكرِ لخولان البتّة[4].

ومن النَّسَّابة من يجعل خولان في نسل عمرو بن مالك بن سهل بن زيد، وهو نسب سمعه الهمدانيُّ من أبي نصـر الحَنْبَصـيّ اليهريّ[5] ـ وهو أحدُ ورثةِ السِّجلِّ القديم ـ من دون أن يحدّد لنا أدنىٰ علاقة بالأوزاع، الكائنة في رَدَاع مَعْقِل خولان، يضاف إلىٰ هذا أنَّ الهمدانيَّ نفسه يسوق نسب خولان بن مالك بن سَهْل بن زيد من غير أنْ يدرجه في الأَوْزَاع[6].

في حين لا نجده يكرّر نسب خَوْلَان بن ذي أَصْبَح[7]، الذي ينتمي إلىٰ الأَصَابِح الذين كانوا ملوكاً في تِهَامَةَ، ممثلين بالقَيْل أَبْرَهَةَ بنِ الصَّبَّاح[8]. وتتكشّف العلاقة وتتوضّح بين خولان وحمير بالرّسالة التي بعثها النّبيّ محمّد في مطلع القرن الأوّل الهجريّ إلىٰ معدي كرب بنِ أَبْرَهَةَ بنِ الصَّباح[9]: «بأنّ له

(1) الإكليل 2/ 233 ـ 235 وجاء فيه أيضاً: «وهم علىٰ ما يذكر بدمشق أو ببعض الشّام مدينة تسمىٰ الأوزاع».
(2) انظر: صفة جزيرة العرب 79 ـ 80، 224 ـ 225.
(3) انظر: الإكليل 2/ 165.
(4) انظر: الإكليل 2/ 165.
(5) انظر: الإكليل 2/ 166.
(6) انظر: الإكليل 2/ 166، 335.
(7) انظر: الإكليل 2/ 166.
(8) انظر: الإكليل 2/ 151 ـ 163، النّسب الكبير 2/ 542 ـ 543، العقد الفريد 3/ 370.
(9) انظر: الإكليل 2/ 155.

ما أسلم عليه من أرض خَوْلَانَ»[1].

ليتبيَّن لنا دخول خولان في إحدىٰ بطون حمير، ورئاسة الأخيرة لها، حتَّىٰ إن بطناً من بني الصَّباح كان يقيم في جُبَلان التي افترشها بعض خولان أرضاً له[2].

واتّكاءً علىٰ ما سلف يمكن القول في دعةٍ وطمأنينةٍ: إنَّ خَوْلَانَ رَدَاع المستقرّة في تِهَامَةَ، وخولان الدّاخلة في الأَوْزَاع، مرتبطتان بنسب واحد، خاصٍّ بولد الـهَمَيْسَع بن حِمْيَر.

ويَذْكُرُ ابنُ خُرْدَاذبَه مخلاف خولان في ظَهْرِ صَنْعَاء[3] الذي يتداخل مع حَضُور بالأودية التي تصل بين الصّقعين، ولعلّ إلحاق خولان بنسب المقدم بن حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سَدَد بن زُرْعَة، عائدٌ إلىٰ ذلك الموضع الذي تُسَمّىٰ ذروته ببيت خَوْلَان[4].

أمّا مجيْء خولان في نسب سخيم بن يَدَاع بن ذي حَوْلَان بن عمرو بن مالك بن سهل[5] برواية يتيمة لأبي نصر الحَنْبَصِيّ اليهريّ، فيأتي في موضع آخر هو نفسه خولان بن عمرو بن مالك بن سهل، بإعجام الحاء في (خولان) من غير أن تسبقه (ذي)[6]، ولعلّ هذا عائدٌ إلى علاقة خولان صعدة بالسّخيميين التي تميط اللّثام عنها بعض النّقوش المسنديّة القديمة، وبعض ما ذهب إليه الهمدانيُّ في

---

(1) مجموعة الوثائق السّياسيّة في العهد النّبويّ والخلافة الرّاشدة: 119.

(2) انظر: الإكليل 2/ 160.

(3) المسالك والممالك 142.

(4) انظر: الإكليل 2/ 260، وحَضُور علىٰ زنة (فَعُول): موضع باليمن، أو جبل شامخ في بني مَطَر غربي صنعاء، سُمِّي بحضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زَرْعة بن حمير بن سبأ الأصغر، وهو المعروف بجبل شُعَيب بن ذي مِهْدَم النّبيّ، وليس بشُعَيْب موسىٰ، بعثه الله إلىٰ أهل حَضُور، فقتلوه، فسلّط الله عليهم بُخْت نَصَّـر، وهو الذي ذكره الله في محكم تنزيله: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: 12ـ15]. وهو من الجبال المقدّسة في اليمن، ويقول البكريّ في معجمه: «كُفِّن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثَوْبَيْنِ حضوريّين، ويروى: سحوليّين.... وهو جبل كثير البركة»، وجاء عن عائشة قولها: «كُفِّن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيّة من كُرْسُفٍ، ليس فيها قميص ولا عمامة» صحيح مسلم (برقم 2179). وقال السُّهَيْلِيُّ: لما قصد بُخْتَ نَصَّـر بلاد العرب ودوَّخها وخرّب المعمور، استأصل أهل حضوراء، هكذا رواها بالألف. معجم ما استعجم 2/ 455، معجم البلدان 2/ 272، ونحوه في نشـر المحاسن اليمانيّة 99، معجم البلدان والقبائل اليمانية 1/ 479.

(5) انظر: الإكليل 2/ 335، 354.

(6) انظر: الإكليل 2/ 166. ولم أجد ما يسوّغ هذا الاختلاف بين الإعجام وعدمه وإضافة (ذي) في النّسب الأوّل وعدمه في الثّاني إلاّ التّصحيف.

أثناء سرد نسب بني مالك بن سهل بن زيد بن عمرو بن قيس بن معاوية الحميريّ[1].

ولا بدَّ من التّنويه بأمرٍ مهم ههنا؛ وهو أنَّ نفراً من بني الصَّبَّاح من نسل الهَمَيْسَعِ بنِ حِمْيَر كانوا يسكنون صنعاء، وليس فيها من العرب غيرُهُم، وغير آل كُثَيِّر بن شهاب بن عبد الملك بن رَدَاع الخولانيّ[2]، وذلك وفق خولانيّتهم المشار إليها عند الهمدانيّ؛ إذ ينتسبون إلىٰ أبٍ اختُلِف في أرومته التي انحدر منها، إلا أنّه لاذَ بظلِّ بني خولان واحتبىٰ بفنائهم، فَعُدَّ بطناً من بطونهم المشار إليها بالبنان في الأيّام والوقعات[3].

واتّكاءً علىٰ ما تقدّم يمكن القول: إن انتساب خولان إلىٰ غير بطنٍ وغير جِذْمٍ في اليمانيَّة عائدٌ إلىٰ نزول ذلك البطن الخولانيّ في حِباء الذين ألحقوا في أرومتهم وأصلهم، وإنْ لم يكونوا قد اتّصلوا بتلك الأرومة صلبيةً، وهذا ما حدث لبني شهاب بن العاقل بن ربيعة بن وهب الكِنديّ الذين أُلحِقُوا ببني خولان؛ لنزولهم عليهم في صقعهم، ومجاورتهم لهم، ومشاركتهم في حياتهم حلوِها ومُرِّهَا.

أمّا نسب خولان في قضاعة فهو خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة[4]، التي يذكر الهمدانيّ أنّه وقف علىٰ أنسابها ومَشْجَرَة بطونها ـ وهو الذي انتهت إليه مصنَّفات الأنساب بكلّيّتها ـ يقول: «قد ذكرنا قبائل قضاعة ذكراً مجملاً ـ لشهرتها عند النّاس، ووقوف العامّة عليها، واستعمالهم لها، وعمران قلوبهم بها وأسماعهم ـ سوىٰ خولان، فإنّنا رأينا أن نُشْبعَ القولَ فيها؛ لتلحق في التَّشْجِيْرِ والتّعريف بباقي إخوتها من قضاعة، ونحرص أن نأتي من ذلك مما يعرفه أهل نجد، وبعض أهل الحجاز، وكافّة

---

(1) انظر: خولان الأرض والقبيلة: 55، الإكليل2/ 335.

(2) انظر: النّسب الكبير 1/ 216 وفيه «شهاب بن عبد الله بن عبد الملك بن غَيْلَان»، وانظر: الجزء الثّاني منه 2/ 543، والإكليل: «المخطوط 1/ 140 ـ 141، المطبوع 1/ 525 ـ 528».

(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 119، المطبوع 1/ 455».

(4) انظر: النّسب الكبير 2/ 700، مختصر جمهرة النّسب 2/ 184، السّيرة النّبويّة 1/ 78، الإكليل: «المخطوط 1/ 57، 60، المطبوع 1/ 263 ـ 264، 274، 275»، صفة جزيرة العرب 239، المؤتلف والمختلف للدَّارَقطْنِيِّ 1/ 323، التّعليقات والنّوادر 4/ 1774، معجم ما استعجم 1/ 51 الأنساب للسّمعانيّ 5/ 211، شمس العلوم 3/ 1951، الرّوض الأنف 1/ 104، معجم البلدان 2/ 407، 5/ 69، اللُّباب في تهذيب الأنساب 1/ 395، التّعريف بالأنساب والتّنويه لذوي الأحساب 315، 319، 329، طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب 13 ـ 14، قرّة العيون بأخبار البلد الميمون 216، لبّ اللُّباب في تحرير الأنساب 1/ 302، تاريخ دمشق 21/ 363، تاج العروس (رزح، خول)، الأعلام 2/ 325، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1/ 368، المستدرَك علىٰ أنساب الأشراف 16/ 265 ـ 266، الأصول اليمنيّة في القبائل العربيّة ورجالها: 129، يضاف إلىٰ ما سلف أنّ د. مقبل الأحمديّ ـ الذي وقف علىٰ مدوَّنة النّقوش الحميريّة والسبئية Corrsinscripionum، وكانت واحدة من مصادره في دراسته لشعراء حمير الذين جمع شعرهم في سفرين ضخمين ـ أفادني غير مرة بأنّه قرأ فيها أنَّ خولان ينتسب إلىٰ عمرو بن إلحاف بن قضاعة.

أهل اليمن ونجران، ومن يبلغه رحلتهم ويبلغهم رحلته، ولو كانت صعدة في القديم من البلدان التي رحل إليها أصحاب الحديث، لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء، فهذه الآن بطونها على ما روىٰ خولان وحمير بصعدة، وقد سكنتُ بها عشرين سنة، فأطْلَلْتُ علىٰ أخبار خولان وأنسابها ورجالها كما أطْلَلْتُ علىٰ بطن راحتي، وقرأت بها سجلّ محمّد بن أبان الخنفريّ، المتوارَث من الجاهليّة، فمن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب، ومنها ما دخل في كتاب الأيّام»[1].

وسوف أسوق بعض الأدلة والأخبار التي تؤكد انتسابَ خولان في قضاعة وانتماءَها لأرومتها: فمن أولىٰ هذه الأدلّة أنَّ نقشاً مُسْنَدِيًّا قديماً اكْتُشِفَ في منطقة جبل اللَّوذ، ينصّ على ذكرِ لخولان العالية (الطِّيال) تحت مُسمَّىٰ «خولان أقظوعم» بالظَّاء وليس بالضَّاد، مع ما هو جائز من الإبدال اللُّغويّ بين الحرفين، وأَقْظَوُعُم صيغة جمعٍ يمانيَّةٌ قديمة زنة «أَفْعُول» من النّسبة إلىٰ «قُظَاعَة»؛ أي: قضاعة في المصادر العربيّة والإسلاميّة[2].

ومن الأخبار التي تؤيّد انتساب خولان إلىٰ قضاعة: الحرب التي نشبت بين أولاد معدّ بن عدنان في تهامة؛ بسبب قتل خَزِيمةَ بن نَهْدٍ القُضَاعيّ ليَذْكُرَ بنِ عَنَزَةَ أحدِ بني ربيعة بن نزار بن مَعَدٍّ في خبر لهم. فكانت تلك أوّل حرب وقعت بين بني معد، فقُهِرَتْ قضاعة، وأُجلوا عن منازلهم، فسارت بليٌّ وبَهْراءُ وخَوْلَانُ ومَهْرَةُ بنُ حَيْدَان ومن لحق بهم إلىٰ بلاد اليمن، فوغلوا فيها حتّىٰ نزلوا مأرب، أرض سبأ بعد افتراق الأزد منها[3].

ثم نزلت خولان بعد ذلك مخلافها الذي سُمِّيَ باسمها، إثرَ حربٍ دارت رحاها بين أخواتها بليّ وبهراء[4]، ولعلّ في هذا الخبر ما يدلّ علىٰ أنّ خولان قُضَاعيَّةٌ رحلت إلىٰ اليمن بسبب ما ذكرناه من أمر الحرب السّالفة.

ومن الأخبار أيضاً التي تؤيد ما نذهب إليه: أنّ عمرو بن زيد ـ مغرق الأكبر ـ الخولانيّ (وأمُّهُ أخت الحارث بن عُبَاد اليشكريّ)، كان قائد جموع قضاعة اليمن يوم هَزَمَتْ قبائل ربيعة بن نزار وأخرجتها عن تهامة في الجاهليّة[5]. وهو الذي شارك في يوم خزازىٰ أيضاً؛ وفي هذا يقول علماء خولان: «كان

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 60، المطبوع 1/ 274 ـ 275».
(2) انظر: خولان الأرض والقبيلة: 78، واللّغة اليمنيّة القديمة 80.
(3) انظر: معجم ما استعجم (المقدمة): 17 ـ 27، ونحو هذا في معجم البلدان 2/ 114، 5/ 37.
(4) انظر: المصدر نفسه (المقدّمة) 27.
(5) انظر: الإكليل «المخطوط 1/ 67، المطبوع 1/ 299».

عمرو بن زيد شهد يوم خزازىٰ[1] في قضاعة، فحسن أثره في بني شيبان، ونال منها، وأَسَـرَ يومئذٍ عَمْرُو بن زيدٍ بغيضَ بن عنز بن أسود بن أسلم، فمنَّ عليه بنفسهِ، وفيه يقول الحارث ابن هَمَّام بن مُرَّة بن ذُهْل بن شَيْبَان:

تَـدِيـنُ لـهُ الـقَـبَـائِـلُ مِـنْ مَـعَـدٍّ   كَـمَـا دَانَـتْ قُـضَـاعَـةُ لابـنِ زَيْـدِ

وأراد بابن زيد: عمرو بن زيد ـ مغرق الأكبر ـ الخولاني. وقال عمرو بن زيد يوم خزازىٰ:

كَـانَـتْ لَنَا بِـخَـزَازىٰ وَقْـعَـةٌ عَجَبٌ   لَـمَّا التقَيْنَا وحَادِي المَوتِ يَحْدِيْهَا»[2]

وهو الذي قاد يوم الحِنْو، يوم قُتِلَ فيه عتّابٌ جَدُّ عمرو بن كلثوم التّغلبيّ، وقُتِلَ معه حاطب بن حِلِّزة اليشكريّ، سَيِّدِ بكر بن وائل[3].

ومن تلك الأخبار أيضاً ما قام به حُجْر بن سعد بن عمرو بن زيد ـ مغرق الأكبر ـ في صدر الإسلام من حرب مَذْحِج، حينئذٍ أجمعت قضاعة علىٰ قيادته لها، وهو الذي قُتِل بحرب هَوَازِن وسُلَيْم، وفيه يقول العَبَّاس بنُ مِرْدَاس السُّلميّ:

واسـأَلُـوا سَـيِّـد الـفَـرِيـقَـيْـنِ حُـجْـراً   يَـومَ سَـارَتْ جُمُوعُنَا باحْتِفَالِ:[4]

مَـنْ رَمَـاهُ عـلىٰ الـفُـؤَادِ بِسهمٍ   فَتَقَتْ عَنْهُ مُحْكَمَ السِّـرْبَالِ؟[5]

ومما يُستأْنَس به من الأخبار التي تدلّ علىٰ قضاعية خَوْلَان أيضاً: زعامة عمرو بن حجر بن سعد المالكيّ الخولانيّ لقضاعة اليمن في عهد الدّولة الإسلاميّة، وفيه يقول الهمدانيُّ: «وهو الذي قام برئاسة أبيه [الذي كان سَيِّداً من قبله]، وانقادت له قضاعة اليمن بالطَّاعة، وكان سَيِّداً...»[6]. وهو القائل مفاخراً:

---

(1) خزازىٰ ـ وخزاز لغة أيضاً ـ: جبل كانت العرب تُوقِد عليه غداة الغارة. اللسان (خزز). وانظر خَبر هذا اليوم في مبحث علاقات خولان مع القبائل اليمانية؛ ففيه أفاض الباحث ما يكشف خبره.

(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 67 ـ 68، المطبوع 1/ 301» وفيه: «يومئذٍ عمرو بن يزيد، بفيض بن عنز...» تصحيف. وانظر: الديوان: ق6/ ب1.

(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 67، المطبوع 1/ 300».

(4) احتفال: يريد جموعاً كثيرة محتشدة.

(5) ديوان العباس بن مرداس السّلميّ 134، والإكليل: «المخطوط 1/ 69، المطبوع 1/ 307».

(6) المصدر نفسه: «المخطوط 1/ 69، المطبوع 1/ 309».

أليسَ أبونا قادَ لِلْحِنْوِ جَمْعَهُ فَفَازَ بعتَّابٍ وعلّى بِحَاطِبِ؟![1]

ومنها أيضاً حرب خولان التي ذكرها عَقِيلُ بنُ مَسعودٍ الكلبيُّ بقوله:

مُعَاوِيَ إنّي قد ذهبتُ بِوَسْمَةٍ مِنِ أَبْنِكَ في وَجْهِي وَلَيْسَ تَغِيبُ[2]

فإنْ غابَ يوماً كُنْتَ أنتَ مكانَهُ وسَوْفَ تَرَاني يومَ ذاكَ أَلُوبُ[3]

وهي حربٌ كانتْ في الجاهليّة بَيْنَ مَنْ كان باليمن من خَوْلَان ونَهْد وجَرْم وكَلْب ـ وكلُّها من قضاعة ـ وبين هَمْدَان، وفيها طُعِنَ عَقِيلُ بنُ مَسْعُودٍ سَيِّد قضاعة، وخُرِمَ أَنْفُهُ، وقُتِلَ فيها ابنه مسعود بن عقيل، فَقَتَلَ الرَّبيعُ بنُ عَقِيلٍ به عَمْرَو بن مالك بن مَلَالة بن أَرْحَب بن الدِّعام الأصغر الهمدانيّ[4].

وقريب ممّا سقناه من أمر الحرب السّالفة، ما ذكره الهمدانيُّ أيضاً في الحرب التي دارت رحاها بين مَنْ كان باليمن من قضاعة وبطون قَيْس عَيْلَان، بادئاً بتفسير بيت للعبَّاس بن مِرْدَاس القائل فيه:

«وإنْ أدعُ يوماً في قُضَاعَةَ تَأْتِني شَآبِيبُ بَحْرٍ ذي غَوَارِبَ مُزْبِدِ

[فقال]: وإنّما معنىٰ قول عبّاس: وإن أدع يوماً في قضاعة، يريد استنجادهم بهم لمحلالهم من بهراء وجهينة؛ إذ الدار بالدار، وإنّ زبيداً لا يغشاهم من (تثليث) إلا تَبِيعٌ، فلا تسمحُ جهينةُ ولا بهراءُ بوطءِ بلد لهم أكثرُهُ ولسُلَيْمٍ أقلّه، كما لم تسمح خَوْلَان ونَهْد وجَرْم وهم مقابلون لزبيد بالـ (مَنْشَرِ) مقابلة الحرب بأن تطأ هوازن وسُلَيم ديار زبيد، وقد أتت الجميعَ النّذيرةُ ساعتئذٍ وهم علىٰ أشدّ ما كانوا من القتال، فاختلطت خولان ونهد وجرم بمذحج في موقفهم ذلك، وسار الجميع في لقاء هَوَازِنَ وبني سُلَيْم، ومنها وقعت الحرب بين قُضَاعَةِ اليمن وبين بطون قَيْس»[5].

ومنها أيضاً قالةُ الـمُثَلَّمِ بنِ قُرْطٍ البلويّ في أُخُوَّةِ خولان وبليّ وبهراء يوم نزلوا مأرب ـ أرض سبأ ـ بعد خروج الأزد منها؛ يقول:

---

(1) انظر: الديوان ق55/ ب4.

(2) الوَسْمَةُ: الواحدة من الوَسْم؛ وقد وَسَمهُ وسماً وسِمَةً: إذا أثّر فيه بِسِمَةٍ وكيٍّ كما تُوْسَمُ الإبلُ.

(3) لاب يَلوب: حام حول الماء من العطش، على التّشبيه؛ أي: عطش إلى دم عَدُوِّه.

(4) انظر: الإكليل 10: 124 ـ 125 و140 ـ 143 و160 ـ 164.

(5) الإكليل: «المخطوط 1/ 55 ـ 56، المطبوع 1/ 249 ـ 250» وفيه: «...بهم لحلالهم.... إلا بتبيع.... كما تسمح خولان ونهد وجرم...» تحريفٌ، وإسقاط (لم) قبل الفعل تسمّح يغيّر معنىٰ الجملة كليةً. وأسقطها المحقّق سهواً، وجاء في المخطوط: «تسمح جهينة ولا بهراء...» أسقط الناسخ «لا»؛ بدليل وجودها «لا بهراء»؛ إذ إنّ السّياق يدلّ علىٰ سقوطٍ في الأصل.

أَلـم تـرَ أنَّ الـحَـيَّ كـانـوا بِغِبْطَةٍ بِـمـأرِبَ إذ كـانـوا يَحُلُّونها مَعَا

بَـلِـيٌّ وبَـهْـرَاءٌ وخَـوْلانُ إخـوةٌ لِعَمْرو بن حـافٍ، فَـرْعِ مَنْ قد تَفَرَّعَا

أقـامَ بها خَـوْلانُ بَـعْـدَ ابـنِ أُمِّـهِ فَأَثْرَىٰ لَعَمْرِي في البِلَادِ وأَوْسَعَا[1]

وكان ذلك في العصر الأمويّ في زمن معاوية بن أبي سفيان[2]، فَدلَّ علىٰ أنّ الخولانيّين قد انتسبوا إلىٰ قضاعة مُذ كان لهم وجودٌ أوّلَ مرةٍ، ولم ينتسبوا إلىٰ غير قضاعة؛ لأسباب سياسيّة دعتهم إلىٰ الانتفاء من أرومتهم، أو غيرها من الأسباب التي نجدها عند غيرهم[3].

والرأي الذي أميل إليه هو أنَّ القوم قضاعيون؛ لأنَّ الأدلة بيَّنت أنّهم كانوا كذلك منذ قديم الجاهليّة، ولأنَّ انتساب مَنِ انتسب منهم إلىٰ بطون حمير أو إلىٰ غيرها من كهلان، لم يكن إلّا بداعي السَّكن في أصقاع تلك البطون، ومشاركة الخولانيّين لهمُ الأرض، وهذا ما أدّىٰ إلىٰ إلحاق بعض هؤلاء الخولانيّين بنسب غيرها علىٰ جوارهم لها من دون أن ينتسبوا إليها صليبةً.

أمّا وقد عُوِّل التّعويلُ كلُّه علىٰ ما جاء به الهمدانيّ من أنساب خولان، فلا بُدَّ من التّنبيه علىٰ أشهر مصادره، وَفْقاً لما ذكره في تآليفه، ومنها السِّجلّاتُ والزُّبُرُ القديمة المُتَوَارَثَةُ من الجاهليّة في اليمن؛ كسجلّ محمّد بن أبان الخنفريّ الذي ينتهي نسبه إلىٰ أيمن بن الـهَمَيْسع بن حمير[4]. وقد تُوُورِث في آل أبان وخولان وحمير وصعدة، واعتوره نُسَّاب اليمن وعلماؤها، وفيهم أبو نصر الحَنْبَصيّ اليهريّ، وابن رَقْطَةَ الصَّعديّ - بحسب ما تدلُّ عليه مادَّة هذا السِّجلّ - حتّىٰ انتهىٰ إلىٰ الهمدانيّ، فوقف عليه في أوائل القرن الرّابع الهجريّ حينما سكن بصعدة عشرين عاماً، يقول في ذلك: «وقد سكنت بها عشرين سنة، فأطللتُ علىٰ أخبار خولان وأنسابها ورجالها، كما أَطْلَلْت علىٰ بطن راحتي، وقرأتُ بها سجلَّ محمّد بن أبان الخنفريّ المُتَوَارَثَ من الجاهليّة»[5].

---

(1) النّسب الكبير 1/ 217، والإكليل: «المخطوط 1/ 49، المطبوع 14/ 213» وفيه ابن الأرقم، ومعجم ما استعجم (المقدّمة) 272، ومعجم البلدان 5/ 37 ومنتخبات في أخبار اليمن: 9.

(2) انظر: النّسب الكبير 1/ 217.

(3) انظر: مبحث الخلاف في نسب قضاعة الذي أسهب فيه د. شفيق البيطار وبسط القول، ديوان بني كلب (الدّراسة) 12 ـ 31.

(4) انظر: الإكليل 2/ 122 ـ 146، وعنه في شعراء حمير (الدّراسة) 137، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1/ 95، وعنه في (السِّجلّات والزُّبر المتوارثة من الجاهليّة في اليمن)، وهو بحث نُشِـرَ في مجمع اللُّغة العربيّة بدمشق، المجلد 82 ـ الجزء الثّاني 2007م، الصفحات 301 ـ 326.

(5) الإكليل: «المخطوط 1/ 60، المطبوع: 1/ 275».

أخذ الهمدانيُّ عن هذا السِّجلّ أشياءَ عديدةً في النَّسب؛ فكان ينصُّ تارةً علىٰ أخذه عن سجلّ محمّد بن أبان، ويكتفي تارةً أخرىٰ بالإلماح إليه بقوله: السِّجل الأوّل أو السِّجلّ القديم.

ومما وقف عليه الـهَمْدَانيُّ من مادّة هذا السِّجل مُتَعَلِّقاً بولد خولان قوله: «ومما أتىٰ به من نسب خولان عن آل أبان قالوا: أولد خولان: حي بن خولان، وإليه اللِّواء، وهو الأكبر، وسعد بن خولان، وهو الذي تملَّك بِصِرْوَاح، ورشوان بن خولان، وهو صاحب العُرَّةِ، وهانئ بن خولان، وهو صاحب المتهمين[1]، ورَازِح بن خولان، وهو صاحب دَفَا[2]، والأزمع بن خولان، وصُحار بن خولان، وهو الأصغر.

فأولد حي بن خولان سبعة نفرٍ: عديًّا ومَرْثَداً وغنماً وعمراً وشعباً وأنوفَ ومنصوراً.

وأولد سعد بن خولان ثلاثة نفرٍ: ربيعة بن سعد، وسعد بن سعد، وعمرو بن سعد، فَدَرَجَ عمرو.

وأولد رشوان بن خولان ستَّةَ نفرٍ: حرباً وسعداً وعمراً وخوليًّا ونَابِهاً ومُنَبِّهًا.

وأولد هانئ بن خولان ـ مهموز ـ خمسةَ نفرٍ: هلالاً ويعلى وعليًّا وسعداً وجامعاً.

وأولد رازح بن خولان عشرة نفرٍ: مَرْثَداً وعُوَيْضاً ويَعْلَىٰ وأتَام وبزيًّا وجُدَاداً ويَغْنَم وعَمْراً ونَدِيْداً وجَرِيراً، أنسلوا ولم يدرج منهم أحدٌ.

وأولد الأزمعُ عَشَرَةَ نفرٍ، كلُّهم أعقب؛ وهم: مُرَّان والكَرْب والأسووق وخَضِيّ وعبد الله ويعلىٰ وثابت وعمرو وعُمَير والنَّاسك، وبعض النُّسّاب يقول: شهاب بن الأزمع.

وأولد صُحَار بن خولان سبعةَ نفرٍ: حاذراً وبِشْراً وشِبْلاً وطارقاً وعامراً وعمراً وعبداً، هذا نسب خولان عن حمير صعدة»[3].

أمَّا السِّجلّ الآخر المنسوب فَسِجِلُّ خولان القديم بصعدة، الذي توارثه خلق عظيم من حِمْيَر وكَهْلَان وخَوْلَان، وصَـرَّح الهمدانيّ في إكليله بوقوفه عليه ونظره فيه[4]. ونصَّ علىٰ أخذه عن أناسٍ كانوا من ورثة هذا السِّجلّ من أهل صَعْدَة، وفي ذلك يقول: «قال ابنُ رقطةَ الصَّعديّ ـ وهو من بعض ورثة السِّجلّ ـ: إنَّ من قبله رووا عن يزيدَ بن عبد الرحمن، عن عبد الملك بن يَغْنَمَ بن سلمة بن مالك

(1) الـمُتَهِمِين: كذا رسمها في الأصل، ولم أتبينّ ما هي، ولعلّها اسم موضع بدلالة السّياق.

(2) دفا: حصنٌ مشهور باليمن لخولان، انظر: صفة جزيرة العرب 266.

(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 113 ـ 114، المطبوع 1/ 446 ـ 447».

(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 5، 57، المطبوع 1/ 89، 256».

دفا: بلد من بلاد خولان به جبل عظيم شديد الارتفاع والوعورة في قمته حصون قديمة تعود إلى ما قبل الهمداني وهو الحصن المقصود في الصفة أسم الجبل حاليا "ظهران" أو ذهران بتصحيح أهـ

بن عُمَيْر بن اللَّيث بن مالك بن أسد بن غنم بن حيّ بن خولان بن عمرو بن إلحاف، أنَّ خولان أولد: حَيّ بن خولان، وسعد بن خولان، والأَزْمَع بن خولان، وصُحَار بن خولان، وهَانِئ بن خولان، ورَازِح بن خولان، ورَشْوَان بن خولان..»[1].

ونلاحظ في كلتا الرّوايتين توافقاً في عدد الأولاد الذين مَثَّل كلٌّ منهم بطناً قائماً بذاته، بل قبيلة تحدّرت منها أفخاذٌ وشعوبٌ عُرِفَتْ في الصّقع اليمانيّ قاطبةً، حتّىٰ صارت تدلّ هي ذاتها علىٰ القبيلة الأمّ عند إطلاق الاسم؛ لكثرة أفرادها، وشهرة رجالاتها، ونباهة شعرائها؛ مثل بني عَوْفٍ، وبني حَيٍّ، وبني رَازح... إلخ.

وتجدر بنا ههنا الإشارة إلىٰ بني شهاب بن العاقل على أنّهم بطنٌ كان في عداد بطون خولان، دخلوا في القبيلة، وصارت أخبارهم جزءاً من أخبارها، أو أنّهم كانوا أحلافاً لآل الرّبيعة بن سعد بن خولان[2]. يقول الهمدانيّ في ما سبق نقله: «وبعض النسّاب يقول: شهاب بن الأزمع»[3]، وفي موضع آخر يقول: «فأولد ربيعة بن سعد [بن خولان].... حُجر بن ربيعة، وهو الذي حالف شهاب بن العاقل من كِنْدَةَ، يوم خرج حُجْر من صِرْوَاحَ، فكانا جميعاً بحقل صعدة...»[4]، وفي موضع ثالث يقول: «وقال بعضُ وَضَعَةِ السِّجل ونُسّاب الهَمَيْسَع:... وشريفة بنت الرّبيعة، وهي أمّ شهاب بن العاقل بن [ربيعة بن] وهب (بن الحارث الأكبر بن معاوية بن مرتع بن ثور وهو كندة)... فنكح شهاب بن العاقل كبشة بنت الأزمع الأصغر بن عمرو بن شمران بن عمرو بن الأزمع [بن خولان]، فولدت له عبد مالك»[5]. في حين أنَّ ياقوتاً الحمويَّ ينسب شهاب بن العاقل إلىٰ خولان تارة، وأخرىٰ إلىٰ كندة، يقول نقلاً عن الهمدانيّ: «... هم بنو شهاب بن خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة، وقيل: شهاب بن الأزمع بن خولان، وقال ابن الحائك (الهمدانيّ): بنو شهاب من كِندة، وقيل: شهاب بن العاقل بن هانئ ـ مهموز ـ بن خولان»[6].

فهذه المصادر المنسوبة التي نقل عنها الهمدانيُّ، أمّا المصادر غير المنسوبة، ويُراد بها السِّجلّات[7]

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 117، المطبوع 1/ 452».
(2) انظر: صفة جزيرة العرب 250.
(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 113، المطبوع 1/ 447».
(4) الإكليل: «المخطوط 1/ 66، المطبوع 1/ 297».
(5) الإكليل: «المخطوط 1/ 118، المطبوع 1/ 453».
(6) معجم البلدان 5/ 70.
(7) انظر: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1/ 93، السِّجلات والزُبُر المتوارَثة من الجاهليّة في اليمن: 312.

التي استقىٰ الهمدانيُّ منها كثيراً من مادّته التي لم يصـرِّح بنسبتها، فأغفلها، ولعلَّها كانت بعضاً من السِّجلَّات المنسوبة، من ذلك ما ساقه حين ذكر كلامَ ابنِ الكلبيّ في ولد قحطان؛ قال: «وقال الهيثمُ بن عديّ: ويَعْفُرُ بنُ قَحْطَان، فأولد يَعْفُرُ المعافر، والثَّبْتُ ما ذكرنا عن أهل السِّجلّ أنّه المَعَافِرُ الأكبرُ بن يَعْفُر بن مالك بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد»[1].

وثمة زُبُرٌ أخذ منها الهمدانيّ جزءاً من مادته؛ منها القبوريّة التي كتبت علىٰ القبور أو في صِفَاح الحِجَارة أو الألواح[2]؛ إمَّا نقلًا عن المصنَّفات وإمَّا مشاهدةً، ومنها غير قبوريّة، كزُبُرِ حِمْيَرَ القديمة ومساندها الدّهريَّة[3]، وزُبُرِ هَمْدَان[4]، وزُبُر اللَّعويّين[5]، وزُبُرٍ غير منسوبة[6].

وقد أنكر د. جواد علي جاهليّة هذه السِّجلَّات حينما دُوِّن التّاريخ الجاهليّ بقوله: «ولا أستبعد أن يكون هذا السِّجلُّ قد وُضِعَ في صدر الإسلام، حينما شُـرِعَ في أيّام عمر رضي الله عنه بتسجيل النّسب في ديوان، فَدُوِّنت عندئذٍ أنساب القبائل، ورُجِعَ في ذلك إلىٰ ما كان متعارَفاً عليه من النَّسب في الجاهليّة الملاصقة للإسلام، وفي صدر الإسلام، ثُمَّ أُكْمِلَ علىٰ مرور الأيّام؛ ولذلك تعدّدت الأيدي في كتابته...»[7].

ولعلَّه أراد بالسِّجلِّ سجلَّ محمّد بن أبان الخنفريّ، ولعلَّ فيما كتبه د. مقبل الأحمديّ عن قصائد جاهليّة تعود إلىٰ القرنين الخامس والسادس الميلاديين عُثِرَ عليها في اليمن، ما يدفع الشَّكَّ عن تلك الأشعار، ويزيل الغُبْرَة عن تلك الأخبار التي جاء بها الهمدانيّ، وليس بعد هذا حُجَّةٌ لأحدٍ في إثارة الشُّكوكِ والظُّنونِ فيما ذهب إليه الهمدانيّ في تصانيفه[8].

وفي موضعٍ آخر يلجأ د. جواد إلىٰ تمريض الرّواية، وإلحاق الحيف بها، وتشكيكه في فهم أبي نصـرٍ الحَنْبَصـيّ، وفي معرفته الخطَّ المسند، وفكِّ طِلِّسْمَاتِه، وتحصيله أخبار اليمن القديم وأنساب

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 43، المطبوع 1/ 192».
(2) انظر: مختارات من النّقوش اليمنيّة القديمة 176.
(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 5، المطبوع 1/ 89»، وعنه في السِّجلاتِ والزُّبُرِ: 316.
(4) الإكليل: 2/ 32ـ 33، وعنه في السِّجلاتِ والزُّبُرِ 318.
(5) الإكليل: 2/ 305، وعنه في السِّجلاتِ والزُّبُرِ 319.
(6) الإكليل: «المخطوط 1/ 43، المطبوع 1/ 192ـ 194»، وعنه في السِّجلاتِ والزُّبُرِ 320.
(7) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1/ 93.
(8) نشرت إحدىٰ هذه القصائد بعنوان (ترنيمة الشّمس) بصنعاء نشـرة غير محقّقةٍ ولا محرّرة، والأخرىٰ قرأها العلامة مطهّر الإريانيّ، وهي غير منشورة، ولكنّها مصوَّرة متعاورة بين النّاس، انظر: السِّجلَّات والزُّبُر 322.

قبائله ـ في حين كان يثني عليه الهمدانيّ، ويعدُّه أحد مصادره المهمّة ومراجعه العالية ـ يقول د. جواد: «أمّا علمه بالمساند ومدىٰ وقوفه عليها، فأنا أعتقد أنّ علمه بها لا يختلف عن علم غيره من أهل اليمن... ودليلي علىٰ ذلك أنّ القراءات المنسوبة إليهم [أي قرّاء الخطّ الحميريّ] هي قراءات لا يمكن أن تكون لنصوص جاهليّة، وإن تضمّنت بعض أسماء يمانيّة قديمة؛ لسبب بسيط؛ هو أنّ أساليبها ومعانيها ونسقها لا تتّفق أبداً مع الأساليب والمعاني المألوفة في الكتابات الجاهليّة. فقراءات أبي نصر... هي قراءات إسلاميّة فيها زُهْدٌ وتصوّفٌ وتوحيدٌ... أما نصوص المسنَدِ التي عثر عليها حتىٰ الآن، فإنّها نصوص وثنيّة لا تعرف هذه المعاني، وأسلوبها في الكتابة لا يتّفق مع ذلك الأسلوب»[1].

ومردُّ هذا الرّأي لجواد علي إلىٰ الولع الكبير بآراء المستشرقين، وتبنّيه لها من دون أن يناقشها أو يفنّدها؛ إذ لا قبلَ لأحد بردِّ مثل هذه المساند والرّوايات التي تفرّد نفرٌ من العلماء بقراءتها ـ مثل أبي نصر الحنبصيّ ـ وفكّ رموزها، ولا سيّما تلك التي وُجِدت علىٰ صفاح الحجارة، فَسَلِمَتْ من العبث والأذىٰ، وعاشت ناطقة بلسان أصحابها.

أمّا مَا ذُكر من أمر نسب خولان والصّعوبات التي تجسَّدتْ في تبيين حقيقة نسب القبيلة وإلحاقها في قضاعة، فسنفصِّل الـمُجْمَل من أنسابها، ونقف علىٰ أشهر بطونها وأفخاذها.

1 ـ بطون خولان:

إنَّ من دواعي الفضل والخير أن أبقت لنا أكفُّ الضّياع وأياديه نسب خولان مدوّناً في الجزء الأوّل من الإكليل، الذي ضاع معظم أجزائه ـ يسّر الله وجودَها ـ لمؤلفه الهمدانيّ[2]، الذي أنفق دهراً من حياته في تدوين نسب خولان، وبطونها التي تفرَّع عنها أفخاذٌ وعشائرُ كان منها حامل النّسب والشّهرة، وصاحب النّباهة والاشتهار، وسأقف علىٰ ذكر الأخير ونبذٍ من أخباره، وسأقدِّمُ الشّعراء

---

(1) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1/ 96، وانظر: السِّجلاَّت والزُّبُر 323، وتعليقة د. مقبل الأحمدي علىٰ وهم د. جواد علي ـ رحمه الله ـ وقراءته الخاطئة لبيت شعريٍّ وهذا ما دعاه إلىٰ بناء حكم ناقض فيه الرّوايات العربيّة السليمة.

(2) انظر: مقدمة الإكليل 1/ 47 ـ 74، وقد قام الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي ـ طيّب الله ثراه ـ بتحقيق أجزاء الإكليل الأوّل والثاني والثامن، وكذالك العاشر الذي حظي بتحقيق الشّيخ محبّ الدّين الخطيب، لكنّ هذا التّحقيق لم يُبْرِئ النصّ من علل التّصحيف والتّحريف والخطأ في الضبط وإفساد المعنىٰ والشعر، وغير ذلك مما أسهم في إفساد الكتاب، ومن نقل عنه من الباحثين وقعوا في هاتيك العلل، وقد أشرتُ إلىٰ المواضع التي استطعتُ الوقوف علىٰ فسادها في بطون خولان وأخبارها وأشعارها. والذي أميل إليه أنّ الأكوع ـ رحمه الله ـ عمل في الإكليل وجَهِدَ في إخراجه إلىٰ النّاس، لكن في عُجَالةٍ لم تكن محمودةَ الخواتيم؛ فكثيرةٌ هي الأخطاءُ من مثل: كسرٍ في الوزن، وخطأ في الضّبط، ولا سيّما أسماء الأعلام؛ والشّعراء والمواضع منهم.

علىٰ غيرهم، ثُمَّ النّابهين والمشهورين، يستوي في ذلك منهم أهل الجاهليَّة والإسلام والعصر الأمويّ؛ إذ إنّه: «من شرائط النّسب ألّا يُذكر من أولاد الرّجل إلا النَّبيه الأشهر، ويُلغَىٰ الغبيّ، ولولا ذاك لم يَسعْ أنساب النّاسِ سِجلٌّ، ولم يضبطها كاتب...، وعلىٰ هذا مذهب النُّسَّاب»[1]. وسأضرب صفحاً عن ذكر البطون التي نَدَرَ ذكرها؛ لقلّة أخبارها، وقلّة اشتهارها، وخمول رجالاتها.

فذكَرَ الهمدانيُّ أنّ خولانَ ولد سبعة نفرٍ؛ وهم:

حيّ بن خولان، وسعد بن خولان، ورشوان بن خولان، وهانئ بن خولان، ورازح بن خولان، والأزمع بن خولان، وصُحَار بن خولان وهو أخ لحيٍّ الأكبر من أمه، وهذان البطنان متواصلان من بني خولان حتىٰ عهد الهمدانيّ، وكلّها أبطنٌ كبيرة، تفرَّعت عنها أفخاذٌ وعشائرُ كثيرةٌ.

فولد حيّ ـ وهو الأكبر بين إخوته ـ سبعة أبناءٍ: عديّ بن حيّ، بطنٌ منه خالد الحَيْوَانيّ القائل من رائق شعره في الفخر:

نَحْنُ الذُّؤابةُ مِنْ خَـوْلَانَ قد عَلِمَتْ ... عُلْيَا قُـضَـاعـةَ أَنَّـا نَـحْـنُ نَحْمِيْهَا

ومنه عمرة الحيوانيّة، شاعرة بني حيّ بن خولان، وزيد بن حيّ بطنٌ، وشعبُ بن حيّ بطنٌ، ومَرْثَد بن حيٍّ بطنٌ، وغنم بن حَيٍّ بطنٌ، والمِقْدَامُ بن حيّ بطنٌ، ونوف بن حيّ بطنٌ، وسُمِّي في بعض الأحيان أنوف[2]، وفي حيّ كان البيت من خولان والرّئاسة[3]، ومن شعرائهم عوف بن يزيدَ بن عوف، وعمرو بن الحارث، وعمرو بن عوف، ومن رجالاتهم النّابهين المشهورين المِقْدَامُ والمُصْعَبُ ابنا زيد الحَيْوَانيّ، وفي قتل المقدام افترقت خولان[4] إثر حرب ضروس نشبت بين السعديّين وبني حيّ الذين انتهىٰ بهم المطاف في صعيد مصر؛ بسبب رَجُلٍ من بني الحارث بن سعد بن خولان[5]،

---

(1) الإكليل: 2/ 336 ـ 337.

(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 62، 114، المطبوع 1/ 281 ـ 285، 446»، التّعريف بالأنساب والتّنويه لذوي الأحساب: 319 وفيه: «مَرْيد» مُصَحَّفاً، وأسقطَ من بطون حيّ: زيد وشَعْب والمقدام، وعَقَّب علىٰ ذلك بقوله: «وأكثر بني حيّ يَصِيْدُ مُضَـر» تصحيف قبيح جدًّا؛ وصوابه: «بصعيد مصر»، وانظر: المفصَّل 1/ 368، وجاء عند نفرٍ من العلماء (الحيَاوي) وهذه النّسبة إلىٰ (الحيا) وهو بطن من خولان، وإليه ينسب السّمح بن مالك الخولانيّ الذي استشهد في الأندلس سنة 103هـ اللّباب في تهذيب الأنساب 1/ 331، الأنساب للسّمعانيّ 4/ 284، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب 1/ 265.

(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 61، المطبوع 1/ 277».

(4) الإكليل: «المخطوط 1/ 63، المطبوع 1/ 285».

(5) الإكليل: «المخطوط 1/ 95، المطبوع 1/ 392».

خطب إليهم إحدىٰ كرائمهم، فأكبروا نفوسهم عليه، فدافعوه، فلما ألحّ عليهم، خَصَوْهُ، فغضبت في ذلك بنو سعد، فحاربوهم مُدَّةً حتىٰ أخرجوهم من صعدة إلىٰ صعيد مصر[1]. ومن رجالاتهم المشهورين المتأخرين من بني غنم بن حيّ: زَيْدُ بن سَلَمَةَ بن يَغْنَم بن مالك بن عُمَيْر بن اللَّيث بن مالك بن أسد بن غنم بن حيّ بن خولان، النَّسَّابة الذي دوَّن بعض أنساب اليمن، وكان أحد مصادر الهمدانيّ[2]. وقيل: إنّ الجُعَليَّ بطنٌ نسبة إلىٰ بني جُعَل المشهور بالانتساب إلىٰ بني حَيّ[3].

أما سعد بن خولان[4] فَولَدَ: الربيعة[5] بطنٌ، وسعداً بطنٌ[6]، وعمراً درج، وفي الرّبيعة البيت والشرف والعدد[7]، فولّد الرّبيعة بن سعد ستة نفرٍ كلُّها بطون: سعد بن الرّبيعة، وكامل بن الرّبيعة، وفَرُوذ بن الرّبيعة ويغنم بن الرّبيعة، ورشوان الأصغر بن الرّبيعة، وحجر بن الربيعة، وقال بعض خولان عن ابن يغنم الحَيْوَانيّ: ودَاهِكَةُ بن الرّبيعة بطنٌ كبيرٌ فيها. وأمّا حُجْر بن الرّبيعة فولد أربعة أبناءٍ: مالكاً، وسعداً، والهمّاس[8] الذي انتشر ولدُهُ في تهامة قبل افتراق بني أسامة بن زيد بن أرطاة مع فرقة من بني عمهم منها فروذ بن الرّبيعة، وباقي فروذ بمصر، وولدَ شُرَحْبِيْلَ أيضاً، الذي كان من صلبه أَرْطَاةُ الذي وَلَدَ: زيداً، فولد زيدٌ: بَرًّا، ومويلكاً، وأُسَامَةَ الذي وَلَدَ الأَصْحَرَ ـ ومنه أعرم، بطنٌ دخلوا في بني حَمْرَةَ[9] ـ ووَلَدَ زيداً الذي كان منه أكبُر بطنين في خولان؛ هما: عوف ومالك، روقا الرَّبيعة[10].

فأمَّا مالك فولد ستّة أبناءٍ: عمراً، وجريراً، وجابراً، وعَنِيْداً، وليثاً، وزيداً، أمّا اللَّيث فكان منه

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 63، المطبوع 1/ 286»، ومعجم ما استعجم 1/ 180.
(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 66، المطبوع 1/ 296»، والتعريف بالأنساب: 319.
(3) الأنساب للسّمعانّي 3/ 270، اللّباب في تهذيب الأنساب 1/ 231، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب 1/ 207، الإكمال لابن ماكولا 1/ 149.
(4) الأنساب للسّمعانّي 7/ 82، اللّباب في تهذيب الأنساب 1/ 543 ـ 544، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب ـ دار صادر ـ 136، معجم البلدان 3/ 403.
(5) أكثر النّاس يقولون الرّبيعة؛ ليفرّقوا بينها وبين ربيعة بن نزار، وربيعة بلحارث، وربيعة وادعة في همدان. انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 66، المطبوع 1/ 297».
(6) النّسب الكبير 1/ 215 وفيه: «ولَد سعدُ بنُ خولان: عبد الله، وربيعة، وسعداً، وعريساً، وغيلان».
(7) الإكليل: «المخطوط 1/ 66، المطبوع 1/ 297»، والتّعريف بالأنساب 320 وفيه: «وله من الولد أربعة: ربيعة، وسَعْد، والحَرْث، وعَمْرو، وقَلَادِح» وهمٌ وتَزَيُّدٌ وتصحيف.
(8) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 66 ـ 67، المطبوع 1/ 297 ـ 298»، والمفصّل 1/ 368.
(9) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 67، 86، المطبوع 1/ 298، 365».
(10) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 67، المطبوع 1/ 298».

سعدٌ شاعراً، وأما زيدٌ فوَلَدَ عمرو بن زيد ـ وهو مغرق الأكبر ـ شاعرٌ وفارسٌ، وواحدٌ من مَسَاعِرِ الحربِ في اليمن، شَهِدَ خَزَازىٰ، وله يوم الحنو الذي قال عنه عمرو بن حجر المالكي مفتخراً بمجد آبائه وأجداده:

أَلَيْسَ أبونَا قادَ للحِنْوِ جَمْعَهُ   فـفـازَ بـعتَّابٍ وعَلـىٰ بِحَاطِبِ؟!

وتولّىٰ إخراج بني حيّ من صَعدة إلىٰ صعيد مصر، وقام بحرب ربيعة بن نزار بتهامة علىٰ قول خولان[1].

وأولد عمرو ـ مُغْرِقُ الأكبر ـ سعداً، ويعلىٰ شاعراً حليماً وافر الرّأي وسديده، وصاحب حصن تلمّص[2]. وأولد سعدٌ ثلاثةَ نَفَرٍ: حُجْراً ـ وهو أبو رعثة الأكبر ـ شاعرٌ، قام بحرب مَذْحِج وأجمعت قضاعةُ، وأمهم رُهْمُ بنت زيد سيدة نساء بني حيّ[3].

أما حُجْر ـ أبو رعثة الأكبر ـ فَوَلَد ستّة أبناءٍ: عمراً بطن، وله انقادت قضاعة اليمن بالطّاعة، وكان شاعراً، ويزيد ـ وهو المتوكّل ـ بطنٌ، وكان شاعراً وعابداً، ومنه كان الأُكْلُول[4]، بطنٌ كبيٌر، ومالكاً، وهشاماً، والأَصْبَغَ الذي تناسل من صلبه خلقٌ كثيرٌ[5]؛ منهم محمّد بن قرف المالكيّ، شاعرٌ وفارسٌ حَمَلَ رايةَ الرّبيعة في حرب سعد بن سعد[6]، ويعلىٰ الذي تناسل من صلبه الرّبيعيّون، الذين دخلوا في بني حَمْرَةَ.

أمّا عمرو وجرير وعنيد وجابر فبطونٌ، منها مَنْ خرج إلىٰ حَيْس وزَبِيْد وحِوَاز تِهَامة مع إخوتهم من بني عوف يوم افترقت بنو مالك وبنو عوف، وأمّا مِهْذَر وبنو عُوَيْر فبطنان، وهم أهل جبل أَبْذَر، أقاما في حقل صعدة، ولم يخرجا منه[7].

وأمّا عوف بن زيد فبطن كبير، والنّسبة إليه عَوْفِيّ، وَلَدَ سبعة نَفَرٍ: مسعوداً بطنٌ، وكُثَيّراً بطنٌ، وجابراً بطنٌ، ومالكاً بطنٌ، ورفاعة بطنٌ، وصعباً بطنٌ، وعوذاً بطنٌ، وفي عوفٍ الثَّروةُ والحدُّ والنّكايةُ،

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 67 ـ 69، المطبوع 1/ 299 ـ 306»، والأعلام 5/ 78.
(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 68، المطبوع 1/ 307»، الأعلام 8/ 204.
(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 69، المطبوع 1/ 309».
(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 70، المطبوع 1/ 309».
(5) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 83، المطبوع 1/ 358».
(6) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 84، المطبوع 1/ 361».
(7) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 86، المطبوع 1/ 365 ـ 369».

أمّا مسعودٌ فَوَلَدَ عُرْوَةَ الذي أولد مسعوداً، ومسعودٌ ولدَ عَمْراً الذي وُلِدَ له محرزٌ قتيل بني حيّ، ويزيدُ الذي وَلَدَ مسعوداً وعمراً، وهذا كان فارس العرب، وحُمَّة البلد، وسيّد بني عوف قاطبة، ولسان خولان، وشاعرها الأوّل[1].

وكان من ولد عمرو بن يزيد العوفيّ خمسةُ أبناءٍ؛ وهم: يَعْلَىٰ، ويزيد، وسعد، وحَكِيْم، ومُحُكِم الذي عاد من بلد بني عنز بن وائل من دم أصابه من قومه[2]، أمّا حكيمٌ وسعدٌ فأقاما مع أبناء إخوتهم مالك وجابر وعوذ وصعب ورَفَاعة بدار بني عنز بن وائل[3].

وأقام محكم بن عمرو في بني مالك ومن بقي معه في البلد بعد مخرجهم من بني عوف، وولد لمحكم: كُلَيْب الذي نسل من صلبه: عميرٌ، وعامرٌ، ومُرٌّ، ومِنْ وَلَدِ عميرٍ انتشـرت بطونُ كُلَيْبٍ؛ لأنّ عامراً ومُرًّا بطنان بحالهما، وهم كانوا نابَ الرَّبيعةِ ومِخْلَبَهَا[4]. ووَلَدَ من يزيد بن عمرو بن يزيد العوفيّ: أسدٌ بطنٌ، ويعلىٰ بن عمرو الذي أولد مُنْبِهاً بطنٌ، وأسد ومنبه اللذان رجعا من أبناء عمرو مع عمّهما محكم بن عمرو من بلد عنز بن وائل[5]، وكان من ولد كُثَيِّرٍ ـ وهو أحدُ رِجالاتهم ـ: المحنونُ العوفيُّ، وثابتُ بن يزيد، شاعران[6].

أما سعد بن سعد بن خولان فأولد: حرباً بطنٌ، وغالباً بطنٌ[7]، وسَمْهَكاً، والحارث بطنٌ، وقثم دَرَجَ، وإلىٰ الحارث بن سعد البيت والرّئاسة، ومنه الخطيب الـمَخْصِـيُّ الذي افترقت فيه بنو سعد وبنو حيّ الخولانيون. ومن بني الحارث بن سعد: آل النّعمان بن الفيّاض، قادة بني سعد[8]، ومن بني حرب كان العبديّون من عبد الله الخيار بن زياد بن سلمان بن الفاحش بن حرب بن سعد بن سعد الخولانيّ، وكان القياس: العبدليين بطنٌ[9]. وكان بنو حرب لا يزوّجون أحداً إلاّ إذا كان منهم، أو

---

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 87، المطبوع 1/ 370»، التّعريف بالأنساب: 322»، قصّة الأدب في اليمن 249.
(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 90، المطبوع 1/ 378»، التّعريف بالأنساب: 322.
(3) انظر: الإكليل: « المخطوط 1/ 92 ـ 93، المطبوع 1/ 383 ـ 385»، التّعريف بالأنساب: 322.
(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 91، المطبوع 1/ 381».
(5) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 92، المطبوع 1/ 382».
(6) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 93، المطبوع 1/ 385».
(7) انظر: تاج العروس (غَلَبَ) وفيه: «قبيلة من خولان إلىٰ غالب بن سعد بن خولان».
(8) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 95، المطبوع 1/ 392»، التّعريف بالأنساب: 322، المفصّل 1/ 369، تاج العروس (غَلَبَ) وفيه: «قبيلة من خولان إلىٰ غالب بن سعد بن خولان».
(9) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 96، المطبوع 1/ 395»، الأنساب للسّمعانّي 8/ 351، اللّباب في تهذيب الأنساب 2/ 112، لب اللّباب في تحرير الأنساب ـ دار صادر ـ 174 وفيه: «العَبْدَرِيّ».

قرشيًّا[1]، وكان منهم عمرو بن يزيد السّعديّ، الذي هاج الحرب بين بني سعد بن سعد وبين الرّبيعة بن سعد، وكان شجاعاً فارساً جواداً شاعراً[2]. أما غالب بن سعد فَوَلَد يعلى بن غالب، الذي تناسل من صلبه: جبر بطن، ومعيش بطن، وشبل بطن، دخلوا في بني حَمْرَةَ مع من انضم إليهم من الرّبيعة، وضمَّ الجميع اسم حَمْرَة[3].

وكان عمرو بن سعْدَىٰ فارس بني سعد بن سعد، قتله محمّد بن أبان الخنفريّ صاحب السِّجلّ مبارزةً[4].

أمّا هانئ بن خولان فبادية كلّها، وولد هانئ: هلالاً وعليًّا، وولد هلال: شـرحبيلَ، وجابراً بطنٌ، وولد شرحبيل هلالاً، فولد هلال: شرحبيل الأصغر وجابراً ابني هلال الأصغر، فأولد شرحبيل الأصغر «جُمَاعة»، وهم قبيلة عزيزة في بَوْصَان من أرض خولان من ناحية صعدة[5].

أما رَازِح بن خولان فباديةٌ كلها[6]، والنسبة إليه رَازِحيّ، فَوَلَدَ رازح: مَرْثَداً بطنٌ، وعُوَيضاً بطنٌ، ورَائِباً بطنٌ، ويَعْلَىٰ بطنٌ، ويَغْنُم بطنٌ، وبزيًّا بطنٌ، وقال المسلم بن عَبَّاد: وعمراً بطنٌ. وفي رازح العدد؛ فهم أكثر من خُمْسي خولان، ومن بني يعلىٰ بن رازح: يغنم بطنٌ، دخل في يغنم بن الرّبيعة بن سعد[7].

وفي رواية آل أبان أصحاب السِّجلّ المتوارَث من الجاهليّة القديمة أضافوا: «نَدِيْداً وجَرِيْراً وَأَتَام، وجُدَاداً، وقيل: إنما سُمُّوا بالـجُدَيْدَةِ؛ لأنَّ رازحاً لما شَابَ خَضَبَ، فكان إذا أعاد الخضاب يقولون: خولان جَدَّدَ، فَسُمِّي بالـجُدَيْدَةِ»[8].

---

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 96، المطبوع 1/ 396».
(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 97، المطبوع 1/ 402».
(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 101، المطبوع 1/ 409»، وحمرة ليس بأبٍ ولا أمٍّ، وتسميهم خولان بني الشَّاة.
(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 103، المطبوع 1/ 418».
(5) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 103، المطبوع 1/ 418»، صفة جزيرة العرب 249، معجم البلدان 1/ 509 وفيه: «موضع بأرض خولان من ناحية صعدة باليمن، أهله بنو شـرحبيل بن الأصفر بن هلال بن هانئ بن خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة» تصحيف، وصوابه ما أثبته.
(6) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 61، المطبوع 1/ 279»، تاج العروس (رزح).
(7) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 104، المطبوع 1/ 419»، التّعريف بالأنساب: 325 وفيه: «مَرْثَد، وثغلا، وابناه، وبري، ونوىٰ، وجدال، ونعيم، وعمرو، ويزيد، وحدير، وآل مسلم بن عباد بن رازح أكثر من خُمْس خولان. وقالوا: ونعيم من ولد الرّبيعة بن سعد»، وانظر: المفصّل: 1/ 368.
(8) الإكليل: «المخطوط 1/ 114، المطبوع 1/ 447»، اللباب في تهذيب الأنساب 1/ 212، الأنساب للسّمعانيّ 3/ 198، لبّ اللّباب 1/ 196، نزهة الألباب في الألقاب 1/ 165، الإكمال 1/ 60، 2/ 268، عجالة المبتدي 37.

أمّا رشوان بن خولان فبادية كلّها، وولد رشوان: لاحقاً بطنٌ، ومُخْلِفاً بطنٌ، وخليفةَ بطنٌ، وسعداً بطنٌ، ومُنْبِهاً بطنٌ، وحرباً بطنٌ، وخَوْلِيًّا بطنٌ، وجميعهم خرجوا مع بني حيّ مغاضبين لبني سعد بن خولان إلىٰ صعيد مصر في الحرب التي نشبت بينهم، ويُدْعَىٰ بنو رشوان بالرَّشِيَّةِ[1].

أمّا الأَزْمَعُ بن خولان فبادية كلّها[2]، وأولَدَ الأزمعُ: ثابتاً، والأجبول وهم بنو جَبَل، وأَخْيَل، ومخيلاً، والأَسْووق وهم بنو سَاق، والجُعْل[3]، ومُرَّان وإليهم تنسب القسيّ المرانيّة، وفيهم أكثر صنعة خولان، وهم أكثر خولان بعد رَازِح، ومن مرّان الشَّمِيريّون[4]، والأُخْضُوض[5]، والرَّعا والشَّرو[6].

وأمّا صُحَار بن خولان فَوَلَدَ: عامراً بطنٌ، وبِشْراً بطنٌ، وطارقاً بطنٌ، وعلقمةَ بطنٌ، وشِبْلاً بطنٌ[7]، وحاذراً بطنٌ. وكان من قدمائهم علقمة بن زيد، وهو رحّالة إلىٰ الملوك باليمن والشّام، وشاعرٌ في داليته اليتيمة التي مدح فيها الملك الحميريّ سيف بن ذي يزن[8].

أمّا عن خولان العالية فقال الهمدانيّ: «خولان العالية من ولد خولان بن عمرو [بن مالك بن الحارث بن مرّة] بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، وهذا خلاف ما عليه خولان العالية؛ فهم من أول الدهر إلى آخره ينتسبون إلى حمير، ولا ينكرون إخوتهم من خولان بن عمرو بن إلحاف بحقل صعدة ونواحيه؛ وإنما قيل: (خولان العالية) للفرق بين البلاد لا الفرق بين النسب، كما يقال في أزد شنوءة وأزد عُمان، ولا إشكال في أنّ الجميع من الأزد....»[9].

أما بنو شهاب ففي نسبهم اختلافٌ واضحٌ، وأغلب الظنِّ أنهم أحلافٌ لخولان، وإلبٌ لهم علىٰ

---

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 104 ـ 105، المطبوع 1/ 420 ـ 421»، الإكمال 4/ 72، التّعريف بالأنساب 323 وفيه: «حارث وملحق» تصحيفان، وأسقطَ خليفةَ وحرباً، المفصَّل 1/ 369.

(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 105، المطبوع 1/ 421»، التّعريف بالأنساب: 324.

(3) انظر: الأنساب للسّمعانيّ 3/ 270، اللّباب في تهذيب الأنساب 1/ 231، لبّ اللّباب 1/ 207، الإكمال 1/ 149.

(4) انظر: الإكمال 4/ 374، تاج العروس (شَمَرَ).

(5) انظر: الإكمال 4/ 170، الإكليل: «المخطوط 1/ 105، المطبوع 1/ 422»، تاج العروس (خضض) وفيه: «الأحضوض بالحاء المهملة: بطن باليمن».

(6) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 105، المطبوع 1/ 421».

(7) انظر: تاج العروس (شبل) وفيه: «شِبْل بطنان في قضاعة: أحدهما شِبل بن صُحَار بن خولان، والثاني شِبل بن يعلىٰ بن غالب بن سعد، ذكرهما الهمدانيّ».

(8) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 105، المطبوع 1/ 422»، التعريف بالأنساب 325 وفيه: «يُسر وجادر وسبيل» تصحيفات، المفصّل 1/ 369.

(9) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 61، المطبوع 1/ 280».

أعدائهم، وقد ساق الهمداني دليلاً علىٰ ذلك بقوله: «إن حجر بن ربيعة بن سعد بن خولان، خرج من صـرْوَاح اتقاءً لبعض ملوك حمير ليصير إلىٰ الشَّام، فمرَّ بحقل صعدة وهو قليل السّكن فاختطَّ فيه، واقتطع هو ومن معه، ثمَّ نزل عليه بنو شهاب دَنِيًّا، وبنو بنيه عائدين من ضَرِيَّة إلىٰ اليمن، ليسكنوا مع آل عبد الله ذي الأفراس بن سكسك، فسألوه الحلف والمظافرة لمّـا أعجبهم حقل صعدة، فأجابهم إلىٰ ذلك وأشـركهم في الحمىٰ والسَّبوق، فسكنوا صعدة من يومئذٍ إلىٰ وقتنا هذا»[1].

وفي هذا الحلف يقول إبراهيم بن كُنَيْف الشِّهابيّ:

عَلَى حِلْفِ حُجْرٍ حَازَتِ الحَقْلَ مَعْشَرِي ... تُـطَـاعِـنُ عَـنْـهُ بـالـرِّمَـاحِ الـشَّـوَاجِـرِ

ومنه أيضاً قول صاعد بن المسلم الشّهابيّ:

أَخَذْنَا بِحَبْلِ القَيْلِ حُجْرٍ فَلَمْ نَزَلْ ... إلـى غَـايَـةِ الأَيَّـــامِ نَنْفِي الأَعَـادِيَـا

ويعطف الهمدانيّ علىٰ هذا الشّعر بقوله: «فلم يزالوا علىٰ ذلك في عصـر حجر وابنه شـرحبيل، إلىٰ أيّام عمرو بن زيد بن أسامة، فلمّا قام علىٰ حيٍّ قاموا معه، وكانت حيّ بن خولان ولدتهم، فأفْروا فيها»[2]. وهذا يحدو بنا إلىٰ القول: إنّ حلفهم قديم، بل ضاربٌ في الجاهليّة، وفي تألّبهم علىٰ بني حيّ الذين احتضنوهم يقول خالد الحيوانيّ:

هُـمُ نَصَـرُوا عَـوْفـاً عَلَيْنَا ومَالِكاً ... وَحَـيَّ بَنِي حَـرْبٍ وحَيَّ السَّمَاهِكِ[3]

ومن ذلك أيضاً قول عمرو بن يزيد العوفيّ:

وَكِـنْـدَةُ أَحْـلافٌ لِحُجْرٍ وَقَبْلَهَا ... تَمَكَّنَ في فَرْعَيْ قُضَاعَةَ مَنْصِبُهْ[4]

وقيل: الأَدِيميّ؛ وهي نسبة إلىٰ الأديم[5]، الذي تكوَّن من خولان. وفي هذا ينقل الهمداني عن «جماعة من علماء خولان وعلماء حمير بصعدة، عن أشياخهم، عن مسلمة بن يغشم أخي بني حيّ، وعن ابن المستنير الزّبيديّ ـ وكانا علامتي نجد، وهما قيّدا أنساب خولان وأيامها مع مذحج وبني سليم وهوازن، وأيام خولان بينها ـ أنهما سئلا عن (الأديم) من خولان فقالا: هو جُمَّاعٌ، ليس من

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 119 ـ 120، المطبوع 1/ 457». وفي النص السابق: «فاختلط.. دينا... سكك» تحريفٌ.
(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 121، المطبوع 1/ 459»، وجاء فيه: «فاقروا فيها» تصحيف.
(3) انظر الدِّيوان: ق15/ ب4.
(4) انظر الدِّيوان: ق32/ ب1.
(5) انظر: الأنساب للسّمعانّي 1/ 164، اللّباب في تهذيب الأنساب 1/ 43، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب 1/ 43.

ولد الصلب، كما تنوخ جُمَّاع بما دخل عليها من الأزد وإياد... قال ابن يغنم و المستنير بن المستنير: إنما اجتمعت أقباضٌ من خولان، فاحتلفوا وكتبوا حلفهم في أديم أحمر، وكذا رأينا أكثر بصائر خولان في مرائطَ من أُدُمٍ حُمْرٍ؛ فجرىٰ علىٰ تلك الجماعة اسم الأديم، فسألتُ عنها مسلم بن عَبَّاد ـ وكان خبيراً ببلد الأديم عن المحتلفين ـ فقال: يعنق وبنو بشـر. وسألت آخرين من بدو الرّبيعة عن الأديم، فقالوا: يعنق بن رشوان بن الرّبيعة وبشـراً، احتلفا في أديم ولم تحفظ نسخته»[1].

وليس ثمّة ملامةٌ إذا ما عَرَّجنا سـريعاً علىٰ أشهر بطون خولان العالية التي لم يكن لها حضورٌ بَيِّنٌ في أشعار القوم وأخبارهم، ومما ذكره الهمدانيّ من بطونها قوله: «أولد خولان بن عمرو بن إلحاف: حُبَيْباً وعمراً والأصهب وقيساً ونُبَيْتاً وذكران، بطونٌ كِبَارٌ، ويدعىٰ بنو ذكران الذّكران[2]. فولد حبيب بن خولان: حَبَّاباً وحَرِيْثاً وبكراً والبائت، بطونٌ كلّها، وأولد عمرو بن خولان: أميراً ومضًا بطنان، وأولد الأصهب بن خولان رحَّالاً وخَرِيْثاً بطنان، ومنهم: عبد الله وربيعة وحيّ، وسعد، بطونٌ. ومنهم: أبو مسلم الخولانيّ، وكان من خيار التابعين[3]. وغلب اسم ذكران وحريث وبكر علىٰ بطونهم. ومن بطونهم: الـمَكِيْرُ، وبنو نُوَيْقٍ، وبنو مُلَيْلٍ، وبنو زِيَاد، وبنو عبد، والدَّحَارِج، ورَحْب.... ومن بطونهم: الأُعرُوش، والضَّبائِن مقدمٌ، وبنو سُحَام...»[4].

وتفرّعت عن هذه البطون أقوامٌ وعشائرُ متعدّدةٌ، كانت خاملة الذّكر، ليس فيها مَنْ له نباهةٌ واشتهارٌ بحسب ما ذكرته المصادر والمظانّ التي وقفتُ عليها؛ لذا سيُكْتَفَىٰ بما ذكرته من بطون خولان، مع التّنبيه علىٰ قلّتها في أيدي النّاس، وخروج كثيرٍ منها مُصَحَّفَةً ومُحَرَّفَةً؛ وهو ما شوَّه صورتها وقراءتها. وثمّة بطونٌ من خولان دخلت في غيرها من القبيلة نفسها، وبطون دخلت في قبائل أخرىٰ فانتسبت إليها، وبطون من قبائل أخرىٰ دخلت في خولان، فلاذت بظلّها، ويقال لهذه البطون: النّواقل.

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 94ـ95، المطبوع 1/ 390». جُمَّاعٌ: أخلاط، وجاء في النص السابق: «مسلمة بن يضم..... في مرائط من أدم أحمر.. وبني.....» تصحيف وصوابه ما أثبته.

(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 113، المطبوع 1/ 443»، النّسب الكبير 1/ 215، جمهرة أنساب العرب 418 وفيها: «نبت» تصحيف، و«كعب وسعد وبكر» زيادة علىٰ ما جاء به الهمدانيّ من البطون، العقد الفريد 3/ 403، المقتضب 273ـ274، النّسب لأبي عبيد 313، وفيه «خُبَيْبٌ» تصحيف، قلائد الجمان 101، التّعريف بالأنساب 331.

(3) انظر: ترجمته في الدّيوان.

(4) الإكليل: «المخطوط 1/ 113، المطبوع 1/ 443ـ445» وفيه: «غلب اسم ذكران وحريث وبكراً...» تصحيف، وفيه «والضبائن مقدم...» ساقط في المطبوع.

2ـ نَوَاقِلُ خَوْلَان:

اعتادتِ العرب في جاهليّتها حياة قلقة مضطربة، ملؤها الانتقال من صقع إلىٰ آخر، وهذا ما جعل بعض بطون القبيلة الواحدة تنتقل إلىٰ بطون أخرىٰ من القبيلة نفسها، أو تنتقل إلىٰ قبيلة أخرىٰ، فتنتسب فيها، من دون أن تنتمي إليها صليبيةً، فيحسب لها ما يحسب للقبيلة الأصل، ويجري عليها ما يجري علىٰ القبيلةِ الـمَلُوذِ بها[1]. وثمّة أسبابٌ كثيرة لهذا التّنقل؛ منها: بغض البدويِّ لحياة الاستقرار؛ لأنَّ أساس حياته مبنيٌّ علىٰ الاضطراب، والتّحرّك الدائم من مكان إلىٰ آخر[2]. إلاَّ أنّ تنقُّلَ البدويّ في دهمائه ليس عبثيًّا لا طائل منه، بل تنقُّلٌ معقودٌ بظروف بيئية، فرضتها طبيعة الحياة عليه؛ كتعقّبه الكلأ والماء ورغبته في النّجعةِ، وغالباً ما يكون هذا في مواطنَ بعيدة عن حدود القبيلة، ومثل هذا يقال حينما يُطْلَبُ هذا البطن أو تلك القبيلة في ثأرٍ ما، فتنزح عن ديارها إلىٰ غير رجعة مأمولة؛ كالذي حدث لبني غالب بن سعد بن خولان الذين ظعنوا عن ديارهم لحرب خسروها، فدخلوا في زبيد وقتاً، ثمّ في خَثْعَم زمناً، ثمَّ أقاموا بجوار بني هلال زمناً آخر[3].

يضاف إلىٰ ما سلف علوّ همّة البدويِّ التي تطمح إلىٰ كثير يؤمّن لها عيشاً كريماً؛ لأن الاستكانة في المكان الواحد، والإقامة فيه، هي الصَّغَار بعينه، والضَّعَةُ التي تتأبّى نفس البدويّ عليها، ومن ههنا ندرك أهمية التّنقّل والارتحال لدىٰ البدويّ[4]. ومن الأسباب أيضاً غلبة بعض البطون علىٰ غيرها قوةً واشتهاراً، ثمَّ انتساب مَنْ دونه من إخوته إليه، أو الولادة في قبائل أخرىٰ؛ للّذي كان في الجاهليّة من ولادة المرأة من زوجها الأول علىٰ فراش زوجها الآخر؛ كولادة قضاعة علىٰ فراش مَعَدٍّ، وولادة الصّدف بن مُرْتِع في حَضـرَمَوت[5].

والحقُّ الذي لا مِرْيَة فيه أنَّ موضوع النّواقل موضوعٌ مهمٌّ في رصد أنساب العرب، وفي دراسة

---

(1) انظر: تهذيب اللّغة 9/ 152، جمهرة اللّغة 3/ 164، اللّسان والتّاج (نقل). وورد في الفهرست لابن النّديم: 108 طبعة رضا تجدّد، وطبعة قصور الثّقافة 1/ 96: (النّوافل) مصحّفة، وهو تصحيف سبق إلىٰ التّنبيه عليه د. شفيق البيطار في ديوان بني كلب (الدّراسة) 41، ود. مقبل الأحمديّ في شعراء حمير (الدّراسة) 32. وورد هذا التّصحيف في كتاب الأصنام: 69ـ 70، ولم يكتف الشّيخ أحمد زكي باشا ـ رحمه الله ـ بموافقة الفهرست علىٰ هذا التّصحيف، بل زاد في الخطأ بأن قال: «والنّوافل هنا بمعنىٰ الأيمان التي كانت تُقسم بها القبائل المذكورة» الأصنام 69، وانظر: معجم الأدباء 3/ 1364، 6/ 2780، 2792.

(2) انظر: الشّعراء الصّعاليك 71.

(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 102، المطبوع 1/ 415».

(4) انظر: أثر الصّحراء في الشّعر الجاهلّي: 165.

(5) انظر: شعراء حمير (الدّراسة) 322.

أشعارهم أيضاً؛ ذلك أنَّ الشّاعر يكون من بطنٍ من تلك البطون التي دخلت في قبيلة غير قبيلته الأمّ، فإلى أي القبيلتين يُنْسَبُ، وفي شعر أيّها يُسْلَكُ شعره؟ وقد تناول القَلْقَشَنْدِيُّ هذا الأمر فقال في بيان أمورٍ عَشَـرَةٍ يحتاج النّاظر في علم الأنساب إليها؛ منها: «إذا كان الرّجل من قبيلة، ثُمَّ دخل في قبيلة أخرىٰ، جاز أن ينتسب إلىٰ قبيلته الأولىٰ، وأن ينتسب إلىٰ القبيلة التي دخل فيها، وأن ينتسب إلىٰ القبيلتين جميعاً؛ مثل أن يقال: التّميميّ ثمّ الوائليّ، والوائليّ ثمّ التّميميّ، وما أشبه ذلك»[1]. واتّكاءً علىٰ هذا رأيتُ أن أَسْلُكَ مَنْ وجدت له شعراً من أبناء البطون التي دخلت في خولان ضمن شعراء خولان؛ لأنَّ الشّعر ابن بيئته، وَهُمْ شعراء بني شهاب[2].

ويمكننا تقسيم نواقل خولان إلىٰ ثلاثة أضـربٍ: ضـرب من بطون خولان دخل في بطون أخرىٰ من القبيلة نفسها، وضـرب انتقل من خولان إلىٰ غيرهم، وضـرب ثالث من غير خولان دخل فيها واحتبىٰ بفنائها.

فأمّا الضّرب الأوّل: فهي بطون خولان التي دخلت في بطون أخرىٰ منهم، وأشار الهمدانيّ إلىٰ سبعة أبطنٍ منها ما كان ذا اشتهارٍ ونباهةٍ؛ وهم بنو غالب بن سعد بن سعد بن خولان، دخلوا في بني هلال بن هانئ بن خولان[3]؛ بسبب الحرب التي سَعَّرَهَا عمرو بن يزيد السَّعديّ، وزاد في وَقودها حتّىٰ أدّت إلىٰ نزوح بني غالب بقيادة شاعرهم عمرو بن زيد الغالبيّ[4]. ومن البطون التي لم يُذْكـر فيها مَـنْ له نباهةٌ أو ذكرٌ في شعر أو فروسيّة: الشّهريّون؛ وهم من صلب شهر بن يعلىٰ بن سعد بن عمرو ـ مغـرق الأكبر ـ بن زيـد بن مالك بن زيد بن أسامة بن أرطاة بن شرحبيل بن حجر بن الرّبيعة بن سعد بن خولان، دخلوا في بني حَمْرَة[5]، الذين يضمّون معيشَ بن سعد، وجبر بن سعد، وشبل بن سعد، ثلاثة أبطن مع مَنِ انضمّ إليهم من الرّبيعة، فضمّ الجميعَ اسمُ حَمْرَةَ، فقيل: بنو حَمْرَةَ، وليس حَمْرَةُ بأبٍ ولا أمٍّ، وتسميهم خولان بني الشّاة[6].

---

(1) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: 30.

(2) اختُلِفَ في نسبهم؛ فنُسَّابُ حمير يقولون: إنهّم من خولان، وقيل: إنهّم من كندة. والرّاجح أنهّم أحلاف لخولان، دخلوا فيها، وجمعَتْ بينهم علاقة مصاهرة، علاوة علىٰ ذلك الحلف.

(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 102، 103، المطبوع 1/ 415، 418».

(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 101 ـ 102، المطبوع 1/ 412»، قصّة الأدب في اليمن 239.

(5) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 85، المطبوع 1/ 363».

(6) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 101، المطبوع 1/ 409 ـ 410».

وبنو أعرم بن الأصحر بن أسامة بن زيد بن أرطأة بن شـرحبيل بن حجر، دخلوا في بني حمرة[1]. وفيمن انتقل من بطن إلىٰ آخر بنو يغنم بن ربيعة بن سعد بن خولان، دخلوا في بني رازح بن خولان[2].

وبنو سعد بن ربيعة بن سعد بن خولان، دخلوا في بني بحر بن زيد الخولانيّ[3]. ويغنم بطنٌ من بني يعلىٰ بن رازح بن خولان، دخل في يغنم بن الرّبيعة بن سعد بن خولان، فقال أهله: نحن بنو يغنم بن يعلىٰ بن رازح[4].

وبنو العبيد بن سعد، وبنو مالك بن سعد بن اللّيث الخولانيّ، بطنان كبيران دخلا في بني بحر بن زيد الخولانيّ، وكان من بني العبيد رئاسةُ بني بحر وقيادتهم[5]. وبنو يعنق بن الرّبيعة بن سعد بن خولان، بطنٌ دخل في بني سعد بن سعد بن خولان[6].

أمّا الضّرب الثّاني: فهي بطون خولان التي دخلت في غيرها من القبائل العربيّة، وقد نبّه الهمدانيّ علىٰ خمسة بطونٍ؛ منها ما كان ذا نباهة واشتهار وذيوع للصيت، ومنها ما كانَ خامل الذِّكْرِ ضعِيفَهُ. أمّا الأوّل: فمنهم بنو غالب بن سعد بن سعد بن خولان، دخلوا في مَذْحِج في بني زُبَيْد، ثُمَّ في خَثْعَم[7]؛ بسبب الفتنة التي أوقد نارها عمرو بن يزيد السَّعديّ، وسَعَّر نارها من بعده عمرو بن زيد الغالبيّ الذي ظعن بأهله جميعاً، ودخل لائذاً بحمى القبائل السّالفة الذِّكْرِ، ويمكن حمل هذه البطون على الجوار؛ أي أنّها جاورت القبائل التي احتمت بظلها زمناً ثمَّ عادت إلى ديارها؛ لكنَّ الهمدانيَّ لم يذكر أنّ هذه البطون عادت إلى مرابعها، سوى عشيرة عمرو بن زيد الغالبيِّ الذي تزلَّفَ في طلب العودة لابن خالته جرير بن حجر[8].

---

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 67، 86، المطبوع 1/ 298، 365».
(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 87، المطبوع 1/ 370».
(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 87، المطبوع 1/ 369».
(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 104، المطبوع 1/ 419».
(5) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 85، المطبوع 1/ 364».
(6) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 95، المطبوع 1/ 390 ـ 391».
(7) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 102، المطبوع 1/ 415». وخثعم: هو أفتل بن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن يشجب بن قحطان، وهو أبٌ لقبيلة يمانيّة مشهورة. انظر: جمهرة أنساب العرب 390، الأنساب للصّحاريّ 2/ 500، التّاج (عفرس). وسُمِّي خثعماً؛ لأنّهم نحروا جزوراً، فتخثعموا عليه بالدّم؛ أي: تطلّوا به. الاشتقاق لابن دريد 520. أمّا زُبَيْد فهم بنو مُنَبِّه بن سعد العشيرة بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان؛ وهو من أكبر بطون مذحج. انظر شعراء مذحج: 45.
(8) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 102، المطبوع 1/ 415».

وأمّا الثاني: فحكيمٌ وسعدٌ ابنا عمرو بن يزيد العوفيّ الخولانيّ، أقاما مع مَنْ تخلَّف من قومهما في ديار عنز بن وائلٍ[1]؛ بسبب دمٍ أصابهما من قومهم[2].

وأمّا الثالث من البطون الخولانيّة التي دخلت في عنز بن وائل وانتسبت إليهم: فمخلف بن رشوان بن خولان الذي خرج مع بني حيّ بن خولان مغاضباً لبني سعد بن خولان[3]، وأبناء جابر ومالك ورفاعة وصعب وعوذ، وهي بطون عوف بن زيد بن أسامة بن زيد بن أرطاة الخولانيّ، دخلت في عنز بن وائل، حتىٰ إنّ جماعة كثيرة منهم خرجوا مع بني مالك بن زيد الخولانيّ إلىٰ زُبيد وحَيْس؛ لحرب نشبت بين بطون القبيلة، ففرّقت شملهم، وبدّدت قوتهم[4].

وذكر الهمدانيّ في أثناء سوقه نسب مُقْرَىٰ بن سميع بن الحارث بن مالك بن زيد بن الغوث الحميريّ، أنَّ خولان دخلت في الأوزاع الذي تألَّف من بطونٍ عدّة؛ فقال: «الأوزاع بطون اجتمعت من مُقْرَىٰ، وعنس، وحمير، وأَلْهَان، وخَوْلَان، والتَّوحم بن وائل»[5]. ويريد بخولان: جزءاً منها، أو أحد بطونها دون شمولها.

أما الضّـرب الثّالث: فهي البطون التي انتقلت من قبائل أخرىٰ، ودخلت في خولان، وقد وقفتُ علىٰ أربعة بطونٍ: الشّهابيون الذين دخلوا حينما نزلوا عليهم في حقل صعدة، وصاروا بعد ذلك أحلافاً للخولانيّين، شاركوهم في حروبهم، وردّوا عنهم حَدَّ السّيوف غير مرةٍ[6]، وقد سلكتُ أشعارهم في شعر خولان، وجعلتُ أخبارهم جزءاً من أخبار القبيلة. وبنو أحمد بن يزيد بن عمرو بن نابت بن الرَّيَّان بن قشيب بن عامر ذي حِوال الأصغر بن عوسجة الحميريّ، دخلوا في خولان، هكذا روى الهمدانيُّ في إلماح سريعٍ منه من دون أن يفصِّل في الأمر[7]. وبنو رَحْب ودُحْدُح أبناء ذي ثابت بن زياد بن حسّان ذي الشّعبين بن سَهْل بن زيد بن عمرو بن قَيْس بن معاوية بن جُشَم بن عَبْد شَمْس

---

(1) عنز بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أَفْصَىٰ بن دعمي بن جَدِيْلَة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان، قبيلةٌ مشهورةٌ، كان منها عامرُ بن ربيعة، صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان حليفاً لآل الخطّاب الذين كانوا قد تبنّوه. الاشتقاق 335، جمهرة أنساب العرب 303، الأنساب للصّحاريّ 1/ 166.

(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 92، المطبوع 1/ 383».

(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 105، المطبوع 1/ 421».

(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 93، المطبوع 1/ 385».

(5) انظر: الإكليل: 2/ 235.

(6) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 119 ـ 120، المطبوع 1/ 456 ـ 457».

(7) انظر: الإكليل: 2/ 167.

الحميريّ، دخلوا في خولان العالية[1].

وبنو يُرْسَم الكبرىٰ، ولد الغوث بن قَطَن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهَمَيْسَع بن حِمْير، بطنٌ دخل في خولان، ولِقِدَم يُرْسَم هذه؛ قال عبد الله بن عَبَّاد الأكيلي الخولانيّ:

جَـلائِـبُ مـن كـلّ الـبـلادِ تَجَمَّعَتْ علينا بقايا مِـنْ ثـمـودَ ويُـرْسَـما[2]

يتّضح ممّا سبق أنّ الأضـرب الثّلاثة السّالفة الذِّكْرِ، تجتمع علىٰ أمر بعينه؛ وهو خلوّها ممّن له أثرٌ أو نباهةٌ إلا قليلاً، وفي ذي إشارةٌ إلىٰ أنّ تلك النّواقل ضعيفةٌ، لَيْسَ لها قوّةٌ يعتدُّ بها أو شهرةٌ تُسْمَعُ في الآفاق، انتقلت إلىٰ بطون أكبر منها؛ لتتقوّىٰ بها، أو جمعتها ببطون أخرىٰ دواعٍ اقتصاديّةٌ ومعيشيّةٌ، أو حربيّة، أو علاقة جوار؛ مثلما حدث لبني شهاب بن الأزمع، الذين دخلوا في خولان وصاروا منها وشهدوا أيّامها، علىٰ تركهم إنكار أصلهم ومَحْتِدِهم، وهذه ظاهرة عامّة في قبائل العرب التي وقع فيما بينها كثيرٌ من العلاقات؛ من أهمها علاقات المصاهرة التي كانت منتشـرةً ضمن حدود القبيلة انتشاراً بيّناً.

3ـ الـمُصَاهَرَةُ بَيْنَهم وبَيْنَ غَيْرِهِم:

الحقُّ الذي لا مِرْيَة فيه أنَّ علاقة المُصَاهَرة وَشَّجَتْ بين أبناء القبيلة الواحدة؛ فجمعت بين بطونها، أو بين القبائل الأخرىٰ فيما بينها، وقرَّبتهم حتىٰ غدا كثيرٌ منهم كأنّهم أسـرةٌ واحدةٌ.

وقد كان يراد بهذه العلاقة إطفاء نارِ العداوة والشّحناء، أو إخماد ثأر قديم؛ كالذي كان من تزويج جَسَّاس بن مُرَّة للهِجْرس بن كليب من ابنته سعاد[3]، ويُطْلَبُ بها أحياناً استدرار عطفٍ للاحتباء بِفِنَاءِ تلك الرّابطة؛ كما فعل عديُّ بنُ زيدٍ العباديّ، حينما استعطف النّعمان بن المنذر بمصاهرته له[4].

وفي هذا يقول خالد بن يزيد بن معاوية: «كان أبغض خلق الله ـ عزّ وجلَّ ـ إليَّ آل الزُّبير، حتّىٰ تزوّجت منهم رَمْلَةَ، فصاروا أحبَّ خلق الله إليَّ»[5]. أو أنَّ جاهاً، أو حظوةً، أو مكسباً سياسياً، أو مادياً، يطلب من ورائها.

---

(1) انظر: الإكليل: 2/ 333.

(2) انظر: الإكليل 2/ 31ـ32.

(3) انظر: شعراء تغلب في الجاهليّة (الدّراسة) 231، وانظر مصادره ثمّة.

(4) انظر: المرأة في الشّعر الجاهليّ 149.

(5) المصدر نفسُهُ 149.

وقد بدت فكرة المصاهرة شاحبةً ضامرةً في قبيلة خولان إذا ما قيست بمصاهرات القبائل الأخرىٰ، ولعلّ هذا شأنه في الجاهليّة والإسلام عند غيرهم من القبائل العربيّة الأخرىٰ. وإذا رغبنا في تطلاب العلّة في خمول علاقات المصاهرة لدىٰ قبيلة خولان، فعائدة إلىٰ غفول المصادر العربيّة عن ذكر مثل هذه العلاقات، وخصوصاً في الجاهليّة، إلّا ما وقف عليه الهمدانيُّ في الإكليل من نزرٍ يسيرٍ، لا يشفي غليلاً ولا ينقع صادياً، كان وحدَه المِيْرَة والزَّادَ في جمع علاقات المصاهرة فيما بين خولان، وبين غيرها من القبائل والأمم الأخرىٰ.

فمنَ المصاهرات في قبائل قضاعة ما نجده بين بطون خولان من أنَّ بنتاً لخالد بن قَيْس الحَيْوَانيّ - وهو سيِّد حيّ بن خولان في الجاهليّة - لم يُذْكَر اسمها، كانت عند مالك بن عمرو سَيِّد بني رشوان بن خولان، الذي اعتزل الحرب التي سُعِّرَت بين بني حَيٍّ بن خولان وبني سعد بن خولان، وعندما دارت الدّائرة علىٰ بني حيّ، قال مالك بن عمرو: لا سكنتُ بلد خولان بعد خالد بن قَيْس الحيوانيّ، وخرج وقومَهُ إلىٰ صعيد مصر مع الحَيْوانيّين مغاضبين لبني سعد بن خولان[1]، وكان هذا بتأثير علاقة المصاهرة وصداها. ونجد أيضاً أنَّ سُمَيَّةَ بنت عمرو بن كَوَاش بن حيٍّ بن خولان كانت عند الرّبيعة بن سعد بن خولان[2]، وأنَّ الخَرِيْدَةَ بنت يعلى بن سعد المالكيّ كانت تحت عمرو بن يزيد العوفيّ، شاعر خولان وفارسها، الذي أنجب منها مُحْكماً ويَعْلَىٰ ويزيدَ، وتزوّج عمرٌو العوفيّ بامرأة أخرىٰ أيضاً من قبيلة نَهْد، لم يُذْكَر اسمها، وأنجب منها سعداً وحكيماً، وبه كان يُكْنَىٰ[3].

ونجد في قبائل ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان أنَّ يزيد بن عمرو بن مسعود بن عروة بن مسعود بن عوف الخولانيّ، قد تزوّج بامرأة من قبيلة عنز بن وائل، ولم يُذْكر اسمها أيضاً[4].

وفي قبائل اليمن نجد في قبيلة كِندة أنّ مُزْنَةَ بنت وهب بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كِندة كانت عند الرّبيعة بن سعد بن خولان[5]، وأنَّ كبشة بنت الأزمع الأصغر بن عمرو ابن شِمْرَان بن عمرو بن الأزمع الخولانيّ كانت تحت شهاب بن العاقل بن ربيعة بن وهب بن الحارث الكِنديّ. في حين أنّ شـريقة بنت الرّبيعة بن سعد بن خولان - وهي أم شهاب بن العاقل

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 104، المطبوع 1/ 420».
(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 118، المطبوع 1/ 453».
(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 90، المطبوع 1/ 378».
(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 87، المطبوع 1/ 370».
(5) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 118، المطبوع 1/ 453».

الكِنديّ ـ كانت عند العاقل بن ربيعة الكِنديّ[1]، الذي أنجب شهاباً، بطنٌ كبيٌر دخل في خولان، وعقد حلفاً متيناً معها، وكان عوناً ونصيراً لها في وقائع كثيرة[2]، وكان ذلك الحلف بتأثير المصاهرة التي وَشَّجَتْ العلاقة وزادت من ارتباطها.

وفي حمير بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان، نجد أنَّ الفارعة بنت يزيد بن الأَصْبَغ بن حُجْر بن سعد ـ سَيِّد الرّبيعة بن سعد بن خولان ـ كانت تحت أبان بن ميمون بن حَرِيز بن حُجْر بن زُرْعَة بن عمرو بن يزيد بن عمرو بن حُجْر بن ذي شَمِر الحميريّ[3]، وكان من أولادها رفاعة بن أبان الخنفريّ، الذي قتله عمرو بن زيد الخولانيّ، وفي قتله هاجت الحرب بين بني سعد بن سعد والرّبيعة بن سعد، وافترقت فيما بعد، وكان هذا الأمر بتأثير علاقة المصاهرة التي ألقت بظلّها علىٰ بني الرّبيعة بن سعد الخولاني[4]، وأنَّ ريَّا بنت عمرو بن الحارث بن عمرو بن يزيدَ بن الفيَّاض بن حرب بن سعد بن سعد كانت عند مُرٍّ الأصغر بن عامر بن الحارث بن زيد بن مُرّ الأوسط بن ينكف بن مُرّ ذي سخيم الأكبر بن يعفر بن ناكور الحميريّ[5]، ولعلَّ هذا ما يُرَجِّح انتساب بعض عشائر بني خولان إلىٰ أرومة ذي سخيم الحميريّ[6].

وينقل لنا الحافظ ابن عساكر بسنده عن أبي الدّرداء خبر مصاهرة بلالِ الحبشيّ رضي الله عنه في صدر الإسلام لبني خولان، وفي هذا يقول: «لما دخل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه الجابية، سأل بلالاً أنْ يَقْدُمَ الشَّام، ففعل ذلك. قال: وأخي أبو رويحة[7]، الذي آخىٰ بينه وبيني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل داريّا في خولان، فأقبل هو وأخوه إلىٰ قومٍ من خولان، فقال لهم: قد جئناكم خاطبين، وقد كنَّا كافرَين فهدانا الله، ومملوكَين فأعتقنا الله، وفقيرَين فأغنانا الله، فإنْ تزوجونا فالحمد

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 118، المطبوع 1/ 453».
(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 123، المطبوع 1/ 465».
(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 283، المطبوع 1/ 385».
(4) انظر: الإكليل: 2/ 130 ـ 131.
(5) انظر: الإكليل: 2/ 252.
(6) انظر: مبحث انتساب خولان في حمير.
(7) أبو رويحة: هو خالد بن رباح، قيل: إن كنيته أبو رويحة، وهو أخو بلال بن رباح من غير نسب؛ إذ آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وله صحبةٌ، سكن داريّا، ولم تُذْكَرْ له رواية، قيل: قبره في حلب، والله أعلم. تاريخ داريّا 53، تاريخ دمشق 16/ 21 ـ 22.

لله، وإن تردّونا فلا حول ولا قوّة إلا بالله. فزوجوهما»[1]. وقيل: إن بلالًا تزوّج بهندٍ الخولانيّة[2].

إنَّ في الخبر السّالف ما يدلّ علىٰ مصاهرة بلال الحبشيّ رضي الله عنه لقبيلة خولان، وذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ونجد في خبر طويل يسوقه ابن عساكر عن فيروز الدّيلميّ اليمانيّ؛ وهو من الأبناء الفرس الذين استقروا في اليمن، أنّه لـمّا همَّ بقتله قيس بن مكشوح المراديّ ـ مُدَّعي النّبوّة بعد الأسود العنسيّ في خبر لهما ـ فرَّ فيروز وتَحَصَّنَ عند أخواله الخولانيّين[3]، وفي هذا ما يدلّ علىٰ مصاهرةٍ كانت بين الدَّيْلَمِ وخَوْلَانَ في اليمن.

وأورد الكِنديُّ خبراً يذكر فيه مصاهرة عبد العزيز بن مروان ـ الأمير الأموي ـ لخولان حينما ولي إمارة مصر، وفي هذا يقول عبد العزيز بن مروان: «قدمْتُ مصر في إمرة مسلمة بن مُخَلَّد، فتمنّيت بها أمانيَّ، فأدركتها؛ تمنّيت ولاية مصر، وأن أجمع بين امرأتي مسلمة...»، فتوفّي مسلمة، وولي مصر، وتزوج امرأتي مسلمة؛ وهما أم كلثوم السّاعديّة، وأروىٰ بنت راشد الخولانيّ[4].

فهذه هي مصاهرات خولان فيما بينها وبين القبائل العربيّة الأخرىٰ وغير العربية، والنّاظر فيها يجد أموراً؛ منها: أنّها كانت محصورةً في الصّقع اليمانيّ دون القبائل العربيّة التي نزلت بطن جزيرة العرب؛ أعني القبائل العدنانيّة، بل ظهرت خاملة خمول ذكرها في القبائل اليمانيّة نفسِها؛ من مثل مَذْحِج وهَمْدَان وغيرهما، حتىٰ كادت تكون معدومة، ولعلَّ هذا عائدٌ إلىٰ تفلّت أخبار القوم من أقلام العلماء الذين عُنوا بتدوين أخبار القبائل وأشعارها، يُضاف إلىٰ هذا ضياع عددٍ من مصنَّفات الهمدانيّ التي أودعها كثيراً من أخبار خولان، وعلاقاتها بجاراتها من القبائل التي افترشت كثيراً من أمواه اليمن منازلَ لها، ودياراً سكنتها، ورياضاً ارتاضت في فيئها، أو الأمكنة الأخرىٰ التي انتقلت إليها.

---

(1) تاريخ دمشق 7/ 137، وتاريخ الإسلام 3/ 204.

(2) انظر: تاريخ دمشق 10/ 434، 70/ 193.

(3) انظر: تاريخ دمشق 49/ 19، البداية والنّهاية 7/ 43، الكامل في التّاريخ 2/ 375 ـ 376، تاريخ الطّبريّ 3/ 324. فيروز الدّيلميّ: أبو عبد الله، وقيل: أبو عبد الرحمن يقال له: الحميريّ؛ لنزوله بحمير، وهو من أبناء فارس من فُرْسِ صنعاء، وفد علىٰ النّبيّ صلى الله عليه وسلم، قتل الأسود العنسيّ وقدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه، وقال عنه النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «رجلٌ مبارك من أهل بيتٍ مباركين»، مات فيروز في حدود السّتين للهجرة. الوافي بالوفيات 15/ 164.

(4) ولاة مصر: 76.

ثانياً ـ مَنَازِلُ خَولَان:

إذا كانتِ اليمن من أكثرِ أصقاع جزيرة العرب ذِكْراً، وأبعدِها صيتاً واشتهاراً عند النّاس في الجاهليّة والإسلام؛ للذي كان من بنيان أهلها للقصور والمحافد، وإقامة السدود التي أفادوا منها أيّما إفادة، وخلّدوا حضاراتٍ سامقةً علىٰ البيد والوهاد، ما زالت أوابدها وآثارها تشهد بصنيع أولئك اليمانيّين، فإنّ هذا لم يمنعهم من الانتشار في الآفاق.

والأراضي المترامية الأطراف؛ إمّا لكلأ يصيبونه، وإمّا لعدوٍّ يتجنّبونه، وإمّا لعقيدة يدركون أنوارها ويؤمنون بها؛ لذا صارَ يشُقُّ علىٰ الباحث تحديد المنازل التي كانت تبسطها هذه القبيلة أو تلك في الجاهليّة، وصدر الإسلام والعصر الأمويّ، وإنَّ الأمرَ في هذين العصرين أصعبُ؛ لمشاركة كثير من القبائل في الفتوح التي طالت أصقاعاً شاسعةً ينوء بوصلها أهل العزيمة والصّبر. وليس الحديث عمّا يعرض للباحث في تحديد منازل هذه القبيلة أو تلك بالبِدْعِ والجديد ههنا؛ إذ سبق إلىٰ التّنبيه عليه وبسط القول فيه ثلّةٌ ممن عُنُوا بجمع أشعار القبائل في غير ما أطروحة جامعية؛ لذا سيُكتفىٰ ههنا ببسط الـمُتَعَلّق منها بتحديد مواضع خولان[1].

فأبرز ما يُشْكل علىٰ مَنْ يطلبُ منازلَ خولانَ ويسعىٰ إلىٰ ديارها: سعتها واشتمالها علىٰ أمكنة كثيرة، متّصلة بأراضٍ أُخَر؛ مثل أرض سبأ، ومخلاف ذي جُرْت، ومواضع لحمير، وأصقاع لبلحارثِ بن كَعْب وعَنْس، ومخلاف حَضُور بن عدي بن مالك، ومخلاف أَلْهَان ومُقْرَىٰ، وحقل صَعْدَةَ، وأماكن أخرىٰ.

ويتناول الحديث عن منازل خولان مواطِنَهُمُ القديمة، وانتقالهم عنها لأسباب مختلفةٍ إلىٰ مواطنَ أخرىٰ، ثمَّ الوقوف علىٰ أبرز منازلهم وبلدانهم، والحدود التي امتدّت إليها، ومَنْ كان مجاوراً لهم من القبائل الأخرىٰ، والبلدان التي ظعنوا إليها، ولن يكتفى بنسبة هذا الموضع أو ذاك إلىٰ خولان، بلا تحديد أيّ بطونها سكنه، إن دلّت المصادر علىٰ ذلك وأسعفتنا. ولا بدَّ ههنا من التّنبيه علىٰ أمرٍ مهمٍّ؛ وهو تَوَسُّع الهمدانيّ في تَحْصِيل المواضعِ التي أفرغ فيها مجهوده وملأ تصانيفه الغنيّة، وهذا ممّا يُصَعِّبُ علىٰ الباحث تحديدها بدقّةٍ، أو التثبّت من صحّة ضبطها جمعاء؛ لمعرفة اليمانيّين بأسماءٍ غيرِ مألوفةٍ في السَّراة والسَّرو والمَخْفِد والمِخْلَافِ والمَصْنَعَةِ منها وغير ذلك.

---

(1) انظر ما كتبه د. شفيق البيطار في ديوان بني كلب (الدّراسة) 56 ـ 57، وما كتبه د. علي أبو زيد في شعراء تغلب 1/ 34، وما كتبه د. مقبل الأحمديّ في شعراء حمير (الدّراسة) 36.

وقد صنعتُ في آخر هذه الدّراسة ممّا اجتمع لديّ من أسماء مواضع خولان ومنازلها مُعْجَماً مُنتَلًّا من مصنَّفات البلدان ومعجمات العربيّة، وشفعتُ ذِكْرَ كلِّ موضعٍ بما قيل فيه ـ في مصادره القديمة ـ من أقوال السَّلف، وزَيَّنْتُ هذا الذكرَ بما وُقِفَ عليه من شعر قيل فيه أو في أربابه، مع تقديم أشعار خولان في ذلك علىٰ غيرها إن وجدت؛ لأنَّها المظنَّة والطِّلْبَةُ في معرفة البلاد.

فأمّا منازلهمُ القديمة التي ارتحلوا عنها إلىٰ غيرها، فكانت في تِهَامَة، إلىٰ جانب قبائل عمرو بن مَعَدّ ـ وهو قضاعة ـ أيّام كان مَعَدٌّ مقيمين فيها جميعاً، كأنّهم يدٌ واحدةٌ؛ تَضُمُّهمُ المجامع، وتجمعهمُ المواسم، حتىٰ وقعتِ الحرب بينهم، فتفرّقت جماعتهم وتباينت مساكنهم. ذكر البكريُّ فيما نقل عن ابن الكلبيّ بسنده إلىٰ ابن عَبّاس أنَّ ولد مَعَدٍّ توازعوا في البلاد ونواحيها؛ قال: «فصار لعمرو بن مَعَدِّ بن عدنان ـ وهو قضاعة ـ لمساكنهم ومراعي أنعامهم جُدَّة من شاطئ البحر، وما دونها إلىٰ منتهىٰ ذات عِرْق إلىٰ حَيِّزِ الحرم من السَّهل والجبل»[1].

وظلّت قضاعة مجتمعة حتىٰ وقعتِ الحرب بينها وبين نزار بن مَعَدّ، وكانت أوّلُ وَقْعَةٍ بينهما أنَّ حَزِيْمَةَ بن نَهْد بن زيد بن ليث بن سود بن أسود بن إلحاف بن قضاعة، كان يَتَعَشَّق فاطمةَ بنتَ يَذْكُر ابن عَنَزَةَ بن أسد بن ربيعة بن نزار، الذي وثب عليه فيما بعد حَزِيْمَةُ وقتله، وفيه تقول العرب: «حتَّىٰ يَؤُوبَ قَارِظُ عَنَزَةَ»[2]، فكانتِ الحرب التي قهرت قضاعة وبدّدت قبائلها وبطونها، وأجلتها عن منازلها، فسارت بلي وبهراء وخولان ـ وهم بنو إلحاف بن عمرو بن قضاعة ـ ومهرة بن حَيْدَان ومن لحق بهم إلىٰ بلاد اليمن، فوغلوا فيها حتىٰ نزلوا مأرب، أرض سبأ بعد افتراق الأزد منها، وأقاموا بها زماناً حتىٰ أنزلوا عَبْداً لأرَاشَةَ بن عامر بن عَبِيْلَة البلويّ يقال له: (أَشْعَبُ) في بئرٍ بمأرب، وأدلوا عليه دلاءَهم، فَطفق الغلام يملأ لمواليه ويؤثرهم، ويبطئ عن زيد اللّات بن عامر بن عَبِيْلَة، فغضب، فحط عليه صخرةً، وقال: دونك يا أشعب، فَدَمَغَتْهُ، فاقتتل القوم، ثُمَّ تفرّقوا، فمالت مهرة بن حَيْدَان إلىٰ الشِّحْرِ، ونزلت خولان في مخلاف خولان، وفيهم قال الـمُثَلَّمُ بنُ قرطٍ البَلَوِيُّ:

ألـم تـرَ أنَّ الـحـيَّ كـانُـوا بِغِبْطَةٍ ... بِـمَـأْرِبَ إذْ كَـانُـوا يَحُلُّونَها مَعَا

---

(1) معجم ما استعجم «المقدّمة» 1/ 17.

(2) معجم ما استعجم «المقدّمة» 1/ 19 ـ 20. أمّا رواية الهمدانيّ في تفرّقِ قضاعة فيقول: «إنَّ عامراً ماء السّماء بن حارثة جَرَّدَ ونَدَبَ إلىٰ الشّام بأمر الملك الملطاط بن عمرو أحياء قضاعة، وَوَلَّىٰ عليهم زيد بن ليث بن سُود، فلمّا صاروا بالحجاز يريدون الشّام، اختلفوا علىٰ أميرهم زيد بن ليث، فافترقوا عنه؛ فمنهم من رجع إلىٰ اليمن؛ وهم: خولان ومَهْرَة ومجيد، ومنهم من نزل الحجاز؛ وهم بليّ وبهراء.... إلخ» معجم ما استعجم 1/ 51 ـ 52.

بَـلـيٌّ وبَـهْـراءٌ وخَـوْلَانُ إِخْـوَةٌ لِعَمْرِو بنِ حَافِ فَرْعِ مَنْ قَدْ تَفَرَّعَا

أقَامَ بِهَا خَوْلَانُ بعد ابن أمِّهِ فأثرىٰ لَعَمْرِي في البِلَادِ وأَوْسَعَا[1]

وانصرفت جماعة من تلك القبائل راجعين إلىٰ بلادهم من تهامة والحجاز، فَقَدِموها وأقاموا بها[2]، وبقيت خولان في ديارها القديمة، ولم تُغَادِرْهَا إلاَّ بعد نشوب الحرب بين بطونها التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً.

فأمّا خولان العالية فهي مزيَّةٌ مكانية لهم؛ لأنّهم ارتفعوا من مأرب الكائنة بصرواح - وهو قصر لهم - إلىٰ جبال شرقي صنعاء، فسمُّوا خولان العالية، وهم الذين ذكرهم النّبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم في كلامه عندما قال: «اللهم صلِّ علىٰ السّكاسك، وعلىٰ الأملوك، أملوك ردمان، وعلىٰ خولان العالية»[3].

وأما مَنْ بقي من خولان في الغَوْر بمأرب فخرجوا بعد ذلك إلىٰ مخلاف صَعْدَةَ وحقلها، الذي يُشَكِّلُ مختزلاً من بلد هَمْدَان[4]، فَسُمُّوا هؤلاء بخولان صعدةَ أو قضاعةَ، وهذا التّمييز لا يتّكئ علىٰ حقيقة يمكن رَدُّهَا إلىٰ اختلاف النّسب، وإنّما نشأ من اختلاف طبيعة المكان: «إنّما قيل خولان العالية؛ للفرق بين البلاد، لا الفرق بين النّسب؛ كما يقال في (أزْد شنوءة) و(أزْد عمان)، ولا إشكال في أن الجميع من الأزْد، وكما يقال: (طيّئ السّهل) و(طيّئ الجبل)، و(خولان الشّام) و(خولان اليمن)، و(همدان الجبال) و(همدان البون)»[5].

ولعلّ في هذه المقالة ما يلامس الصَّوابَ؛ لأنَّ منازلَ الخولانيّين تكاد تكون متّصلة في شماليِّ اليمن من نحو نجران ومأرب حتىٰ صعدة - قاعدتهم ومخلافهم - فما والاها من الجبال الواقعة غربيَّها المشرفة علىٰ تهامة، انحدر منها فروعُ أوديةٍ تصل بمخلافهم، واتصال البلاد دليلٌ في الغالب علىٰ تقارب الأنساب وتداخلها[6].

افترشت خولان العالية صقعاً لها ما بين شرقي صنعاء ومأرب - مخلاف خولان - الذي يتّصل

(1) انظر: معجم ما استعجم «المقدمة» 1/ 27.

(2) انظر: معجم ما استعجم «المقدمة» 1، 28.

(3) صفة جزيرة العرب 235، شمس العلوم 7/ 4724.

(4) انظر: صفة جزيرة العرب 248، شمس العلوم 7/ 4724.

(5) الإكليل: «المخطوط 1/ 61 - 62، المطبوع 1/ 280»، والمفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 2/ 401.

(6) انظر: الجوهرتين العقيقتين المائعتين: 259.

بمخلاف آل ذي جُرْت بن يكلىٰ بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن أُدَد، من جنوبيه إلىٰ ما يحادُّ بلد عَنْس والحدا من مُرَاد[1]، حتىٰ يبلغ هذا الاتّصال درجة الاختلاط والتّماهي؛ لأنَّ خولان وذا جُرْت حِلَالٌ[2].

ويسمىٰ مخلاف ذي جُرْت وخولان خزانة اليمن؛ لما له من الخيرات الوفيرة[3]، وتمتدّ بلادهم علىٰ جميع الجبال والمرتفعات في الصّقع المذكور، لا يشاركهم فيها أحد، حتىٰ بلاد نَهْم ومُرْهِبَة من هَمْدَان ومُرَاد وبَلْحَارث، حيث يكون جبل الرَّضْرَاض حَدًّا بينهم وبين هذه القبائل في شمالي صنعاء[4].

ولم أجد فيما وقفت عليه من مصنَّفات الهمدانيّ ـ التي طالما كان المتّكأ عليها في رسم منازل خولان العالية ـ ما يساعد في فَرْع مخلاف خولان العالية عن مخلاف ذي جُرْت، وإذا كان الهمدانيّ قد ألمع إلىٰ تجاور المخلافين وتداخلهما معاً، فإنَّ هذا لا يُسَوِّغ لنا القول بعدم الفصل بينهما. فنجد ابن خُرْدَاذبه (235هـ) يجعل مخلاف ذي جُرْت مستقلًّا عن مخلاف خولان العالية، بتقسيم سابق لعصر الهمدانيّ ومختلِفٍ عنه[5]؛ وهو ممّا يحدو بنا إلىٰ القول: إنّ المخلافين كانا منفصلين غيرَ متداخلين.

وهذا ما يرجّح لدينا أنَّ تداخل المخلافين كان في النّصف الثّاني من القرن الثّالث الهجريّ في أقرب تقدير، وأكثر ما ترفدنا به تقسيمات الهمدانيّ فيما يتعلّق بِفَرْع المخلافين، إدخاله في ذي جُرْت وجعله فيها، وهي منطقة بئر الخولانيّ الواقعة غربي جَبَل كِنَنٍ[6] الذي تقع بجواره قرية (جُرْت) من النّاحية الشّمالية الغربيّة، ولعلّ في هذا ما يفيد في رسم الحدِّ الفاصل بين مخلاف خولان العالية ومخلاف ذي جُرْت.

ثم يُعَرِّج الهمدانيُّ علىٰ تَوْصِيف ذلك الصّقع منتهجاً عَرْضَه ـ بناءً علىٰ سَعته ـ وَفْقَ مجموعةِ ما يَلفُّ ذلك المخلاف من أودية يذكرها في نسق واحد من ناحية الشمال؛ مستهلًّا بوادي السِّر ـ سِـرٍّ بن الرُّوية المذحجيّ ـ الذي يحوي العيون والآبار، وهو من عيون أودية اليمن، وفيه أيضاً قُرًى كثيرة؛

(1) انظر: صفة جزيرة العرب 235، البلدان لليعقوبيّ 319 وذكر شيئاً من ذلك في أثناء تعداده لمخاليف اليمن.

(2) انظر: الإكليل 10/ 28، وحِلاَل: لفظةٌ تدلّ علىٰ الاختلاط والتّجاور. وانظر: التّاج (حلل).

(3) انظر: صفة جزيرة العرب 235.

(4) انظر: صفة جزيرة العرب 151 ـ 152، 239، وفيها تحديد لشمالي صنعاء. وانظر: الجوهرتين العقيقتين المائعتين 259، ونشر المحاسن اليمانيّة 81.

(5) انظر: المسالك والممالك 141، وعنه في أحسن التّقاسيم: 91.

(6) انظر: صفة جزيرة العرب 265، معجم البلدان 4/ 484 (كِنَنٌ) تمييزاً له من (كَنَنٌ)، وهو جبل من أعمال صنعاء، علىٰ رأسه قلعة يقال لها: (قَيْلة) لبني الهَرْش. وانظر: الجوهرتين العقيقيتين المائعتين: 201.

ومنازل لآل الرُّوية للضيافة ولمن سبل الطّريق، وفيه من جبال مراد، وجبل برجام من السِّر، ومنازل آل الرَّوية بأعفافٍ وحذان من السِّر ذاته، وفيه قرىٰ كثيرة؛ مثل: الأَسْحَرِيين والبركة والقرظة، نزلتها أقوامٌ من خولان يضاف إليها الجبال؛ منها: ذَبَاب وصَـرَع، وسامك، والفلكة، وأَذْيَر، ومن الأودية الصغيرة وادي سَعْوان، وهو وادٍ يكاد يسنت سنين متوالية، ثم إذا أقبل أتىٰ بثمرٍ كثيرٍ، وقد ذكره بعض قدماء حِمير؛ فقالوا: «أهلك الأرض مسور، وأختها بتوعر، وأحور فأحور، وسعوان لو يمطر»، ووادي مسور، ووادي التّناغم، ووادي عاشر، ووادي رَمَك، ووادي غَيْمان، ويَفْد، ويَدَاع، وبليداتٌ منها ما يزال عامراً ولها ذكر في التّاريخ[1].

ووادي ملاحى بالجوف، وهي أرض فيها حُلَلٌ وغاباتٌ، وفيه غِيْلٌ، وإليها يُنسب يوم (رزم ملاحى) بين هَمْدَان ومَذْحِج[2]، ووادي قرونىٰ، ووادي سيان، ووادي مقولة، ووادي خِدَار ووعْلاَن، ووادي سامك، ووادي دبرة، ووادي مرحب، ووادي هروب، ووادي حبابض، ووادي يكلىٰ، ووادي الشزب، ووادي عرقب، وهما الحدُّ ما بين ذي جُرْت وخولان وبين عَنْس، ويُحَادُّهَا من ناحية القحف الحَدا بن نَمِرَة، ومن ناحية يكلىٰ جَبْرَة، وهي الحدُّ بينها وبين عَنْس، ويختلط بأودية عنس: وادي بوسان، والأهجر بالشَّزب، وعرقب، ومن أودية ذي جُرْت إلىٰ حريب عَنْس[3].

وبعد خروج بني سعد بن خولان من مأرب التي نزلتها في أول الأمر حينما فزعت من تهامة، مالت إلىٰ صرواح[4] وافترشتها زمناً طويلًا، حتىٰ سيادة حجر بن ربيعة بن سعد الخولانيّ الذي خرج من صرواح؛ اتقاءً لبعض ملوك حمير ليصير إلىٰ الشّام، فمرّ بحقل صعدة فسرَّه ما رآه من خضرة واخضرارٍ، فاختطَّ فيه واقتطع هو ومن معه، ثمَّ نزل عليه بنو شهاب بن العاقل، وبنو بنيه عائدين من ضَرِيَّة؛ ليسكنوا مع آل عبد الله ذي الأفراس بن سكسك، فسألوه الحلف والمظافرة لما أعجبهم حقل صعدة، فأجابهم إلىٰ ذلك، وأشركهم في الحمىٰ[5].

أمّا الخولانيّون الذي رغبوا عن الغور وقصدوا صَعْدَةَ، فهم الأديمُ من خولان (بنو بشر وبنو

---

(1) انظر: صفة جزيرة العرب 236 ـ 237.
(2) انظر: صفة جزيرة العرب 237.
(3) انظر: صفة جزيرة العرب 238.
(4) انظر: الإكليل 8/ 75، الإكليل: «المخطوط 1/ 61، 114، 119 ـ 120، المطبوع 1/ 277، 446، 456 ـ 457»، معجم ما استعجم 3/ 831، معجم البلدان 3/ 402.
(5) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 119، المطبوع 1/ 456 ـ 457».

يعنق)، احتلفوا وكتبوا حلفهم في أديم، فسمُّوا به الأديم، ونزلوا صعدة[1]، وهي مخلاف واسع - أكثر سكّانه من الأديم - يدخل بعضٌ من أجزائه ضمن مخاليف تهامة وأعالي السَّراة إلىٰ سراة جَنْب في الشّمال، ويتّصل بعض أنحائها شرقاً ببلد وادعة النّجديَّة[2]، وهو تقسيمٌ إداريٌّ نجدهُ عند ابن خرداذبه (235هـ) وعند اليعقوبي (292هـ) وفق ذكرهما (لمخلاف صعدة) مُفْرَداً، آتياً عند الأوّل في أثناء تعداده أقسام اليمن ومخاليفها، على أنّه جزءٌ كبيرٌ يتضمّن عِدَّة مخاليف، ذاكراً في ذيل ذلك «مخلاف نجدي خولان ذي سخيم وغَوْرَيْهَا» الذي يتداخل معه الجانب النّجديّ والغور - السَّراة - من خولان صعدة[3]، التي تمتدّ بدءاً من الشَّمال بسراة جَنْبَ والعُرِّ وأُنَافِيه وأبراق من ناحية بِيْش - وهي مواضع لخولان - حتىٰ جبل أَبْذَر، وهو لبني عوير من آل ربيعة بن سعد بن خولان، وجنوباً أرض ساقين. ويطلق علىٰ هذا الامتداد: سَرَاةُ خولان، أو القِدّ الذي ينتهي عند تهامة غرباً[4].

يقع في هذه السَّراة الطّويلة التي استوطنتها خولان مجموعة روافد ورؤوس مجارٍ لأودية تنتهي عند تهامة؛ من أشهرها: وادي مور الذي يصفه الهمدانيّ بـ (ميزاب تهامة الأعظم)؛ إذ تأتي روافده من بعض غربي حمير، وغربي بلاد همدان جميعها، وبعض بلاد غرب خولان[5]، ثُمَّ يتلوه وادي بني عَبْس، فوادي حَيْرَان وخَذْلَان وما بينهما من أسفل حَجُور من بلد همدان، وإلى الجنوب من سراة خولان مباشرة، ومن ثمَّ باتجاه الغرب حيث تهامة[6].

ثم وادي حرض، وله فرعان: الجنوبيّ الذي تأتي روافده من بلد همدان، والشّمالي تأتيه روافده من

---

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 94، المطبوع 1/ 390»، والإكليل 10/ 183، معجم ما استعجم 3/ 832، 833، صفة جزيرة العرب 250، شمس العلوم 4724/ 7 وفيه: «خولان قضاعة، حتىٰ قيل: إنّ مَنْ يجعل صعدة من خولان يقولون لمن بجبال الغور: خولان المغرب، ولمن بنواحي صعدة: خولان المشرق، ولمن أقام منها باليمن الأقصىٰ: خولان اليمن، ولمن بنواحي صعدة: خولان الشّام».

(2) انظر: صفة جزيرة العرب: 250.

(3) انظر: المسالك والممالك 136 وما بعدها؛ إذ يذكر ابن خرداذبه في أثناء تعداده لمخاليف اليمن: مخلاف صنعاء، ثمّ مخلاف صعدة، على أنّهما مخلافان كبيران يشملان القسم الشمالي من الهضبة الوسطىٰ في اليمن بدءاً من صنعاء وما يجاورها، ثُمَّ يذكر مخاليف أخرىٰ أصغر من السابقين مرتبطةً بهما؛ كأن يذكر من هاتيك المخاليف الصغيرة التابعة لمخلاف صعدة أو المرتبطة بها (مخلاف نجدي خولان ذي سخيم وغوريها)، ويَدلُّ علىٰ هذا ما ذهب إليه قدامة بن جعفر حين جعل صعدة مشتملة علىٰ مخاليف كثيرة. البلدان 318، انظر الخراج وصناعة الكتابة، 83، 86. ويرد أيضاً خولان ذي سخيم اسماً لمخلافٍ مستقلٍ يرتبط بمخلاف صعدة. تاريخ صنعاء 19، نزهة المشتاق 1/ 147.

(4) انظر: صفة جزيرة العرب 116.

(5) انظر: صفة جزيرة العرب 123.

(6) انظر: صفة جزيرة العرب 124.

بلد خولان - بلد بني شهاب بن العاقل - حيث يلتقي الفرعان في السَّرين، لتمدَّ الوادي عند أعلاه في اللِّصاب شِعَابُ يَمْنَة بلد خولان ويَسْرَة بلد همدان، ويصب في السقيفتين في ناحية تهامة[1]، وأودية أخرىٰ يطول ذكرها[2].

ومن المواضع المهمَّة التي افترشتها خولان: الـمَهْجَمُ، الذي أقامت في أعلاه مجاوِرَةً لبعض قبائل عَكَّ التي سكنت في أسفله[3]، كما نزلت خولان وادي العمود الكائن إلىٰ الشّمال من مجرىٰ وادي بِيْش في بطن تِهَامَةَ، متقاسمين سكناه مع قبائل من الأَزْد وكِنَانَةَ[4].

أمَّا شرقي صعدة وحقلها فكانت تقيم وادعة من قبيلة همدان غربي وادي نجران[5]، وكذا الأمر في وادي ضدح التّابع لشاكر من همدان نفسها[6].

ويجمِلُ الهمدانيّ توزّع بطون خولان وانتشارها في مخلاف صعدة الواسع قائلاً: «سكنها الأكيليُّون من آل ربيعة بن سعد الأكبر بن خولان، ويُرْسَم، جماعُ قبائل من الكَلَاع، ومن همدان ومن سعد بن سعد، ومن باقي بطون خولان وغيرها، وفيها بيت من الأَبْنَاء[7]: البَطْنَةُ، والغَيْلُ، والعَشَّةُ لبني سعد بن سعد، وسـروم خولان، وحضْبَرَ والأَخْبَاب لبني سعد، والحاضنة، وصبر لوادعة، والخبت لمسلم، وسِبَاق من بني سعد، وقراظ ويسنم لبني سعد، ورغافة وبوصان لبني جماعة من خولان، ويشاركهم فيها بنو رشوان بن خولان، سراتها إلىٰ دفا لبني ثور والأبقور ورازح، ودفا لبني صُحَار بن خولان، وقيوان وأنافيه لهم ولبني حذيفة والأبقور، وغيلان لرازح من خولان، وعراش لبني بحر من آل الرّبيعة، ووسحة لبني بشر، وبني يعنـق وهم الأديم من خولان، ساقين لبني سعد بن سعد وبني شهاب، وعفارة وحيدان لبني شهاب بن العاقل من كندة أحلاف آل ربيعة، وتضراع لبني حمرة، وموطك لبني حَمْرَة من سعد، والعبلاء وكهلان لبني حمرة، وكُنَا لبني سعد، والعرض لبني ثور

---

(1) انظر: صفة جزيرة العرب 125.

(2) انظر: رسم هذه الأودية بترتيبها في: معجم بلدان خولان الذي ذُيِّلت به هذه الدّراسة.

(3) انظر: صفة جزيرة العرب 258.

(4) انظر: صفة جزيرة العرب 259.

(5) انظر: صفة جزيرة العرب 318، 249 ـ 250.

(6) انظر: صفة جزيرة العرب 165، 241.

(7) الأبناء: هم أبناء الفرس الذين جاؤوا مع سيف بن ذي يزن الحميريّ؛ لنصرةِ أهل اليمن علىٰ الأحباش، ولإخراجهم من أرض اليمن، ثمَّ بقوا فيها مع سيفٍ وبعده، حتّىٰ طلع الإسلام وعليهم يومئذٍ باذان، وقد امتدّت علاقاتهم بالعرب إلىٰ درجة المصاهرة، ودخل كثيرٌ منهم في الإسلام.

بن سعد، والقفاعة سوق المعدن لحمرة[1]، والسرو وحرجب لبني حي بن خولان، وعَنْمَل وبدر لبني حيّ، والمَذْرىٰ وعرو وخَرّ للرعا[2]، فهذه بلد خولان علىٰ حدِّ الاختصار، وأغوارها داخلة في تهامة»[3].

ولما وقعت الحرب في الجاهليّة بين بطون خولان ـ بني حَيٍّ وبني سعد ـ ظعن الحَيْوَانِيّونَ إلىٰ صعيد مصر[4]، كان ذلك أوّلَ انتقال لهم ـ تقفنا عليه المصادر ـ إلىٰ خارج منازلهم التي نزلوها حينما تفرّقت قبائل قضاعة من اليمن.

ولما أشرقتِ الدّنيا بنور الإسلام وفُتِحَتْ بلاد الشّام ومصر، انتقل كثيرٌ من الخولانيّين من ديارهم، فسكن عدد منهم في مدينة دمشق، واتّخذوا من إقليم خولان صقعاً لهم، وهو يضم قُرًى وبليدات عِدَّة؛ منه (عذراء) في غوطة دمشق، ومال آخرون إلىٰ (داريا)؛ وهي قرية مشهورة من قرىٰ دمشق بالغوطة، وكانت أعظم قرىٰ أهل اليمن بغوطة دمشق. وسكن آخرون (مَيْدَعا) التي كانت لمعاوية بن أبي سفيان، ونزل بعضهم في (الصّفوانيّة) الكائنة خارج باب توما من الإقليم نفسه، وتدلّ بعض الأخبار علىٰ أنّ بعض الخولانيّين قد سكنوا (حمص) بعد فتحها[5].

فهذه أشهر المواضع التي سكنتها خولان بعدما خرجت من موطنها الأصلي في تهامة، مع أخواتها قبائل قضاعة وسائر قبائل مَعَدِّ بن عدنان. ولوحظ فيما سلف اختلاط بطون خولان وعشائرها بغيرها من قبائل اليمن في كثير من المواضع التي نسبت إليها في اليمن، وكثيراً ما كان هذا الاختلاط مشفوعاً بالجوار، وهو مدعاة لنشوء علاقات متباينة بين خولان ومَنْ خالطها أو جاورها، وهي علاقات لا تخرج عن كونها علاقات جوارٍ ومودّةٍ تارة، وأحلافٍ تارةً أخرىٰ، وعداوة وخصومة تارةً ثالثة، وهذا ما سيعالجه المبحث الآتي من علاقة خولان بجوارها من القبائل العربية، وغيرها من الأمم المجاورة؛ ولا سيّما الأحباش والفرس الذين دخلوا اليمن، وكان لخولان دورٌ مهم في تلك الحقبة من تاريخ اليمن السّعيد.

---

(1) وردت (الحرة) مُصَحَّفَة ولا معنىٰ لها، ولعلّها حمرة، وهكذا صحّحها الأكوع. وعَلَّقَ الشَّيخُ حمد الجاسر بقوله: «وقد تكون قراءته صحيحة؛ فهم من بني سعد من خولان، وقد تكون (لِحَيٍّ) من فروع خولان أيضاً، ذكر الهمدانيّ بلادهم بعد كلامه عن القفاعة». انظر: الجوهرتين العقيقتين المائعتين: 258.

(2) انظر: رسم هذه المواضع مرتبة في معجم بلدان خولان الملحق بهذه الدّراسة.

(3) صفة جزيرة العرب 249 ـ 250.

(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 63، 69، المطبوع 1/ 286، 306».

(5) لمزيد من الاطلاع عن المواضع الواردة هنا انظر معجم مواضع خولان.

ثالثاً ـ عَلَاقَاتُ خَوْلَانَ وأيَّامُهَا:

وقف الهمدانيُّ في مصنَّفاته التي انتهت إلينا ـ كالإكليل، وصفة جزيرة العرب، وكتاب الدّامغة ـ علىٰ شيءٍ يسيرٍ من أخبار خولان وأيّامها، بل إنَّ جزءاً كبيراً من أخبارها دخل في كتاب الأيّام الذي اكتفىٰ بالحَوَالة عليه، وهذا الكتاب لا يزال في عِدَاد كتبه المفقودة، يسَّـر الله وجودها. وقد ذكر محمد بن نشوان الحميريّ راوي الإكليل ومختصره (573هـ) أهميّة كتاب الأيّام في أثناء حديثه عن أهميّة الإكليل، وما فيه من أخبار وأنسابٍ وأيّام وعلاقات؛ فقال: «فتصنيفه فيه [يعني الإكليل] وفي سائر مصنَّفاته، كتاب الأيّام ونحوه، يدلّ علىٰ غزير علمٍ، وقوّة فهمٍ، وشدَّةِ فحصٍ علىٰ أخبار الأمم، ومعرفةٍ باهرةٍ بأخبار العرب والعجم...»[1].

ومن الحِوالات التي وقف عليها في الإكليل علىٰ تضمين كتاب الأيّام لأخبار خولان قوله: «وقد سكنت بها عشرين سنة [صعدة]، فَأَطْلَلْتُ علىٰ أخبار خولان وأنسابها ورجالها، كما أَطْلَلْتُ علىٰ بطن رَاحَتِي، وقرأت بها سجلَّ محمّد بن أبان الخنفريّ المتوارَث من الجاهليّة، فمن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب، ومنها ما دخل في كتاب الأيّام...»[2]. وكثيراً ما كان يذكر علاقة خولان بغيرها من القبائل العربيّة بالتّلميح، أو بإشارة سـريعة بلا تفصيلٍ أو توضيحٍ مُبَاشِـرٍ؛ إذ أودعَ كتابه الأيّام علاقات خولان وأيّامها مع غيرها من القبائل التي كانت ضمن دائرة اهتمامه وعنايته[3]، أو علاقات بطونها بعضها ببعضها الآخر.

1 ـ العَلَاقَةُ بَيْنَ بُطُونِ خَوْلَانَ:

لم تكنِ العلاقة بين بطون خولان وأفخاذها علاقة حميميّة قائمة علىٰ التآلف والتّعاضد ضدّ الأخطار الخارجيّة التي تهدّد أمن القبيلة، بل كانت علاقة قائمة علىٰ التّنافس وفرض الذّات وإثباتها بقوة السّيف في غالب الأحيان؛ طمعاً في سيادة أو زعامة أو ثأرٍ يثلج صدوراً حاميةً، فتشتعل حربٌ ضروسٌ بين هذا البطن وذاك؛ لتضع أوزارها في النّهاية بجلاء البطن الأضعف عن أرض القبيلة في الغالب إلىٰ أرض أخرىٰ، ربما كانت بعيدة شاسعة؛ كما حدث لبني حيّ بن خولان يوم أجلوا من صعدة إلىٰ صعيد مصر.

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 1، المطبوع 1/ 81».
(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 60، المطبوع 1/ 275».
(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 66، المطبوع 1/ 296». وفيها مثالٌ لأيّام خولان مع غيرها من القبائل العربيّة «حرب قضاعة وهمدان».

وشأن خولان في هذا هو شأن مثيلاتها من القبائل العربيّة التي ارتبط كثيرٌ من بطونها مع الأخرىٰ بمثل هذه العلاقات التي كانت تفضي إلىٰ جلاء هذا البطن أو ذاك، أو دخوله في قبيلة أخرىٰ؛ طلباً للجوار والحماية.

ونجد خمس إشاراتٍ إلىٰ بعض الحروب والوقعات التي وقعت بين بطون خولان؛ وأوّلها: تلك التي نشبت بين بني عوف بن زيد بن أسامة بن زيد بن أرطاة بن شُرَحْبِيْل الخولانيّ وبني حيّ بن خولان[1]، الذين تجرّؤوا علىٰ المُحْرِز بنِ عَمْرو بن مَسْعودِ بن عروة بن مسعود العوفيّ وقتلوه، فَسُعِّرت بقتله الحرب وعلت ألسنتها حتىٰ قتل به المِقْدَام بن زيد الحيوانيّ - وهو سيّد بني حيّ في الجاهليّة[2] - وغضب في مصرعه سادات بني سعد؛ ولا سيّما عمرو بن حجر - أبو رعثة الأكبر ؛ لأنّه خال أبيه، وفي قتله دبَّ الخلاف بين بني مالك وبني عوف ابني أسامة بن زيد بن أرطاة بن شرحبيل، وتفرّقا فيما بعد[3].

وثانيها: ما ذكره الهمدانيّ من أمر الحرب التي نشبت بين بني حيّ بن خولان وبني سعد بن سعد ابن خولان؛ لأنَّ رجلاً من بني الحارث بن سعد قد خطب إلىٰ بني حيّ بعض كرائمهم، فأكبروا نفوسهم عليه، فدافعوه، فلمّا ألحَّ عليهم بالطَّلب، اعتدوا عليه وخَصَوْهُ، فغضب في ذلك بنو سعد بن سعد، واندلعت الحرب التي طالت بني حيّ، فأجلوا عن ديارهم إلىٰ مصر، وركب بعضهم البحر وغرق، وباتوا جُذَاذاً ضِعَفاً؛ حتىٰ قال عمرو بن زيد - مغرق الأكبر - في إجلائهم مفاخراً:

فألحَقتُ حَيًّا بالصَّعِيدِ بِما جَنَوا وأقْفَرَ مِنْهُم خُنْفُعٌ فَقَابِلُهْ[4]

ووقف بنو شهاب بن العاقل بن ربيعة بن وهب بن الحارث الأكبر بن كندة إلىٰ جانب بني سعد بن سعد بن خولان؛ إذ هم أحلافٌ منذ عهد حجر بن الرّبيعة وابنه شُرَحْبِيْل حتىٰ عمرو بن زيد - مغرق الأكبر، وفي تلك المحالفة قال المسلم بن صاعد الشِّهابيُّ:

---

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 87، المطبوع 1/ 370».

(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 63، المطبوع 1/ 285».

(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 63، المطبوع 1/ 285» يقول الهمدانيّ واصفاً عمرو بن حجر الخولانيّ: «هو الذي قام برئاسة أبيه، وانقادت له قضاعة اليمن كلّها بالطّاعة، وكان سَيِّداً، غضب في قتل المقدام بن زيد؛ لأنّه خال أبيه، وشاقّ بني عوف بن زيد بن أسامة، فغضب معها بعض بني مالك، فقال سعد بن الليث المالكيّ لعمرو في فرقة قومه:

فيا عمرو أنت أخ للبؤوس فبئس الخليفة إذ خلفا»

الإكليل: «المخطوط 1/ 70، المطبوع 1/ 309»، وفيه [ساق بني عوف] تصحيف.

(4) الإكليل: «المخطوط 1/ 63، 69، 95، المطبوع 1/ 286، 306، 392». وانظر: الدِّيوان ق5/ ب2.

أَخَذْنَا بِحَبْلِ القَيْلِ حُجْرٍ فَلَمْ نَزَلْ ... إلـى غَـايَـةِ الأَيَّــامِ نَنْفِي الأَعَـادِيَـا[1]

ويُذْكَر أنَّ الشّهابيّين تربّوا في أحضان الخولانيّين، وترعرعوا في فنائهم، ولا سيّما بني حيّ بن خولان الذين لقوا من حيفهم وظلمهم ما لقوا؛ حتّىٰ قال خالد الحيوانيّ يَتَشَكّىٰ بغيهم وتنكرهم للفضل والمعروف:

وَلَدْنَا السَّـراةَ الغُلْبَ مِنْ عَبْدِ مَالِكٍ ... فَقَامُوا عَلَيْنَا بالسُّيُوفِ الهَوَاتِكِ[2]

وثالث تلك الحروب أشار إليها الهمدانيّ إشارة سريعة، ولم أقع في المصادر علىٰ ذكرٍ لها؛ وهي حرب فياض وثابت، وَلَدَيْ يزيدَ بن عبد الله بن الحارث بن النعمان بن مالك بن الحارث بن سعد بن الحارث بن النعمان بن عمرو بن الفيَّاض بن حرب بن سعد بن سعد بن خولان[3].

ورابعها: حرب سعد بن سعد والرّبيعة بن سعد الأُولىٰ في صعدة؛ بسبب قتل مُرٍّ بن عامر بن الحارث بن زيد بن مُرٍّ الأوسط ينكف بن مُرٍّ ذي سخيم الأكبر الحميريّ للحُصَيْن بن حَرِيز الخنفريّ الحميريّ ـ وهو أحد الأقوال المَدَدِ الذين بعثهم سيف بن ذي يزن مع نوال بن عتيك غلامهِ؛ لنصرة خولان وقبائل قضاعة ومذحج علىٰ قبائل قَيْس عَيْلَان (هَوَازن وسُلَيم)، يضاف إلىٰ ما سلف بثّه الفرقة والفتنة بين صفوف الخولانيّين، وإخلاله بهم إلىٰ هوازن التي أَفْشَى لها كل سرٍّ، ومزجه الغدر بالخيانة، وميله إلىٰ بني سعد بن خولان[4]، وكان ذلك قُبيل الدّعوة الإسلاميّة بمكّة[5]، وممن قتل في تلك الحرب من الخنفريّين: زرعة ويزيدُ ابنا الحصين.

وخامسها: الفتنة التي وقعت أيضاً بين بني سعد بن سعد والرّبيعة بن سعد في عصر بني أميّة؛ بسبب قتل رفاعة بن أبان الخنفريّ علىٰ يد عمرو بن زيد، سيِّد بني سعد بن سعد بن خولان، وفي قتله هاجت نِيَارُ الحرب بين أكبر بطنين في خولان[6]. وأخرج محمّد بن أبان بني حرب بن سعد بن سعد

---

(1) انظر الدِّيوان: ق27/ ب1.

(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 120 ـ 121، المطبوع 1/ 459». وانظر: الدِّيوان ق15/ ب1.

(3) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 98، المطبوع 1/ 402».

(4) انظر: الإكليل 2/ 141، 249.

(5) انظر: الإكليل 2/ 250.

(6) انظر: الإكليل 2/ 131، وقد ذكر الهمدانيّ فيه طِلبة محمّد بن أبان قَتَلَةَ أخيه رفاعة، ونصَّ علىٰ سنة ولادته وسنة وفاته؛ فقال: «ولد في ولاية معاوية بن أبي سفيان في سنة خمسين، وتوفّي في سنة خمس وسبعين ومئة، عاش خمساً وعشرين ومئة سنة، ودُفن في رأس حَدَبَة صعدة، وقد بقي علىٰ قبره صخرات منكّسة. ولم يكن في عصر محمّد بن أبان مثله نجدةً، وفصاحةً، وكرماً، وذِمَاماً، وحسن جوار، ولين عريكة، مع شدَّة العارضة، وحمى الأنف، وبُعْدِ الهِمَّة، وأَقْسَمَ وقد قُتِلَ

إلىٰ قُدْس ورَضْوَىٰ في سنة إحدىٰ وثلاثين ومئة، كما أخرج بني غالب بن سعد بن سعد إلىٰ عَرْوَان من جبال مَكَّةَ[1].

وقد سعَّر نار هذه الحرب وأوقد فتيلها عمرو بن يزيد السَّعديُّ، سيِّد بني سعد وفارسها المغوار الذي يقول:

شَبَّبْتُ لَقَاحَ الحَرْبِ لَـمَّا تَبَوَّخَتْ ... فَأَسْفَرَ لي مِـنْ ضَوْئِهَا كُـلُّ جَانِبِ

هُمُ الصِّيدُ من حَرْبٍ وسَـادَةُ غَالِبٍ ... وَوَازَرَنِـــــي فِـيـهَـا حُـمَـاةٌ أَعِـــزَّةٌ[2]

وكان الحارث بن عمرو السَّعديّ ـ أحدُ السَّادة الحكماء والأشراف المعدودين في خولان ـ ينهىٰ ابن عمِّه عن إثارة الفتنة وتشبيب نار الحرب، ضارباً له في هذا الأمثالَ والعِبَرَ، لكنَّ البغيَ طمى علىٰ عقله حتَّىٰ أفنىٰ إخوته، ثُمَّ قُتِلَ بتهوره وإصغائه إلى صوت الثّأر، وممّا قاله له الحارث:

يَا عَمْرُو يَا بنَ يَزْيدٍ لا تَكُنْ بَطِراً ... فَالحَرْبُ أَرْدَتْ زُهَيْراً حِيْنَمَا جَارَا

ثُمَّ قال يوبِّخُهُ ويقرِّعُهُ لـمّا أنهكته الحرب:

فَـدُوْنَـكَ فَـاجْـرَعْـهَـا ذُعَـافـاً كَأَنَّهَا ... مِنَ الصَّابِ والذِّيْفَانِ تُمْزَجُ بالسُّمِّ[3]

ومن الذين كانوا يلومونه علىٰ تهوّره في إذكاء نار الحرب وتسعيرها: عمرو بن زيد الغالبيُّ ـ وكان ابن عمّه ـ الذي ما كاد يسمعُ بمصـرع عمرو بن يزيد السَّعديّ حتَّىٰ زادَ من وقود تلك الحرب ضـراماً؛ إصغاءً لصوت الثَّأرِ وحميَّةِ الجاهليّةِ؛ يقول:

أخوه رفاعة، ألّا يُظِلَّ رأسَهُ سقفٌ، ولا يضاجع امرأة، أو يأخذَ بثأر أخيه، فقتل به ابن عميرة بن مُرّ... وقتل به عمرو بن زيد الغالبيّ فارس بني سعد مبارزةً، وقتل به عمرو بن زيد سَيِّدِ بني سعد، وهو قاتل أخيه رفاعة، وفيه يقول:

وعَمْرَو بْنَ نعمانٍ أفاتَتْ رِمَاحُنَا ... فأَمْسَىٰ رَهِيْناً بَطْنَ غَـبْرَاءَ تَنْزَحُ

غُـدَيَّـةَ آلَىٰ ثُـمَّ سـارَ بِجَمْعِهِ ... لِيَخْضِبَ رَوْقَيْهِ دَماً حِينَ يَنْطَحُ

فَلَقَّيْتُ حَـدَّ السَّمْهَرِيِّ لَبَانَهُ ... فَظَلَّتْ تَراقِيهِ تُـرشُّ وتُنْضَحُ»

الإكليل 2/ 131، وفيه «تسعين» وهو تصحيف قبيح، ولا سيّما أنَّ الهمدانيَّ قد نصَّ علىٰ أنَّ محمّد بن أبان ولد سنة خمسين، وتوفي عن خمس وعشرين ومئة سنة؛ أي: سنة 175هـ بداهةً، فاحترَسَ من أن يخلط أحدٌ بين رسمي سبعين وتسعين، وفيه أيضاً «مرة» محرّفاً، والصَّواب ما أثبتّه.

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 83، المطبوع 1/ 358» والإكليل 2/ 133.

(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 98 ـ 99، المطبوع 1/ 402 ـ 403»، وانظر الديوان: ق85/ ب1 ـ 2.

(3) انظر: الأبيات في الدِّيوان: ق77/ ب4.

سَلِي تُخْبَرِي يا هِنْدُ هَلْ عِفتُ مَشْرَبي — وهَلْ عَافَهُ قَوْمِي بِجَنْبِ الأَخَاشِبِ؟
عَشِيَّةَ سِرْنَا حَاشِدِيْنَ وَقَدْ بَدَتْ — مِنَ الشَّمْسِ عَيْنٌ أو تَوَارَتْ بِحَاجِبِ
وقَدْ حَشَدَتْ فِيْهَا ذُؤَابَةُ سَعْدِهَا — وحَيَّا عَدِيٍّ بالقَنَا والكَتَائِبِ
صَبَحْنَاهُمُ بالمَوْتِ في عُقْرِ دَارِهِمْ — وَقَدْ لَاحَ ضَوْءُ الفَجْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ[1]
فَدُسْنَا بَنِيْ عَوْفٍ بِزَوْرٍ وكَلْكَلٍ — وَمِلْنَا عَلَيْهِمْ مَيْلَةً بالمَنَاكِبِ

جنىٰ عمرو بن زيد الغالبيّ ثمرة تهوّره وإصغائه إلى صوت الظّلم والبغي، فأنهكته الحرب حتىٰ ظعن ببني غالب إلىٰ جبل يَسُوم[2] من وادي نَخْلَةَ، وجبل عَرْوَان[3] في أعلى عَرَفَاتٍ[4]، وظعن أكثر بني حرب إلىٰ الحجاز في العَرْجِ[5]، وتخلّف ببلد خَوْلاَنَ مَنْ تخلّف من بني حرب وبني غالب، وسائر بطون بني سعد في ظلّ الحارث بن عمرو السّعديّ وكنفِهِ؛ لأنّه لم يدخلْ في تلك الحرب.

ونصَّ الهمدانيّ علىٰ المهانةِ التي لحقت ببني غالب، والذُّلِّ الذي لقوه من بني سُلَيْم وعامرٍ؛ فقال: «وجاور عمرو بن زيد في زُبَيْدٍ وقتاً، ثمَّ في خَثْعَمَ، ثُمَّ في بني هلال، ثم لحق ببني غالب إلىٰ يَسُوم وعَرْوَان، وكان يقول أشعاراً يسأل فيها جرير بن حجر - وكان ابن خالته - العودةَ، فَرَقَّ له وأعاده؛ منها يقول:

فَأَصْبَحْتُ قَدْ وَدَّعْتُ قَوْمِي وَمَعْشَرِي — وحَالَفْتُ هَمًّا ما أَزَالُ أُصَاوِلُهْ
رَهِيْنَةَ ذُلٍّ، بَيْنَ تَرْجٍ ومَكَّةٍ — كَذَلِكَ مَنْ قَامَتْ عَلَيهِ قَبَائِلُهْ
أُقَارِعُ كَيْداً مِنْ سُلَيْمٍ وعَامِرٍ — وحِقْدُهُمُ تَغْلِيْ عَلَيْهِ مَرَاجِلُهْ»[6]

ولم يزل عمرو بن زيد الغالبيّ يترفّقُ في شعره للرّبيعة، حتّىٰ أُذِنَ له بالعودة التي لم تُرْضِ محمّد بن أبان الخنفريّ الذي رأىٰ منه ما يكره، وفي هذا يقول الهمدانيّ: «لما عادت بنو غالب لم تلبثِ الرّبيعة أن

(1) انظر: الأبيات في الديوان: ق78/ ب1 ـ 5.
(2) انظر: رسم (يَسُوم) في معجم أسماء مواضع خولان الذي ذُيّلت به الدّراسة.
(3) انظر: رسم (عَرْوَان) في معجم أسماء مواضع خولان الذي ذُيّلت به الدراسة.
(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 101 ـ 102، المطبوع 1/ 412 ـ 413».
(5) انظر: رسم (العَرْج) في معجم أسماء مواضع خولان الذي ذُيّلت به الدّراسة.
(6) الإكليل: «المخطوط 1/ 102، المطبوع 1/ 415». وانظر الأبيات في الدّيوان: ق82/ ب1 ـ 2، 4.

رأت منها بعض ما تكره، فقال محمّد بن أبان يتلهّفُ علىٰ رجوعهم، ويلحىٰ جريراً»[1] في قصيدة رائعة بديعة؛ منها قوله:

فلو كُنْتُ هنَّا في مَنَاكِبِ خَنْفَرٍ ... لأضْحَتْ بنو سَعْدٍ نوَىٰ لِلْمَرَاضِحِ[2]

ولكِنَّني أَصْبَحْتُ في دارِ غُرْبَةٍ ... أَمُدُّ علىٰ المَكْرُوهِ كَفَّ المُسَامِحِ

بَني مالِكٍ ضَيَّعْتُمُ المَجْدَ بَعْدَمَا ... خَضَبْنَا بِبِيْضِ الهِنْدِ سُورَ المَسَالِحِ[3]

نَصَبْنَا لَهُمْ عَزًّا عَلَىٰ كُلِّ مَنْهَلٍ ... فَمِلْتُمْ إِلىٰ غَدْرٍ وَلَفْظَةِ مَازِحِ[4]

وقد جَرَّتْ علاقة المصاهرة بين محمّد بن أبان الخنفريّ الحميريّ وأحمد بن يزيد بن عمرو القشيبيّ العوسجيّ الحِميريّ ـ الذي كانت تحته الفارعة بنت أبان ـ حلفاً بينهم ذكره الهمدانيّ، ووقف علىٰ مساندة العوسجيّ للخنفريّ في أثناء حربه لبني سعد؛ فقال: «هذا الصّهر وَحَّد الحميريّة، ودخل معه في حرب بني سعد بن سعد بن خولان، فأفرىٰ فيهم، فلمّا تداعت سعد والرّبيعة إلىٰ الصُّلْحِ، خَشِيَ علىٰ عقبه دوائر بني سعد بن سعد بن خولان، فظعن إلىٰ أرض نجد...»[5].

فهذه هي الأخبار التي أمكن الوقوف عليها ممّا يتّصل بالعلاقات بين بطون خولان وأفخاذها، وهي عزيزةٌ مقارنة بما وقف عليه أهل الفضل والعلم ممّن عنوا بجمع أشعار القبائل وتدوين أخبارها وعلاقاتها. وننتهي من هذا كلّه إلىٰ أنّ ما وُقِفَ عليه من علاقات كان مبنيًّا علىٰ الذي وصل إلينا من قلم الهمدانيّ، ويبقىٰ ناقصاً، ولكنّه ليس بالإمكان مع انقطاع الزمن وتقادم العهد علىٰ تفلّت هذه الأخبار وضياعها إلاّ ما كان، عسىٰ أن يقف واقفٌ يوماً علىٰ شيءٍ من أخبار القوم وعلاقاتهمُ الهاجعة في مصنّفٍ ضائعٍ ممّا صنعه الهمدانيّ، فينتهيَ إلىٰ معرفة ما كانت بطون خولان تقيمه من علاقاتٍ وحروب.

---

(1) الإكليل 2/ 134، وانظر: شعراء حمير (الدِّيوان) ق104/ ب33 ـ 35.

(2) هَنَّا: ظرف بمعنىٰ (هنا). والمراضح: واحدها مِرْضاح؛ وهو الحجر الذي يرتضح به النَّوىٰ؛ أي: يُدقّ. ومعنىٰ البيت والذي يليه: يتشكىٰ الشّاعر من مقامه في دار الغُربة، ولو أنّه أقام في قومه بني خنفر لأذلّ خصومه بني سعد وتركهم ـ لذلّهم ـ كالنّوىٰ حين يُدقّ ويُعْلىٰ بالحجارة.

(3) «قوله: سور المسالح» كذا جاء، وله وجه؛ أراد أنهّم يخضبون أسوار المسالح بدماء مَنْ يحرسونها، والمسالح: جمع مَسْلَحة؛ وهي قوم يرقبون العدوّ؛ لئلا يطرقهم علىٰ غفلة. وأميلُ إلىٰ أنّه محرَّف عن (سود المسائح)، والمسائح: جمع مسيحة؛ وهي ما وقعت عليه يد الماسح من الشّعر. انظر شعراء حمير ق104/ ب34. وقد ورد في التّاج (سلح) أنّ المسالح: مواضع، وعليه أراد الشّاعر أنّهم يخضبون أسوارها بدماء من يحرسونها.

(4) انظر: الإكليل 2/ 133 ـ 134، والعَزُّ: المكان الصلب، وقيل: ما صلب من الأرض وخشن. التّاج (عزز).

(5) الإكليل 2/ 167.

2 ـ عَلَاقَاتُهُم بالقَبَائِلِ الأُخْرَىٰ:

أ ـ عَلَاقَاتُهُم بقَبَائِل مَعَدٍّ:

من قبائل مَعَدٍّ: المُضَـرِيَّةُ نسبة إلىٰ مُضَـر بن نزار بن مَعَدّ، الذي ينتسب إليه عدد كثيرٌ من التَّجَمُّعات القبليَّة، أشهرها قبائل قَيْس عَيْلان بن مضـر بن نزار، والرَّبعيَّة نسبة إلىٰ ربيعة بن نزار بن مَعَدّ، ومنها عبد القَيْس بن أَفْصَىٰ بن دعْميّ بن جَدِيْلة بن أسد بن ربيعة، وعنزةُ بن أسد بن ربيعة. وقد طالعتنا المصادر بأخبارٍ تبيِّن بعض علاقات خولان وبطونها ببعض تلك القبائل التي ينتهي نسبها إلىٰ معدّ بن عدنان.

واتكاءً علىٰ الأخبار التي وقفتُ عليها، تبيَّن أنَّ أقدمَها خَبَرُ تلك الحرب التي وقعت بين قبائل نزار بن مَعَدّ، وبين قبائل عمرو بن مَعَدّ ـ وهو قضاعة ـ ومنهم خولان، أيّام كانوا مقيمين في ديارهم في تِهَامَةَ، وديار نزار وقضاعة متجاورة حينذاك، ونصَّ البكريُّ علىٰ اجتماع كلمتهم ووحدة حالهم؛ كأنّهم يدٌ واحدةٌ علىٰ مَنْ عاداهم، حتَّىٰ وقعتِ الحرب بينهم؛ بقوله: «كأنَّهم قبيلةٌ واحدةٌ في اجتماع كلمتهم، وائتلاف أهوائهم، تضمّهمُ المجامعُ، وتجمعهمُ المواسمُ، وهم يدٌ علىٰ مَنْ سواهم، حتَّىٰ وقعت الحرب بينهم، فتفرّقت جماعتهم، وتباينت مساكنهم»[1]. وقد أشعل فتيل تلك الحرب قَتْلُ حَزِيْمَةَ بنِ نَهْد بن زيد بن لَيْث القُضَاعيّ لِيَذْكُرَ بن عَنَزَةَ بن أسد بن ربيعة بن نزار، حينما أبىٰ أن يزوّجه ابنته فاطمة في خبر طويل، فاجتمعتْ قُضَاعةُ علىٰ نزار بن مَعَدّ، وأعانتهم عَكٌّ والأشعرون، واجتمعت نزار بن مَعَدّ، وأعانتهم كِنْدَةُ، فاقتتل الفريقان، فَقُهِرتْ قُضَاعَةُ، وأجلوا عن منازلهم، وظعنوا مُنْجِدِين، فقال عامرُ بن الظَّرب بن عِيَاذ بن بكر بن يَشْكر بن عدوان بن عمرو بن قَيْس عَيْلان في ذلك:

قُـضَـاعـةَ أَجْـلَـيْـنَـا مِـنَ الـغَـوْرِ كُلِّهِ ... إلىٰ فَلَجاتِ الشَّامِ تُزْجِي الـمَوَاشِيا

لَعَمْرِي لَئِنْ صَـارتْ شَطِيراً دِيَارُهَا ... لقد تأصِـرُ الأَرْحَـامُ مَـنْ كَـانَ نَائِيا

ومـا عن تَـقَـالٍ كـانَ إخـراجُـنَـا لهمْ ... ولـكـنْ عُـقُـوقـاً مِـنْـهُـمُ كـان بَـادِيَـا

بـمـا قَــدَّمَ الـنَّـهـديُّ لا دَرَّ دَرُّهُ ... غَــدَاةَ تَمَنَّىٰ بالـحِرَارِ الأَمَـانِـيَـا[2]

---

(1) معجم ما استعجم (المقدمة) 19.

(2) معجم ما استعجم (المقدّمة) 19 ـ 25،21، الأغاني 13/ 51 ـ 52، مجمع الأمثال 1/ 75 وفي طبعة صادر 1/ 221، وانظر ديوان بني كلب (الدّراسة) 75.

فكان بسبب ذلك انتقال خولان وبعض قبائل قضاعة (بليٌّ وبهراءُ ومَهْرَةُ بن حيدان) إلىٰ بلاد اليمن، فوغلوا فيها حتّىٰ نزلوا مأرب (أرض سبأ) بعد افتراق الأزد منها، وأقاموا بها زماناً، ثم أنزلوا عبداً لإرَاشَة بن عامر بن عَبِيْلة بن قِسْمِيْلِ بن فَرَّان بن بليّ، يقال له: (أَشْعَبُ) في بئر بمأرب، وأدلوا عليه دلاءهم، فَطَفِقَ الغلام يملأ لمواليه ويؤثرهم، ويبطئ عن زيد اللات بن عامر بن عَبِيْلَةَ، فغضب، فحطّ عليه صخرةً، فدمغته، فاقتتل القوم ثمَّ تفرّقوا أخرىٰ، فنزلت خولان في مخلافها[1] (مخلاف خولان) الذي أشرنا إليه غير مرّة[2].

فهذا الخبر يدلّ علىٰ طبيعة العلاقة بين خولان وأخواتها من قضاعة، وبين بني نزار بن معدّ عامّةً، كما يدلّ من جانب آخر علىٰ طبيعة العلاقة بين خولان وإخوتهمُ الذين نزلوا معهم أرض اليمن، وأكثر ما يعنينا ما كان بين أحد بطون خولان أو خولان مجتمعةً، وبين بعض قبائل مَعَدٍّ المضريَّة منها والربعيَّة، التي وقف الهمدانيّ علىٰ ذكرٍ لها في أخبار بني حرب بن سعد بن سعد بن خولان في خبر واحد؛ فقال: «إنّ بني حرب لما صارت إلىٰ قُدْس من الحجاز، وبها عَنَزَةُ [بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ]، ومُزَيْنَةُ[3] [بن أُدَد بن طَابِخَة بن إلياس بن مضر بن نزار]، وبنو الحارث، وبنو مالك بن سُلَيْم [بن منصور بن عِكْرمة بن خَصَفة بن قَيْس عَيْلَان بن مضر بن نزار]، ناصبتهمُ الحربَ عَنَزَةُ، والذي هاج ذلك أنَّ رجلاً حَرْبِيًّا وآخر عَنَزِيًّا امتريا في جُذَاذِ نَخْلٍ، فعدا الحربيُّ علىٰ العَنَزِيّ فضربه ضربةً بَتَكَ بها يده، فَعَدَت بنو حرب يومئذٍ - وهي ستمئة رجلٍ - فأجلوا مَنْ في البلد من عنزة إلىٰ الأعراض من خَيْبَرَ، وقتلوا منها بشراً كثيراً، ثمَّ ناصبتهم مزينةُ الحربَ، وكانت أهل ثروة زُهَاء خمسة آلاف، فقتلوا منها مقتلة عظيمة، وأُجلوا إلىٰ السَّواحل[4] من الجار[5] والصّفراء[6] وأرض جشم... لا

---

(1) انظر: معجم ما استعجم (المقدمة) 27.

(2) انظر: مبحث منازل خولان.

(3) مُزَيْنَة: أمّهم؛ وهي بنت كلب بن وبرة، تزوّجها عمرو بن أُدَد بن طابخة بن إلياس، فولدت له عثمان وأوساً، فغلبت أمها علىٰ نسبهما؛ لنباهتها واشتهارها بين قبائل العرب. انظر: شعر مزينة وأخبارها في الجاهليّة والإسلام: 1، وانظر: شعر مزينة في الإسلام: 13.

(4) في المطبوع (السّاحل) محرَّفاً.

(5) الجَار: قرية كثيرة القصور، كثيرة الأهل، علىٰ شاطئ البحر فيما يوازي المدينة، تُرْفَأ إليها السّفن من مصر وأرض الحبشة، ومن البحرين والصّين، نصفها في جزيرة من البحر، ونصفها في السّاحل. معجم ما استعجم 2/ 355.

(6) الصّفراء - علىٰ لفظ تأنيث أصفر -: قرية فوق يَنْبُع، كثيرة المزارع والنّخل، ماؤها عيون يجري فضلها، وبين ينبع والمدينة ست مراحل، والصّفراء علىٰ يوم من جبل رَضْوَىٰ، ويسكن الصّفراء جهينة والأنصار ونَهْد. معجم ما استعجم 3/ 836.

يدخلون الفُرُعَ[1] إلاَّ بجوارٍ وذمامٍ من بني حربٍ، وبقيت سُلَيْم، فناصبتهم بنو الحارث وبنو مالك بن سليم، وهم زهاء أربعة آلاف، وهم أهل الحرّتين والبقيع[2]، فحاربوهم دهراً، فأجلوهم عن الحرّتين والبقيع، وقتلوا منهم عدداً كثيراً، وصارت بنو الحارث وبنو مالك لا يدخل منها الحرّتين والبقيع داخل إلاَّ بذمامٍ من بني حربٍ... فلمّا غلبت بنو حرب علىٰ تلك البلاد وقَهَرَتْ، تعلّقت قريش بأصهارهم[3]، وأسند إليهم كلٌّ[4]، وألقىٰ أزمة أمره في أيديهم، وغَلَبُوا علىٰ طريق المدينة إلىٰ مكّة؛ فلم يَسْرِهَا أحدٌ منهم إلَّا بخفارتهم»[5].

هذا هو حال بني حرب مع القبائل السّالفة الذِّكْرِ، حتّىٰ إنَّ سيطرتهم علىٰ الطّريق المؤدّية بين مَكَّة والمدينة استمرت إلىٰ أيام المقتدر بالله (295هـ)، الذي كان يُكْرِهُهُم علىٰ خفاراتهم، ويجزل لهم العطاء علىٰ حمايتهم للقوافل التّجاريّة والحجيج.

ومن قبائل قيس عيلان بن مضر بن نزار: هَوَازِن وسُلَيْم، وهما قبيلتان كبيرتان كانتا علىٰ علاقة بقبائل قضاعة في اليمن، ومنها خولان، وقد غلب علىٰ تلك العلاقة التّنافر والحرب التي سُعِّرَتْ عندما فكّرت هَوَازِن وسُلَيم بغزو أرضِ زُبَيْدٍ، وديارها التي كانت قريبة لديار خولان وبعض قبائل قضاعة في الصّقع اليمانيّ، ونصَّ الهمدانيُّ علىٰ الخبر في أثناء شـرحه قول العبّاس بن مرداس السُّلميّ:

وإن أدعُ يوماً في قُضَاعَةَ تَأْتِني شَآبِيْبُ بَحْرٍ ذِي غَوَارِبَ مُزْبِدِ

بقوله: «وإنّما معنىٰ قول عباسٍ: (وإن أدع يوماً في قضاعة)؛ يريد استنجاده بهم لمحلاهم من بهراء وجهينة؛ إذِ الدّار بالدّار، وإنّ زُبَيْداً لا يغشاهم من تثليث إلا تَبِيعٌ، فلا تسمح جهينة ولا بهراء بوطء بلد، لهم أكثره، ولسُليم أقلُّه، كما لم تسمح خولان ونَهْد وجرم ـ وهم مقابلون لزبيد بالمَنْشَر مقابلة الحرب ـ بأن تطأ هوازن وسليم ديار زُبَيْد، وقد أتت الجميعَ النّذيرةُ ساعتئذٍ، وهم علىٰ أشد ما كانوا

---

(1) بلد حجازيٌّ من أعمال المدينة الواسعة، والصّفراء وأعمالها من الفُرُع علىٰ الطّريق من مكّة إلىٰ المدينة، وهو من أشرف ولايات المدينة، فيه مساجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم نزلها مراراً، وأقطعَ فيها لغِفَارٍ وأسلمَ قطائعَ. معجم ما استعجم 3/ 1021.

(2) في المطبوع (النّقيع) محرّفاً. والبَقِيع: موضع فيه أروم الشّجر، قالها الخليل. وبه سُمِّي بقيع الغرقد مقبرة المدينة؛ قال الأصمعيّ: قُطِعَتْ غَرْقَداتٌ في هذا الموضع، حين دفن فيه عثمان بن مظعون؛ ولهذا سُمِّيَ الغرقد، وهو في أصله نبت كان ينمو هناك. معجم ما استعجم 1/ 265، معجم البلدان 1/ 473.

(3) كانت هناك مصاهرات بين بني حرب وقريش؛ لأنّ بني حرب بن سعد بن خولان لا يزوّجون أحداً إلا منهم أو قرشيًّا. الإكليل: «المخطوط 1/ 96، المطبوع 1/ 396».

(4) وأسند إليهم كلٌّ؛ أي: كلُّ واحد، بحذف المضاف إليه والتعويض عنه بالتنوين، كما هو معروف في مظانه.

(5) الإكليل: «المخطوط 1/ 97ـ 98، المطبوع 1/ 398ـ 400».

من القتال، فاختلطت خولان ونَهْد وجَرْم بِمَذْحِج في موقفهم ذلك، وسار الجميع في لقاء هوازن وبني سليم، ومنها وقعت الحرب بين قضاعة اليمن وبين بطون قيس عَيْلَان»[1].

ويُلَاحظ مما سبق أنَّ خطر الحرب المزعومة جرَّ بعض قبائل قضاعة إلىٰ عقد محالفة مع مَذْحِجَ؛ لتوحيد الصَّف ودرءِ الخطر الذي بات يلوح خطره في الأفق، ويبدو أنّ ذلك الحلف لم يكن كافياً لكسر شوكة قبائل قَيْس عَيْلَان، فأشار علقمةُ بنُ زيدٍ أخو بني صُحَار بن خَوْلَان، أحد رجالات خولان وحكمائها، باستنجاد سيف بن ذي يزن الحميريّ[2]، الذي أوفدوا إليه وفداً مؤلّفاً من سبعين رجلًا، فيه وجوه خولان وأعيانها وبعض بني شهاب بن العاقل؛ منهم كُثَيِّر بن الصَّلت بن المسلم الشّهابيّ الذي مدحه بقصيدةٍ قلَّ نظيرها؛ للذي جاء فيها من معانٍ مدحيةٍ عاليةٍ؛ منها قوله:

فَسَارَ نَحْوَكَ أَمْجَادٌ غَطَارِفَةٌ ... مِنْ آلِ خَوْلَانَ حَمَّالُونَ لِلمِنَنِ

هُمْ خَيْرُ قَوْمِهِمُ، فَابْسُطْ رَجَاءَهُمُ ... يُثْنُوا بخَيْرٍ لِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ

فَاعْطِفْ عَلَيْنَا بِفَضْلٍ مِنْكَ يُبْلِغُنَا ... دَارَ العَدوِّ ويَنْفِي رِيْبَةَ الظِّنَنِ[3]

لَبَّىٰ الملك الحميريّ نداء الخولانيّين وحلفائهم، فأمدّهم بأربعة أقوال: بمرٍّ بن عامر الذي قتله عمرو بن يزيد العوفيّ حينما أخلَّ بخولان إلىٰ هوازن، وأفشىٰ كلَّ أسرارها، وابن ذي فائش، والحصين وميمون ابني حريز الخنفريّ، ونوال بن عتيك غلام ابن ذي يزن، المُلقَّب بنازع الأكتاف؛ لشدَّة جبروته وفتكه[4]. فكانت الحرب التي استمرّت أمداً طويلًا، وكان فيها بنو شهاب إلباً مع خولان علىٰ هَوَازن وسُلَيم، ولعلَّ دخولهم في خولان ومناصرتهم لها كان بسبب مصاهرتهم لهم التي جَرَّتهم إلىٰ حلف مكينٍ. يقول الهمدانيُّ: «... ثُمَّ دخلوا مع خولان [يعني بني شهاب] في حرب هوازن وبني سُليم، فكانوا أحمدَ مَنْ صدرت عنه هذه الأيّام، وفي ذلك يقول إبراهيم بن كُنَيْف الشَّهابيُّ»[5]، في قطعة يفاخر فيها بمشاركتهم لخولان حروبها وانتصاراتها؛ منها قوله:

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 55 ـ 56، المطبوع 1/ 249 ـ 250»، وفيه: «... لجلالهم من بهراء... إلا بتيع... كما تسمح خولان ونهد...» تحريفٌ؛ بل إنّ إسقاط (لم) قبل الفعل (تسمح) يغيِّر معنىٰ الجملة كليةً. وأسقطها المحقّق سهواً، وجاء في المخطوط: «تسمح جهينة ولا بهراء...»، أسقط الناسخ «لا»؛ بدليل وجودها: «لا بهراء»؛ إذ إنّ السّياق يدلّ علىٰ سقوطٍ في الأصل.

(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 106، المطبوع 1/ 425».

(3) انظر: الأبيات في الدّيوان: ق17/ ب3 ـ 5.

(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 106، المطبوع 1/ 425»، والإكليل 2/ 130، 249.

(5) الإكليل: «المخطوط 1/ 121، المطبوع 1/ 461».

وسِــرْنَـا في قُـضَـاعَـةَ يـوم سَـارتْ نجالدُ مِـنْ هَــوَازِنَ مَـنْ لَقِيْنَا[1]

وكان من أيام تلك الحرب يومُ الغُمَيْر الذي قَتَلَ فيه عَمْرو بن يزيد العوفيُّ عُمارةَ بن مرداس السُّلميَّ، أخا عبّاس بن مرداس السُّلميِّ، الذي لم يكن بالحضـرة، وشهد آخر هذه الحرب التي بدأها أبوه وعمه.

وذكر الهمدانيُّ تطلاب مرداس قتلةَ ابنه عُمارة، وأخذه بثأره؛ فقال: «... فلمَّا قُتِلَ عمارةُ، طَلَبَ مرداس بثأره...»[2]، محرِّضاً ابنه عَبَّاسًا علىٰ ذلك، الذي توعّد عمراً العوفيَّ ومَنْ والاه بغارة لها منكبٌ حابٍ تدوّي زلازِلُهُ؛ يقول:

وأشْفِي غَلِيلِي مِـنْ سَـرَاةِ قُضَاعَةٍ بِـكُـلِّ صَقِيلٍ يملأُ الـكَـفَّ حاملُهْ

فمنْ مُبْلِغٌ عَمْرَو بنَ عـوفٍ رِسَالةً ويَعْلَىٰ بنَ سَعْدٍ من ثـؤورٍ يُرَاسِلُهْ

بـأنِّـي سَـأَرمِـي الحَقْلَ يوماً بغارةٍ لها منكبٌ كـابٍ تـدوّي زَلَازِلُـهْ[3]

وممن شهد مصرع عُمارةَ السُّلميَّ: عمرو بن معدي كرب الزُّبيديُّ، الذي تَمَنَّىٰ حضور عَبَّاس حتىٰ يعبَّ مما ذاقه أخوه؛ يقول:

لـو كَـانَ عَـبَّـاسٌ هنالكَ حَاضِـراً لهوىٰ، وقد خُضِبَ الجَبِيْنُ بِعُصْفُرِ[4]

ولقد صَبَحْتُ بها عُـمَـارةَ غُـدْوَةً والبِيْضُ تَعْلُو فوقَهُ بالمَنْشَرِ[5]

ودارتِ الدّائرة علىٰ سُليم وهوازن، بعد قتال شديد، ترابط فيه القوم وتصابَروا حتّىٰ تبالغوا المجهود، وكره كلُّ فريقٍ الآخر، وأصابت قبائل قضاعة من هوازن وسُليم أشرافها ووجوهها؛ ثُمَّ عطفت هوازن وإخوتها من سليم، فأصابوا من قضاعة وجوهَهَا؛ منهم حجر بن سعد الخولانيّ ـ وكان سَيِّدَ قومهِ ـ فعظَّمَهُ عبَّاسُ بنُ مرْدَاس علىٰ كلِّ قتيل؛ فقال فيه:

---

(1) انظر: الأبيات في الدّيوان: ق104/ ب4.

(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 88، المطبوع 1/ 374»، والدّامغة 187.

(3) ديوانه: 137، والدّامغة 192 وفيها أبيات أخرى من القصيدة نفسها لم أثبتها.

(4) العصفر: صبغ أحمر معروف، وأراد به الدّم.

(5) انظر: ديوانه 106.

واسـألـوا سَـيِّـدَ الـفَـرَيْـقَـيْـنِ حُـجْـراً يَـوْمَ سَـارتْ جمُوعُنَا باحْتِفَالِ:[1]

مَـنْ رمـاهُ عَـلـىٰ الـفُـؤادِ بِـسَـهْـمٍ فَـتَـقَـتْ عَـنْـهُ مُـحْـكَـمَ الـسِّـرْبَـالِ؟

تـركـتْ سَـيِّـد الـفَـرِيـقَـيْـنِ حُـجْـراً يَبْحَثُ الـتُّـرْبَ سَـايـلَ الـجَـرَيَـانِ[2]

وقتلت شهر بن يعلىٰ بن سعد بن عمرو المالكيّ الخولانيّ، وعمرو بن الحارث الحيوانيّ، ومالك بن يزيد بن مسعود بن يزيد العوفيّ ـ وهو ابن أخي عمرو العوفيّ ـ الذي لم يكن له نظيرٌ ولا شَبِيهٌ، وهو القائل فيه:

لَـمْ يَكنْ في سَـــرَاةِ قَـوْمِـي نَظِيْرٌ لابْـنِ يَعْلَىٰ ومَـالِـكٍ وابْـنِ حَـارِ[3]

على الرَّغْمِ من مصرع هؤلاء السَّادةِ من خولان، فإن عمرو بن يزيد العوفيّ أجار حكيمَ بنَ العَلَّاف ـ وهو من المقدّمين في الشَّرف والسُّؤدد في هَوَازن وسُلَيم ـ عندما أسره بـ (ذات القصص) من ديار نَهْد[4]، وكاد الأمر يتعاظم في بطون خولان وعشائرها الذين تداعوا للقتال بسبب إجارة العوفيّ لحكيمٍ، لولا تفرقة عمرو بن معدي كرب الزُّبيديِّ وحكمتُهُ فيهم[5].

ومن الأيّام المشهورة في تلك الحرب: يوم الكَديْد الذي أشار إليه الهمدانيُّ سريعاً في أثناء سرده أشعاراً لشاعرٍ مجهولٍ من بني سليم، والنّاظر في تلك الأشعار، الممعن فيها، يجعل هذا اليوم في كفَّةِ خَوْلَان وحلفائها الذين أقضُّوا مضاجع بني سُليم، ونالوا منهم مقتلاً ومغنماً، وفي هذا قال شاعر بني سُلَيْم:

نـفـىٰ نـومـي مَـصَـارِعُ مـن سُـلَـيْـمٍ عـلـىٰ مَـاءِ الـكَـدِيْـدِ مع الـصَّـبَـاحِ

رَمَـتْـهُـمْ غَـارَةٌ مِـنْ آل نَـهْـدٍ ومِـنْ جنبي زُبَـيْـد بـالـرِّمَـاحِ[6]

وَمِـنْ أَبْـنَـاءِ خَـوْلَانَ بـنِ عَـمْـرٍو هَـزَابِـرُ فـي كَـتِـيْـبَـتِـهَـا الـجَـنَـاحِ

(1) الاحتفال: الاحتشاد والاجتماع؛ لأنَّ الحفل: الجمع.

(2) انظر: ديوانه 134، والبيت الثّالث من الدّامغة 194.

(3) انظر: البيت في الدّيوان: ق42/ ب1.

(4) انظر: الدّامغة: 195.

(5) انظر: الدّامغة: 198.

(6) جاء في البيت (ومنهم)، وأراه تصحيفاً قبيحاً.

وكانت تسمَّىٰ كتيبة خولان بالجناح[1]؛ لما لها من قوّة وتأثير مُرَجِّحَيْنِ في المعركة.

وثمّة رواية أخرىٰ ليوم الكَدِيْد[2] وردت عند نفرٍ من العلماء، الذين جعلوه بين قبائل قَيْس، وقبائل كنانة، قتل فيه ربيعة بن مكدم فارس كنانة[3]، وليس بهيِّنٍ تحديد هل كان يوم الكَدِيْدِ هو وقعة واحدة اختلف العلماء في روايته، أو كانت في هذا الموضع أيّامٌ عديدةٌ، ووقعاتٌ بين قبائل عِدَّة، وهو الأقرب إلىٰ الحقيقة؛ لأنَّ إجماع العلماء علىٰ أنّ يوم الكديد لسُليم علىٰ كنانة واضحٌ، لا يدخله الشَّكّ البتّة، وما لقاء قضاعة بقبائل قيس عيلان (هوازن وسُليم) إلا وقعة أخرىٰ تفرَّد بذكرها الهمدانيُّ، ولم يأتِ رواة الأيّام علىٰ ما كتبه الهمدانيّ، فيكون في الكديد يومان، مثله مثل يوم السُّلَان ويوم الكُلَاب.

ومن الأيّام بين قضاعة وقَيْس عَيْلَان يوم بِيْشَة، «وكان يومئذٍ يوم تناصفٍ بينهم»[4]، هكذا أورده الهمدانيّ دون كثير القول فيه؛ لأنّه أودع أيّام قضاعة ـ ولا سيّما خولان منها ـ في مصنَّفٍ مستقل وَسَمَهُ بكتاب الأيّام. وليس في الوسع القول فيه إلاّ بما قاله الهمدانيّ من شعرٍ لعمرو بن يزيد العوفيّ مفاخراً بما لقومه من مَنَعَةٍ وقوّةٍ، وعلوِّ همةٍ، ذاكراً رُكْنَ مجدهم الذي يلوذون بفيئه كلَّما أدركهم خطبٌ، وألَـمَّتْ بهم مُلِمَّةٌ:

فَلا تَجْزَعُوا إِنْ أَسْفَـرَتْ مِنْ نِقَابِهَا ... فَـإِنَّـا نُجلِّيهَا بِـكُـلِّ فَـتًـى شَـهْـمِ

عَلِقْنَاكُمُوهَا فَـاصْبِـرُوا لِقَطِيْعِهَا ... ولا تَطْمَعُوا يَـوْمـاً بِعَافِيَةِ السِّلْمِ

فَــإِنَّ لَـنَـا رُكْـنـاً نَـلُـوذُ بِـفَـيْـئِـهِ ... فَنَفْحَسُ مَنْ شِئْنَا وَيُصْبِحُ في الرَّدْمِ[5]

وفي ذلك اليوم يقول عامر بن الطُّفَيْل بن مالك بن جعفر بن كلاب... بن هوازن ـ لخولان ونَهْد وجرم وزُبَيْد؛ مفاخراً بقوّة قومه وأبناء عشيرته الذين لم يتقاعسوا عن مِرَاسِ الحرب التي فحسوا فيها خصومهم وقهروهم؛ فهم قومٌ لا يلينون إذا أصابهم مكروه، ولا يرجعون عن أمرٍ عزموا عليه ـ من قصيدة له:

نحنُ الفَوَارِسُ يوم الـرَّوعِ قد عَلِمَتْ ... عَـلْـيَـاءُ سَـعْـدٍ بِـأَنّـا لَـيْـس نَـأْتَـلِـفُ

---

(1) انظر: الدّامغة: 174.

(2) الكديد: هو موضع علىٰ اثنين وأربعين ميلًا من مكّة. معجم البلدان 4/ 442.

(3) انظر: العقد الفريد 5/ 174، الأغاني 16/ 40، الأنوار ومحاسن الأشعار 1/ 113، أيّام العرب قبل الإسلام 149.

(4) الدّامغة: 178.

(5) انظر: الأبيات في الدِّيوان: ق49/ ب1 ـ 3، نفحس: ندوس، الرَّدم: التّراب؛ وأراد: القبر.

سـارتْ قضاعةُ في جَـمْـعٍ لـهُ لجبٌ ... ومَـذْحِـجٌ وسَـــرَاةٌ كلُّهم أُنُـــفُ[1]

دُسْـنَـاهُـمُ بِصَفِيْحِ الهِنْدِ ضَاحِيَةً ... حتَّىٰ الدّلوك وفيء الشَّمْسِ تَنْعَطِفُ

إنَّـا لعمرُك مِـنْ قـومٍ إذا غَضِبُوا ... شَـدُّوا العِنَاجَ وثنَّوهُ وما انحَرَفُوا[2]

ومنها أيضاً ما كان بين قبائل قضاعة وحليفتها مَذْحِج وبين هوازن، في يوم قَطْقَطٍ، ويوم رَسِيْعٍ، ويوم أَجْزَاع المَعَادِن، التي ذكرها المقدام بن زيد الحَيْوَانِيّ مجتنياً من معاني الفخر أَجَلَّها وأرفعها، أرهب بها عدوّهم؛ منها: المباكرة في الهجوم، والفتك بسيوف أُحْكِمَ صُنْعُهَا، وامتلاك خيل جسيمة ممتلئةٍ، في ظهورها المنأىٰ عن الأذىٰ، وفيها لمن خاف العدا مُتَعَزِّلُ، وقد استباحت حمىٰ هوازن وأَذَلَّتْ رجالهم، وقهرت صناديدهم، وأثكلت نساءهم اللاتي علا صوتُهُنَّ بالبكاء والعويل واللَّطم:

ونَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ علىٰ مَاء قَطْقَطٍ ... بِكُلِّ رَقِيْقِ الحَدِّ مِنْ قُضُبِ الهِنْدِ

وَيَــومَ رَسِـيْـعٍ قـد أفـأنَـا حِمَالَكُمْ ... بِـكُـلِّ تَـلِـيْـعٍ مُـغْـكِـرٍ مُـذْمَـجٍ وَرْدِ

ويَـومـاً بـأَجْـزَاعِ المعَادِنِ قَـد دَعَـتْ ... نِسَاؤكُمُ بالثُّكْلِ والوَيْلِ والنَّكْدِ[3]

ويلاحظ ممَّا سبق أنَّ خولان شاركت قبائل قضاعة اليمن حروبَهَا ضدَّ قبائل عَيْلَان، وما كان منها من أيّام ووقائع. وهنا تجدر بنا الإشارةُ إلىٰ أمر مهمّ؛ هو إلماعُ الهمدانيِّ إلىٰ أيّام ومناوشاتٍ كانت بين قبائل قضاعة ومعها مذحج ضدَّ قيس عيلان، بلا ذكر خولان صـراحةً بين تلك القبائل، وذلك في أثناء شـرحه البيت (192) من الدَّامِغَةِ التي يقول فيها:

ونَـحْـنُ الـمُـرْجِـفُـونَ لِأَرْضِ نَجْدٍ ... بِـأَنْـفِ قُـضَـاعَـةٍ والَـمَـذْحِـجِـيْـنَـا

ثُمَّ يقول: «وأراد بأنف قضاعة خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة، ونَهْد... وجرم... ومن مذحج الحارث بن كعب والنّخع وزبيداً وجعفىٰ، وهؤلاء الذين يُصَالُون أرضَ نجد ويحاربون قَيْساً وخِنْدَفَ»[4]. ثُمَّ يأتي بعد هذا علىٰ ذكر أيّام عديدة؛ منها ما شاركت خولانُ فيه صراحة بناءً علىٰ تعليقه،

---

(1) لجب: قيل: اللّجب الصّوت والصّياح والجلبة، وقيل: اللَّجب ارتفاع الأصوات واختلاطها.

(2) الدّامغة: 179. ولم أجد الأبيات في ديوان عامر بن الطفيل. العناج: سيْرٌ أو خيطٌ يُشدُّ في أسفل الدّلو، ثم يُشدُّ في عروته أو عرقوتها، وأراد بالعناج زمام النّاقة؛ أي أنّهم يعقدون العزم ويشحذون الهمم إذا ما أغضبهم أمرٌ.

(3) انظر الأبيات في الدِّيوان: ق13/ ب1 ـ 3، والدّامغة 180.

(4) الدّامغة: 173 ـ 174.

ومنها ما شاركت فيه قبائلُ قضاعة الأخرىٰ من دون ذكر خولان فيها صراحةً. من تلك الأيام: يوم الخَلِيجِ[1]، ويوم تَثْلِيث[2]، ويوم رَنْيَة، ورَنْيَة القُرَيْحاءِ[3] الذي انتصرت فيها قبائل قضاعة علىٰ هوازن. والرَّاجِحُ أنَّ خولان شاركت في هذه الأيَّام جَمِيْعِهَا التي كانت بين قبائل قضاعة وقبائل قَيْس عَيْلَان؛ لأنَّ السِّياق الذي ذكر فيه الهمدانيّ هذه الأيَّام ـ التي لم تذكر مشاركة خولان فيها ـ يوحي بذلك، ويشير بوجودها إلىٰ جانب قضاعة اليمن، ولا سيّما أنّ هذه الأيّام ذكرها شعراء القبائل القضاعيّة ـ أحلاف خولان ـ وليس من داعٍ في كل وقعة شاركت فيها خولان أن يذكرها شعراؤها؛ لأنَّ شأن الهمدانيّ في كتابه الدّامغة التّنبيه علىٰ الأيّام والوقعات بلا تفصيل؛ لأجل الاختصار؛ إذ يقول: «وقد نبّهنا علىٰ كلِّ وقعة منها ببيتين وبثلاثة لئلّا يطول الكتاب؛ لأنَّ شأننا الاختصار، وقد جمع ذلك الحسن في كتابه المؤلَّف في مفاخر اليمن ووقائعها»[4]؛ إذ لم يكن بمقدور الهمدانيِّ ـ ما دام منهجه الاختصار ـ أن يأتي علىٰ كلِّ الشّعر الذي ذكره الخولانيون في الأيّام التي خاضوا غمارها، فكان يذكر مرّة أبياتاً للنّهديّ، وأخرىٰ للخولانيّ، وثالثة للمذحجيّ، ورابعة للنخعيّ.

ومن علاقات خولان بقبائل مضر بن مَعَدّ بن عدنان ما كان مع بني تميم بن مُرٍّ بن أُدَد بن عمرو ـ طابخة ـ بن إلياس بن مضر، عندما غزتها بنو الرّبيعة بن سعد بن خولان وبلحارث بن كعب المذحجيّ إلىٰ الجِفَار[5]، بمعونة بعض أذواء حِمير في زمن الأَضْبَط بن قُرَيْع التميميّ، والنّمر بن مُرَّة بن حِمَّان التميميّ، فأُسِـرَ قيس بن عاصم في خلق عظيم وقُتِلَ... وكان ممّن أسر بعض تيم وعكل، فلم يزالوا عبيداً حتَّىٰ جمع الأَضْبَطُ بنُ قريعٍ والنَّمِرُ بن مرَّة وفداً عظيماً، واستوهبوا ذلك السَّبيَ وأولئك الأسرىٰ، ففي ذلك يقول جرير بن عطيّة بن الخطفى من قصيدة له:

يـا تـيـمُ إنّ تميماً لـن تـزيـدَكُـمُ	إلَّا الـهـوان فَــأَيَّ الخير تبغونا؟
لـم تشكروا نَـمِـراً إذ فَكَّكُم نَمِرٌ	وابـنـا قُـرَيْـع مـن الـحـيِّ اليمانينا
تلقىٰ أخـا التَّيْمِ مُخْضَـرًّا جحافله	مُـعَـذَّراً بـعِـذَار الـلُّـؤمِ مَـرْسُـونـا[6]

---

(1) انظر: الدّامغة: 175.

(2) انظر: الدّامغة: 181.

(3) انظر: الدّامغة: 182.

(4) الدّامغة: 183 ـ 184.

(5) الجِفَار: البئر القريبة القعر، الواسعة التي لم تطو، وهي ماء لبني تميم، وَتَدَّعِيه ضَبَّةُ لنفسها. معجم البلدان 2/ 144.

(6) وانظر ديوان جرير 2/ 543، والنّمر بن حمَّان بن عبد العزىٰ بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وابنا قريع: الأضبط وحُدَّان ابنا قريع بن عوف بن كعب بن سعد... إلخ. جمهرة أنساب العرب 219 ـ 220. جحافله: واحدتها

وممّا انتهىٰ إلينا من شعر قيل في تلك الحرب: ما قاله يعلىٰ بن سعد الخولانيّ في مقطّعة يصف فيها بني الحارث بن كعب بن مذحج وقوّتهم، وشدَّة بأسهم في المعركة[1].

ومن أشهر الأخبار المتّصلة بعلاقة خولان ببني ربيعة بن نزار بن معدّ: خبر إجلاء عمرو بن زيد ـ وهو مغرق الأكبر ـ قوماً من بني ربيعة بن نزار عن تهامة[2]، الذي ألمع إليه الهمدانّي بإشارة عابرة، ولم يبسط القول فيه ولم يفصِّله، وكذا فعل حينما لم يقف علىٰ يوم الحِنْو الذي تحدّث عنه بعبارة مقتضبة بسيطة في أثناء حديثه عن سيادة عمرو بن زيد الخولانيّ قائلاً: «شهد خزازىٰ، وله يوم الحِنْو، تقول خولان: قُتِلَ فيه عَتَّاب [بن سعد بن زهير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن الأوس بن تغلب بن وائل بن قاسط بن هَنْب بن أفصىٰ بن دعميّ بن جَدِيْلة بن أسد بن ربيعة] جدّ عمرو بن كلثوم التّغلبيّ، وقُتِلَ معه حاطب بن حِلِّزة [بن مكروه بن بُدَيْد بن عبد الله بن مالك بن عبد سعد بن جُشم بن ذبيان بن كنانة بن يشكر بن بكر بن وائل...] سَيِّد بكر بن وائل»[3].

وفي صنيع عمرو بن زيد يقول عمرو بن حجر الخولانيّ مفتخراً بالانتصار وزهوته في ذلك اليوم:

لَنَا السَّطْوَةُ الغَلْبَاءُ يَـوْمَ التَّغَالُبِ	أَبَيْـنَـا، فَـلَا نُعْطِي الـعَـدُوَّ مَـقَـادَةً
فَـفَـازَ بِعَتَّابٍ وعَلَّى بِـحَـاطِـبِ؟![4]	أَلَـيْـسَ أَبُـوْنَـا قَـادَ لِلحِنْوِ جَمْعَهُ

ويبدو مما سبق أنه لم ينتهِ إلينا من شأن هاتيك الأخبار ما ينقع بِلَّة، ويشفي صادياً؛ فهي نحيلة نحولَ كثيرٍ من أخبار القبائل العربية الأخرى التي ربما كان طالع بعضها في هذا الجانب حسناً، ومردُّ ذلك إلى مشكلة الضياع التي ألقت بظلها على كثيرٍ من أخبار الأمم السَّالفة.

والحديث عن تفلّت تلك الأخبار ـ ولا سيّما أخبار القبائل اليمانيّة ـ من أقلام العلماء والرّواة يورث في الحلق غُصَصاً، وفي القلب كُرَباً وحُرَقاً؛ إذ لم نصب منها بعد بذل المَجْهُود في التّنقير في بطون الكتب

(جحفلة)؛ وهي بمنزلة الشّفة للخيل والحمير والبغال. اللِّسان (جحفل).

(1) انظر: الأبيات في الدّيوان: ق 54/ ب 1 ـ 3.

(2) انظر: ترجمة عمرو بن زيد ـ مغرق الأكبر ـ في الدّيوان، والإكليل: «المخطوط 1/ 67، 69، المطبوع 1/ 299، 306»، وجاء فيه: «وهو الذي قام بحرب ربيعة بن نزار بتهامة علىٰ قول خولان، والصّحيح بأرض اليمامة، وسنذكر من الصّحة واللّبسة ما نختم به هذا الجزء إن شاء الله تعالىٰ». ولم يذكر الهمدانيّ سوىٰ ما رَجَّعْتُهُ من كلامه السّالف في المتن؛ من إشارة سريعة لخبر تلك الحرب.

(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 67، المطبوع 1/ 300».

(4) انظر الأبيات في الدِّيوان: ق55/ ب3 ـ 4.

والمصنّفات غير ما وقف عليه الهمدانيّ، وليس ما جمعه سوى غيضٍ من فيضٍ من أخبار القوم، وعليه كان معوّلنا في مبحث علاقة خولان بقبائل مَعَدٍّ.

ب ـ عَلَاقَاتُهُم بِقَبَائِلِ اليَمَنِ:

في قبائل اليمن كتلتان كبيرتان تعودان إلى قحطان: بنو كَهْلَان بن سبأ بن يَشْجُب بن يعرب بن قحطان، ومنهم هَمْدَان بن مالك بن زيد بن أَوسَلَة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان، ومَذْحِج؛ وهو مالك بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، وغيرها يطول ذكره.

وبنو أخيه حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، الذين شادوا مُلْكاً عظيماً في اليمن، دام نحو ستة قرونٍ ونصف (115 ق.م، 525م)؛ أي: حتى قبلَ قيام دولةِ الإسلامِ في المدينة بنحو قرنٍ (622م).

خَوْلَانُ ومَذْحِجُ:

وهي من بني كهلان بن سبأ التي يذكر الهمدانيّ شيئاً من علاقتها بقبائل قضاعة اليمن (خولان ونَهْد وجرم)، التي ضربت آباط الإبل، وغذت السّير مسرعة؛ لتختلط بمذحج، وقد لاح بالأفق شبحُ حربٍ ضروسٍ تهدّد به قبائل قَيْس عَيْلان، في زمن سيف بن ذي يزن الحميريّ الذي توفّي قبل انتشار الدّعوة الإسلاميّة بنحو نصف قرنٍ[1].

ونقع على خبر آخر نجد فيه القوم يشحذون الهمم، ويتجهّزون لخوض غِمَارِ حرب حامية يفلقون فيها جماجم أعدائهم، وينتظمون كُلَاهُم برماحٍ مثقَّفَةٍ في يوم (خَزَازى)[2]، الذي يُعدُّ من أعظم أيّام العرب في الجاهليّة اشتهاراً ودوراناً على ألسنة العلماء؛ فلا يكاد يخلو مصنّفٌ في جاهليّة العرب من ذكر انتصاف قبائل مَعَدٍّ من القبائل اليمانيّة التي حازت شأناً عظيماً ومكانة عالية لم تكن لقبائل مَعَدٍّ في الجاهليّة؛ لذلك انتصف رواة الأخبار لمعدٍّ من اليمن في الإسلام، ولا سيّما في عصر بني أميّة وبني

---

(1) انظر: الإكليل: (المخطوط 1/ 55_56، المطبوع 1/ 249_250). وانظر: ص75 من هذا البحث؛ وفيها مَدَدُ الملك الحميريّ سيف بن ذي يزن خولان بأربعة أقيال على قبائل قيس عيلان (هَوَازِن وسُليم).

(2) انظر: النّقائض 2/ 1093، وطبعة دار صادر 2/ 261، والإكليل: «المخطوط/ 67_68، المطبوع 1/ 301»، والإيناس 170، والعقد 5/ 245، والعمدة 2/ 935، ومعجم ما استعجم 2/ 496، ومجمع الأمثال 3/ 641 (صادر)، ومعجم البلدان 2/ 364، ونهاية الأرب 15/ 302_303، 396_397، 420_421، والكامل في التّاريخ 1/ 520_522، والخزانة 2/ 165_166، وتاريخ اليعقوبيّ 1/ 225، والتّاج (خزز)، وأيّام العرب قبل الإسلام 2/ 19، وأيّام العرب في الجاهليّة 109_111.

العبّاس في الحين الذي نهضت العصبيّة فيه وتعاظمت، فعظّموا شأنَ تلكَ الأيّامِ، وأعْلَوا من قدرها، ورفعوا من مكانتها بالزّيادة والخلط؛ رغبة في الانتصار؛ ليصلوا بها إلى ما كان عليه أهل اليمن من علوٍّ وشرفٍ؛ فقد كان الرّجل من أهل اليمن «يأتي ومعه كاتبٌ وطِنْفِسَةٌ يقعد عليها، فيأخذُ من أموال نزار ما شاء كعُمّال صدقاتهم»[1].

وكثيراً ما كان يشكّكُ العلماء القدامى بأخبار تلك الأيّام وتغليب اليمانيّة أو العدنانيّة، ويذهبون في هذا التّشكيك مذاهبَ شتّى؛ منها أنَّ ما قيل في تلك الأيّام من شعرٍ إنّما هو منحولٌ من عصر الإسلام، يقول أبو عبيدة: «حدّثني المنتجع بن نبهان؛ قال: وقف رؤبة بن العجّاج على تميم بمسجد الحروريَّة، فقال: يا معشر تيم، إنّي سَمرت عند الأمير تلك اللّيلة فتذاكرنا يوم الكُلَاب، فقال: يا معشَر تميم، إنَّ الكُلَاب ليس كما ذكرتم، فأعفونا من قصيدة صاحبينا - يعني عَبْدَ يغوثٍ ووعْلَةَ الجَرْمِيّ - ومن قصيدة ابن المُكَعْبَر صاحبكم، وهاتوا غير ذلك، فأنتم أكثر الناس كلاماً وهجاءً. قال رؤبة: فأنشدناه في ذلك اليوم شعراً كثيراً، فجعل يقول: هذه إسلاميّة كلُّها»[2].

وبين يوم خَزَازَى ويوم السُّلّان[3] من التّداخل والارتباط ما يجعل المِيْزَة بين زمانهما أو سببهما أمراً عسيراً؛ لقلّة ما في اليد من أخبار موثّقَةٍ عن تلك الحِقْبَةِ من تاريخ جاهليّة العرب، وليس بالإمكان إلا الاعتماد على القرائن الموجودة؛ لمعرفة أيّهما أسبق على الآخر أو كان سبباً فيه، ولا سيّما أنَّ ما وُقِفَ عليه في النّقوش اليمانيّة القديمة خلوٌّ من أيِّ إشارة إليهما، على أنّهما وقعا بين اليمن كلّه ومَعَدٍّ كلِّها وَفْقاً لأقوال الرُّوَاة وإجماعهم، إلّا أن تكون تلك الأيّام ليست سوى مناوشاتٍ هَيِّنَةٍ لا يؤبهُ لها، ثمّ عَظُمَ أمرُها في الإسلام بمرور الأيّام وتعاقبها، وتعاور الرُّوَاةِ عليها، أمّا صَمْتُ النّقوش عن ذكرها، فلا يفسّره اتّضاعُ دولة حِمْيَر، وهَوَانُ أمرها، وسقوط التّقييد الرسميّ لأحداثها؛ لأنّ هذين اليومين وقعا قبل الاحتلال الحبشيّ بزمن، يضاف إلى ذلك وقوف العلماء على نقش متأخّر عنهما؛ كنقش أبرهة الحبشيّ المدوّن بعد الفراغ من ترميم سدِّ مَأْرب سنة 543م[4].

وفيما ذكره أبو حنيفة الدِّيْنَوريّ من خبر هذين اليومين دليلٌ على تناولِ الوهم لهما؛ إذ يقول في أثناء ترجمته لِصُهْبَان الحِمْيَرِيّ: «وهو الذي سار إلى تهامة لمحاربة ولد مَعَدّ بن عدنان، وكان سبب ذلك أنَّ

---

(1) العقد 5/ 246، ونهاية الأرب 15/ 420.

(2) العقد 5/ 233.

(3) يوم السُّلّان: قيل: هو يوم لبني عامر بن صعصعة على النعمان بن المنذر؛ بسبب لطيمةٍ (وهي عيْرٌ تحمل المِسْكَ) تعرّض لها العامريّون في أثناء طريقها لتباع في سوق عكاظ. انظر: أيّام العرب في الجاهليّة 107 - 108 وحِوَالاته ثمّة.

(4) انظر: شعراء حِمير (الدّراسة) 58.

مَعَدًّا لمّا انتشرت تباغت وتظالمت، فبعثوا إلى صُهْبَان يسألونه أن يُملِّك عليهم رجلاً يأخذ لضعيفهم من قويّهم؛ مَخافَةَ التّعدّي في الحروب، فوجّه إليهمُ الحارث بن عمرو الكِنديّ، واختاره لهم؛ لأنَّ مَعَدًّا أخوالُهُ؛ فأمُّهُ امرأة من بني عامر بن صَعْصَعَةَ، فسار إليهمُ الحارث بأهله وولده، فلمّا استقرّ مِنهم ولّى ابنه حُجْرَ بنَ عمرو - وهو أبو امرئ القيس الشّاعر - على أسد وكِنَانة، وولّى ابنه شُرَحْبِيْلَ على قَيْس وتَمِيم، وولّى معدي كرب - وهو جدُّ الأشعث بن قيس - على ربيعة. فمكثوا كذلك إلى أنْ مات الحارث بن عمرو، فأقرّ صُهْبَان كلَّ واحدٍ منهم في مُلْكِهِ، فلبثوا بذلك ما لبثوا، ثُمَّ إنَّ بني أسد وثبوا على ملكهم حُجْر بن عمرو، فقتلوه، فلمّا بلغ ذلك صُهْبَان وَجَّهَ إلى مُضَـر عمرَو بنَ نابلٍ اللَّخْميّ، وإلى ربيعة لبيدَ بنَ النعمان الغسّانيّ، وبعث برجلٍ من حِمْير يسمى: أَوْفَى بن عُنُق الحيَّة، وأَمَره أن يقتل بني أسد أبرَحَ القتلِ، فلمّا بلغ ذلك أسداً وكنانة استعدّوا، فلمّا بلغه ذلك انصـرف نحو صُهْبَان، واجتمعت قيس وتميم، فأخرجوا مَلِكَهُم عمرَو بنَ نابل عنهم، فلحق بِصُهْبَان، وبقي معدي كرب جدّ الأشعث ملكاً على ربيعة[1].

فلمّا بلغ صُهْبَان ما فعلت مُضَر بعُمّاله آلى لَيَغْزُوَنَّ مُضَـر بنفسه، وبلغ ذلك مُضَـر، فاجتمع أشرافها، فتشاوروا في أمرهم، فعلموا أنْ لا طاقة لهم بالملك إلاّ بمطابقة ربيعة، فأوفدوا وفودهم إلى ربيعة؛ منهم: عوف بن مُنْقذ التّميميّ، وسُويد بن عمرو الأسديّ - جد عَبيد بن الأبرص - والأحوص بن جعفر العامريّ، وعُدَس بن زيد الحَنْظَليّ، فساروا حتى قدموا على ربيعة، وسيِّدهم يومئذٍ كُلَيبُ بنُ ربيعةَ التغلبيّ، وهو كليب وائل، فأجابتهم ربيعة إلى نصرهم، وولّوا الأمر كُليباً، فدخل على ملكهم لبيد بن النُّعْمان الغسانيّ، فقتله، ثمّ اجتمعوا، وساروا فلقيهم الملك بالسُّلّان فاقتتلوا، فَفُلَّت جموعُ اليمن.... وانصرف الملك إلى أرضه مَفْلُولاً، فمكث حولاً، ثمَّ تجهَّزَ لمعاودة الحرب، وسار فاجتمعت مَعَدٌّ وعليها كُلَيْبٌ فتوافوا بِخَزَازَى، فوجّه كليبٌ السَّفَّاحَ بنَ عمرو التغلبيّ أمامَهُ، وأمره إذا التقى بالقوم أن يوقدَ ناراً؛ علامةً جعلها بينه وبينه، فسار السّفاحُ ليلاً حتى وافى معسكر الملك بخزازى فأوقد النّار، فأقبل كليب في الجموع نحو النّار، فوافاهم صباحاً، فاقتتلوا، فَقُتِل الملك صُهْبَان، وانفضّتْ جُمُوعُهُ... فلمّا قُتِلَ صُهْبَان زاد حِميرَ قتلُه اتِّضاعاً ووهناً»[2].

---

(1) قيل: إنَّ الذي مَلَّك الحارث بن عمرو الكنديّ على مَعَدٍّ هو حَسَّان بن تُبَّع، انظر: المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 3/ 330 ـ 331، وعنه في ديوان بني كلب (الدراسة) 117.

(2) الأخبار الطّوال 52 ـ 53، ونهاية الأرب 15/ 302، وعنهما في شعراء حِمير (الدّراسة) 59؛ حيث علّق صاحبها على الخبر بقوله: «ففيه جمع بين صهبان والحارث بن عمرو بن حَجْرٍ آكل المرّار، وذاك محال؛ لكون صهبان قائد اليمن يومي البيداء والسُّلّان في أواسط القرن الخامس الميلادي، في حين قُتِلَ الحارث سنة 528م، وفيه أنّ سبب يوم السُّلّان هو

وثمّة أوهامٌ وتخليطٌ تفشّيا في الخبر الذي ساقه أبو حنيفة حتى بات شبيهاً بالفاسد؛ ومن تلك الأوهام أنّ قائد مَعَدٍّ يوم السُّلّان هو كليب بن ربيعة، في حين يذكر ابن حبيب الجرّارين من بني ربيعة بن نزار؛ وهم: «ربيعة بن مرة بن الحارث بن زهير التّغلبيّ، قاد مضـر وربيعة وقضاعة يوم السُّلّان إلى أهل اليمن.... وابنه كليب.... قاد ربيعةَ ومُضَـر وقضاعةَ يوم خزازى»[1]. وقريب من هذا ما قاله ابن عبد ربّه في خبر يرويه عن ابن الكلبيّ أنّه: لم تجتمع مَعَدٌّ كلُّها إلّا على ثلاثة رَهْطٍ من رؤوساء العرب؛ وهم: عامر وربيعة وكليب؛ فالأوّل: عامر بن الظّرِب بن عمرو بن يشكر بن الحارث، وهو عَدْوَان بن عمرو بن قيس بن عَيْلَان، وهو إلياس بن مُضَـر، وعامر بن الظّرِب هو قائد مَعَدٍّ يوم البيداء، حين تمذحجت مَذْحِج وسارت إلى تهامة، وهي أوّل وقعة كانت بين تهامة واليمن. والثّاني: ربيعة بن الحارث بن مرّة بن زهير بن جُشَم بن بكر بن حُبَيْب بن كعب، وهو قائد مَعَدّ يوم السُّلّان، وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن. والثّالث: كليب بن ربيعة، وهو الذي يقال فيه: أعزّ من كليب وائل. وقاد مَعَدًّا كلّها يوم خزازى، ففضّ جموع اليمن وهزمهم، فاجتمعت عليه مَعَدٌّ كلّها، وجعلوا له قسم الملك وتاجه وتحيَّته وطاعته»[2].

وقد انتشر هذا الوهم في المصادر التي نقلت عن الدّينوريّ؛ حتّى إنَّ بعض العلماء زاد في الرّواية؛ لتغليب أمرٍ على آخرَ بهواه، أو خلَّط بينها وبين أخرى.

والذي أريد قوله: إنَّ ما سقته من خبر يوم السُّلّان كان بسبب اتصاله بيوم خزازى الذي كان في عقبه بحسب ما يقول به أبو عبيدة: «وكان من حديث يوم خزازى ـ وكان بِعُقْبِ يوم السُّلّان ـ بسبب أسارى من مضر وربيعة وقضاعة كانوا في يد ملكٍ من ملوك اليمن، فوفد عليه وفد منهم؛ منهم: سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة، وعوف بن محلم بن ذهل بن شيبان، وآخرون، فلقيهم رجل من بهراء يقال له: عبيد بن قرار، كان في الأسارى، فسألهم أن يدخلوه في عِدَّة من يسألون، فوهبهم لهم، واحتبس بعض الوفدِ رهينةً حتى يأتيه رؤساؤهم ويعطوه المواثيق بالطّاعة، فرجعوا إلى قومهم، فأخبروهمُ الخبر، فبعث كليب في ربيعة فجمعهم، ثم بعث على مقدّمته سلمة بن خالد بن كعب بن زهير بن تميم بن أسامة بن مالك... بن تغلب المعروف بالسَّفاح التّغلبيّ، وأمره أن يوقد ناراً على

مقتل حجر بن الحارث بن عمرو آكل المرّار، وذاك بعيد أيضاً؛ لأنّ مقتله كان بعد مقتل والده، وقبل موت ابنه امرئ القيس الشّاعر (545م)، ولعلّ ذلك كان نحو 540م، فثمّة خلط بين أحداثٍ جرت منفصلةً، وبين أعلامها نحو قرن من الزّمان!».

(1) المحبر 249.

(2) العقد 5/ 213، ونهاية الأرب 15/ 396 ـ 397، والخزانة 2/ 165 ـ 166.

خزازى»[1]... إلخ.

ويشير الهمدانيّ إلى مشاركة خولان بيوم خزازى مع قبائل قضاعة اليمن وحمير ومذحج وهمدان ومن ساندها من قبائل اليمن، ضدّ إخوتها من قضاعة وإخوانهم من ربيعة ومضر، الذين نالوا منهم ما نالوا، وفي هذا ينصّ الهمدانيّ على سيادة عمرو بن زيد ـ مغرق الأكبر ـ[2] في ذلك اليوم على قومه؛ يقول: «كان عمرو بن زيد شهد يوم خزازى في قضاعة، فحسن أثره في بني شيبان ونال منها، وأسر يومئذٍ عَمْرُو بنُ زيدٍ بغيضَ بنَ عنزِ بن أسود بن أسلم، فمنَّ عليه بنفسه، وفيه يقول الحارث بن هَمَّام بن مُرَّة بن ذُهْل بن شَيْبَان:

تَـدِيْـنُ لـه الـقَـبَـائِـلُ مِـنْ مَـعـدٍّ ... كـمـا دانـتْ قُـضَـاعـةُ لابـنِ زيـدِ

ودارتِ الدّائرة لتغلبَ على حِمير، وفي ذلك يقول بغيض ـ من أبيات له ـ:

عمرُو بن زيدٍ يقودُ الخَيْلَ يَقْدُمُهَا ... لـه مَـخَـالِـبُ أَظْـفَـارٍ وأَنْـيَـابُ

يُعْطِي الجَزِيْلَ ويَحْمِي دُوْنَ عَقْوَتِهِ ... وفـي الحَفَائِظِ مَـنَّـانٌ ووهَّـابُ»[3]

إنَّ التحالفَ بين قبائل قضاعة اليمن، والقبائل التي كانت تنتمي إلى ولدي قحطان: حِمْيَر وكَهْلَان، كان بسبب التّجاور في الدّيار والمنازل، وعلاقات المصاهرة مع حِمير، والمصالح المشتركة مع مذحج التي تنقلب بمرور الأيّام وممضاها إلى ضغائن تُذْكى، وسخائمَ لا تُسْتَلُّ من الصّدور إلَّا بتجريد سيوفٍ صقيلةٍ، وإشراع رماحٍ حُرَّب سنانُهَا، وثُقِّفَ قوامُها؛ كما حدث في يوم المَنْشَر الذي كان بين قضاعة ومذحج، وأغلبُ الظّنِّ أنَّ خولان كانت فيه إلى جانب قبائل قضاعة اليمن؛ إذ لم يقفِ الهمدانيّ عنده، بل ألمح إليه بإشارة عابرة حين أتى على ذكر المَنْشَر من ديار سَنْحَان بن جَنْب ـ وهو بطن من حِمير ـ فقال «المَنْشَر: وسُمِّي بهذا الاسم لمـّا التقت فيه مذحج وقضاعة ونشروا فيه جمعهم؛ أي: تصافّوا فيه للقتال»[4].

---

(1) النّقائض 1093 ـ 1095، وطبعة دار صادر 2/ 261، وأيّام العرب قبل الإسلام 2/ 19، والكامل في التّاريخ 1/ 520 ـ 522، وأيّام العرب في الجاهليّة 109.

(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 67، المطبوع 1/ 299».

(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 68، المطبوع 1/ 301»، وجاء فيه: «وأسر يومئذٍ عمرو بن يزيد بفيض» محرَّفاً. عقوته: لعَقْوَةُ: الساحة وما حول الدّار والمحلّة، وعَقوَةُ الدار: ساحتها. اللّسان (عقا).

4) صفة جزيرة العرب 422، وفيه جاء أيضاً: المَنْشَـر: موضع في ناحية ثات التي يقطنها بنو عَنْس (النّهديون والقريُّون اللميسيّون واليامِيُّون). المصدر نفسه 188.

ومن علاقة خولان بمذحج ما ذكره الهمدانيّ عقب سوقه أنساب سعد بن سعد بن خولان، واصفاً آل النُّعمان بن الفيّاض بأنّهم قادة بني سعد؛ فقال: «وفي قتال زيد بن الحارث بن عمرو بن النُّعمان قامت الحرب بين قضاعة ومذحج باليمن، وكان يريد ميرةً من التّمر من بِيْشَة بَعْطَان، فلقيهُ ذؤبانٌ من بني زُبَيْد، فقتلوه طمعاً في رحله، وفي ذلك يقول أخوه عبد الله بن الحارث الخولانيّ لبني زُبَيْد وقد قَتَلَ عاصلاً الزُّبيديّ:

أَخِـيْ بأَخِيْكُمْ إِنْ أَرَدْتُـمْ سَـلَامَـةً وإلَّا فَجِدُّوا يُوقِدِ الحَرْبَ مُوْقِدُ»[1]

وقاد تلك الحرب حُجْر ـ أبو رعثة الأكبر ـ بن سعد الرّبيعة الخولانيّ، وأجمعت قضاعة على سيادته، فساروا تحت لوائه حتّى قهروا مذحج ومَنْ والاها من القبائل العربيّة. وليس بهيّنٍ تحديد زمان هذه الحرب بدقّة؛ لطول العهد، وتفلُّت أخبار تلك الحقبة من أقلام العلماء والرُّواة، أو ضياعها بتعاور الأيّام ومَضاها، ولكن يمكن الاتّكاء على قرينةٍ عرض لها الهمدانيّ في أثناء سوقه نسب حُجْر أبي رعثة؛ فقال: «هو الذي قام بحرب مذحج، وأجمعت قضاعة على رئاسته... وهو الذي قتل في حرب هوازن وبني سُليم بمذحج وقضاعة»[2]، وهي الحرب التي اسْتُعِين بها بالملك الحِميري سيف بن ذي يزن الذي أمدَّ خولان بأربعة أقيال. وكان ذلك في الجاهليّة قُبيل الدّعوة الإسلاميّة بمكّة بأمدٍ ليس ببعيد، ولا سيّما أنَّ سيف بن ذي يزن ملك بعد عام الفيل (571م) وقبل بعثة النبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم، وأنّ عمرو بن يزيد العوفيّ قتل مُر بن عامر الحِميريّ الذي أخلَّ بخولان إلى هَوَازِن وسُليم، وذلك أوّل ما ظهرت دعوة الإسلام بمكّة[3]، وعلى هذا تكون تلك الحرب وقعت قبل حرب قبائل قيس عيلان وقبائل قضاعة.

وثمّة خبرٌ يذكره الهمدانيُّ عن علاقة خولان بمذحج يوم التقت قضاعة ومذحج بـ (تثليث) من ديار زبيد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، حتّى عُقِر فرسُ عمرو بن معدي كرب الزُّبيديّ اليعسوب، ولمّا وقع عمرو إلى الأرض، استدار له رجلٌ من بني عوف بن خولان يقال له: المحنون؛ ليرميه، فَبَصُـرَ بِهِ عمرو بن يزيدَ العوفيُّ، فنهنهه، وقال: مهلاً، قطع الله يدك! فكفَّ، وأتى لعمرو بن معدي كرب بفرسٍ، فركبه، وقاتل عليه يومئذٍ حتّى فرع اللَّيْلُ بين الفريقين، ثُمَّ انصرف كلٌّ منهما، ولقضاعة الطول، فبلغ عمرَو بنَ يزيدَ العوفيَّ عن عبد الله بن الحارث السَّعديّ الخولانيّ كلامٌ فيه فُحْشٌ وشتائم بما كان من

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 95، المطبوع 1/ 392»، وانظر: الدّيوان ق20/ ب1.

(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 69، المطبوع 1/ 307 ـ 308».

(3) انظر: الإكليل 2/ 250.

أبيه من الكلام في حكيم العلّاف[1]، ثم مرَّ به عبد الله بن الحارث فدعاه، وقال: يا بن أخي، ما كلام بلغني عنك في أمر عمرو والمحنون؟ قال: فقال: عبد الله بن الحارث السعديُّ لعمرو بن يزيد العوفيّ: نعم يا أبا حكيم، قد علمت أنَّ عمراً بطينٌ من دماء بني سعد بن سعد، وكانت الفرصة قد تهيّأت لمقتله، فنهنهتَ عنه، وسيفه يقطر من دمائنا. فأنشأ يقول من كلمةٍ لهُ:

فَغَضَضْتُ طَرْفِي حِيْنَ خَرَّ جَـوَادُهُ ... وَحَبَسْتُ عَنهُ سِنَانَ رُمْـحِ في اليَدِ

ما كَانَ بِي جُبْنٌ، ولا ارْتَعَشَتْ يَدِي ... لَكِنْ حَمِيْتُ على الـهُمَامِ الأصْيَدِ

ثمّ يقول:

لا تَـقْـتُـلُـوا سَـادَاتِـكـم فَـتُـعَـيَّـرُوا ... فَـمِـنَ الكَبَائِرِ قَـتْـلُ كُـلِّ مُـسَـوَّدِ[2]

وممّا يتصل بعلاقة خَوْلَان بمذحج خَبرُ غزوِ عمرو بن معدي كرب الزُّبيديّ خولان، يوم دخل الحقل، وفَضَّ حِصن غنم، وشلَّ الأموال، واجتاح الضَّنيْن، وقدّم الغنائمَ مع عَمّيهِ: سَعْدٍ وشهاب، فعرض لهما سمير الفرسان في جمع من بنيّ يأم، فقتلهما وعِدَّة معهما من بني زبيد، وأخذ ما كان في أيديهما، فَبَعَثَ عمرو بن معدي كرب إلى سمير الفرسان يتوعّده[3]، فقال سمير من مقالة له:

أَيُـرْسِـلُ عَـمْـرٌو بالوَعِيْدِ سَفَاهَةً ... إلـيَّ بِظَهْرِ الغَيْبِ قَـولاً مُرَجَّمَا؟!

لِيُسْمِعَ أَقْـوَامـاً بِمَا لَـيْسَ مُقْدِماً ... عليْهِ وقَـدْ رامَ اللِّقَاءَ فأَحْجَمَا[4]

فَـإِنْ شِئْتَ أن تَلقَىٰ سميراً فَلاقِهِ ... وعَـجِّـلْ ولا تَجْعَلْهُ مِـنْـكَ تَهَمُّمَا

ثُمَّ يقول:

فسوفَ أُرِيْكَ الـمَوْتَ يا عَمْرُو جَهْرَةً ... فَتَنْظُرَ يَـوْمـاً ذا صَـوَاعِـقَ مُظْلِمَا[5]

---

(1) حكيم العلّاف: هو أحدُ السَّادةِ المقدّمين في هَوَازن وسُلَيم، حماهُ عمرو العوفيّ من القتل في المعركة التي دارت بينهما؛ لأنّه سَيِّدٌ في قومه، ولأنّ العرب كانت تتوقّى قتل السّادة من الأعداء مخافة أن تدور عليهمُ الدّائرة، فتعيرهمُ العرب بذلك. الدّامغة: 194.

(2) انظر: الدّامغة 258 ـ 259، والدّيوان: ق37/ ب2 ـ 3، 6.

(3) انظر: الإكليل 10/ 78، وسمير الفرسان: هو أحد شعراء بني يَأم بن أحَبي بَن حَاشِد بن همدان.

(4) الإكليل: «... ما ليس...» مختلّ الوزن، وقد تنبّه صاحب شعر همدان على ذلك، وقلّ أن يفعل.

(5) الإكليل: 10/ 78 ـ 79، وعنه في شعر همدان 260، وشعراء مذحج: 103.

ويبدو من سياق الخبر السّابق أنّ عمرو بن معدي كرب قد بدّد شمل خولان في الحقل، وفرّق جمعها، وداس عروش ساداتها، ثم انبرى له بعد ذلك سمير الفرسان، ومعه جموعٌ من يأم همدان.

ومما يتصل أيضاً بعلاقة خولان بمذحج أنَّ حرباً كانت بينهم، قُتِل فيها ربيعةُ بنُ مسعود بن يزيد بن عمرو بن مسعود بن عروة بن مسعود العوفيّ على ماء الرَّقَبِ، وفيه قال الهمدانيُّ: «وكان ربيعةُ أعظمَ قتيلٍ رُزِئَتْ به بنو عوف بن زيد بن أسامة، وبه طرح مالك بن عبد الله بن معدي كرب بَواءً»[1]. هكذا ذكرها الهمدانيُّ سريعاً، ولم يقف عند شيء يمكن أن يُلْتَمَس فيه ما يَكْشِفُ أخبارها.

ولا يُعلمُ أكانت هذه الحرب التي قُتِلَ فيها ربيعة بن مسعود العوفيّ هي نفسها الحرب التي غزا فيها عمرو بن معدي كرب خولان، يوم دخل الحقل وفضَّ غنماً، وغير هيّنٍ الجزم بأنّهما حربٌ واحدةٌ؛ لقلّة الأخبار الواردة حول هـذين الخبرين، وأغلب الظَّنّ أنّهما يومان منفصلان؛ لرثاء عمرو بن يزيد العوفيّ لربيعة بن مسعود بأبياتٍ، لم يُشِر إليها الهمدانيّ بأدنى إشارة في الجزء العاشر من الإكليل حينما ذكر غزوة عمرو بن معدي كرب للحقل، في حين كان يكرّر الإشارة إلى وقعة ما في غير ما موضع من تآليفه، أمّا زمن هذه الحرب فليس بين أيدينا ما يدلّ عليه إلاّ ما رثى به عمرو بن يزيد العوفيّ ابن أخيه المقتول بأبيات؛ منها قوله:

يَـا عَـيْـنُ وَيْـحَـكِ عَـبْـرَةً لا تَسْأَمِي ... وَابْـكِـي رَبِيْعَةَ مَا أُرِيْـتِ صَبَاحَا[2]

وعمرو هذا نَادَمَ سيفَ بن ذي يزن الحِميريّ، وحضر معه بعض حروبه ومعاركه، ويشير المؤرّخون إلى أنَّ سيفاً استعاد ملك آبائه زُهاء سنة 570م أو 575م، وهو الذي قُتِل بُعَيْدَ ذلك على أيدي نفرٍ من الأحباش أبقاهم لخدمته[3].

وبهذا تكون تلك المعركة قد وقعت قبل هذا التّاريخ؛ لرثاء عمرو العوفيّ لربيعةَ ابن أخيه المقتول.

خَوْلَانُ وحِمْيَرُ:

ليس في المصادر التاريخيّة والأدبيّة الموقوف عليها ما ينقع البِلَّة من أخبار محقّقة، معافاةٍ من الخلط

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 92، المطبوع 1/ 384»، وفيه: «رزئت به خولان بني عوف.... نوا» مُحَرَّفاً. البَواءُ: هو السَّواء والكفءُ؛ أي: قُتِل به، وصار معادلاً له في القِتْلَةِ.

(2) انظر: الأبيات في الدّيوان: ق36/ ب1.

(3) انظر: شعراء حِمير (الدّراسة) 43، وفيها اطّلاع صاحبها على قطعة نادرة من الإكليل لَمّا تُنْشَرَ بعد، تتحدث عن علاقة الأحباش بدولة حِمير، ومقتل سيف بن ذي يزن الحِميريّ، وانظر ترجمته في الدّراسة نفسِها 93.

والوهم عن علاقة خولان بحمير، خلا أشياء أسرّت بها بعض المظان عَرَضاً دون القصد إليها، وهنا نشير سلفاً إلى ترامي كثيرٍ من بطون خولان على أرض شاسعة تمتدّ من جنوب شرقي صنعاء وغربها إلى شمال صعدة، في الجزء الشماليّ من الصّقع اليمانيّ[1] الذي حكمته حمير نحو ستّة قرون ونصف القرن (115 ق.م ـ 525م)؛ أي: حتّى قبل قيام دولة الإسلام في المدينة المنوّرة بنحو قرنٍ (622م)، فبسطت نفوذها على جُلِّه، وصار معظم بلدان هذا الصّقعِ ومن حَكَمَهَا من أقيالٍ وأمراء ينتسبون إلى حِمير، حتّى إنّ لقب ملوكها صار مشتملاً على اليمن كلّه، فلقبوا بـ (ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت)[2]، وأمّا آخرهم ملكاً فكان ذا نواس الحِميريّ المعروفَ في النّقوش بـ (يوسف أسار يثأر)، الذي لقب نفسه بملك كلِّ الشعوب[3].

وعلى هذا تكون خولان وغيرها منضوية تحت لواء الحِميريّة التي دانت لها قبائل اليمن كافةً؛ لما لحمير من نفوذٍ امتدّ على اليمانيّة كُلّها، وخولان واحدة منها؛ إذ دخلت مع حمير في علاقة تحالفٍ ضدّ الأخطار التي تهدّدها. من تلك العلاقة بحسب ما تذكره النقوش اضطلاع (ذي مُعَاهِر)[4] ـ وهو أحد أقيال حمير المشهورين ـ بحكم خولان التي دخلت في كنف دولة حمير، وهذا يدلُّ على وجود روابط متينة تجمع بين القبيلتين، ومِن الأقيال الذين حكموا خولان القَيْل (كرب أسرع) الذي انحدر من أسرة مُعَاهِر نفسه، وهي أسرة غنيّة لها أَرَضُون زراعيّة، اعتنت بها عناية فائقة، ووثَّقَتْ هذا في صِفَاحِ الحجارة؛ ليكون وثيقةً رسميّةً تضمن بقاءَ هذه الأراضي في حوزتها وسيطرتها عليها.

وورد اسم قَيْلين آخرين من أقيال (ذي معاهر) حكما خولان؛ وهما: (كرب أسأر) و(نصر يهحمد)[5]، وكان ذلك سنة 29م الذي يقابله 144 من التّقويم السّبئيّ[6].

---

(1) انظر: الإكليل: 2/ 51 ـ 52، 233 ـ 235، 283، صفة جزيرة العرب: 79 ـ 80، 180 ـ 186، 224 ـ 225.

(2) المفصّل 2/ 530، 521 ـ 554، وانظر: تاريخ العرب القديم: 335.

(3) مختارات من النّقوش اليمنيّة القديمة 257 ـ 261.

(4) ذو مُعَاهِر: هو زرعة بن حسان بن أسعد، المشهور بُتّبَع الأصغر، من أبناء صيفي بن زرعة أخي سدد، واحد من أذواء حمير وأقيالها. الإكليل 2/ 80، والاشتقاق 533، والتّاج (نوس)، والقاموس المحيط واللّسان والتّاج (عهر). وقد عرف الإسلاميّون (أقيال ذي معاهر)؛ فذكرهمُ الهمدانيُّ في كتابه الإكليل في قوله: «شحرار: قصرٌ بِقُصْوى مشيّد ببلاط أحمر، للقيل ذي معاهر» الإكليل 8/ 53. وذكر أيضاً: «قصر وَعْلاَن بردمان، وهو عجيبٌ، وهو قصر ذي معاهر، ومن حوله أموال عظيمة» الإكليل 8/ 89، وعنه في المفصّل 2/ 402.

(5) هذه الأسماء حميريّة، وفي لغتهم يفخّمون بحرف الهاء، ويجعلونها ثانية، ويبالغون فيما ظهر من الأشياء واستعظم؛ فيقولون: يهحمد وهو يحمد، ويهنعم وهو ينعم، وهذه من صِيَغِهِم في التّفخيم. انظر الإكليل 2/ 91.

(6) انظر: المفصّل 2/ 401 ـ 403.

وممّا يتصل بعلاقة خولان بحمير أنّ أقيال خولان كانوا قادة يأتمرون بأمر «نشأكرب يأمن يهرحب» ملك سبأ وذي ريدان، فيستعملهم ضد أعداء حمير وما يهدّدها من خطر[1].

ومن ذلك أيضاً ما وُقِفَ عليه في نقش جام/ 149، الذي ينصّ على تأديب قبائل خولان وصرواح لقبائل عكّ وذي سهرة، بأمرٍ من الملك (شمر يهرعش) ملك سبأ وذي ريدان[2] (115 ق.م ـ 300م)، وقد أطلق على عصره (الثّالث) بحسب تقسيمات العلماء، وكانتِ السّلطة والنفوذ لسبأ وحمير معاً، بخلاف العصر الرّابع (300م ـ 525م) الذي تسود فيه السّيادة الحميرية[3].

ومثل هذا حدث مع عشائر (دواءت) و(أبأس) و(أيدعان) و(حكم) و(حندلة) و(باهل) و(غامد) و(كهل) و(أهلني) و(جديلة) و(سنبس) و(حرام) و(حجرلمد) و(أوام) و(الرّضحة)، اللواتي حاربتهنّ خولان في أسافل أودية ذي البِئْر وخَلْب وتَنْدَحان بحسب النّقش (جام/ 616)[4]، أمّا ما جاء في النّقش جام/ 629: فمحالفة خولان للقَيْل (وهب إيل) ـ وهو من أسرة ذي مُعَاهِر ـ وقبائل أخرى من حضرموت وقتبان وردمان ومضحيم، في إشارة سريعة لمواجهة جيوش مَلِكَيْ سبأ وذي ريدان، التي انتصرت على قبائل الحلف بعد معارك طاحنة منيت فيها خولان بشرِّ هزيمةٍ[5].

وثمّة إشارةٌ هي غاية في الأهميّة، تدلّ على دخول خولان تحت لواء الحِميريّة في حرب الأشباء والصّدف وحضرموت يومَ غَيْمان الذي أشار إليه الهمدانيّ غير مرّةٍ في كتابه الإكليل؛ بالتّصريح تارةً، وبالتّلميح تارةً أخرى؛ فأمّا تصريحُهُ فقوله وهو يذكر ثابت بن الرَّيَّان القشيبيّ العوسجيّ الحميريّ: «وثابت الذي أصلح بين حمير في عقب حرب غيمان»[6]، وقوله وهو يذكر أولاد زُرْعَة بن عمرو الحَنْفَريّ الحميريّ: «فأولد زرعة بن عمرو: يَرْيَم بن زُرْعَة ـ وهو قتيل العَرين ـ وحُجْر بن زُرْعة، فقام برياسة أبيه زُرْعة، وولي ما كان في يده، ووازر أَبا مرَّة سيف بن ذي يزن في أمره، وقام معه بيوم غَيْمان يوم سار له مالك بن يزيد الصَّدفيّ في الأشباءِ والصَّدفِ وحضرموت، وهو القائل:

ألسنا المقاوِلَ من حِمْيَرِ ... لنا الفَضْلُ يَطْمُو علىٰ مَنْ ذُكِرْ

---

(1) انظر: نقوش مسنديّة: 165 ـ 370.

(2) انظر: نقوش مسندية 371، والمفصّل 2/ 544.

(3) انظر: تاريخ العرب القديم: 323 ـ 324.

(4) انظر: نقوش مسندية 494.

(5) انظر: المفصّل 2/ 467.

(6) الإكليل 2/ 139 ـ 283، وانظر: أهل اليمن في صدر الإسلام: 84.

إذا استُلَّتِ البِيْضُ يوم النِّزَالِ ... وكَانتْ لَنَا مَعْقِلاً لم نَفِرْ

لنا فَخْرُ غَيْمَان في مَشْهدٍ ... بدا الفَخْرُ فيه لِمَنْ يَفْتَخِرْ»[1]

وقد فخر محمَّد بن أبان الخنفريّ بمناصرةِ جَدِّه حُجْر بن زرعة لسيف في هذا اليوم؛ فقال:

وجَدِّي الّذي وافىٰ الرَّكايا جِيادُهُ ... وحامىٰ علىٰ العِزِّ الذي أسَّ يَشْجُبُ[2]

ونحن نصبنا يوم غَيْمان عَارِضاً ... فباد ابنُ ذي شِمْرٍ وقد كاد يَغْلِبُ[3]

وأما تلميحه إلىٰ هذا اليوم فقوله وهو يتحدّث عن نسب بني عوف بن زيد الخولانيّ وسَيِّدهم عمرو بن يزيد العوفيّ: «وخولان تقول: لم يَقْتُلْ أحدٌ من العرب مثل مَنْ قَتَل عمرٌو من السّادة والعظماء، شهد مع ابن ذي يزن حرب الأشباء والصَّدف وحضرموت، فعقل نفسه زويراً، ورمى مالك بن يزيد الصَّدفيَّ الملك فقتله، وفيه يقول شاعر الصَّدف:

ألا شَلَّتْ يَمِيْنُكَ يا بن زيدٍ ... فقد أَوْرَيْتَ زَنْدَكَ فاستَنَارَا

وهو القائل:

ولقد تركتُ أخَا المَهَابَةِ مَالِكاً ... رهن الضّريح مُرَمَّلاً مَدْفُونَا»[4]

وفي موضع آخر يذكر الهمدانيُّ مشاركة عَمْرِو بنِ يزيدَ العوفيِّ في تلك الحرب؛ فيقول: «مالك بن يزيد بن أبي شِمْر الملك الذي أصيب في حربه لسيف بن ذي يزن، رماه عمرو بن يزيد العوفيّ من

---

(1) الإكليل 2/ 128 ـ 129، وانظر: ديوان حمير ق8/ ب1 ـ 3.

(2) الرَّكايا: جمع الرَّكِيّة؛ وهي البئر تحفر، وأراد أنّ جيادهم وافت أهل هذه الرَّكايا بالغزو.

(3) العارض: السحاب المعترض في الأفق، شبّه الجيش بالسَّحاب في اعتراضه وعظمه. انظر: ديوان شعراء حمير ق103/ ب8.

(4) الإكليل: «المخطوط 1/ 88، المطبوع 1/ 371»، وفيه: «ورمىٰ مالك بن زيد الصَّدفيّ» محرَّفاً، انظر الإكليل 2/ 46، 128. وفي قوله:(يا بن زيد) يريد (يا بن يزيدَ): ركب الشّاعر مركَب الضّرورة؛ لإقامة الوزن واستقامته، والزّوير: هو زعيم القوم وصاحب أمرهم، قاله ابن الأعرابي، وأصله شيء يُلقىٰ في الحرب، فيقول الجيش: لا نفرُّ ولا نبرح حتىٰ يفر ويبرح هذا. ويقال: إنّ رجلاً من بني هِنْدٍ من كندة يقال له: علقمة ـ وكان شيخاً قد خَرِفَ ـ قال لقومه في حربٍ كانت لهم: يا بني، إنِّي قد كبرتُ، واقترب أجلي، فما مُوَرِّثكم شيئاً، وهو خير من مجد تباؤون به علىٰ قومكم، أنا زويركم اليوم. يقول: ألقوني فقاتلوا عليَّ، فسمِّي ذلك اليوم «الزُّوَيْرُ»؛ لأنّهم كانوا يرجعون إليه ويزورونه، فصار اسماً للرئيس والزّعيم؛ انظر: تهذيب اللّغة 13/ 24، اللّسان (زور)، مجمع الأمثال 2/ 345 و(صادر)3/ 457.

خولان، ويقال: يعلى بن سعد»[1].

ومهما يكن من أمر قتل مالك بن يزيد الصَّدِفِيّ، فإنّ خولان شاركت الملك الحميريّ في حربه السَّالفة الذِّكْرِ، وكان ذلك بدافعٍ من مصلحة خولان التي أسّست علاقاتٍ حميمةً مع دولة حمير العظيمة، ولاذت بحبائها الذي ألقى بظلّه على اليمن كلّه لستّة قرون كما أسلفنا.

ومن علاقة خولان بحمير ما نجده في حرب شِمْر ذي ريدان الحميريّ، ومن كان معه من عشائر خولان والأحباش وحمير التي قادها ضد ملوك سبأ، الذين كانوا على عداوة مستمرّة مع حمير ومن ساندها بقيادة (إليشرح يَحْضَب) الذي استسلمت له قبائل حمير وحلفاؤها المناوئون لحكمه؛ ليصبح شمر ذي ريدان فيما بعد قائداً لجيش السبئيين في محاربة ملك حضرموت[2].

وقد يرى بعض الباحثين أنَّ «شمر ذي ريدان» ـ وهو من حمير ـ هو نفسه «شمر يهرعش»، وأنَّ الذي حارب (إليشرح يحضب) هو هذا الملك في أوائل القرن الرّابع للميلاد، وهو رأيٌ يرفضه باحثون آخرون[3].

على أنّه ليس من السّهل تحديد زمن هذه الأحداث، أو القول بتعدّد الاسم للملك الواحد ونعته بأكثر من لقب؛ لطول العهد، وبعد الزمن، وقلّة الأخبار الموثَّقَةِ عن تلك الحِقْبَةِ من حياة اليمن، سوى ما وُقِف على بُقَيّا النّقوش على صِفَاحِ الحِجَارة في بطن الأرض أو فوق أديمها، وكثيراً ما كانت تلك النّقوش مطموسةَ المَعَالِمِ، غير واضحةٍ، ثُمَّ للّذي تبعه من العثور على شيءٍ منها، واستنطاقها كما دوّنها أصحابها، تَعَرُّف على خبيئها، ولم يكن خفيًّا سَبْقُ المستشرقين إلى ما تخفيه تلك الألواح، فجعلوا الطّريق إليها لاحِباً، وأنَّ جُلَّ مَنِ اقتفى أثرهم من العرب لم يفد من رحب الطّريق إلّا أقلَّهم، فأخذوا ما انتهى إليه المستشرقون من آراء مسلّماتٍ ردّدوها ما عاشوا، دون أن يقلّبوها على وجوهها المختلفة أو يُدْلُوا بدلوهم فيها، ولا سيّما أنَّ قراءة المستشرقين لم تخلُ من دوافعَ قوميّة وتبشيريّة، ولم تتفلَّت من سلطان الهوى، وهو مما يفسد البحث العلميّ، ويوجهه في سُبُلٍ خاطئةٍ[4].

---

(1) الإكليل 2/ 46.

(2) المفصّل 2/ 440.

(3) المفصّل 2/ 441.

(4) سبق إلى مثل هذه الإشارة د. مقبل عندما علّق على قراءة المستشرقين للفظة (تُبَّع) المحرّفة عن (بتع) في رأيهم، وحذا د. جواد علي حذوهم محاولاً تَلَمُّس الأعذار لهم في مذهبهم، وكأنه اطّلع على النّقوش جميعها ولم يغادر صغيرةً وكبيرةً منها حتّى وصل إلى هذا. شعراء حمير (الدّراسة) 44.

ومن علاقة خولان بحمير ما وقف عليه د. جواد علي في النّقش جام/ 601، الذي يخبر عن حرب شنَّها القيل (إلي ريام يجعر) في أيّام الملك (وتّاريهامن) وهو ابن الملك (إليشرح يحضب) على خولان التي انتصر عليها، وفرَّق شمل حلفائها، كما يدّعي النّص الذي سجّله هذا القيل[5] في أواخر عصر ما قبل الميلاد[6]؛ وذلك بسبب عصيانها للملك السُّخَيْمِيّ الذي كانت تنضوي تحت لوائه، وشجعت قبائل أخرى ـ لم يذكرِ النّقش اسمها ـ على العصيان، فانضمّت إليها وشاركتها في الحرب التي وضعت أوزارها في نهاية المطاف لصالح القَيْل الذي استطاع أن يدوس عروش خولان ويقهر ملوكها، فشكر الإلهَ (المقه ثهوان) الذي وفَّقَهُ ونصـره على قبائل خولان في وقعتين اثنتين[7].

وفي موضع آخر يشير النّقش جام/ 616 الذي قرأه د. جواد علي إلى خبر غير معركة اشتركت فيها مجموعة قبائل منها بنو سخيم ويُرْسَم؛ وذلك لامتناعها عن دفع ما يستحق عليها من إتاوات وضرائب، وهذا ما حَمَلَ الملك الحميريّ (نشأ كرب يهامن يهرحب) بن (إليشرح يحضب) على إرسال حملة عسكريّة، تمكّنت من تأديب العصاة وإخضاعهم، وكانت قبيلة خولان واحدة منهم، التي أرسلت أشرافها ووجوهها إلى مدينة صنعاء لتقديم فروض الطّاعة والولاء المطلق للملك الذي رضي عنهم، وقَبِلَ ما قدّموه من فروض وولاءات[8].

ومن ذلك أيضاً ما وقف عليه في النّقش HIC 948 من قيادة الملك (شِمْر يهرعش) حملة عسكريّة كبيرة لأرض خولان (الدّودان) يعني الجديدة، والمراد بها خولان صعدة، التي عسْكَر فيها أحد قوّاد الملك السّابق لقطع الطريق على بعض فلول خولان صعدة، فَنَفَّذَ القائد ما طُلِبَ إليه، وكلّل عمله بنصرٍ كبيرٍ[9].

وثمّة خبر آخر عن محاربة الملك (شمر يهرعش) (وهب أيل بن معاهر) وحليفه (صاحب خولان) في أرض ردمان المتاخمة لخولان، في إشارة سريعة وردت في النّقش جام/ 629[10].

ومن الأخبار التي تتعلّق بصلة خولان بحمير ما ذكره الهمدانيّ عن قدماء رجال بني صُحَار في قوله: «علقمة بن زيد، كان رحَّالاً إلى الملوك باليمن والشّام، وهو الذي أشار على خولان باستنجاد

---

(5) انظر: المفصّل 2/ 395، ونقوش مسنديّة 494.

(6) انظر: نقوش مسنديّة 493.

(7) انظر: المفصّل 2/ 457.

(8) المفصّل 2/ 462.

(9) انظر: المفصّل 2/ 555، نقوش مسنديّة 389.

(10) انظر: المفصّل 2/ 149، 154.

ابن ذي يزن على هَوَازن وبني سُلَيم، فأُمِدُّوا بأربعة أقيال: بِمُرٍّ بن عامر، وابن ذي فائش، والحصين وميمون ابنَيْ حريز، ونوال بن عتيك غلام ابن ذي يزن»[1]؛ وهذا يدلّ على قيام حلفٍ بين حمير وخولان لقتال قبائل هَوَازن وسُلَيْم، ولكن مرور الأيّام ومضاها قلب ظهر المِجَنّ لخولان، فقام مُرُّ بن عامر الحميريّ ـ وهو أحد الأقيال المَدَد لخولان ـ بقتل الحصين بن حريز الخنفريّ، وتفريق صفوف خولان، والإخلال بها إلى هَوَازن، حتى ظفر به عمرو بن يزيد العوفيّ وقتله؛ لخيانته وإفشائه أسرار خولان لسُليم وهوازن[2].

وثمّة خبر يتصل بعلاقة خولان بحمير في صدر الإسلام، نقع عليه في نصّ الرّسالة التي بعثها النّبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم لمعدي كرب بن أبرهة بن الصَّباح بن لهيعة بن شَيْبَة الحِميريّ الّذي كان مُسَوَّداً على بعض خولان[3]، بـ «أنّ له ما أسلم عليه من أرض خولان»[4]، ونجد د. جواد علي يجعل معدي كرب بن أبرهة خامل النّسبة مجهولاً؛ لعدم تسمية ابن سعد في طبقاته لبقيّة نسبه؛ معتمداً في ذلك على رواية الطّبريّ الّتي تقول: «إنَّ أبا مُرَّة الفيَّاض ذا يزن، كان من أشراف اليمن، وكانت تحته ريحانة بنة ذي جدن [وهو علقمة بن مالك بن زيد بن كهلان]، فولدت له غلاماً، سمّاه معدي كرب، وكانت ذات جمال، فانتزعها الأشرم من أبي مُرَّة، فاستنكحها، فخرج أبو مُرَّة من اليمن، فلحق ببعض ملوك بني المنذر»[5]، فـ «نشأ معدي كرب بن ذي يزن مع أمه في حُجر أبرهة»[6]. واتّكاءً على هذا يمكن القول: وَهِمَ بعضهم في نسبة معدي كرب؛ لعدم رفع ابن سعد نسبه إلى الأَصَابح، فَظَنَّ أنّه رجل آخر غيرُ معروفٍ، في حين يذكر الهمدانيّ نسب معدي كرب بن أبرهة بن الصَّبَّاح مرفوعاً إلى جده الأكبر ذي أصبح[7]، الذي دانت لحكمه بعض قبيلة خولان ولحقت بنسبه، حتّى عُدَّت حميريَّة كما مَرَّ بنا في رسالة النّبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم فيما سلف.

خَوْلَان وهَمْدَان:

أما علاقتهم بقبيلةِ همدان ـ وهو أوسلة بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن خيار بن مالك بن

(1) الإكليل: (المخطوط 1/ 106، المطبوع 1/ 425).

(2) انظر: الإكليل 2/ 249 ـ 250.

(3) انظر: النسب الكبير 1/ 216، 2/ 543، الإكليل: (المخطوط 1/ 140 ـ 141، المطبوع 1/ 525 ـ 528).

(4) المفصّل 4/ 183، 7/ 142، ومجموعة الوثائق السّياسيّة في العهد النّبويّ والخلافة الرّاشدة 119.

(5) تاريخ الطّبريّ 2/ 142، والمفصّل 3/ 482.

(6) تاريخ الطّبريّ 2/ 143.

(7) انظر: الإكليل 2/ 155.

زيد بن كهلان بن سبأ ـ التي تُعدُّ من القبائل اليمانيّة الكبيرة المهمّة على ساحة الأحداث السّياسيّة في الصّقع اليمانيّ، فلم تكن مدوَّنة في كُرّاس ما أو صحيفة معيّنة، بل وُجِدَ شـيءٌ منها فيما انتهى إلينا من بُقَيَّا النّقوش التي تُعدُّ بحقٍّ وثيقةً رسميّة تُميط اللّثام عن هاتيك العلاقات، وما تفرّد بروايته الهمدانيّ في الإكليل، ولا سيّما الجزء العاشر منه، الذي أنهبه أخبار همدان وأنسابها وأيّامها، وما لها من علاقات بجاراتها القبائل العربيّة أو الأمم المجاورة.

ومن علاقة خولان بهمدان وما وُقِفَ عليه مكتوباً في أطراف الحجارة: أنَّ أميراً يُدْعَى (شابت بن عليان) قد توسَّط بين عَمِيْ أَنَس (عَمِيانَس) وخَوْلَان والريدانيّين؛ لتكون جبهة القتال واحدة ومتينة في محاربة علهان، وقد انضمّت إليها قبائل أخرى معادية للهمدانيّين الذين انتصروا في نهاية المطاف على قبائل الحلف وفيها خولان، بفضلٍ من الإله (تألب ريام) الذي حُمِد على تفضّلِهِ وحمايته للأمير وجيشه[1].

ومن علاقة خولان بهمدان أيضاً ما جاء في النّقش جام/ 638، وقد تناهبت أيادي الدّهر الأسطر الأولى منه، فَطَمَسَتْ معالمَهُ، واسمَ مُدَوّنه وصاحبه، وفيه اسم (عبد عثتر بن موقس) وهو من سادات خولان، وقد هاجمته جيوش (شعر أوتر) وهزمته، وكبّدته خسائر فادحة، وكان قد هدم معبداً لعبادة (المقه)، وخَرَّبه في موضع (أُوعَلن)، فعَدَّ صاحب النّص هذه الهزيمة عقاباً وجزاءً من الإله (المقه) أنزلها بهؤلاء الخولانيّين الذين أقدموا على العبث بالمقدَّسَاتِ، ويظهر من النّص أنَّ (شعر أوتر) كان قد أغار على الخولانيّين الذين يتزعّمهم (عبد عثتر)، وأصابهم بضرر فادح، ففرح بذلك صاحب النّص؛ لتطاول (عبد عثتر) على معبد (المقه)، ولعلّ هناك سبباً آخر كان يلوح في الأفق أشعل فتيل هذه الحرب؛ وهو تطاول (عبد عثتر) على (شعر أوتر) وإهانته، وهو مَنْ هو اشتهاراً وذيوعَ صيت، الذي طبَّق الآفاق قوّةً وحنكةً ودهاءً، فهاجم أرضه وتناوله بجيش جرّار هزمه وداس عرشه[2].

ومن علاقة خولان بهمدان ما نقله الهمدانيّ عن خضوع عدد من القبائل ـ من بينها خَوْلَان وجَرْم

---

(1) المفصّل 2/ 369، وفيه يقول د. جواد علي: «كان حكم (علهان نهفان) في حدود سنة 135 ق.م على تقدير (فلبي)، أو في النّصف الأوّل من القرن الأخير قبل الميلاد على رأي آخرين، وفي حوالي السّنة (60 ق.م) على رأي (البرايت)، وفي حوالي السّنة 160 بعد الميلاد على رأي (فون وزمن)، وفي حوالي السّنة 85 قبل الميلاد على تقدير (جامه). أما نهاية حكمه فكانت في حوالي السّنة 65 على تقديره أيضاً». وقد جعل (كروهمن) حكم شعر أوتر (وهو ابن الملك) في نحو 50 أو 60 بعد الميلاد، ومعنى هذا أنّ حكم أبيه علهان يجب أن يكون بعد الميلاد؛ ليناسب الحكم الذي وضعه كروهمن لابنه. انظر: تاريخ العرب القديم، 304.

(2) المفصّل 2/ 384ـ 385.

ونَهْد ومذحج ـ لحكم الملك زيد بن مَرْب بن معدي كرب بن زود بن سيف بن عمرو بن السبيع بن السبع بن صعب بن معاوية بن جُشَم بن حاشد بن همدان، وكان ذلك في الجاهليّة البعيدة؛ لأنَّ الملك زيد بن مَرْب الهمداني غزا تغلب في عقر دارها، وكان عليها يومئذٍ ربيعة بن الحارث بن زهير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب، أبو كليب ومُهَلْهِل، وسبب هذه الحرب وَفْقاً لما يورده الهمدانيّ أنّه دان للملك زيد عدد من قبائل اليمن، ومن سكن عروض اليمامة من ربيعة، وكان على بني تغلب هناك ملك من ملوك اليمن على عهد زيد، فمات، فأتت وجوه بني تغلب زيد بن مرب، فسألوه أن يُمَلِّك عليهم ملكاً من قومه، وقد قدم عليه جابر بن حيّ بن عدي بن عمرو وأشراف منهم، فملَّك عليهم رجلاً من السبيع يقال له: هانئ ـ وفي رواية أخرى من آل حذان يقال له: هانئ ـ فلما نزلوا في بعض الطّريق شرب هانئ ومن معه فسكر، فقالوا له: تَعَقَّل ناقتك؟ فقال لجابر: كُنْ عِقَالَهَا حتّى تصبح. ثُمَّ نام، وأخذ جابر بزمامها وقعد، فغلبته عينه، فخلّى عن زمامها فذهبت، فلمّا أصبحوا طلبوها فلم يقدروا عليها، فقالوا له: اركب بعض رواحلنا، فقال: ما كنتُ لأجلسَ في رَحْلِ تغلبيٍّ، ولكنّي أركب جابراً. فناشدوه، فأبى أن يركب غيره! فشدّوا عليه فقتلوه، ورجعوا إلى قومهم، فلمّا بلغ ذلك زيداً استنفر قبائل من همدان ومن مذحج وحمير وغيرها من القبائل التي دانت لحكمه، وغزا بني تغلب، واجتمعت ربيعة ومن يليهم من مضر، وعليهم ربيعة بن الحارث بن زهير بن جُشَم بن بكر التغلبيّ كما أسلفت، فلقيهم زيدٌ بجَرَادٍ، فقاتلهم قتالاً شديداً، فهزمهم وأسر منهم سبعين رجلاً، فتوسّلوا في أسرهم بالحارث الملك الكِندِيّ، وأمه أمّ إياس بنت عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان، إلى زيد بن مْرب الذي أطلق الأسرى وأحسن إليهم[1].

ومن الأخبار التي وقفتُ عليها ـ التي تتصل بعلاقة خولان بهمدان ـ ما نصَّ عليه الهمدانيّ من أمر الحرب التي أشعل فتيلها قَتْلُ هَمْدَانَ للحارث بن عمرو بن عوف الخولانيّ ـ وكان سَيِّداً في بني حيّ بن خولان ـ ودخلت قبائل نَهْد وجَرْم هذه الحرب إلى جانب خَوْلَان، بينما حملت قبائل بَكِيل الهَمْدَانيَّة العبءَ الأكبر من القتال، فشملت أحياء القبيلتين معاً، وحرصت كُلُّ قبيلة على تأديب الأخرى، والثّأر لكرامتها وشرفها، وممّا زاد في تسعير نارها وتشبيبها أنْ عمدت قضاعة إلى ماءٍ كان يمرُّ بأرضها، وكانت همدان تستسقي منه، فمنعت وصوله إليها، وقد أشار إلى هذا معاوية بن دومان البكيليّ بقوله:

أَرَادَ طُـفَـيْـلٌ يَـمْـنَـعُ الـمـاءَ زَلَّـةً ... ولَـمْ يَـكُ رَأْيـاً مَنْعُهُ الماءَ لو عَقَلْ

---

(1) انظر: الإكليل 10/ 55 ـ 56. وجاء فيه: «جابر بن حي بن عدي»، لعلّه تصحيفٌ وصوابه (حنيّ).

فَفَارَقَتِ البِيْضُ الخِفَافُ غُمُودَهَا ولاحَــتْ بأَيْديهم مصابيحُ كالشُّعَلْ

حسِبْتَ رِجَــالاً أن تَجِفَّ حُلُوقُها وأنت علىٰ رِيٍّ وفي رَاحِها الأَسَلْ[1]

وقد قام في تلك الحرب مالك بن ملالة الأَرْحَبيّ فارس بني هَمْدَان وشاعرها[2]، وشاركه في قتاله لقبائل قضاعة مالك بن زيـد بن أَوْسَلة بن عميرة بن الدِّعام الهمدانيّ، الذي عرف في عصره بـ «الحِمَى»[3]، وهو القائل لعقيل بن مسعود الكلبيّ سيّد قضاعة باليمن:

أبـا ربـيـعـةَ إنَّ الـحَـقَّ مَـغْـضَـبَـةٌ آثَـرْتَ قَـوْمَـكَ إذ نَـادىٰ مُنَادِيهَا

وكنت عَـدْلاً تقولُ الحقَّ مُحْتَلِماً ولـلـعَـدَالَـةِ أَسْـبَـابٌ تُـؤَدِّيـهَـا[4]

وكان أوّل سهم يطلق في تلك الحرب ويفتحها هو سهم جُذَيْمَة بن وائلة بن ربيع بن جذيمة الشّاكريّ الهمدانيّ، وهو أوّل قتيل فيها[5].

ولكن سرعان ما قُتِلَ مالك الأرحبيّ[6]، فتزعّم تلك الحرب أحدُ أبنائه؛ وهو أبو غارة بن مالكٍ، وكان سَيِّداً جواداً، وفارساً شجاعاً، ومعه أخوه علقمة بن مالك الذي تَوَعَّد خولان بالثّأر قائلاً:

عــاداتُ أسيافِنا يوماً إذا صَـدِئَـتْ صِقالها بمساحي هـامِ خـولانِ[7]

تظمأُ مـا ظـمِـئَـتْ فينا ولـيـس لها إلّا دمـاؤهـمُ مِـنْ مَـشْـرَبٍ دانِ

أمثلكم هاجنا أو هـاد بَيْضَتنا أو سَبَّنا يا رُعـاةَ الـمَعْزِ والضَّانِ؟![8]

وكان ممّن حضر تلك الحرب من أشراف همدان: الحارث بن مُرِّ بن ربيعة بن عبد بن عليان بن

---

(1) الإكليل 10/ 124، وعنه في شعر همدان وأخبارها 307، الأسل: الرّماح.
(2) انظر: الإكليل 10/ 140.
(3) انظر: الإكليل 10/ 124.
(4) الإكليل 10/ 124، وعنه في شعر همدان وأخبارها 302. وجاء في البيت الثّاني في الإكليل (معتلما)، وأظنُّه تصحيفاً، وما ذهب إليه صاحب همدان فهو صحيحٌ.
(5) انظر: الإكليل 10/ 196.
(6) انظر: الإكليل 10/ 142.
(7) مساحي: مقلوب مسائح، جمع مسيحة؛ وهي رأس الإنسان ما بين الأذن والحاجب، ومثل هذا القلب موجود في شعر همدان 270.
(8) هاد: أفزع، والبيضة: أراد بها هنا الحمىٰ. انظر شعر همدان وأخبارها 270.

أرْحَب الهمدانيّ، وهو صاحب خيل همدان[1]، وأدهم بن قيس بن ربيعة مع أخويه أقفع ـ وهو عبد الله ـ ومحمّد[2]، وحيف بن أغار بن ناشج بن وادعة، وكان سيّداً في قومه، وقُتِلَ فيها[3]، والحارث بن مالك بن ربيعة بن عبد ودٍّ بن وادعة، الذي قُتِلَ فيها مع عمه وأبيه في يوم الضَّـرُكِ[4]. وكان على قبائل قضاعة يومئذٍ سَيِّدها وشـريفها عقيل بن مسعود الكلبيّ، الذي نالته طعنةٌ يزيد بن معاوية بن دومان بن عُمَيرة الهمدانيّ، فخرم أنفه وقتله[5]. وشارك في هذه الحرب ولدان لعقيل بن مسعود؛ هما: الرّبيع بن عقيل ـ وكان شاعراً ـ ومسعود بن عقيل الذي قُتِلَ في تلك الحرب، فَقَتَلَ الرّبيع به عمرو بن مالك بن ملالة بن أرحب الهمدانيّ[6].

ودامتِ الحرب طويلاً بين الفريقين، حتّى انبرى للصّلح بينهما عامر ذو لعوة الأوسط بن زيد بن الرّديح بن الحارث بن الخصيب بن مالك بن قيس بن شـرَاحِيل بن رفاعة الهمدانيّ ـ وهو من أهل الشّرف والسّؤدد ـ ارتضاه الطّرفان حَكَماً، فأجار بينهما ثلاث سنين[7]، غير أنّه لم ينجح في استئصال شأفة الحرب بينهما؛ إذ لم تلبث أن سُعِّرت نارها من جديد، وصارت أشدَّ ما تكون ضراوةً بعد أن أتاحت ثلاث سنوات لكلِّ فريق أن يستعيد أنفاسه، ويعدَّ نفسَهُ من جديد. ولا بدَّ ههنا من الإشارة إلى أنّ أخبارَ هذه الحرب قليلةٌ وخاملةٌ، لا تزيد على ما ذكره الهمدانيّ، وهو صاحب أحداثها، يُحِيْلُ في وقائعها وأحداثها وما جرى على ألسنة الشّعراء الفرسان الذين خاضوا غمارها على كتابه اليعسوب ـ المفقود في ضمائر الغيب ـ الذي أودعه أخبار غيرها من الحروب التي خاضتها قبائل يمانيّة أخرى.

وهذا ما أسعفتنا به الأخبار في القول حول علاقة خولان بجاراتها من القبائل اليمانيّة، التي لم تخرج

---

(1) انظر: الإكليل 10/ 160.
(2) انظر: الإكليل 10/ 163.
(3) انظر: الإكليل 10/ 89.
(4) انظر: الإكليل 10/ 84. لم أجد يوم الضُّرَك في مصنّفات الأيّام، وجاء في معنى الضُّرَك: الغليظ الشّديد.
(5) انظر: الإكليل 10/ 120 ـ 125.
(6) انظر: الإكليل 10/ 143. وقرأتُ في شعر همدان 56 أنّ «عقيل بن مسعود الكلبيّ قُتِلَ في هذه الحرب، قتله معاوية بن مالك بن ملالة بأبيه، فنهض بثأره أخوه الرّبيع بن مسعود الكلبيّ، فَقَتَلَ به من همدان عمرو بن مالك بن ملالة». والصّحيح أنّ الذي قتله هو يزيد بن معاوية بن دومان. الإكليل 10/ 125. وجعل جامع أشعار همدان ومحقّقها د. عيسى حسن أبو ياسين لمالك بن ملالة ولداً اسمه معاوية، وليس من أبنائه من سُمِّي بهذا الاسم. وانظر خبر هذه الحرب أيضاً في ديوان بني كلب؛ ففيه فضل إيضاح 1/ 162، 288.
(7) انظر: الإكليل 10/ 108.

عن أقوال الهمدانيّ الذي كان عليه المعوّل في أخبار القوم.

ونخلُص إلى ما يأتي:

- إنّ علاقات خولان بمذحج علاقات قائمة على ما تقتضيه مصلحة القبيلة، والحرب هي التي جمعتهما في غالب الأحيان، إلا إذا رأت إحداهما أنّ خطراً يهدّد أمنها وصقعها، تشرع في عقد حلفٍ ضدّ ذلك الخطر؛ كما مرّ بنا عندما حاولت قبائل قيس عيلان أن تشارك خولان ومذحج وبعض قبائل قضاعة الماء والكلأ.

- استمدّت خولان قوّتها من قوّة حمير؛ لعلاقتها المتينة بها، وعاشت في ظلّ صيتها الذي دوّى في أشعار العرب بعيداً، بل كانت حليفاً قويًّا لها ضدّ القبائل اليمانيّة القديمة.

- كانت علاقة خولان بهمدان علاقة حرب ونزاع، وفق ما انتهى إلينا من أخبار أوذيت أيّما إيذاء، وتخرّمتها المنايا، وتناهبتها أيادي الضّياع. وقلّة الأخبار تنسحب على علاقات خولان بالقبائل السّالفة الذِّكْرِ، ولعلّ فيما قدمنا ما يزيل بعض الغمّة عن وجه خولان المغمورة.

3- عَلَاقَاتُهُم بالأَحْبَاشِ:

ليس بين أيدينا ما يوضّح العلاقة بين خولان والأحباش علىٰ نحوٍ مرضٍ فيما وقفنا عليه من التّآليف القديمة، التي تؤرخ في أحد جوانبها للصّقع اليمانيّ من جزيرة العرب، ولعلَّ مردَّ ذلك إلىٰ ترامي خولان علىٰ أصقاعٍ شاسعة في اليمن، وذوبان كثيرٍ من بطونها في قبائل كبيرة مثل حمير ومذحج وهمدان، وقلّة اشتهارها لدىٰ المهتمّين بالتّأريخ مقارنة بالقبائل اليمانيّة السّابقة الذِّكْرِ، التي صرف المؤرّخون القُدامىٰ جُلَّ اهتمامهم لتدوين أخبارها وعلاقاتها وتقييد أيّامها، يضاف إلىٰ هذا انحسار دورها في توجيه دفّة السّياسة في اليمن، ولا سيّما في الجاهليّة وصدر الإسلام؛ لذلك لم يكن لها ما كان لجاراتها من الأهميّة في مصنّفات العلماء والرُّواة.

وإنّ معظم ما كُتِبَ في هذه البابة هو عن علاقة الحبش بحمير؛ لكونها بسطت نفوذها علىٰ بلاد اليمن جميعها، أو باليمن عامّة، ولقلَّة الكتب القديمة في ذلك، واحتجاب هذا القليل عنًّا، ولا سيّما ما كتبه الهمدانيُّ لسان اليمن وعلّامتها، ولا بدَّ ههنا من الإشارة إلىٰ أهمية النّقوش المتبقية علىٰ صِفَاحِ الحجارة؛ لما حوته من أخبار تنبِئُ ببعض العلاقات التي كانت قائمة بين الأحباش وأهل اليمن؛ لذا سيكون مدار الحديث عن علاقة الحُبْشِ باليمن عامّة، والتَّطرّق إلىٰ خولان وما كان لها من علاقة بهؤلاء إذا أمكن إلىٰ ذلك سبيلٌ، وليس هذا بالبدع ههنا؛ إذ سبق إلىٰ التّنبيه عليه وبسط القول فيه غير

باحث ممّن عُنوا بتاريخ العرب وأيّامهم قبل الإسلام، ولا سيَّما اليمن منها. وسيُكتفىٰ بعرض أهم الأحداث التي كان للأحباش دور مهمٌّ فيها؛ اتّكالاً علىٰ ذكر أهل الفضل والعلم لهم في تآليفهم[1].

ومما تطالعنا به النّقوش عن علاقة الأحباش باليمن: أنّهم كانوا فيها في القرنين الأولين للميلاد، ويظهر أنّهم استولوا علىٰ السّواحل الغربيّة، وهي سواحل قريبة من السّاحل الإفريقيّ[2]، ويظهر أنّ الحبش تمكّنوا من دخول (ظَفَار) عاصمة حِمير في نهاية القرن الثّاني، وكانت لهم اليد الطّولىٰ في إدارة شؤون اليمن في أواخر القرن الثّالث وأوائل الرّابع، زمن ملك الحبشة (عيزانا) الذي تَلقَّب بـ(ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسِلْحِين)؛ لإخضاعه أراضي اليمن جميعها وما جاورها لحكمه وسلطانه، وكان هذا بعد وفاة (شَمَّر يُرْعِش) نحو 335م، حيث اعتنق (عيْزَانا) النّصرانيّة، ونشرها في الأصقاع التي حكمها[3].

أما دخول الأحباش لليمن (640 حميري ـ 525م) فكان بسبب إسراف ذي نواس في تنكيله بنصارىٰ اليمن في نجران وظَفَار وغيرهما؛ عندما قتل قرابة عشرين ألفاً في نجران وحدَها، فوصل خبر هذه المذبحة الفظيعة إلىٰ ملك الرّوم وملك الحبشة ـ دعاة النصرانيَّة وأهلها ـ فأرسل الأوّل سفناً إلىٰ الحبشة؛ لتحمل الجيش الذي جَهَّزه ملك الحبشة وعَبَّأه إلى اليمن؛ لحماية النّصارى من بطش ذي نواس، ووصل الجيش علىٰ ظهور تلك السّفن إلىٰ سواحل اليمن بقيادة (أرياط)، الذي دخل في حرب ذي نواس ومَنْ كان معه من أقيال اليمن الذين تخلَّىٰ كثيرٌ منهم عنه، وقد تناوله جيش (أرياط) بقتل وسبيٍ وتشريدٍ، إلىٰ أن انتهىٰ أمر ذي نواس الذي خشي علىٰ نفسه، فركب فرسه واعترض البحر عندما أحسَّ أنْ لا طاقة له بهم، فكان آخر العهد به[4]، ثم دخل الحبش اليمن وأخضعوا كلَّ ما وصلوا إليه من قلاع وحصون وقصور، وأحكموا القتل في أهلها والذّبح؛ ردًّا علىٰ تنكيل ذي نواس الذي أنطق علقمة ذي جدن الحميريّ بقصيدةٍ يذكر فيها ما آل إليه حاله، وإيثاره الموت غرقاً علىٰ أن يقع أسيراً بين مخالب أعدائه؛ منها قوله:

---

(1) انظر: المفصّل 3/ 449.

(2) انظر: المفصّل 3/ 452.

(3) انظر: المفصّل 3/ 456، وثمّة مصادره، مختارات من النّقوش 63 ـ 65، تاريخ العرب القديم 368 ـ 371، اليمن ماضيها وحاضرها 70، 72، نظرات في التّاريخ العام لليمن: 78.

(4) تاريخ الطّبريّ 2/ 127، المحبر 368، تاريخ اليعقوبيّ 1/ 199 ـ 200، أخبار مكّة للأزرقيّ 1/ 86، المفصّل 3/ 459، تاريخ العرب القديم 375، وثمّة مصادره، نظرات في التّاريخ العام لليمن 76 وما بعدها.

أَوَ ما سَمِعْتِ بِقَيْلِ حِمْيَر يُوسُفٍ ... أَكَـلَ الثَّعالِفُ لَـحْمَهُ لم يُقْبَرِ؟[1]

ورَأىٰ بــأنَّ الـمـوتَ خَـيْـرٌ عِـنْـدَهُ ... مِـنْ أَنْ يَـديـنَ لأَسْـودٍ أو أَحْـمَـرِ[2]

إنَّ الـمـنَـايَـا وُكِّـلَـتْ بِـرِجَـالِـنَا ... فَـعَـلَـتْـهُـمُ بِـمَـنَـاسِـمٍ وبِـأَزْوُرِ[3]

وبعد أن استتبَّ الأمر للأحباش في اليمن، عَيَّنُوا رجلاً من النّصارىٰ يدعىٰ (سميفع أشوع) ملكاً يحكم بأمر النّجاشيّ، حتىٰ انتهىٰ الأمر إلىٰ رجلٍ آخر يدعىٰ (أبرهة)، الذي استقل بحكم اليمن من دون الرجوع إلىٰ النّجاشيّ حتىٰ سنة 575م[4].

وممّا نطقت به النّقوش من آثار أبرهة الحبشـيّ في اليمن: ما جاء في وثيقة خلّفها يوم رمّم سدَّ مأربَ، وتُعدُّ هذه الوثيقة أطول نصّ وصل إلىٰ العلماء في اليمن، يتألّف من 136 سطراً، ومن نحو 470 كلمة، وتبحث عن ترميم سدّ مأرب علىٰ مرحلتين: بدأتِ الأولىٰ في شهر ذي مَذْرَأن من سنة (657 حميري ـ 542م)، والثّانية في شهر ذي مَعُون من سنة (658 حميري ـ 543م)، وقد بُدِئَ النّص بما يأتي: «(بخيل وردا ورحمت ورحمنن ومسحهو وروح قدس سطرو ذو مزندن أن أبره عولي ملكن أجعزين رمحزز يمن ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنت وأعربهمو طودم وتهمت)؛ أي: بحول وقوّة ورحمة الرّحمن ومسيحه وروح القدس سطّروا هذه الكتابة. إنّ أبرهة نائب ملك الأجعز رمحز زبيمان ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابهم في طود وتهامة»[5]. والواضح أنَّ برهة قد لقَّب

---

(1) الثَّعالف: الحيتان، واحدها ثُعْلُوف، ويقال: ثَعَالِف وثعاليف؛ كما يقال: مِكْيَال ومكاييل ومكايل. الإكليل 2/ 83، وهي لفظة غفلت عنها معجمات العربيّة. وقد ساق د. جواد علي البيت في كتابه المفصَّل ج3/ 472:

أو سمعت بقتل حمير يوسفاً ... أكـل الـثـعـالـب لحمـه لم يقتبر

وعلّق صاحب شعراء حمير بقوله: «مُصَحَّفاً محرّفاً». [وقد استدلّ منه (فون كريمر) علىٰ أنّ ذا نواس لم يغرق في البحر كما في الرّوايات الأخرىٰ، بل قتل قتلاً كما ورد في روايات الرّوم]، وإنّما صُحِّف البيت عمداً أو وهماً، ثمّ بُني علىٰ هذا التصحيف حكم يناقض الرّوايات العربيّة السّيَّارة، وكثيراً ما كان يسلّم جواد علي في المفصَّل بآراء المستشرقين، وقلّ أن تراه يناقشها، في حين يمرِّض الرّوايات العربيّة حتّىٰ لو كانت أصحّ من عَيْر أبي سيارة». أقول: وكأنّ ثقته بالمستشرقين هي أكبر من ثقته بأي شيءٍ آخر، حتىٰ إنّه كان مبهوراً بقراءتهم للنّقوش؛ لصعوبتها، ووعورة أرضها، ولقلّة المشتغلين فيها.

(2) قوله: «... لأسود أو أحمر» كناية عن موصوف؛ يريد الأحباش والروم. (وأسود) و(أحمر) ممنوعان من الصّرف؛ يجرّان بالفتحة بدلاً من الكسرة، فصرفهما وأظهر الكسرة للضّرورة.

(3) المناسم: جمع منسم؛ وهو خفّ البعير، والأَزْوُرُ: جمع زَوْر؛ وهو وسط صدر البعير، أو ما ارتفع منه إلىٰ الكتفين انظر: شواهد حِمير (الدّيوان) ق 49/ ب8 ـ 10.

(4) انظر: المفصّل 3/ 472، 480 ـ 841، وانظر: تاريخ العرب القديم 376.

(5) المفصّل 3/ 484، وانظر: شعراء حمير 46.

وصل إلىٰ الطّائف خرج إليه أهلها، واستطاعوا إقناعه بعدم دخولها[1]، حتىٰ بلغ المغمس، فخرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة؛ ليرجع، فأبىٰ، وعبّأ جيشه، وقدّم الفيل الذي جلبه معه، لكنّه باء بإخفاق ذريع عندما خرجت عليهم طيرٌ من البحر سودٌ ـ وقيل: خضرٌ ـ مع كل طيرٍ حجرٌ في منقاره، وحجران في رجله، أكبر من العدسة، وأصغر من الحمّصة، وقد ذكرهم الله ـ عز وجل ـ في كتابه في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل][2].

وممّا تنبئ به النّقوش عن علاقة خولان بالأحباش ما جاء في النّقش الآتي الذي استهلّ بـ «وفيم/ أذرح/ بن... م س/ هقنىٰ/ المقه/ ثهوان/ بعل/ أوم/ صلمن/ وثورن/ ذذهبن/ يوم/ هوصتهو/ مرأهو/ شـرم/ أوتر/ ملك/ سبأ/ وذريدان/ لشـرح/ وقرن/ بأوثن/ شعبن/ حشدم/ بضـر/ ضـررو/ احبشن/ وذكون/ كونهمو/ بن/ سوهرن/ وخولن»؛ أي: هذا هو الملك (وافىٰ أذرح بن...) وقد تقرّب إلىٰ (المقه، ثهوان سيد أوام) بصنم وبثور من البرونز، وذلك بمناسبة أنّ سيده الملك (شرح أوتر) ملك سبأ وذي ريدان قد أصدر مرسوماً يقضي بقيادته لقوات المرابطة والمقاومة في حدود قبيلة حاشد؛ بسبب الحرب التي شنَّها الأحباش، ومن كان معهم من قبيلة السّواهر وقبيلة خولان[3].

وفي هذا ما يدلّ علىٰ تحالف خولان والأحباش ومن كان معهم في مواجهة قبيلة حاشد الهمدانيّة؛ ليتّضح لنا أنّ علاقة خولان بالحبش ـ في حدود ما وقفنا عليه، وما انتهىٰ إلينا من أخبار ـ تدلّ علىٰ تحالفهما في مواجهة القبائل العربيّة، وأغلب الظّنِّ أنّهم خولان العالية؛ لقربهم من (ظَفَار)[4] عاصمة الحميريّين التي سيطر عليه الحبش، وجعلوها رمزاً لحكمهم وسلطانهم في اليمن حينذاك.

4 ـ خَوْلَانُ والرُّومُ:

يحدّثنا التّاريخ القديم أنَّ الرومان بعد أن استولَوْا علىٰ أرض الكنانة بعونٍ من الأنباط، استطاع

---

(1) المفصّل 3/ 510، ونحو ذلك في تاريخ العرب القديم 382.

(2) انظر: دلائل النّبوّة 82، الكشّاف 4/ 791، المفصّل 3/ 511، ومثل ذلك في تاريخ ابن الورديّ 1/ 150 ـ 151، وتاريخ الخميس 189، أخبار مكّة للأزرقيّ 1/ 97، سمط النجوم العوالي: 1/ 230.

(3) انظر: نقوش مسنديّة 102 ـ 103، تاريخ اليمن القديم 109 ـ 111.

(4) ظَفَار: مدينتان باليمن؛ إحداهما قرب صنعاء، وهي التي ينسب إليها الجزع الظّفاريّ، وبها كان مسكن ملوك حمير... وقد قال بعضهم: إنّ ظَفار هي صنعاء نفسها. انظر: معجم البلدان 4/ 60.

«يوليوس قيصر» أن يقبض علىٰ ناصية الأمور في الإسكندريّة عام (47 ق.م)[1]، عندها بدأ الرّومان يفكّرون في السّيطرة علىٰ البلاد العربيّة، ولا سيّما الأصقاع المهمّة من النّاحية الاقتصاديّة والتجاريّة؛ فكانت حملة (إيليوس جالليوس) 25 ق.م؛ للاستيلاء علىٰ اليمن؛ لكثرة خيراتها، ولاحتكارها طرق النّقل التّجاريّ بين العالم، ولجعل البحر الأحمر بحراً رومانيًّا، وللقضاء علىٰ المنافسة العربيّة الخطيرة التي كان الملّاحون الرّومان يحسِبون لها حِساباً أيَّ حسابٍ عند اجتيازهم باب المَنْدِب، أو عندما ترسو سفنهم علىٰ بعض الموانئ في تلك المناطق[2].

وقد سجّل خبرَ هذه الحملة اثنان من رجالاتها ومرافقيها؛ هما: (سترابون 24م)، و(بلينيوس 79م)؛ أمّا (سترابون) فسائحٌ وكاتب جغرافيٌّ ومؤرّخٌ، وكان صديقاً لقائد الحملة ومدافعاً عنه، وقد كان هو نفسه من المشاركين في الحملة في رأي بعض الباحثين[3]، وأمّا (بلينيوس) فكان شبيهاً بصاحبه، ولم يدوّن أكثر مما دوّن الأوّل بسبب وفاته، غير أنّه أشار في مطلع حديثه عن الحملة إلىٰ أنّ (جالليوس) كان الرّومانيّ الوحيد الذي أدخل محاربي روما جزيرة العرب، وقد خَرَّبَ مدناً لم يَرِدْ ذكرها في كتب من تقدّمه من المؤلّفين[4].

ومن المؤسف جدًّا أنّ (سترابون) لم يذكر أسماء المواضع التي مرَّ بها الرومان، أو القبائل العربيّة التي اتصلوا بها، واختلف المستشرقون في تحديد مسار الحملة الذي سلكته، والطّرق التي مرّت فيها، متنطعين مُتَكَهّنين في مذاهبهم المختلفة بلا تقديم تعليلٍ واحدٍ لما ذهبوا إليه، وهذا من شأنه أن يفسد البحث العلميّ ويضعه في حقل الاحتمالات. والرّاجح أنّهم سلكوا طريق يثرب، ثمَّ اتّجهوا إلىٰ القصيم حيث دخلوا قلب نجد، ثمَّ عقبوا بعد ذلك الطريق المؤدّية إلىٰ اليمن فساروا باتجاه نجران، ومنها دخلوا اليمن، فاصطدموا باليمانيّين علىٰ نحو ما قصّه (سترابون) و(بلينيوس). ولـمّا عادوا سلكوا طريقاً آخر أقصر وَفَّرَ عليهم بعض الوقت، ومرّوا بنجران ومنها إلىٰ الآبار السّبع - وهو موضع يقع علىٰ مسافة 150 ميلاً إلىٰ الغرب من نجران - ومنه إلىٰ موضع خولان في مخلافها[5] وغيرها من المواضع والأمكنة.

والذي أميل إليه أنّ الحملة اتّصلت بمعظم من سكن اليمن، ولا سيّما القبائل القريبة من الطّرق

---

(1) انظر: المفصّل 2/ 42، تاريخ العرب القديم 310.

(2) انظر: المفصَّل 2/ 43، 49، تاريخ العرب القديم 311.

(3) انظر: المفصّل 2/ 49 وثمّة مصادره.

(4) انظر: المفصّل 2/ 52.

(5) انظر: المفصّل 2/ 51 وثمّة مصادره.

التّجاريّة المهمّة؛ لسببين: الأول: أنّها بقيت في اليمن أشهراً قاربتِ العام[1]، أتيح لها خلال هذه المدّة الاتّصال بمن رغبت فيهم. الثّاني: جاءت للسّيطرة علىٰ تلك الطّرق التّجاريّة المهمّة التي كانت تصل القبائل بعضها ببعضٍ. غير أنَّ هذه الحملة باءَت بإخفاق ذريعٍ، ورضي (إيليوس جالليوس) لنفسه من الغنيمة بالإياب، ولم ينج من أفرادها إلا من كان القَدَرُ معه، وأسعفه في النّجاة، وقد عزا (سترابون) إخفاق هذه الحملة إلىٰ غش (صالح)[2]، ومكره لقائد الحملة الذي أعلمه بتعذّر الوصول إلى اليمن برًّا لعدم وجودِ عددٍ كافٍ من الجمال، ولعدم وجود طرقٍ بريّة صالحة لمرور الجيش الرّومانيّ، وأراد من وراء ذلك كلّه إذلال الرّومان وإضعافهم، فضلاً عن إضعاف القبائل العربية وبثّ الذّعر والخوف في نفوس أهلها؛ ليكون سيِّدَ الموقف يتصرف كيفما يشاء، وهكذا سارتِ الحملة في طريق مقفرة مجدبة، لا زرع فيها ولا ماء؛ وهذا ما أدىٰ إلىٰ انتشار العطش والجوع في صفوفها؛ وفساد الطعام وفتك المرض وغيره...[3].

أمّا صمت النّقوش عن ذكرِ شيءٍ من خبر هذه الحملة التي لا بدَّ لها أن تكون قد تركت أثراً في نفوس اليمنيّين، فلعلّه عائدٌ إلىٰ عدم العثور علىٰ كل المساند التي يمكن أن تكون قد دوّنَتْ شيئاً من أخبار هذه الحملة؛ إذ ما عُثِر عليه منها لا يعدو غيضاً من فيضٍ[4]. في حين يرىٰ بعض المستشرقين أنّ النّص (هاليفي) إنّما يتحدّث عن حرب دارت رحاها بين (ذشامت) و(ذيمنت)، وربّما كان المراد بالأوّلين الرّومان وبالآخرين السّبئيّين[5]، ومِن ثمّ فإنّ النّص يتحدّث عن الحملة نفسها (حملة إيليوس جالليوس)، وهذا علىٰ سبيل التّكهّن والتّوقّع، وليس له من الحقيقة نصيب يؤبه له.

واتّكاءً علىٰ ما سلف من خبر حملة (إيليوس جالليوس) ـ الذي تناولناه في شيءٍ من الاختصار غير المخلِّ ـ يمكن القول: إنّ علاقة خولان بالرّوم هي علاقة الرّوم باليمن كُلِّه ـ وكان لا بدَّ من عرضها ـ إذ ليس في هذه العلاقة ما يخصُّ خولانَ ذاتها دون غيرها، وإنْ كانتِ الحملة قد مرّت بأرض خولان، من دون بسط القول وتفصيله في ذلك.

---

(1) انظر: المفصّل 2/ 49.

(2) صالح: هو الوزير النّبطيّ الذي صاحب الحملة دليلًا لها؛ يرشدها ويهديها طرقها في أصقاع العربية السعيدة.

(3) انظر: المفصّل 2/ 45 وعنه في تاريخ العرب القديم 311.

(4) انظر: المفصّل 2/ 58 وثمّة مصادره.

(5) انظر: المفصّل 2/ 58 وثمّة مصادره، وعنه في تاريخ العرب القديم 312 وثمّة مصادره.

5ـ عَلَاقَاتُهُم بالفُرْس:

بات من المسلّمات المعروفة ـ عند أهل العلم ـ أنّ سبب دخول الفرس إلىٰ اليمن كان لنصرة سيف بن ذي يزن الحِميريّ علىٰ الأحباش، واستعادة ملكه المغتَصَب[1]، الذي سعىٰ في بادئ الأمر إلىٰ ملك الرّوم يطلب نصره ضد الحبش الذين كانوا أحلافاً له؛ لذلك لم يأبه لطلبه، ليسعىٰ بعد ذلك إلىٰ ملك الفرس الذي لبّاه من فوره، وعَبّأ له جيشاً؛ ليشدَّ أزره ضد أعدائه، واختلف الرّواة في عدد ذلك الجيش؛ فمنهم من قال: إنّه ثمانمئة رجل لا غير، ومنهم من يجعله فوق ذلك، وهو الأقرب إلىٰ الصّواب؛ لأنّه من غير المعقول أن يبعث كسرىٰ فارس بحفنة من المساجين لقتال الأحباش في اليمن، الذين كان من خلفهمُ الرّومان، اليدُ الدَّاعمةُ لهم وحلفاؤهم الأقوياء[2]. والحقيقة أنّ كسرىٰ أرسل حملة ضخمة قوامها سبعة آلاف وخمسمئة رجل، كان معظمهم من الدّيلم[3]، وضمّ إليهم كلّ من كان في سجونه من المجرمين، وعيّن عليهم أحد قواده البارزين ويُدعىٰ (وَهْرِز)، وكان قائداً لمنطقة الدّيلم، وهو من الأسـرة الحاكمة[4].

في حين يذهب الهمدانيّ إلىٰ إنكار بعض ما نُسِبَ إليه من دخول الأحباش إلىٰ اليمن، وفي هذا يقول يحيىٰ بن الحسين العلويّ (1099هـ) وهو يتحدّث عن تعصّبِ الهمدانيّ لأبناء قومه من قحطان: «أكثر تصانيفه لا يُخْلِيْهَا من التّعصّب لقحطان علىٰ عدنان، حتىٰ خرج إلىٰ الكذب، وكان مشهوراً بالكذب في الأنساب مع معرفته بها... ومِنْ كَذِبِهِ أنّه ذكر في بعض مصنّفاته في فضائل قحطان إنكاره دخول الحبشة اليمن وصنعاء، وقال: العرب أرفع شأناً وأقوىٰ مكاناً من أن يدخلهم الحبشة، وإنّما دخلوا من ساحل جُدَّة إلىٰ مكة»[5]. وقد يكون كلام يحيىٰ بن الحسين من قبيل «ما يكون بين أصحاب

---

(1) انظر: النّسب الكبير 2/ 545، السّيرة النّبويّة 1/ 64 ـ 68، تاريخ الطّبريّ 2/ 140 ـ 142، ملوك حمير وأقيال اليمن 150 ـ 151، نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب 318 ـ 319، مختارات من النّقوش اليمنية القديمة 65، تاريخ اليمن القديم 163 ـ 164، العمدة 2/ 960 ـ 961، الرّوض المعطار 403، تاريخ ابن خلدون 2/ 73 وما بعدها، نشوة الطّرب 1/ 161، الكامل في التّاريخ 1/ 447، وعنهم في شعراء حِمير (الدّراسة) 47.

(2) انظر: اليمن في صدر الإسلام 24 ـ 28، تاريخ العرب القديم 384.

(3) انظر: المعارف 664، والدّيلم: شعب يسكن المنطقة الجبليّة التي تقع جنوب بحر قزوين، وتعرف بهذا الاسم، ونُسِبَ الشّعب إلىٰ موطنهم. انظر: القاموس الإسلاميّ 2/ 422.

(4) انظر: مروج الذّهب 2/ 88، تاريخ العرب القديم 385، اليمن في صدر الإسلام 26، تاريخ الخميس 192.

(5) ساق هذا الكلام الشّيخ حمد الجاسر في أثناء تقديمه لمطبوع صفة جزيرة العرب 15، نقلًا عن مخطوط كتاب (طبقات الزَّيديَّة)، دار الكتب المصريّة 28، 61.

المذاهب والنِّحل من الاختلاف، الذي تنعدم معه معايير الحق والإنصاف»[1]، غير أنّ ثمّة قطعةً نادرةً من الإكليل وقعت إلىٰ أحد الباحثين، لـمّا تنشر بعد، فيها ما أشير إليه ـ إنْ صحّ أنَّ ما فيها من كلام الهمدانيّ نفسه، وليس مدسوساً عليه ـ من إنكاره دخول الأحباش إلىٰ اليمن، وأنَّ القصّة فِرْيَةٌ افترتها نزار علىٰ اليمانيّة، وإنّما كان دخول الفرس إلىٰ اليمن؛ لخروجهم عن أمر كسرىٰ، فاحتبوا بفناء سيف بن ذي يزن الحميريّ الذي استعملهم جنداً عنده، وهي قضيّة سيشاح عن معالجتها؛ لأنّها ليست مجال بحثنا، وقد بسط القول فيها مَن انبرىٰ للمُلَمّةِ قوافي حمير وأخبارها في سفرين كبيرين[2].

وما تقدّمت بهذا إلّا لأَصِلَ إلىٰ فكرة انتشار الفرس في اليمن، الذين أحكموا قبضتهم عليه، وصاروا قوّة أساسيّة فيه، وأفادوا من حالة الانقسام السّائدة آنذاك بين أذواء حمير وأقيالها، فبسطوا سلطانهم علىٰ معظم أنحائه المهمّة، ثمّ رأوا تشجيع الهجرة إليه، فالتحق بقواتهم المتمركزة هناك عددٌ كبيرٌ من أبناء قومهم، وانتشروا في المراكز الرئيسة في اليمن؛ مثل: عَدَن[3]، وذَمَار[4]، وصَنْعاء[5]، وصَعْدَة[6]، وصَيْحَة، ومَسَاك، وبَيْت الفَوَاقِم، وجَوْب[7]، وفي نَجْرَان[8]، ومدن معدن الرَّضْـرَاض[9]، وغيرها من الأصقاع المهمّة، التي كانت خولان تنزلها وتفترشها أرضاً لها، وهذا يجعل فيما بينهما من الاختلاط والتّداخل ما يُنشئ علاقات معيّنة وصلت إلىٰ المصاهرة في بعض الأحيان[10].

ومن الأخبار المتعلّقة بصلة خولان بالفرس ـ الذين أصبحوا جزءاً من اليمن؛ لاستقرارهم فيها ـ ما نجده في اجتماع عددٍ من الفرسان والزّعماء المغامرين أصحاب الشّكيمة القويّة من قبيلة مذحج «زبيد» بقيادة عمرو بن معدي كرب الزُّبيديّ، والحارث بن كعب بقيادة الحصين بن قنان بن يزيد الحارثيّ، وبني عبد المدان بقيادة يزيد بن عبد المدان، وخولان بقيادة عنبسة بن يزيد الخولانيّ وشهاب بن الحصين، الذين تشاوروا فيما بينهم وأجمعوا علىٰ حرب باذان الفارسيّ، واتّفقوا علىٰ

---

(1) تعليق الشّيخ حمد الجاسر في مقدّمة صفة جزيرة العرب 15.

(2) شعراء حمير (الدّراسة) 47 ـ 52؛ ففيه فضل إيضاحٍ للعلاقة السّائدة بين الفرس واليمن عموماً.

(3) انظر: الإمتاع والمؤانسة: 79.

(4) انظر: صفة جزيرة العرب 79، 224.

(5) انظر: صفة جزيرة العرب 86، 264.

(6) انظر: صفة جزيرة العرب 249.

(7) انظر: صفة جزيرة العرب 244، وهي مواضع في أرض همدان نزلها الأبناء، وبعض بطون خولان.

(8) انظر: الإكليل 2/ 60.

(9) انظر: الجوهرتين العقيقتين المائعتين: 90، أهل اليمن في صدر الإسلام 89.

(10) انظر: خبر مصاهرة خولان للفرس في مبحث علاقات المصاهرة، (فيروز) الذي كانت أمه خولانية...

الاجتماع في موضع مَذَاب[1] من أرض جوف همدان، فاصطدمت هذه القوّة بالسّلطة الفارسيّة، وخاصة في مَأرِب والجَوْف ونَجْرَان؛ حيث كانت معظم قبائل هذا الحلف ما تزال تحوم علىٰ التّخوم الشماليّة الشّرقيّة لليمن، ولا سيّما في منطقتي سبأ والرَّضْرَاض حيث مناجم الذّهب والفضة اللذين يستخرجهما الفرس[2]، ولم يكن هيّناً علىٰ همدان أن تشعر بالتّهديد في عقر دارها من أعدائها الأصليّين (خولان ومذحج)، وعلىٰ الرّغم من أنّهم يقصدون (الأبناء) إلّا أنهم سيجتاحون أرض همدان للوصول إلىٰ عاصمة اليمن صنعاء؛ لذلك كان لا بدَّ من أن تحالف عدوها القديم وهمُ (الأبناء)؛ لأنّهما يواجهان عدوًّا واحداً، وكان قد تجمَّع من همدان زهاء عشرة آلاف مقاتل، وخرج (باذان) مستعدًّا لقتال خولان وبعض مذحج، فأصبح الأبناء وهمدان أحلافاً ضدّ خولان ومذحج. وكتبوا حلفهم في نسختين بالعربيّة وبالفارسيّة، وهو كتاب يضمن تأكيد الحلف وتوثيقه، وأهمّ ما جاء فيه الآتي:

«إنّا تحالفنا علىٰ عهد الله تعالىٰ وميثاقه، واجتماع الهوىٰ واتفاقه، وقتال المخالف وفراقه، وعلىٰ أنّ كلّ واحد منّا من الحيّين جميعاً أنّا تحالفنا فيما عقد، وخالف أو نكث أو خالف عما عهد وشدّد... فعليه العهد من الله تعالىٰ المكور الوثيق المؤكّد الشّديد أبد الأبد الأشدّ.... إلخ». وما كاد يحصل هذا التّحالف حتىٰ انتشرتِ الدّعوة الإسلاميّة[3].

أما الهمدانيّ فيدفع بهذا الحلف ويشكّ في وجوده أصلاً، عندما نبَّه بعبارة توحي بعدم صحّته؛ وذلك في أثناء ترجمته «لعمرو بن الحارث بن الحصين بن النّعمان، الذي يَذْكُرُ الأبناءُ أنّه عقد الحلف بينهم وبين همدان»[4]، والذي يعنينا من هذا كلّه أنَّ الأبناء توصلوا إلىٰ عقد حلف مع همدان ـ إن صحّ ـ لمحاربة من عزم علىٰ محاربتهم من خولان ومذحج. ويتَّضح ممّا تقدّم ـ علىٰ نُحُولِهِ وهزاله ـ أنّ علاقة خولان بالفرس كانت علاقة حرب وصراعٍ؛ لأجل بسطِ النّفوذ والهيمنة التي سعت إليها الدّولة السّاسانيّة، ويبدو أنّ ذلك كان حتىٰ عهد قريب من بزوغ شمس الإسلام وإشراقها علىٰ قبائل اليمن[5].

---

(1) مَذَاب: بلغة أهل اليمن، وقد ضُبِط في معجم ما استعجم بضمِّ الميم، وهو موضعٌ في بلد سفيان في الوادي الثّالث من أودية جوفِ هَمْدَان. صفة جزيرة العرب: 161، 228.

(2) انظر: أهل اليمن في صدر الإسلام 88 ـ 89.

(3) انظر: تاريخ مدينة صنعاء 37، وعنه في أهل اليمن في صدر الإسلام 90، واليمن في صدر الإسلام 38 وانظر حوالاته ثمّة.

(4) الإكليل 10/ 198، وعنه في اليمن في صدر الإسلام 39 وانظر حوالاته ثمّة.

(5) انظر: أهل اليمن في صدر الإسلام: 91.

6 ـ عَلَاقَتُهُم بِدَوْلَةِ الإِسْلَامِ:

أ ـ في عَصْرِ النّبيّ صلى الله عليه وسلم:

لا يراد بالحديث عن علاقة خولان بدولة الإسلام في عهد الرّسول ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ أن يتناول عقيدتهم؛ فإنَّ لذلك الحديث مكاناً آخر، وإنَّما يُقْصَدُ به ما كان بينهم من صلات مودّةٍ واحترام وتقدير، أو غيرَ ذلك من عداوةٍ وخصومةٍ، «علىٰ أنّه يصعب الفصل بين الأمرين؛ لأنَّ علاقة الرّسولَ صلى الله عليه وسلم والدّولة التي أنشأها في المدينة مع الآخرين كانت تقوم علىٰ أساسٍ من العقيدة التي تُوَادُّ من وَادَّ الله ورسوله، وتعادي مَنْ عاداهما»[1]، ومن ركب في أمواج الشّرك والضّلال، لذلك سأكتفي ههنا بالإيماء إلىٰ تلك العلاقات التي أمكن الوقوف عليها في المصادر والمظانّ المختلفة، ولا سيّما التّاريخيّة منها.

فممّا يشار إليه بالبنان ما نقله الحافظ ابن عساكر بسنده: أنَّ قيس بن عَبَاية بن عبيد بن الحارث بن عبيد الخولانيّ، حليف بني حارثة بن الحارث من الأوس، كان ممّن شهد بدراً وأُحُداً والخندقَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حَدَثُ السّن، وشهد بعد ذلك الفتوحات الإسلاميّة في بلاد الشّام مع أبي عبيدة بن الجرّاح وهو كهلٌ يستشيره في أمور الحرب والقتال[2]، وتوفي في إمارة معاوية بن أبي سفيان[3].

وفي السنة العاشرة للهجرة جاءت وفود العرب تعلن دخولها الإسلام، فكان من تلك الوفود وفد خولان، وكانوا عَشَرَةَ نَفَرٍ، فأمر النّبيُّ صلى الله عليه وسلم فكتب لبعضهم ـ مثل عَبْدِ رُضَى الخولانيّ المكْنَىٰ بأبي مِكْنَف[4] ـ كتاباً لقومه.

ب ـ عَلَاقَاتُهُم أَيَّامَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدين:

لما ثار المرتدّون في اليمن قبيل وفاة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وادّعوا النّبوّةَ كلُّ واحدٍ لنفسه، ساد نوع من العصيان علىٰ دولة الإسلام النّاشئة، واضطربت أمور النّاس الذين انبرىٰ منهم فئة

---

(1) ديوان بني كلب (الدّراسة) 138.

(2) انظر: تاريخ دمشق 49: 444، وانظر أيضاً منه 67: 175، الإصابة 3/ 1640، اليمن في صدر الإسلام 320.

(3) انظر: تاريخ داريّا 57.

(4) انظر: أُسد الغابة: 3/ 159، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة: 119، وانظر: الحديث عن إسلامهم، وثمّة مصادره في هذا المبحث.

لقتالهم. وما كاد يبلغهم نبأ وفاة النّبيّ صلى الله عليه وسلم حتىٰ نقضت اليمن ما أبرمته من عهد مع الرسول الكريم، وارتدتِ العرب في جميع النّواحي والأمصار[1]؛ فإمَّا القبيلة مستوعبة وإمَّا بعضٌ منها، والمسلمون آنئذٍ كالغنم في اللّيلة الممطرة؛ لضعفهم وانكسارهم بفقدانهم نبيّهم، وآل أمر سقيفة بني ساعدة إلى بيعة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه، الذي أنفذ جيوشه لمحاربة المنقلبين علىٰ أعقابهم، فوجّه فِرَقاً عديدة إلىٰ اليمن؛ منها فرقة يعلىٰ بن أميّة لمحاربة خولان التي ارتدّت جميعها إلا نفراً قليلاً منهم، ولا سيّما التي كانت تابعة لبعض بطون حِمير؛ لأنّ حمير ثبتت علىٰ إسلامها بملوكها وأقيالها، ولم تزعزعها ردّة العنسي ومَنْ تبعه[2]. ثُمَّ إنَّ المناطق التي قوتلت لردّتها لم تكن بأجمعها قد ارتدّت، بل بقي فيها مجموعات أو أفراد كان لهم بعض المواقف مع أقوامهم لإعادتهم إلىٰ الإسلام[3].

وفي السّنة الثّالثة عشرة للهجرة كانت وَقْعَةُ اليرموك بالشّام، حيث التقىٰ المسلمون الرّومَ ومَنِ انضوىٰ تحت لوائهم من العرب؛ من قبائل «لَخْم وجُذَام وبَلْقَيْن وبَلِيّ وعَامِلة، وتلك القبائل من قضاعة، وغسَّان بَشَـرٌ كثيرٌ»[4]، وعليهم جَبَلة بن الأيهم الغسّانّي، وكانوا اثني عشـر ألفاً من تلك القبائل وحدها، وخولان من قضاعة، ولكن ليس هناك ما يدلّنا هل كانت خولان قد شاركت الرُّومَ، أو بعضٌ منها في يوم اليرموك، في حين كان في صفوف المسلمين جموعٌ من قضاعة، ومن القبائل نفسها التي كانت بجانب الرُّومِ، وغيرها من قبائل العرب ممّن انضم إلىٰ خالد بن سعيد بن العاص[5]، وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه قد أُمِر بالسّير لإنقاذ جيش المسلمين بالشّام، لـمَّا علم أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه أنَّ أبا عبيدة ليّن العريكة لا قدرة له بقتال الرّوم، ولما وصل خالد بن الوليد إلىٰ اليرموك وجد الجيش مُقَسَّماً أربعة أقسام، وأنَّ لكلِّ قسمٍ أميراً، فجمع الأمراءَ ودعاهم إلىٰ الإجماع علىٰ أميرٍ واحدٍ، فتكون الإمارة في كلّ يومٍ لرجل منهم، ورأىٰ أن يجعلوا الإمارة له في اليوم الأوّل، فوافقوه الرأيَ، فخرج خالد في تعبئة لم تُعَبِّئها العرب قبل ذلك قطّ، من نحو ستّةٍ وثلاثين كردوساً إلىٰ الأربعين؛ حتىٰ تبدوَ للنّاظر أكثر عدداً، فَبَثَّ الذّعر والخوف في قلوب الرّوم، فكان من قادة تلك الكراديس معاوية بن حَدِيْج الخولاني[6].

---

(1) انظر: الكامل في التاريخ 336 ـ 357، 368 ـ 383.

(2) انظر: تاريخ الطّبريّ 3/ 187، 232، 331 ـ 335، اليمن في صدر الإسلام 255.

(3) انظر: اليمن في صدر الإسلام 266.

(4) تاريخ الطّبريّ: 3/ 570، وفتوح الشّام 1/ 149.

(5) انظر: تاريخ دمشق 2/ 148، ونحو ذلك في فتوح البلدان للبلاذريّ: 218، وعنه في ديوان بني كلب (الدّراسة) 142.

(6) انظر: تاريخ الطّبريّ 3/ 397، تاريخ دمشق 59/ 15، وانظر: البداية والنّهاية 8/ 83.

ونقل الحافظ ابن عساكر بسنده أنّه كان في اليرموك أشـراف رجالات العرب من قبائل عديدة؛ يقول: «خرج النّاس علىٰ راياتهم، فيها أشراف رجال من العرب، فيها الأزد وهم ثلثُ النّاس، وفيها حِمير وهمدان ومَذْحج وخَوْلَان وخَثْعَم، وفيها كِنَانَة وقُضَاعة ولَـخْم وجُذَام وكِنْدَة وحَضْرَمَوت، وليس فيها أسد ولا تميم ولا ربيعة...»[1]. وكانت خولان في ميمنة الجيش إلىٰ جانب الأزد ومَذْحِج وحضرموت وحمير الذين شدّت عليهمُ البطارقة[2]، أما النّساء فاستبسلن استبسالًا عظيمًا وجعلْن يقاتلْن قتال الموت؛ فيضربْنَ وجوه الخيل بالعمد، ويلوِّحْنَ بالأطفال، وراح بعضهنّ يقاتل المشركين، وبعضهنّ الآخر يقاتل المسلمين الفارّين من ساحة المعركة؛ حتىٰ يعودوا مرّة أخرىٰ لقتال الكُفَّار الذين قيّدوا أرجلهم بالسلاسل الحديديّة، وبعضهنّ يسقي الماء ويشدُّ الجراحَ، وما إنْ اشتدّتْ وتيرة القتال وسعّرت نار المعركة أكثر ممّا بدأت به، حتىٰ انهزمت نساء لخم وجذام وخولان اللواتي لم يعدْنَ يطقن صبراً، فخرجت خولة بنت الأزور ومن معها، وجعلن يضربن رؤوسهنّ ووجوههنّ بالعمد، حتىٰ رجعتِ النّساء تقاتل قتال الموت وطلب الشّهادة[3]، حتىٰ قيل: لم تقاتلِ النّساء يوماً مثلما فعلت يوم اليرموك[4].

وممّن شهد اليرموك في صفوف المسلمين من خولان عدد من أشرافهم؛ منهم: جريرٌ الخولانيّ، الذي كان حليفاً لخالد بن الوليد رضي الله عنه، وقد ورد عند الواقديّ بسنده عن «عاصم بن رواح الزّبيديّ قال: حدثنا ابن عبد الله الشّيبانيّ قال: حدثنا طرفة بن شَيْبَةَ الخولانيّ عن عمّه جرير وكان محالفاً لخالد بن الوليد»[5]، وأبو عِنَبَةَ الخولاني الذي شهد ذلك اليوم، واختلف العلماء في صُحبته[6]. ومَرْثَد بن سُمَيّ الخولانيّ الصّحابيّ الجليل، وأحد قرّاء أهل الشّام المشهورين في زمانه[7]، ويطالعنا الواقديّ في غمرة فتوحات الشّام في أثناء خبر يرويه عن مشاركة الخولانيّين في فتح المعرَّة بقوله: «إنَّ أبا عبيدة دعا بخالد بن الوليد، وضَمَّ إليه أربعة آلاف فارسٍ من لخم وجذام وطيّئ ونبهان وكهلان وسنبس وخولان، وقال: يا أبا سليمان، شُنَّ الغارة بهذه الكتيبة واقصد بها المعرَّة، واقرُبْ من معرة حلب، وشنّ بها الغارة علىٰ بلدة العواصم، وارجع علىٰ أثرك وأنفذ عيونك، وانظر إن كان للقوم نجدةٌ

---

(1) انظر: تاريخ دمشق 2/ 148، وانظر: اليمن في صدر الإسلام 314.
(2) انظر: تاريخ دمشق 2/ 151، البداية والنّهاية 7/ 94، فتوح الشّام 1/ 175، اليمن في صدر الإسلام 323.
(3) انظر: فتوح الشّام 1/ 187.
(4) انظر: فتوح الشّام 1/ 186.
(5) فتوح الشّام 1/ 158.
(6) انظر: تاريخ الإسلام 6/ 243، تاريخ دمشق 67/ 120، سير أعلام النّبلاء 3/ 433.
(7) انظر: تاريخ دمشق 57/ 202، الإصابة 3/ 1921.

أو ناصرٌ من قومهم أم لا؟ فأجابه خالد إلىٰ ذلك وأخذ الرّاية... إلخ»[1].

وفي سنة عشرين للهجرة كان فتح مصر علىٰ يد عمرو بن العاص الذي كان في جيشه كثيرٌ من الخولانيّين، بل لهمُ اليد الطّولىٰ في فتح ذلكَ الصّقع، من ذلك ما ذكره الحافظ ابن عساكر بسندٍ طويل عن سفيان بن وهب الخولانيّ ـ وكان ممّن شهد فتح مصر ـ في قوله: «إنّا لما فتحنا مصر بغير عهدٍ، قام الزّبير بن العوّام فقال: اقسمها يا عمرو بن العاص، فقال عمرو: لا أقسمها... فقال الزّبير بن العوام: والله لتقسمنّها كما قسَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، فقال عمرو: والله لا أقسمها حتىٰ أكتب إلىٰ أمير المؤمنين، فكتب إليه عمر بن الخطاب: أن أَقِرَّهَا حتَّىٰ يغزوَ مِنْها حَبَلُ الحَبَلَةِ»[2].

وممّن شهد فتح مصرٍ في صفوف جيش عمرو بن العاص أيضاً: امرؤ القيس بن الفاخر بن الطّماح الخولانيّ، أبو شُرَحْبِيْل[3]، وعِكْرِمَةُ بن عبيد الخولانّي[4]، وزُبَيْدُ بن عبد الخولانّي[5]، وعلقمةُ بن سُمَيّ الخولانيّ[6]، وعبد الله بن أُسَيْد الخولانّي[7]، ودِرْعُ بن الحارث الخولانّي، أبو طلحة[8]، وعامر بن عبد الله بن جهيزة الخولانيّ[9]، وعبد الله بن شمر ـ وقيل: شمران ـ الخولانّي[10]، ومعاوية بن حَدِيْج الخولانيّ، الذي ولّاه عمرو بن العاص يوم فتح مصر مع عمرو بن مخزوم الخولانيّ علىٰ خططها سنة إحدىٰ وعشرين للهجرة[11]، وغيرهم كثير، وهذا ممّا يشير إلى مشاركة خولان جيشَ الفتح الإسلاميّ في مصر.

وفي السّنة الرّابعة والعشرين بويع لعثمان بن عفان رضي الله عنه بالخلافة[12]، وحينما أوشكتِ

---

(1) فتوح الشّام 1/ 94.

(2) تاريخ دمشق 2/ 194، وانظر: 46/ 157، و21/ 358، الإصابة 1/ 742 ـ 743، تاريخ خليفة بن خياط 1/ 136، حسن المحاضرة 1/ 158، 106. حَبَلُ الحَبَلَة: أراد حتىٰ يغزو أولاد الأولاد كما في النّهاية، وزيد في اللّسان: حتىٰ يكون عامًّا في النّاس. اللّسان (حبل).

(3) انظر: الإصابة 1/ 71، حسن المحاضرة 1/ 131.

(4) انظر: الإصابة 2/ 1281، حسن المحاضرة 1/ 169.

(5) انظر: الإصابة 1/ 660، حسن المحاضرة 1/ 155.

(6) الإصابة 2/ 1288، حسن المحاضرة 1/ 170.

(7) انظر: الإصابة 2/ 1442.

(8) انظر: حسن المحاضرة 1/ 203.

(9) انظر: حسن المحاضرة 1/ 161.

(10) انظر: حسن المحاضرة 1/ 164.

(11) انظر: حسن المحاضرة 1/ 102، 182.

(12) انظر: الإنباء بأنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء 184، وثمة مصادر.

الفتنة أن تلقي بكاهلها علىٰ صدر الدّولة الإسلاميّة النّاشئة ولاح في الأفق خطرها، كتب عثمان إلىٰ أهل الأمصار يستمدّهم، ويطلب عونهم ومددهم علىٰ الخارجين، فأتىٰ الكتاب أهلَ الأمصار، فخرجوا علىٰ الصّعبة والذّلول ملبّين الدّعوة من فورهم؛ فبعث معاوية بن أبي سفيان حبيبَ بنَ مسلمة الفهريّ، وبعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح[1] معاويةَ بن حَدِيْج الخولانّي، وقام من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو التّميميّ، وقام من التّابعين بالشّام شريك بن خباشة النّميريّ، وأبو مسلم الخولانيّ؛ لنصرة عصمة أمر المسلمين[2].

وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه جعل معاوية بن أبي سفيان قميصه علىٰ المِنْبَرِ، وقام في النّاس، وبينهم جماعة من الصّحابة والتّابعين يحرّضون علىٰ الأخذ بدمه والنيل من قتلته، كان من هؤلاء التّابعين شريك بن خباشة النّميريّ، وأبو مسلم الخولانيّ، وعبد الرحمن بن غنم، وغيرهم[3].

وممّا يلاحظ في هذا الخبر ميل الخولانيّين لعثمان، ومحاولتهم نصره في بادئ الأمر، ثمَّ بعد ذلك حزنهمُ الشَّديد لمقتله، وبثّهمُ النّفير في النّاس؛ للأخذ بثأره، وهو ممّا سيظهر صداه فيما بعد في وقعة صفين.

وفي خلافة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في سنة سبع وثلاثين للهجرة كانت وقعة صفّين بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، إذ نجدُ في أخبار تلك الوقعة ذكراً لعدد من رجالات خولان، منهم من كان مشهوراً كأبي مسلم الخولانيّ في صفّ معاوية، الذي استعمله رسولاً إلىٰ عليّ رضي الله عنه بأشياءَ يطلبها منه، ويسأله أن يضع الأمر في نصابه، ويدفع إلى معاوية قتلة عثمان بن عفان حتىٰ يقتلهم به[4].

وكان أبو مسلم عثمانيَّ الهوىٰ، ومن المقرّبين وأصحاب الرّأي والرّشد والسّداد والمشورة لدىٰ معاوية، يحظىٰ بتقديره واحترامه؛ لورعه وخَشيته من الله، وكثيراً ما كان يستشيره ويأخذ برأيه في كثير

(1) عبد الله بن أبي سرح القرشي العامري: أخو عثمان من الرضاعة، أسلم قبل الفتح، وكتب الوحي لرسول الله، ثم ارتدّ، وعاد إلى الإسلام وحسن إسلامه، غزا إفريقية زمن عثمان، وولي مصر بعد ذلك سنة (25هـ)، توفي سنة (59هـ) في آخر سني معاوية. الإصابة 2/ 1085.

(2) انظر: تاريخ الطّبريّ 4/ 352، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان: 107.

(3) انظر: البداية والنّهاية 7/ 42.

(4) انظر: تاريخ دمشق 59/ 118، و27/ 221، العقد الفريد 4/ 335.

من القضايا والمشكلات، ويعتدّ بنصائحه وسداد رأيه[1]، وقد شهد صفّين معه[2]؛ وعندما توفّي أبو مسلم حزن معاوية رضي الله عنه لموته أشدَّ الحزن[3].

وممّن شهد صفّين مع معاوية من الخولانيّين عمرو بن الحارث الخولانيّ، وهو أحد قتلة عمار بن ياسر رضي الله عنه، وعقبةُ بن عامر الجهنيّ، وشريك بن سلمة المراديّ، فانتهوا إليه جميعاً، وهو يقول: والله لو ضربتمونا حتىٰ تبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَر، لعلمت أنّي علىٰ الحقّ، وأنتم علىٰ الباطل. فحملوا عليه جميعاً فقتلوه، وقيل: إنّ عقبة الجهنيّ هو الذي باشره بضربة أردته قتيلاً[4]. ومنهم أيضاً زبيد بن عبد الخولانيّ المشهور بالمصريّ من بني يكلىٰ، كانت معه راية خولان بصفّين، ولـمّا قُتِلَ عمّار بن ياسر رضي الله عنه عاد إلىٰ عسكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولزمه، وحزن لما أصاب المسلمين من شِقَاقٍ وفتنةٍ أدّت إلىٰ فرقتهم وخور قوّتهم[5].

ويجدر بنا ههنا الإشارة إلى أنني لم أقف على أحد من رجالات خولان كان في جيش عليٍّ رضي الله عنه يوم صفّين سوى زبيد بن عبد الخولانيّ، ولعلّ السّبب عائد إلىٰ عدم نزول الخولانيّين الكوفةَ، وما صاقبها من أمصار المسلمين الموالين لعليّ بن أبي طالب، وأنّهم سكنوا الشّام وافترشوها دياراً لهم منذ عهد طويلٍ، فصار هواهم عثمانيًّا بمرور الأيّام وتعاورها؛ لذلك انضووا تحت راية معاوية بن أبي سفيان يوم صفّين.

لكن الطّبريّ وغيره يذكر أنَّ عبد الله بن زاحر الخولانيّ كان في جيش عليٍّ رضي الله عنه يوم قتال الخوارج في إحدىٰ المعارك، عندما حمل علىٰ عبد الله بن شجرة السُّلميّ وقتله، وهو واحد من أعيان الخوارج الذين هُزموا شـرَّ هزيمة بعد مقتل أمرائهم: عبد الله بن وهب الراسبيّ، وحرقوص بن زهير، وشريح بن أوفىٰ، في حين لم يقتل من أصحاب عليّ رضي الله عنه إلا سبعة نفرٍ[6].

---

(1) انظر: تاريخ الإسلام 3/ 538، تاريخ دمشق 59/ 132، و12/ 224، البداية والنّهاية 8/ 187، بهجة المَجالِس وأُنس المُجالِس 2/ 627، وقعة صفّين: 85، 88، كتاب الوَفَيَات لابن قنفذ: 97، التّاريخ الكبير ـ القسم الأوّل 3/ 58.

(2) انظر: تاريخ دمشق 11/ 351.

(3) انظر: تاريخ أبي زرعة 1/ 226 ـ 227، التّاريخ الصّغير 1/ 164.

(4) انظر: تاريخ دمشق 43/ 472، 557، وقعة صفّين: 340 باختلاف في رواية مقتله، تاريخ الطّبريّ 5/ 38، البداية والنّهاية 7/ 455 وما بعدها.

(5) انظر: تاريخ دمشق 18/ 305، الإكمال 4/ 170، الإصابة 10/ 660، حسن المحاضرة 1/ 155.

(6) انظر: تاريخ الطّبريّ 5/ 86، الكامل في التّاريخ 3/ 347، البداية والنّهاية 7/ 487 باختلاف بسيط في الرّواية وفيه: «عبد الله ابن سخبرة»، تاريخ ابن خلدون 2/ 640.

محمّد بن أبي بكر الصّدّيق - رضي الله عنهم جميعاً - كان فيها قومٌ ممّن كرهوا قتلةَ عثمانَ، ولم يبايعوا عليًّا البتّة، بل أضمروا العداوة لعليٍّ ومَنْ تبعه من المسلمين؛ لعدم قيام الأخير باجتثاث شوكة أولئك المجرمين الباغين قتلة عثمان، وكان هؤلاء القوم في (خِرِبْتا)؛ وهي كورة من كور مصر عند الإسكندريّة، فأبدوا العداوة لمحمّد بن أبي بكر الصّدّيق الذي استتر في «غافق»[1]، فوجده معاوية بن حَدِيْج الخولانيّ فأخرجه وقتله، وجعل جثّته في جيفة حمار وأحرقه بالنار[2].

ولـمّا نفضتِ الرّجالُ غُبَارَ صفّين، رجع علي وأهل العراق إلى محاربة معاوية الذي قويت شوكته في الشّام، وانقضت الحكومة بدومة الجَنْدل، جمع معاوية أمراءه واستشارهم في المسير إلىٰ مصر، فاستجابوا له، وكان فيها معاوية بن حَدِيْج الخولانيّ - وهو زعيم العثمانيّة هناك - في نحوٍ من عَشَرَةِ آلاف يناصرون معاوية بن أبي سفيان في موقفه من قتلة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وقد أرسل معاوية بن أبي سفيان رسله بالكتب؛ ليحض ابن حَدِيج علىٰ المطالبة بدم عثمان، ويعده المواساة في سلطانه[3].

وكان ابن حديج قد شهد فتح مصر في سنة عشرين للهجرة، وهو الوافد بفتح الإسكندريّة علىٰ عمر بن الخطّاب، وقد ولّاه معاوية بن أبي سفيان إمارة مصر بعد عبد الله بن عمرو بن العاص سنة سبع وأربعين للهجرة[4]، وغزا المغرب ثلاث مرّات: أمّا الأولىٰ فكانت قبل مقتل عثمان بن عفّان الذي أعطاه الخُمْسَ في تلك الغزوة، حتىٰ قال النّاس: إنّما قيام معاوية في أمر عثمان حين قتل كان بسبب ذلك[5]. وأمّا المرّة الثّانية فكانت في سنة خمسٍ وأربعين في عهد بني أمية، أغزاه فيها معاوية بن أبي سفيان، ولم يكن فيها موفّقاً؛ فلم يستطع أن يفتح مدينةً ولا حصناً... علىٰ خلاف المرّة الثّالثة التي كانت في سنة خمسين، التي أصاب فيها سبياً وخيراً كثيراً وقفل سالماً، وفي السنة نفسها عزله معاوية بن أبي سفيان عن مصر، وولّىٰ عليها مع إفريقيّة مسلمة بن مخلّد الذي وجّه ابن حديج علىٰ رأس

---

(1) غافق: بطن من قبيلة عَكٍّ اليمانيّة التي تنتهي إلى أرومة القحطانية، نزلوا مصر في أرضٍ بين مَهْرَة بن حيوان وقبيلة لخم. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة 3/ 970.

(2) انظر: الإنباء بأنباء الأنبياء 195، تاريخ ابن خلدون 2/ 642، الكامل في التّاريخ 3/ 358، معجم البلدان 2/ 355.

(3) انظر: تاريخ الطّبريّ 4/ 557، معجم البلدان 2/ 355، البداية والنّهاية 7/ 526، 8/ 83، الكامل في التّاريخ 3/ 355، تاريخ دمشق 59/ 19، 25 ـ 26، تاريخ ابن خلدون 2/ 642.

(4) انظر: تاريخ الطّبريّ 5/ 229، البداية والنّهاية 8/ 29.

(5) تاريخ دمشق 59/ 23.

جيش، فنزل مدينة لم تُسَمَّ، ودخلها بلا حرب بعد عقد صلحٍ مع أهلها، ثمَّ انصـرف في سنة إحدى وخمسين[1].

ج ـ عَلَاقاتُهم في أيّامِ بني أُميَّة:

رأينا في الحديث عن مصاهرة خولان أنَّ عبد العزيز بن مروان خلف علىٰ أروىٰ بنت راشد الخولانيّ، بعد وفاة زوجها مسلمة بن مخلّد الأنصاريّ والي مصر، ذلك حينما عُهِدَ إليه بإمارتها في خبر ساقه الكِنديّ[2].

ورأينا أيضاً وقوف الخولانيّين إلىٰ جانب جيش معاوية يوم صفّين، الذي قرَّب غير واحدٍ منهم إليه، وجعلهم معتَمَدَهُ في حَلِّ بعض الـمُلمّات[3]. وفي السّنة الثّامنة والخمسين للهجرة ولَّىٰ معاوية بن أبي سفيان إمارةَ الكوفة لعبد الرّحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثّقفيّ، وهو ابن أمِّ الحكم، وهي أخت معاوية، بعد عزله الضّحاكَ بن قيس عنها، وعيَّن عبدُ الرّحمن علىٰ شرطته زَائِدَةَ بن قدامة وكان فظًّا جافياً سيىء الخلق والسّيرة، وهذا ما كان عليه سيّده عبد الرّحمن الثّقفيّ الذي تابعه في إساءة السّيرة في أهل الكوفة، فأخرجوه طريداً من بين أظهرهم، فعاد أدراجه إلىٰ خاله معاوية، فذكر له ذلك، فقال: لأولينّك مِصْـرَ خيراً منها، فولّاه إياها، فلمّا سار إليها تلقّاه معاوية بن حَدِيْج علىٰ مرحلتين من مصر، فقال له: ارجع إلىٰ خالك معاوية، فلعمري لا ندعُك تدخلها، فتسير فيها وفينا سيرتك في إخواننا من أهل الكوفة. فرجع ابن أمِّ الحكم إلىٰ خاله معاوية، ولحقه معاوية بن حَدِيج وافداً علىٰ أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، فلمّا دخل عليه وجد عنده أختَهُ أمَّ الحكم ـ وهي أم عبد الرحمن الذي طرده أهل الكوفة وأهل مصر ـ فلمَّا رآه معاوية قال: بخٍ بخٍ، هذا معاوية بن حَدِيج. فقالت أمُّ الحكم: لا مَرْحباً به، تسمع بالـمُعَيْديِّ خيرٌ من أنْ تراه[4]. فقال معاوية بن حَدِيج: علىٰ رِسلكِ يا أمَّ الحكم، أما والله لقد تزوَّجتِ فما أكرمتِ، وولدتِ فما أنجبتِ، أردتِ أن يليَ ابنُك الفاسقُ علينا، فيسير فينا كما سار في إخواننا من أهل الكوفة، فما كان الله ليريه ذلك، ولو فعل لضربناه ضرباً يطأطِئ منه رأسه، ولو كره ذلك الجالس؛ يعني معاوية! فالتفت إليها معاوية فقال: كُفِّي. فانكفأت علىٰ نفسها، والتزمت

---

(1) انظر: تاريخ دمشق 59/ 20 ـ 23، تاريخ الطّبريّ 5/ 240، البداية والنّهاية 8/ 54، الأعلام 7/ 260 ـ 261.

(2) انظر: ولاة مصر 76.

(3) ومنهم أبو مسلم الخولانيّ، انظر: ترجمته في الدِّيوان.

(4) مثلٌ يضرب لمن خَبَرُه خيرٌ من مرآه. انظر: مجمع الأمثال 1/ 342 (دار صادر)، وتمثال الأمثال 1/ 395.

صمتها[1].

النّاظر في القصّة السّابقة يجد فيها ما يجد من المغالاة والمبالغة؛ فهل مكانة ابن حديج الخولانيّ المرموقة في دولة معاوية تُقِرُّ له لقاء أمّ الحكم في قصر معاوية بن أبي سفيان؟ ثُمَّ التّكلّم معها بجفاءٍ وغِلْظَةٍ ما عُهِدَ أنْ تُكُلِّمَ بهما في حضرة خليفة كما فعلت هي أيضاً!! وإن كان قد حَدَثَ لَـحَدَثَ معهُ عظيمٌ يُهْلِكُ صاحبه.

وذكر الطّبريُّ وغيره أنَّ في سنة ستّين (60هـ) استقضىٰ معاوية بن أبي سفيان أبا إدريس الخولانيّ، بعد موت قاضيه فُضَالة بن عُبَيد الأنصاري[2]، واستمر في قضائه لدولة الأمويّين في عهد ابنه يزيد بن معاوية، الذي توفّي في سنة أربعٍ وستّين (64هـ) بحُوّارين، وحُمِلَ إلىٰ دمشق[3].

ومات مروان بن الحكم سنة خمس وستين للهجرة، وعلىٰ قضائه أبو إدريس الخولانيّ في دمشق[4]. وفي السّنة السّادسة والسّتّين في ولاية عبد الملك بن مروان، وثب المختار الثّقفيّ الكذّاب بالكوفة؛ مُدَّعياً أنّه خرج بثأر الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فَدُلَّ علىٰ مجموعة قيل: إنّهم من الذين شاركوا في قتل الحسين؛ وهم: عبد الله بن أسيد الجُهَنيّ، ومالك بن بشير البدّيّ، وحَمَل بن مالك المحاربيّ، وزياد بن مالك الضُّبَعيّ، وعمران بن خالد القُشَيريّ، وعبد الرحمن بن أبي خشكارة البَجَليّ، وعبد الله بن قيس الخولانيّ الذي شاركهم في قتل الحسين عليه السّلام، فقتلهم واقتصّ منهم، بعد أن عذّب بعضهم ومثّل بهم[5].

(1) انظر: تاريخ الطّبريّ 5/ 312، الكامل في التّاريخ 3/ 516، تاريخ ابن خلدون 3/ 21، البداية والنهاية 8/ 119.

(2) انظر: تاريخ الطبري 5/ 330، الكامل في التاريخ 4/ 11، تاريخ ابن خلدون 3/ 24 وفيه: «أبو دُوَيْس» مُحَرَّفاً، السّيرة النّبويّة لابن كثير 2/ 180، شذرات الذّهب 1/ 327، جوامع السّيرة وخمس رسائل لابن حزم 331، البداية والنّهاية 8/ 8، 211.

(3) انظر: تاريخ الإسلام 5/ 269 ـ 275، الإنباء بأنباء الأنبياء 208.

(4) انظر: البداية والنّهاية 8/ 365.

(5) انظر: تاريخ الطّبريّ 6/ 58، الكامل في التّاريخ 4/ 240، البداية والنّهاية 9/ 22، تاريخ ابن خلدون 3/ 34 وفيه اختلاف بسيط في رواية الحادثة من دون تغيّر المضمون. والمختار الثّقفيّ: هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو الثّقفيّ، أبو إسحاق، ولد عام الهجرة، أفّاكٌ كذّابٌ، ليست له صحبة ولا رواية، أخباره غير مرضية، أمضىٰ حياته في الفسق والمُرَاءاة، قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «إنَّ في ثقيف كذّاباً ومُبيراً»؛ فكان المختارُ كذّاباً والحجاج مبيراً، غلب علىٰ الكوفة زمن المصعب بن الزّبير، وكان أكبر همّه مُذ دخل الكوفة قتل قتلة الحسين عليه السّلام. دعا إلىٰ إمامة محمّد بن الحنفيّة... تتبع قتلة الحسين ونال منهم، وادّعىٰ النّبوّةَ ونزولَ الوحي عليه، طالب بالإمارة وانتهىٰ به المطاف أن حاصره عبد الله بن الزّبير بالكوفة، واحتزَّ رأسه سنة سبع وستّين للهجرة. انظر: الحديث في صحيح مسلم بشرح النووي مجلد 8: جزء 16/ 101، أخباره في: المحبر 491، المعارف 400، سير أعلام النّبلاء 3/ 538، الفَرْق بين الفِرَق 31، الكامل في

وفي العام نفسه عقد عبد الملك بن مروان إمارة مصر لأخيه عبد العزيز بن مروان، الذي استعمل سفيان بن وهب الخولانيّ علىٰ الإمرة علىٰ بعث الطّالعة إلىٰ إفريقية، وقيل: إنّه غزا المغرب زمن عثمان بن عفّان. وبعد أن تقدّمت به السِّنُّ طلبه الأمير عبد العزيز بن مروان ليحدِّثَهُ، فَأُتِيَ به شيخاً كبيراً محمولاً[1].

وفي سنة سبعين للهجرة استعمل الأمير عبد العزيز بن مروان علىٰ قضائه وقصصه وبيت ماله عبد الرحمن بن حُجَيْرَةَ الخولانيّ، وكان يعطيه في السّنة الواحدة ألف دينارٍ، فلا يدّخرها، بل ينفقها في سبيل الله؛ لتقاه وورعه الشّديدَين[2]. وفي سنة اثنتين وسبعين للهجرة صَرَفَ بِعَثَ البحر إلىٰ مكّة؛ لقتال ابن الزّبير، وجَعَلَ عليها مالك بن شُرَاحِيل الخولانيّ، الذي جُعِلَ فيما بعد للصّلاة في النّاس عندما حضرته المنيّة في سنة ست وثمانين[3]، وفي سنة خمس وسبعين أطلع عبد الملك بن مروان عُمَيْر بن عبيد الخولانيّ بالجيش إلى إفريقية[4].

وقد أورد غير واحدٍ من العلماء أنّ عبد الملك بن مروان استقضىٰ علىٰ دمشق أبا إدريسَ الخولانيّ بعد عزله لبلال بن أبي الدّرداء، وتوفّي أبو إدريسَ الخولانيّ سنة ثمانين وهو على قضاء عبد الملك بن مروان الذي توفي سنة ستٍّ وثمانين[5].

وفي سنة ستٍّ وثمانين أُخِذَتِ البيعة للوليد بن عبد الملك بن مروان، الذي أَقَرَّ علىٰ ولاية مصر أخاه عبد الله بن عبد الملك؛ إذ كان تولّى شؤونها في حياة أبيه عبد الملك. وأقرّ علىٰ قضائه عبد الرّحمن بن معاوية بن حَدِيْج الخولانيّ الذي صرفه فيما بعد، وعيَّن آخر بدلاً منه، ليعود بعد زمن لِيَسْتَعْمِلَ علىٰ قضائه عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حَدِيْج الخولانيّ[6].

وثمّة رواية أخرىٰ يسوقها الكِنديّ؛ تفيد أنّ عبد الله بن عبد الملك بن مروان رغب في عزل عبد

التّاريخ 4/ 211، فوات الوَفَيات 4/ 123، الوافي بالوفيات 15/ 491، الحور العين 236، منتخبات في أخبار اليمن 32.

(1) انظر: تاريخ الإسلام 6/ 73، الإصابة 1/ 472 ـ 473، تاريخ دمشق 21/ 358 وما بعدها، سير أعلام النّبلاء 3/ 452 ـ 453، البداية والنّهاية 9/ 190.

(2) انظر: تاريخ الإسلام 6/ 126، 5/ 78، البداية والنّهاية 9/ 81، شذرات الذّهب 1/ 341، حسن المحاضرة 1/ 228، 2/ 106.

(3) انظر: ولاة مصر 72، 76 ـ 77.

(4) تاريخ خليفة بن خيّاط 1/ 347.

(5) انظر: تاريخ خليفة بن خيّاط 1/ 361، الإنباء بأنباء الأنبياء 220، الكامل في التّاريخ 4/ 365، تاريخ الإسلام 5/ 544، البداية والنّهاية 9/ 169 ـ 176، 228، تاريخ ابن خلدون 3/ 172، تاريخ دمشق 10/ 526، 26/ 137.

(6) انظر: الإنباء بأنباء الأنبياء 221، وحسن المحاضرة 1/ 229.

الرّحمن بن معاوية بن حَدِيْج الخولانيّ عن الشُّرَط، وأنّه لم يجد عليه مقالاً ولا مُتَعَلَّقاً، فولّاه مُرَابَطة الإسكندريّة. في حين كان عبد الرّحمن من سعاة أخذ البيعة للوليد بن عبد الملك من أهل مصر[1]، فكيف يُقدم عبد الله بن عبد الملك علىٰ عزل مَنْ سعىٰ لأخذ البيعة لأخيه، ودعا أهل مصرَ له، من دون عُذرٍ أو ذنبٍ اقترفه؟ والذي يعنينا من الخبر السّالف أنَّ بني مروان قد بسطوا الطّريق لعلاقة طيبة مع الخولانيّين بوَّأتها مكانة عالية؛ إذ ليس من السّهل أن يشغل أحدهم منصب القاضي أو رئيس الشّرطة لولا أنّه من المقربين الموثوق بهم.

وفي صفر سنة ثمانٍ وثمانين قَدِمَ عبد الله بن عبد الملك علىٰ أخيه الوليد في دمشق، فاستخلف علىٰ مصر عبد الرحمن بن عمرو بن قَحْزَم الخولانيّ[2].

وفي سنة ستٍّ وتسعين استُخْلِفَ سليمان بن عبد الملك (96 ـ 99هـ)، وكان من سُعَاة أخذ البيعة له من أهل مصر عبد الله بن عبد الرّحمن بن حجيرة الخولانيّ[3]، وكان من عماله على الكوفة سفيان بن حريش الخولانيّ[4].

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ) نجد أنّ سلامة بن نعيم الخولانيّ مُقَرَّبٌ من الخليفة، بل يشير عليه في كثيرٍ من أمور الدّولة الأمويّة، ولا يتأبّىٰ عليه أبداً، يسمع منه ويعتدُّ بنصحه ـ وهو من أهل العقل والحلم ـ وهذا ما بدا جليًّا عندما أشار علىٰ الخليفة بأن يُرْجِعَ يزيدَ بن الـمُهَلَّب إلىٰ سجنه، بعد أنِ أركبه الخليفة جملاً أَجْرَبَ، وألبسه جُبَّةً من صوفٍ خَلَقاً، وجُعِلَ يدور في النّاس؛ لِيُذِلَّهُ ويهينَهُ لأمر وضيع ارتكبه[5].

وذكر أبو بكر محمّد بن عمر بن القوطيّة (367هـ) وغيرُهُ من أصحاب العِلم: أنّ السَّمح بن مالك الخولانيّ كان والياً لعمر بن عبد العزيز علىٰ الأندلس سنة مئة للهجرة، وقد رأىٰ منه ما لم يره من أحدٍ قط من أمانة وديانة وخُلُقٍ وحسن سيرةٍ[6]، بل هو من خِيَارِ أهل زمانه ثقةً وعدالةً، أمره الخليفة أنْ يُخَمِّسَ أرض الأندلس، ويخرج منها خمس الله تعالىٰ، ويقرّ القرىٰ بأيدي أربابها، وأن يكتب إليه بصفة

---

(1) انظر: ولاة مصر 79 ـ 80.

(2) انظر: ولاة مصر 80.

(3) انظر: ولاة مصر 87.

(4) انظر: تاريخ خليفة بن خياط 1/ 429.

(5) انظر: تاريخ الطّبريّ 6/ 557، الكامل في التّاريخ 5/ 50، تاريخ ابن خلدون 3/ 95.

(6) انظر: تاريخ افتتاح الأندلس 39، 210، تاريخ الإسلام 6/ 271، 7/ 10، الكامل في التّاريخ 5/ 55، 489، تاريخ ابن خلدون 3/ 174، 4/ 152 وفيه اسم السَّمح (السنخم) مُصَحَّفاً مُحَرفاً، وكثيراً ما وردتِ الأسماء فيه مُصَحَّفَة!!

الأندلس بحرها وأنهارها وخيراتها، وكان رأيه أن يقفل أهلها منها؛ لانقطاعهم من وراء البحر من المسلمين، فلمّا قَدِمَهَا نَفَّذَ ما عهده إليه الخليفة، وكتب إليه بكل ما فعله في الأندلس، مُعَرِّفاً إياه قوّةَ الإسلام وشرف معاقله وكثرة أهله، وبقي في خدمة الخليفة حتىٰ انتهىٰ أمره شهيداً في أرض الفِرنجة سنة اثنتين ومئة للهجرة[1].

ومن الخولانيّين الذين دخلوا في خدمة عمر بن عبد العزيز: سليمان بن داود الخولانيّ حاجبه، وكان من المقدّمين عنده، وأخوه عثمان بن داود أيضاً من جِلَّةِ أصحاب عمر[2]، وسعيد بن عِكْرِمَةَ الخولانيّ كان رئيساً لحرس الخليفة ومقرَّباً منه لا يفارقه، حتىٰ قيل: إنّه روىٰ عنه[3].

وفي خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان (من جمادىٰ الآخرة إلىٰ ذي الحجة من سنة 126هـ؛ قريباً من ستة أشهر) نجده يرسل عثمان بن داود الخولانيّ، ومعه حذيفة بن سعيد إلىٰ محمّد بن عبد الملك ويزيد بن سليمان وَالِيَيِ الأردنِّ وفلسطينَ، يدعوهما للدّخول في طاعته بعد أن قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهو ما أدّىٰ إلىٰ اضطراب أمر بني أميّة، وتمرُّد بعض أصحاب الولايات، وعدم ولائهم للخليفة الأمويّ.

وقد بذل عثمان الخولانيّ وحذيفة بن سعيد جهداً مضنياً في إقناع والي الأردنِّ محمّد بن عبد الملك ووالي فلسطينَ يزيد بن سليمان ـ الذي كانت تربطه بأهل فلسطينَ علاقات اقتصاديّة وأملاك ـ بأن يدخلا في طاعة الخليفة، إلاّ أنّهما تمرَّدا ورفضا أن يدخلا في طاعة الخليفة، حتىٰ وجَّه إليهما جيوشه بقيادة سليمان بن هشام بن عبد الملك ـ في الدماشقة وأهل حمص ـ التي بلغت أربعة وثمانين ألفاً، نجحت فيما أوكل إليها من مهمّة، ودخل أهل الأردنِّ وفلسطينَ في طاعة الخليفة[4].

وفي آخر خلافة مروان بن محمد (127 ـ 132هـ) ـ وهو خاتم خلفاء بني أميّة ـ نجد والي مصر له عبد الملك بن مروان بن موسىٰ بن نصير اللخميّ، يجعل علىٰ شرطته عِكْرِمَةَ بن عبد الله بن عمرو بن مَحْرم الخولانيّ، بعد أن استعفاه أخوه معاوية من منصبه الذي عهد به إليه[5]، وبقي بعد ذلك عِكْرِمة بن عبد الله بن عمرو الخولانيّ علىٰ شرطة مصر في عهد عبد الملك بن يزيد، الذي هرب من الوباء إلىٰ

---

(1) انظر: تاريخ افتتاح الأندلس 39، تاريخ ابن خلدون 4/ 152.

(2) انظر: تاريخ داريّا 89، وتاريخ الإسلام 9/ 410.

(3) انظر: تاريخ دمشق 21/ 236 ـ 238.

(4) انظر: تاريخ الطّبريّ 7/ 267 وما بعدها، الكامل في التّاريخ 5/ 294، البداية والنّهاية 10/ 226. وفي المصدرين الأخيرين جاءت رواية الطّبريّ بتمامها بغير ذكر عثمان بن داود الخولانيّ.

(5) انظر: ولاة مصر 116.

بني يَشْكُر، واستخلف عِكْرِمَةَ علىٰ الفسطاط في سنة ثلاث وثلاثين ومئة، وظل عِكْرِمةُ وغيرُه من الخولانيّين أوفياءَ لبني العبّاس فيما بعد[1].

واعتماداً علىٰ ما تقدّم يمكن القول: إنّ الخولانيّين كانوا علىٰ علاقة طيّبة بدولة الأمويّين الذين استعملوا عدداً ليس قليلاً منهم في مناصبَ مهمّة في الدّولة، حتّىٰ غدا غيرُ واحدٍ منهم ممّن يحكمون أصقاعاً شاسعة من دولة الأمويّين، ويديرون جانباً من دفّة السّياسة في تلك الحقبة، ويلاحظ أثرهم في فتوح المغرب، وبِعَـثِ الطالعة إلى إفريقية، وكذا الأمر في الأندلس التي وليها لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه السمحُ بن مالك الخولانيّ، الذي انتهى أمره شهيداً وهو غازٍ في أرض الفرنجة، وكان من أكثر الناس ثقةً وعدلاً. يضاف إلى هذا الدور دورٌ آخر تجسّد في سعاية عثمان بن داود الخولانيّ لتوطيد أركان دولة بني أمية زمن يزيد بن الوليد، ومحاولة أخذه بيعة أهل الأردن وفلسطين للخليفة، ولو لم يكن من أصحاب الرأي والحجّة والأمانة لما كلّفه الخليفة بأمرٍ عظيم كهذا. يُلاحظ أيضاً أنّهم لم يتألّبوا علىٰ ما عُهِدَ به إليهم من الأمويّين، بل ظلّوا مخلصين أوفياءَ ما حَكَمَ الأمويّون.

رابعاً ـ عَقِيْدةُ خَوْلَان:

ربّما صار القول في عقائد العرب قبل الإسلام فَضْلَةً؛ إذ بسط القول فيه، وسبق إليه ثُلَّةٌ من الباحثين الذين عُنوا في غير ما أطروحة جامعيّة بجمع أشعار القبائل أو الشّعراء، ودراستها دراسة متأنّية، تَشْمَل فيما تشمَلُهُ (عقيدتها)، ليتبيّن لهم أنّ العرب في دهمائهم قبل الإسلام كانوا يرفلون في مهامه الوثنيّة، ويغطّون في سُبَات الشِّرك والضّلال، يرافق ذلك إيمانُهُم بالخالق وإقرارُهُم بالبعث بعد الموت، إلّا رهطاً قليلاً منهم رغبوا عن الأوثان يربؤون بأنفسهم أن يتقرّبوا إليها، أو يصيبوا شيئاً من مفاسد القوم، ومالوا إلىٰ الإقرار بوحدانيّة الله عزَّ وجل؛ من أمثال: قسّ بن ساعدةَ الإياديّ[2]، وصِرْمَة بن أنس[3]، وزيد بن عمرو بن نُفيل[4].

وأمّا ما اجتمع لديّ من أشعار خولان، فليس فيها ما يدلّ علىٰ شيءٍ من عقيدتها قبل الإسلام، أو في تلك الجاهليّة البعيدة التي عبد فيها العرب الأجرام السّماويّة وتقرّبوا إليها بالنّذور، ولا ما يدلّ علىٰ

---

(1) انظر: ولاة مصر 123 وما بعدها.

(2) انظر: طبقات ابن سعد 1/ 315، البيان والتبيّين 1/ 309.

(3) انظر: السّيرة النّبويّة 2/ 118، الإصابة 2/ 894، 917.

(4) انظر: السّيرة النّبويّة 1/ 180، المحبر 171. وانظر ما كتبه د. عبد الحفيظ السّطلّي في ديوان أميّة بن أبي الصّلت (المقدّمة) 21 وما بعدها عن هؤلاء الموحّدين السّالفي الذِّكْرِ.

شيءٍ يسيرٍ يؤبه له، أو يمكن الاستئناس به للوقوف علىٰ عقيدة القوم وتبيانها.

ويُرْجِعُ د. جواد علي هذه المشكلة إلىٰ الذين دخلوا في الإسلام وأرادوا مجاراة المسلمين، ورغبوا في التنصُّل من أيّام الجاهليّة والتّبرؤ منها، وغضّ النّظر عن ذكر الأصنام التي حرّمها الإسلام، أو إلىٰ رواة الشّعر في الإسلام وقد أغفلوا أمر الشّعر الجاهليّ الذي مجّد الوثنيّة فأهملوه؛ فلم يرووه، وأنّ بعضاً منهم قد سعىٰ إلىٰ تهذيب الشّعر وتشذيبه، فحذف كلَّ ما له علاقة بالأصنام والوثنيّة، ورفع أسماء الأصنام وأحلّ محلها اسم الله حيث يرد اسم الصّنم[1].

لا يمكننا التسليم بهذا الرأي الذي أوقفه صاحبه على النصوص الشعرية فقط؛ لأنّ ما أثبته ابن الكلبي في مصنَّفه (الأصنام) يثبت خلاف هذا الأمر؛ فقد أورد عدداً غير هيّنٍ من الأصنام التي كانت تشكّل جزءاً كبيراً من حياة القوم وتاريخهم، فكيف يمكن حذفه؟ الذي سيؤدي ـ لو صحَّ مذهب د. جواد علي ـ إلى طي أجزاءٍ كبيرةٍ من حياة القوم، يضاف إلى هذا أنّ النّقوش التي وُجِدَتْ علىٰ صِفاح الحجارة، أو في جدران الكهوف، أو علىٰ القبوريّات، كانت وسيلة كشفت الغطاء عن جزءٍ من الحياة الدّينيّة لهؤلاء[2]، ويمكن أن نعدَّ القرآن الكريم خير ما وقف علىٰ حالة العرب الدّينيّة، فقصَّ خبر كثيرٍ من معبوداتهم وفصَّل فيها تفصيلاً، بل إنّ عدداً ليس قليلاً من آياته الكريمة كانت عبادة الأصنام سبباً في نزولها علىٰ قلب النّبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم.

وقد يصيب الباحث عن أديان العرب في الجاهليّة وما كانوا عليه من مللٍ ونِحَلٍ طِلْبَتَهُ في قول المسعوديّ عن عباداتهم مستنبطاً من القرآن الكريم: «كانتِ العرب في جاهليّتها فِرَقاً؛ منهم الموحِّدُ المقرّ بخالقه، المصدّق بالبعث والنّشور، موقناً بأنّ الله يثيب المطيع، ويعاقب العاصي.... كقسّ بن ساعدة الإياديّ، ورئاب الشنيّ، وبحيرا الرّاهب... وكان من العرب من أقرَّ بالخالق، وأثبت حدوث العالم، وأقرَّ بالبعث والإعادة، وأنكر الرّسل، وعكف علىٰ عبادة الأوثان، وهمُ الذين حكىٰ الله سبحانه وتعالى قولهم: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزّمر: 3]. وأفرادَ هذه الفرقة هم الذين عظَّموا الأصنام، وحجّوا إليها، وأقاموا عندها شعائر الشرك والكفر. ومنهم من أقرّ بالخالق وصدّق قول أهل الدهر، وهؤلاء الذين حكىٰ الله تعالىٰ إلحادَهم، وخبَّر عن كفرهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ

---

(1) انظر: المفصّل 6/ 12.

(2) انظر: نقوش مسنديّة 119، 146، 165، 413، 488 ـ 489، والمفصّل 2/ 384.

مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24]. ومنهم من مال إلىٰ اليهوديّة والنّصرانيّة، ومنهم المارُّ علىٰ عُنْجهيَّته، الرَّاكب هَجْمَتِهِ. وقد كان صِنفٌ من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنّها بنات الله، فكانوا يعبدونها؛ لتشفع لهم عند الله، وهمُ الذين أخبر الله عزَّ وجل عنهم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النّجم: 19 ـ 22]»[1].

وإذا كانت خولان تفترش أصقاعاً شاسعة من بلاد اليمن السّعيد، وتشغل حيّزاً واسعاً من جباله ووهاده ومفاوزه، فلم تكن بعيدة عن التّأثير الدّينيّ المجاور لها؛ إذ للمجاورة ما لها من التّلوين الثّقافيّ والدّينيّ لدىٰ الشّعوب؛ وفي هذا يقول د. جواد علي: «يكون للجِوار وللصّلات التّاريخيّة والرّوابط الثّقافيّة أثرٌ في ديانات الشّعوب وفي تكييفها، ويكون للثّقافة خاصّة أثر بارزٌ في هذا التّوجيه»[2]. واتّكاءً علىٰ المقالة السّالفة تكون قبيلة خولان قد جاورت من جنوبيّها حِمير التي كانت تعبد النّجوم، والكواكب، والأجرام السّماوية[3].

ويطالعنا أحد النّقوش المسنديّة بعبادة خولان لعثتر الذي خاله المؤرّخون كوكبَ الزّهرة، واعتقد د. نصـرة عبد الرّحمن أنّه الشّعرىٰ، وهو أسطع نجوم السّماء في الليل[4]، وممّا جاء في النّقش إرياني/ 76: «أتم/ وجم/ شعبن/ خولن/ جددن/ أحنبن وأعبسن/ ويشبمتن/ وكل/ وليتهمو/ وشعبن/ أبقرن/ وشبـر قتن/ ستوددو/ وستذللن/ لتضنغن/ بن حبشن/ لمظأو/ أرضهمو/ بمقم/ إلهمو/ عثتر/ ذرجم/ وعثر/ ذحضرن/ وعثتر/ ذكبدن... إلخ. أي: لقد اجتمع الشّعب خولان الجديد الأحنوب والأعبوس منهم واليشابمة وكلّ أحلافهم الموالين لهم، أمّا الشّعبان الأبقور والشّبارقة فقد استجابوا لهم وطاوعوهم، فكان قرار الجميع هو التحصّن من الحبش الذين غزوا أرضهم، وكان ذلك بقوة ومكانة إلههم عثتر ذي رحبم، وإلههم عثتر ذي كبدان.... إلخ»[5]. وعثتر/ ذي حضرن هو إله خاصّ بخولان العالية، أمّا عثتر/ ذي كبدان فهو إله مشترك بين خولان العالية وبني سخم الحميريّين[6].

والذي أميل إليه أنّ الخولانيين عبدوا كلَّ ما كانتِ اليمن تعبده؛ من ذات الحميم (الشَّمس) والمقة

---

(1) مروج الذّهب 2/ 132 ـ 133. وعنه في شعراء حمير (الدراسة) 74، والهَجْمَة: القطعة الضخمة من الإبل.

(2) انظر: المفصّل 6/ 10.

(3) انظر: الاشتقاق 155، التّاج (شمس)، المفصَّل 6/ 50 وما بعدها.

(4) انظر: الصّورة الفنيّة في الشّعر الجاهليّ 109.

(5) انظر: نقوش مسنديّة 486 ـ 487.

(6) انظر: نقوش مسنديّة 489.

(القمر) عند السبئيّن، (وعمّ) عند القتبانيّين، و(ودّ) عند المعينيّين، و(سن) عند الحَضَارِمة[1].

وفي خبر تفرَّد به ياقوتُ الحَمَويّ ذكر عبادة أهل اليمن للنّار التي كانت في خولان؛ يقول: «وفي خولان كانتِ النّار التي تعبدها اليمن»[2]. ولم يحدّدْ أيَّ نار كانتْ تعبدُ اليمن[3]؛ هل نار الاستمطار؟ أو نار التّحالف؟ أو غيرها... لكن في الخبر ما يوحي بأنّ خولان عبدت النّار في جاهليّتها الأولىٰ إذ كانت من اليمن، وربّما جاءت هذه العبادة وافدةً من الأمم المجاورة كالفرس المجوس قبلاً، كما عبدتِ الأوثان[4].

هذا؛ وقد جاورت خولان أقواماً من مذحج مثل بني الحارث بن كعب، أكثرهم نباهةً واشتهاراً، وبنو عبد المدان بن الدّيّان من ناحية الشمال، الذين كانوا نصارىٰ في نَجْرَان، وعرفت بطون مذحج عبادة الأصنام والأوثان[5]. وجاورت خولان قبيلة همدان من شرقيّها التي كانت تتعبّد لـ (المقة) إله سبأ في أوّل الأمر، ثم عبدت (تالب رئام) الإله الخاصّ بهمدان، كما عبدتِ الأصنام، ودخلت في المسيحية واليهودية كغيرها من القبائل المعتنقة لهاتين الدّيانتين[6].

وقد أشرتُ في غير ما موضع من هذا البحث إلىٰ أن أرهاطاً من خولان ـ بل بطوناً منها ـ قد خالطت بطوناً من حمير، ومن قبيلة مذحج، وسكنت في أصقاعها، وصارت تُنسب إليها في كثير من الأحيان[7]. وهذا ممّا يجعل تُكَأَةً نتوكّأ عليها في القول: إنَّ تلك البطون الخولانيّة قد دانت بديانات هؤلاء الأقوام وهاتيك القبائل، واعتنقت ما كانت تعتنقه بحكم الحياة اليوميّة المعيشة.

ولمـّا أشرقت شمس الإسلام، تسطع في أوّل أمرها علىٰ جزيرة العرب بدعوة محمّد صلى الله عليه وسلم لأهلها، وتطوافه بين القبائل يعرض نفسه عليها، أنكرته غالبيّة العرب، ولم يؤمن به إلا نفرٌ قليلٌ من الضّعفاء، وظلَّ صابراً يدعو النّاس حتىٰ أطبقت عليه وفودهم في السّنة التّاسعة للهجرة تعلن إسلامها، لتنهض خولان كبقيّة القبائل من رقاد الغَواية والضّلال، وتسرع للدّخول في الإسلام

---

(1) انظر: المفصّل في تاريخ العرب: 6/ 50ـ 54.

(2) معجم البلدان 2/ 407.

(3) انظر: ما كتبه د. جواد علي في المفصّل عن أنواع النّار 6/ 696، وانظر مصادره ثمّة.

(4) انظر: الأصنام 11ـ 13.

(5) انظر: الأصنام 44، 57، 111، التّاج (نسر)، المفصّل 1/ 454، 6/ 260، المحبر 367، اللّسان (مدن)، شعراء مذحج 49ـ 52.

(6) انظر: شعر همدان وأخبارها في الجاهليّة والإسلام 38 وما بعدها، وانظر: اليمن في صدر الإسلام 65ـ 73.

(7) انظر: مبحث نسب خولان، وإلحاق عدد من بطونها ببعض بطون حمير.

في شهر شعبان في السّنة العاشرة للهجرة، معلنة إسلامها، وهدم أصنامها، وبداية حياة دينيّة جديدة.

وسأقف فيما يأتي علىٰ ما كانت خولان عليه من عبادة الأصنام وتعظيمها لها، ثُمَّ النّصرانيّة التي اعتنقتها بطونها وانتشارها في قضاعة، ثُمَّ إسلام خولان وثباتها عليه، ورِدّتها مع القبائل التي ارتدّت.

1 ـ الوَثَنِيَّةُ فِيهِم:

مالتِ العرب في الجاهليّة إلىٰ عبادة الأجرام السّماوية والنّجوم والكواكب كالشّمس والقمر والزُّهرة[1]، وعبدوا أيضاً أصناماً كثيرة[2]، فرّق ابنُ الكلبيّ بينها وبين الأوثان؛ فقال: «إذا كان معمولًا من خشبٍ أو ذهبٍ أو من فضةٍ صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وَثَنٌ»[3]. واعتماداً علىٰ ما صنّفه ابنُ الكلبيّ في التّمييز بين الأصنام والأوثان يمكن القول: إنّ خولان عبدتِ الأصنام التي عبدتها عرب الجاهليّة؛ لأنّها آلهة تقرّبهم إلىٰ الله زُلْفَىٰ في زعمهم، وقد تفرّدت خولان وفق ما روي عنها بواحدٍ من الأصنام التي جاء بها عَمْرُو بنُ لُحَيٍّ، ولُحَيٌّ هو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، أبو خزاعة الذي[4] غلب علىٰ مكة، وأخرج منها بني جُرْهُمَ، وتولّىٰ سِدَانةَ الكعبة وحجابتها، وجاء بالأصنام وفرّقها علىٰ العرب، ودعاهم إلىٰ عبادتها والتّقديس لها.

أمّا مجيئه بالأصنام فهناك روايتان: أمّا الأولىٰ فذكر أنّه مرض مرضاً شديداً، فقيل له: إنَّ بالبلقاء من أرض الشّام حَمَّةً[5] إنْ أتيتها بَرَأت، فأتاها، فاستحمّ بها، فَبرَأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، «فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر فيها علىٰ العدوّ، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فَقَدِمَ

---

(1) انظر: موسوعة الميثولوجيا والأديان العربيّة قبل الإسلام 172، 195، 314، وانظر الصّورة في الشّعر العربيّ 43ـ44.

(2) أسماء الأصنام المذكورة في كتاب ابن الكلبيّ مرتبة علىٰ حروف المعجم، مضافاً إليها ما استدركه أحمد زكي باشا ثمَّ ما استُدرك عليه: آزر، وإساف، والأسحم، والأشهل، والأُقَيْصِر، وأول، وباجر (باحر)، والبَجَّة، وبَعْل، وبَلْج، والجَبْهَة، والجُثَىٰ، والجُرَيْش، والجَلْسَد، وجِهَار، والدّار، ودُوَّار، وذو الخَلَصَة (الخَلَصَة)، وذو الرِّجْل، وذو الشَّرَىٰ، وذو الكفَّين، ورُضَىٰ (رضاء)، والزور، والسَّجَّة، وسَعْد، وسُواع، والشَّارق، والشّمس، وصَدا، وصَمُود، وضِمار، وضَيْزَن (الضَّيزنان)، وعائم، والعَبْعَب (الغبغب)، والعُزَّىٰ، وعَمِيانَس (عَمُّ أَنَس)، وعوض، والعوف، والفَرِيّ، وغنم، والفِلْس، وكَثْرَىٰ، والكُسْعَة، وكُلَال، واللّات، والـمُحَرِّق، ومُحَيِّس، والمدان، ومَرْحَب، ومناة، ومناف، ومنهب، ونائلة، ونسر، ونَصَّر، ونُهْم، والهبا، وهُبَل، وهَمَىٰ، والسُّعَيْر، ووَدّ، والوَدْع، وياليل، واليَعْبوب، ويعوق، ويغوث؛ قال ابن الكلبيّ: «وقد كانتِ العرب تُسمِّي بأسماء يُعبِّدونها، لا أدري أعَبَّدوها للأصنام أم لا؟ منها: عبد ياليل، وعبد غنم، وعبد كُلَال، وعبد رُضىٰ» الأصنام 30، وانظر الفهرس التّحليليّ 100ـ103، والتّكملة التي جمعها أحمد زكي 107ـ111، وانظر: «الجُثَىٰ، والفَريّ، ومُحَيِّس، وهَمَىٰ» في اللّسان «جثي، خيس، غري، همي»، وانظر: شعراء حمير (الدّراسة) 75.

(3) الأصنام 53، وعنه في أديان العرب في الجاهليّة 132.

(4) المعمرون والوصايا: 44 وفيه: «قالوا: وقد يقال: إنّه لِحَيّ بن قَمَعَةَ بن خِنْدِف بن مُضر».

(5) الحَمَّةُ: عين ماء فيها ماء حارٌّ يُستشفى بالغسل منه. اللّسان (حمم).

بها مكّة ونصبها حول الكعبة»[1]، ثمّ دعا العرب لعبادتها وتعظيمها، فكان لخولان صنم عَمِيانَس في أرضهم.

وأمّا الرّواية الثّانية فذكر ابن الكلبيّ أنّ عمرو بن لُحَيٍّ كان كاهناً، وكان له رَئيٌّ من الجنّ، فحدَّثَهُ الرَّئيُّ، ودلّه علىٰ الأصنام عند ضفّ جُدَّة، وأُمِرَ أن يدعوَ العرب إلىٰ عبادتها وتقديسها، فأتىٰ عمرو ساحل جُدَّة فوجد وَدًّا، وسُوَاعاً، ويغوثَ، ويعوقَ، ونَسْراً، وهي من أصنام قوم نوح عليه السّلام، وجاء بها إلىٰ مكّة، فلمّا كان موسم الحجّ دعا العرب إلىٰ عبادتها[2].

وليس بين أيدينا ما يعرّفنا طريقة وصول عَمِيانَس إلىٰ اليمن، وتخصّص خولان بعبادته[3]. وذكر ابن الكلبيّ أنَّ الخولانيّين كانوا يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله عز وجلَّ؛ فما دخل في حقِّ الله من حقِّ عَمِيانَس ردّوه عليه، وما دخل في حقِّ الصَّنم من حقِّ الله الذي سَمَّوهُ له تركوه له[4]. وَوَهَّمَ محمّد نعمان الجارم ابنَ هشام في سيرته، وابن سَيِّد النّاس في (عيون الأثر)، عندما سَمَّيَا الصّنم (عم أنس)، وتبعهما في هذا الوهم أحمد بدوي الشّنقيطيّ في كتابه (عمود النسب)؛ فقال:

أَضَلَّهُم صَنَمُهُمْ عَمُّ أَنَسْ كَانُوا إِذَا مَا الغَيْثُ عَنْهُمُ احتَبَسْ[5]

وذكر ابن الكلبيّ أن الذين تعبَّدوا لعَمِيانَس هم بطن من خولان يقال لهم: (الأَدُومُ) وهم الأُسُوم[6]، ولم تطالعنا المصادر شكل عَمِيانَس علىٰ غِرار الأصنام التي وُصِفَتْ عَمَّن رآها مثل: «وَدّ»؛ إذ روىٰ ابن الكلبيّ عن أبيه قال: «فحدَّثني مالك بن حارثة الأجداريُّ أنّه رآه ـ يعني وَدًّا ـ قال: وكان أبي يبعثني باللبن إليه، فيقول: اسقه إلهَكَ، قال: فأشربُهُ، قال: ثم رأيت خالد بن الوليد بَعْدُ كَسَرَهُ فجعله جُذَاذاً....»، ثم نقل ابن الكلبيّ عن أبيه: «فقلت لمالك بن حارثة صف لي وَدّاً حتىٰ كأنّي أنظرُ إليه. قال: كان تمثالَ رجلٍ كأعظم ما يكون من الرّجال، قد ذُبِرَ عليه حُلّتان، مُتَزِرٌ بِحُلّةٍ، مُرْتدٍ أخرىٰ،

---

(1) الأصنام 8، السّيرة النّبويّة 1/ 76، الرّوض الأنف 1/ 105، والبداية والنّهاية 2/ 458، تاريخ اليعقوبيّ 1/ 255.

(2) انظر: الأصنام 54، وخزانة الأدب 7/ 221، وديوان بني كلب (الدّراسة) 171.

(3) انظر: الأصنام 43، السّيرة النّبويّة 1/ 78، السّيرة النّبويّة لابن كثير 1/ 69، الرّوض الأنف 1/ 104، البداية والنّهاية 2/ 463، المفصّل 6/ 265، خزانة الأدب 7/ 231، معجم البلدان 4/ 159، التّاج (عمنس)، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام لسميح دغيم 122، أديان العرب في الجاهليّة 148 ـ 149، الوثنيّة في الأدب الجاهليّ 67.

(4) انظر: الأصنام 43، المفصّل 6/ 265، خزانة الأدب 7/ 231.

(5) انظر: أديان العرب في الجاهليّة 145.

(6) انظر: الأصنام 44.

عليه سيف قد تقلّده، وقد تنكّبَ قوساً، وبين يديه حَرْبَةٌ فيها لواءٌ، ووَفْضَةٌ ـ أي جَعْبَةٌ ـ فيها نَبْلٌ[1].
و(الفِلْس) الصّنم الذي عبدته طيّئ، وهو علىٰ شكل إنسان أسود اللّون، في وسط جبل أجا موطن القبيلة[2]. و(الجَلَد) الذي بدا بحضرموت كجثّة الرّجل العظيم، وهو من صخرة بيضاءَ لها رأس أسود، وإذا تأمّله النّاظر رأىٰ فيه صورة وجه إنسان[3].

وجرت خولان علىٰ تعظيم (عَمِيانَس)، مثلها في هذا مثل قبائل العرب التي عَظَّمَتْ أصنامها، فمن ذلك أنّهم كانوا يزرعون الزّرع، فيحيلون له وسطاً، فيسمّونه للصّنم، ويسمون زرعاً آخر لله، فإذا مالتِ الرّيح يأخذونَ الذي سمّوه لله ويجعلونه لِعَمِيانَس، وإذا مالتِ الرّيح لم يجعلوا لله ما جعلوه لعميانس[4]، فكان فاضلًا بزعمهم علىٰ الله عز وجلّ، أو أنّه صاحب المِنَّة والفضل في جعل الله ـ عز وجلّ ـ يشملهم برحمته ونعمته؛ لذا كانوا يقسمون له من حروثهم وأنعامهم، ويقدّمون له القرابين والنذور حتىٰ في أيّام الفاقة والعوز؛ تقرُّباً إليه، وكسباً لرضاه وودّه.

وجاء في حديث هذا الصّنم بعد أن أسلمت خولان وحَسُنَ إسلامها أنَّ النّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لخولان: ما أعظم ما رأيتم من فتنةٍ؟ قالوا: يا رسول الله، لقد رأيتنا وقد أَسْنَتْنَا حتىٰ أكلْنَا الرِّمّة، وهلكت ثاغيتنا وراغيتنا وحافرنا، فقلنا: قربوا لِعَمِيانَس قرباناً يشفع لكم، فَتُغَاثُوا. فتَعَاونَّا، فجمعنا ما قدرنا عليه من عين مالنا، ثُمَّ ذهب ذاهبنا فابتاع مئة ثور، ثمَّ حشرها علينا فنحرناها في غداةٍ واحدةٍ، وتركناها للسّباع ـ ونحن أحوج إليها من السِّباع ـ فجاءنا الغيث من ساعتنا... ورأينا الغيث يواري الرّجال، ويقول قائلنا: أنعم علينا عَمِيانَس. وسألوه ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ عمّا قسموا له من مالهم، فذكر لهم أنَّ الله أنزل عليه في ذلك ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136][5].

ومن دلائل تعظيمهم له أنّهم كانوا يسمُّون بعض أبنائهم باسم (عَبْدِ عَمِيانَس)؛ مثل: عبد عَمِيانَس

(1) الأصنام 55، 56.
(2) انظر: موسوعة الميثولوجيا والأديان العربيّة قبل الإسلام 299، والمفصّل 6/ 278.
(3) انظر: معجم البلدان 2/ 151، اللّسان والتّاج (جلس).
(4) انظر: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير 2/ 253 ـ 254، 311 ـ 312، السّيرة النّبويّة لابن كثير 4/ 179، السّيرة الحلبية 2/ 358، خزانة الأدب 7/ 231.
(5) انظر: عيون الأثر في فنون المغازي والسّير 2/ 253 ـ 254، وعنه في المفصّل 6/ 265، وانظر: نثر الدر المكنون من فضائل اليمن الميمون 157، وأديان العرب في الجاهليّة 146.

بن الأزمع بن خولان[1]، ولم يكن الخولانيّون أوّل مَنْ سَمَّوا باسم صنمهم، بل هي أشبه ما تكون بالسُّنّة التي جرىٰ عليها أهل الجاهليّة بأنْ يسمّوا بأسماء أصنامهم، ومنها أيضاً أنّهم كانوا يتحاكمون إليه في مخاصمتهم؛ لأنّه العادل والحكم الفيصل الذي يحكم بينهم[2].

وجاء عند ياقوتِ الحَمَويّ والزَّبيديّ (عُمّا): «اسم صنم لخولان باليمن، فيه نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ [الأنعام: 136]»[3]. وأغلب الظّن أنّه محرَّفٌ عن عَمِيانَس.

أمّا يعوق فكان من معبودات همدان وخولان، وهو من أصنام نوح التي قال الله تعالىٰ عنها علىٰ لسان نبيّه نوح: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا، وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 21ـ23].

وقد جعله عمرو بن لُحَيٍّ إلىٰ مالك بن مَرْثَد بن جُشَم بن حاشد بن جُشَم بن حُبْرَان بن نوف بن همدان[4]، الذي نصبه في أرض خَيْوَان، وهي من صنعاء علىٰ ليلتين مما يلي مكّة[5]، ويجعل ابن حزم (يعوق) لبني قابض الحاشديّين القاطنين في قرية خَيْوَان[6]، ولا خلاف في هذا، في حين يضع ابن حبيب وياقوت الحموي (يعوق) في قبيلة أَرْحَب الهَمْدَانيّة، ويشركا في عبادته قبيلة خولان، غير أنّ ياقوتاً زاد في الأمر وجعل يعوق في آخر الأمر في خَيْوَان عندما قال: «وأخذها عمرو بن لُحَيٍّ من ساحل جُدَّة، وأعطاها لمن أجابه إلىٰ عبادتها، فأجابته إلىٰ عبادتها همدان، فدفع إلىٰ مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن حُبْرَان... فكان بقرية يقال لها: خَيْوَان، تعبده همدان ومن والاها من أرض اليمن»[7]. ولطالما اتفقت المصادر علىٰ أنّ يعوقَ كان لقبيلة همدان ومن والاها من أرض اليمن، وخولان قد جاورت همدان من غربيّها وخالطتها في أحايين مختلفة، فتكون خولان قد عبدت يعوق وعظّمَتْهُ.

---

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 118، المطبوع 1/ 454».

(2) انظر: عيون الأثر في فنون المغازي والسّير 2/ 254.

(3) معجم البلدان 4/ 149، التّاج (عَمَمَ).

(4) انظر: الأصنام: 57، الاشتقاق 423، الإكليل 10/ 66، معجم البلدان 5/ 438، المفصّل 6/ 262، أديان العرب في الجاهليّة 154، موسوعة الميثولوجيا والأديان قبل الإسلام 415.

(5) انظر: الأصنام 10، معجم البلدان 5/ 438، السّيرة النّبويّة 1/ 78، الرّوض الأنف 1/ 103، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام لسميح دغيم 118.

(6) انظر: جمهرة أنساب العرب 394.

(7) المحبر 317، معجم البلدان 5/ 438.

أمّا ابن دريد فيجعل يعوق في قبيلة خَيْوَان الهمدانيّة[1]، ويذكر ابن منظور والزَّبيديُّ أنّ يعوق كان لكنانة نقلاً عن الزَّجّاج[2]، وليس فيما وُقِفتُ عليه من المظانّ ما يؤيّد ما ذهب إليه ابن منظور والزَّبيديُّ من أن يكون يعوق قد عبدته كنانة وكان في أرضها. والرّاجح أنَّ كنانةَ عَظَّمت يعوق وعبدته مثلما عَظَّمَتْ سائرَ أصنام العرب، التي كانت معظّمةً عند القبائل جميعها، وليس ثمّةَ ملامةٌ في القول: إنَّ ابنَ منظورٍ والزَّبيديَّ ليس في قولهما كثيرُ صحّةٍ؛ لأنّهما من صُنَّاع المعجمات، وهما إنّما يسعيان في صنيعهما إلىٰ تطلاب المادّة اللّغويّة، ولا سيّما أنّهما ناقلان عن الزَّجّاج، وهو ممّن ليس له باعٌ في حديث الأصنام ومعبودات العرب في الجاهليّة، وإنما هي طلبة ابن الكلبيّ المتقدّم وابن حبيب في مؤلّفاتهما، هذا علاوة علىٰ كتب السِّيرة.

وكان يعوق علىٰ صورة فرس[3]، ويضيف ابن الكلبيّ إلى ما سلف عدم سماعه أنَّ أحداً من همدان قد سُمِّيَ به، ولا غيرها من العرب من مثل خولان التي عبدته وعظّمته. ولم يسمع لها ولا لغيرها فيه شعراً، وهو في هذا يذهب مذهب الظَّنِّ؛ لأنّ الهمدانيّين كانوا علىٰ مقربة من صنعاء، فاختلطوا بحمير، ودانوا معهم باليهوديّة أيّام تهَوُّدِ ذي نواس، فتهوَّدوا معه[4].

ومن هنا تتّضح أهمية يعوق مقارنة ببعض أصنام العرب التي عُبِدَت عبادة لم يُعبدها صنمٌ قط؛ مثل اللات[5] والعزىٰ[6] ومناة[7] ووَدّ[8]، وهي التي كانت ذائعة الصّيت في جزيرة العرب، ومن أقدم الأصنام وأرفعها مكانة، وعليها كان معوَّل العرب في النّوائب والنّازلات.

أمّا تلبيات أهل الجاهليّة فوقف عندها محمّد بن المستنير، وحذا حذوه واقتفىٰ أثره ابن حبيب، في

---

(1) انظر: الاشتقاق 423، ولم يجعلِ ابن دريد يعوق في خيوان، ولا في بني قابض الحاشديّين، وإنّما جعله في بني أرْحَب كما ادَّعىٰ د. حسن عيسىٰ أبو ياسين، وهذا كلام لا صحّة له؛ إذ إنَّ عبارة ابن دريد التي دونتُ في المتن واضحةٌ في الاشتقاق، ولا أدري من أين أتى د. حسن بجعل «يعوق» في قبيلة أرحب، وزاد الأمرَ بليةً حين قال عن ابن دريد: «وأشرك في عبادته معها قبيلة خولان، وأحسب أنّه أراد خيوان»، وهو كلام ياقوت الحموي فقط، ولم أقع عليه عند ابن دريد. انظر: شعر همدان وأخبارها 42.

(2) اللِّسان والتّاج (عوق)، وعنهما في المفصّل 6/ 263.

(3) انظر: الكشاف 4/ 607، تفسير أبي السّعود 9/ 40، البحر المحيط 8/ 342، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام 118.

(4) انظر: الأصنام 10.

(5) انظر: الأصنام 16، المفصّل 6/ 227.

(6) انظر: الأصنام 17، المفصّل 6/ 235.

(7) انظر: الأصنام 13، المفصّل 6/ 246.

(8) انظر: الأصنام 10، المفصّل 6/ 255.

أثناء حديثه عنِ السّنن التي كانت سائدة في الجاهليّة لدىٰ كل قبيلةٍ، حينما تقف في حجّها للبيت الحرام عند صنمها مُهَانةً صاغرة، تردّد تلبيتها[1]، وقد أبقىٰ الإسلام علىٰ عددٍ من تلك التلبيات التي خَلَتْ ممّا فيه إشراك بالله أو كفرٌ به، وأسقط ما فيه شرك من مثل تلبية قريش - وكان نسكهم لإساف - التي تقول:

لبّيك اللّهم لبّيك | لبّيك لا شريك لك
إلا شريك هو لك | تَمْلِكُه وما ملك[2]

وكانت تلبية مَنْ نَسَكَ ليعوق:

لبّيك، اللهمّ لبّيك

لبّيك بَغِّض إلينا الشّرّ | وحبِّب إلينا الخير
ولا تبطرنا فنأشر | ولا تفدحنا بعثار[3]

وقد جرت عادة العرب علىٰ تقديس كلِّ الأصنام؛ لأنّها أربابٌ تُعْبَدُ، وتقرّب أصحابها إلىٰ الله زُلْفَىٰ، بصرف النّظر عن فكرة أنّه كان «لكلِّ قبيلة... صنمٌ خاصّ تعبده وتنسكُ له، وهي في الوقت نفسه تعظّم سائر أصنام العرب؛ لأنّها آلهةٌ تقرّب إلىٰ الله زلفىٰ في نظرهم، ويؤكد ذلك ما رُوي من أنّ جعفر بن أبي خَلّاسٍ الكلبيّ الشّاعر مَرَّ بالسُّعَيْرِ - صَنَمِ عَنَزَة - وهو علىٰ جَمَلٍ له، فنفر من دِمَاءِ العَتائرِ، فأراد جعفر هدمَهُ، فَقيل له: ربٌّ! فتركهُ»[4]، وإلىٰ مثل هذا أشار ابن حبيب في قوله: «وكانتِ العرب تُعَظِّمُ هذه المُجْمَعَ عليها التي يجتمع إليها كلّ سنة مرّةً»[5]؛ أراد الأصنام التي وقف علىٰ ذكرها، وتلبية الحجيج لها.

فكلُّ هذا الذي سبق فيه ما يَدُلُّ علىٰ أنّ بني خولان كانوا يُعَظِّمون الأصنام كغيرهم من العرب، ولا سيّما الأصنام التي خُصَّت بها قضاعة؛ منها:

الأُقَيْصِرُ: وكان لقضاعة، ولَخْم، وجُذَام، وأهل الشَّام ومنها بعض خولان، وكان في مشارف

---

(1) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهليّة 39، المحبر 311، الأصنام: 7، المفصّل 6/ 377، تاريخ اليعقوبيّ 1/ 255.
(2) المحبرّ: 311.
(3) المحبر 314، والوثنيّة في الأدب الجاهلّي 327.
(4) ديوان بني كلب (الدّراسة) 180.
(5) المحبرّ: 318.

الشّام، وكانوا يحجّون إليه، ويحلقون رؤوسهم، ويتقرّبون إليه بالذّبائح والهدايا، كما كانوا يقدّمون إليه دقيق القمح، فكان كلّما حلق رجل رأسه خلط الشّعر بحفنة من الدّقيق، وجعلوا الدّقيق صدقة، وكان فقراء العرب والمحتاجون منهم يرتادون الأُقَيْصِرَ، فيأخذون ذلك الخليط الذي يُسمّىٰ (سويق القمل)، فيرمون الشّعر، وينتفعون بالدّقيق، وكان عُبَّادُهُ يكسونه الحُلَلَ القشيبة التي تنمّ على تأنّق منظرهِ وقداستهِ وطهارته، شأنه في ذلك شأن كثيرٍ من أصنام العرب[1].

وذكر ابن الكلبيّ (بَاجُراً)؛ وهو صنم كان للأزد في الجاهليّة ومَنْ جاورهم من طيّئٍ وقضاعة[2]، وكانت خولان قد جاورت بعض الأزد الذين فزعوا من ديارهم بعد سيل العَرِم، وافترشوا سراة اليمن أرضاً لهم[3].

ومن الأصنام التي عبدتها قضاعة (عَبْعَبُ)؛ وهو صَنمٌ كان لقضاعة ومن يقاربهم[4]، ويمكن أن يكون هذا الصّنم علىٰ شكل تيس أو على شكل رجل طويل؛ لأنَّ العبعب في اللّغة هو التّيس من الظّباء أو الرَّجل الطَّوِيلُ[5].

ومنها أيضاً السَّعِيْدة؛ وهي صنمٌ أنثىٰ كما يبدو من اسمه، ويذكر ابن حبيب أنّه كان لسعد هُذَيم وسائر قضاعة إلا بني وبرة[6]. وهذا ما دحضه د. محمّد شفيق البيطار وأثبت خلافه بأدلّة دامغة[7]، وما دام أنّ خولان من قضاعة فتكون قد عبدت السَّعيدة وقدّست لها. وكانت تلبية مَن نَسَكَ للسَّعيدة قولهم:

لبّيك اللهمّ لبّيك

---

(1) انظر: الأصنام 48، القاموس واللّسان والتَّاج (قصر)، خزانة الأدب 7/ 230، موسوعة الميثولوجيا والأديان العربيّة قبل الإسلام 38، الوثنيّة في الأدب الجاهليّ 49.

(2) انظر: الأصنام 63، القاموس واللّسان والتّاج (بجر) وفيه بفتح الجيم وكسرها. وانظر: موسوعة الميثولوجيا والأديان 47، خزانة الأدب 7/ 232، الوثنيّة في الأدب الجاهليّ 61.

(3) انظر: معجم البلدان 3/ 369.

(4) انظر: الأصنام 110، معجم البلدان 4/ 79، التّكملة والقاموس واللّسان والتّاج (عبب)، وقد يأتي بالغين (غبغب)، موسوعة الميثولوجيا والأديان 258، الوثنيّة في الأدب الجاهليّ 67.

(5) انظر: التَّاج (عَبَبَ).

(6) انظر: المحبر 316، الاشتقاق: 56، التّاج (سعد) وفيه: «السَّعيدة بيت كانت ربيعة من العرب تُحجُّهُ بأُحُدٍ في الجاهليّة، وقال ابن الكلبيّ: علىٰ شاطئ الفرات. فقوله بأُحُدٍ خطأٌ».

(7) انظر: ديوان بني كلب (الدّراسة) 178.

لبّيك، لم نأتِك للمباحة ولا طلباً للرَّقاحة[1]

ولكن جئناك للنَّصاحة[2]

وذهب ابن حبيب إلىٰ أنّ سائر قضاعة كانت تعبد مناة وتعظِّمُهُ، وخولان قبيلة من قبائل قضاعة.

وهو من أقدم أصنام العرب، بل ثمّة من يرىٰ أنّه أقدمُها، وكان منصوباً علىٰ ساحل البحر من ناحية المُشَلَّل بقُدَيْد بين مكّة والمدينة، وكانت جميع العرب تعظّمه، وتذبح له، وكانتِ الأوسُ والخزرج ومن ينزل المدينة ومكّة يعظّمونه ويُهْدُون له، كما كانتِ الأوس والخزرج ومن يهتدي بهديهم من العرب - مثل هُذَيل وخُزَاعة - يقفون مع النّاس المواقف كلّها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة، فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا، ولا يرون لحجِّهم تماماً إلّا بذلك[3].

وكانت تلبية من نسك لمناة:

لبّيك اللّهم لبّيك

لبّيك لولا أنّ بكراً دونك يشكرك النّاس ويهجرونك[4]

ولم أقف فيما بين يديّ من المصادر علىٰ تلبيةٍ تُذْكَرُ لِعَمِيانَس عند زيارتهم له، في حين روىٰ محمّد بن المستنير (206هـ) عدداً من تلبيات بعض قبائل العرب في الجاهليّة وكانت مختلفة؛ منها تلبية قضاعة التي تنضوي تحت لوائها قبيلة خولان:

لَبّيك نُزجي كُلَّ حَرْسٍ مَلْهُوذْ

ولاحِبٍ مثل عجاجات العُوذْ

تؤمُّ بَيْتَ المُسْتَجِيْبِ المَعْبُوذْ

إنَّ الإلَـهَ لَلْحَميْدُ المَحْمُوذْ

---

(1) المباحة: المنفعة. الرّقاحة: الكسب والتّجارة.

(2) انظر: المحبرّ: 313، الوثنيّة في الأدب الجاهلي 326.

(3) انظر: الأصنام 13 - 14، المحبر 313 وفيه يجعل (مناة) لهُذَيْل وخُزَاعة، ثمّ يقول: «وكانت قريش وجميع العرب تُعَظِّمُهُ»، السّيرة النّبويّة 1/ 82، الاشتقاق 217، تاريخ اليعقوبيّ 1/ 255، وعنهم في المفصّل 6/ 246 وما بعدها.

(4) انظر: المحبر: 313، الأزمنة وتلبية الجاهليّة 40، باختلاف بسيط بين رواية المحبر وكتاب الأزمنة، وروى المعريّ تلبيةً قريبةً من هذه التلبية وقال: إنّها تلبية (تميم)؛ رسالة الغفران 536، المفصّل 6/ 378، الوثنيّة في الأدب الجاهليّ 324.

نُعْطِي إلهَ البَيْتِ مِنَّا الـمَجْهُودْ[1]

ووقف اليعقوبيُّ (292هـ) عند فكرة التّلبية؛ فقال: «كانتِ العرب إذا أرادت حجَّ البيت الحرام، وقفت كلّ قبيلة عند صنمها، وصلّوا عنده، ثُمّ تلبّوا حتىٰ يقدموا مكّة، فكانت تلبياتهم مختلفة، وكانت تلبية قضاعة:

لــبّـيــك عـــن قــضـاعــهْ

لِـــرَبِّـــهـــا دفَّـــاعـــهْ

ســمــعــاً لــه وطـــاعـــهْ»[2]

وتباين تلبيات القبائل واختلافها يدلّ علىٰ خصوصية كلِّ قبيلة في أثناء أدائها لِشَعِيْرَتها في حجِّها، ويرتبط هذا الأمر بمعنىٰ كُلِّ تلبيةٍ، ومدىٰ تعظيم القوم لصنمهم، وارتباطهم بتقديسه وعظم ربوبيته وعلوِّ قدره.

وكانتِ العرب تنقسم ثلاثة أقسام من حيث تشدُّدُهُمْ في ممارسة شعائر ديانتهم ومعتقداتهم كما أخبرنا ابن حبيب؛ وهي الحُمْسُ[3]، والحِلَّة[4]، والطُّلْسُ[5]؛ فأمّا من الحِلَّة فكانت قضاعة كُلُّها ما خلا عِلَافاً وجَنَاباً، كانا مع الحُمْس إلىٰ جانب قريش وخزاعة ومن نزل مكَّةَ من قبائل العرب المتشدّدين في الدّين[6]، ويقال لباقي العرب: (الحِلَّة) ما خلا سائر أهل اليمن، وأهل حضرموت، وعك، وعجيب، وإياد بن نزار، فهم الطُّلْسُ الذين يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحِلَّة، ويصنعون في ثيابهم ما يصنع

(1) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهليّة: 42.

(2) تاريخ اليعقوبيّ 1/ 255ـ256، وعنه في الإنشاد والغناء في الشعر الجاهليّ 102.

(3) الحُمْس: جمع أَحْمَس، ولقبوا بالحمس لتشددهم في الدّين، أو الأمر والإقبال عليه، وقد جعلوا له قواعدَ وأصولاً وأعمالاً يأتونها، وأعمالاً لا يَقْرَبُونها؛ فقد تركوا الوقوف في الحِلّ كما يقفون في الحرم؛ تعظيماً منهم لأنفسهم؛ لأنّهم أهل الحرم، مع علمهم بأنّ الوقوف في عرفة والإفاضة منها هي أهمّ منسك من مناسك الحجّ كما أقامه إبراهيم عليه السّلام... إلخ. انظر المنمّق 127، السّيرة النّبويّة 1/ 162، الرّوض الأنف 1/ 229، جمهرة أنساب العرب 486، الاشتقاق 250، أخبار مكّة للأزرقيّ 1/ 124، العمدة 2/ 911، الوثنيّة في الأدب الجاهليّ 337. وفي المصادر السالفة فضل تفصيل.

(4) الحلّة: هؤلاء يقفون في المشاعر كلّها، ولكن لا يجوز لهم الحجّ في ملابسهم، فعليهم أن يخلعوها ويرتدوا بدلًا منها ملابس يستعيرونها من الحُمْس. المحبر 179، الرّوض الأنف 1/ 231، سيرة ابن إسحاق 75، تاريخ اليعقوبيّ 1/ 256ـ257، الوثنيّة في الأدب الجاهليّ 337.

(5) الطُّلْسُ: وهمُ القادمون من اليمن بملابسهم يعلوها الغبار، لا يخلعونها حتىٰ يقضوا مناسك حجّهم كُلَّها. المحبر 179، الرّوض الأنف 1/ 231، المفصّل 6/ 373، موسوعة الميثولوجيا والأديان قبل الإسلام 224.

(6) المحبر 178ـ179، المفصّل 6/ 357ـ374.

الحُمْس[1].

وعن الحِلَّة قال ابن حبيب: «يحرّمون الصّيد في النّسك، ولا يحرّمونه في غير الحرم، ويتواصلون في النّسك، ويمنح الغنيّ ماله أو أكثره في نسكه، فيسلأ فقراؤهم السّمن، ويجتزّون من الأصواف والأوبار والأشعار ما يكتنفون به، ولا يلبسون إلا ثيابهمُ التي نسكوا فيها [علىٰ اختلاف في هذا]، ولا يلبسون في نسكهمُ الجدد، ولا يدخلون من باب دار ولا باب بيتٍ، ولا يُؤْويهم ظلّ ما داموا محرمين، وكانوا يدهنون ويأكلون اللَّحم، وأخصب ما يكونون أيام نسكهم، فإذا دخلوا مكّة بعد فراغهم تصدّقوا بكلِّ حذاء وكلِّ ثوبٍ لهم، ثُمَّ استكروا من ثياب الحُمْس؛ تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاءً يباشرونها بأقدامهم، فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عُرَاةً، وكان لكلِّ رجلٍ من الحِلَّة حِرْمِيٌّ من الحُمْس يأخذ ثيابه، فمن لم يجد ثوباً طاف عُرياناً، وإنّما كانتِ الحِلّة تستكري الثّياب للطّواف في رجوعهم إلىٰ البيت؛ لأنّهم كانوا إذا خرجوا حجّاجاً لم يستحلّوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتىٰ يأتوا منازلهم إلاَّ اللحم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حِرْمِيَّ عِيَاضِ بن حِمَارٍ المُجَاشِعيّ، كان إذا قدم مكَّة طاف في ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم»[2]. وكانت تلك الملابس التي يلقيها المحرمون تبقىٰ في مكانها، لا يمسُّها أحد ولا يحرّكها حتىٰ تبلىٰ من وطء الأقدام، ومن حرارة الشّمس وذرِّ الرّياح، ويقال لهذه الثّياب التي تُطْرَحُ بعد الطّواف: (اللُّقِيّ)[3].

واتّكاءً علىٰ ما سلف، فإنَّ قضاعة من الحِلَّة إلّا بني جَنَاب وبني عِلاف، وخولان قبيلة كبيرة من قضاعة، فلا بدَّ لها أن تكون قدِ اعتنقت ما اعتنقته قبائل قضاعة من عبادة للأصنام وشعائر مارستها في أثناء حجّها البيتَ الحرام، ولاذت بما سنَّته الحلّة لنفسها من مناسك وطقوس دينيّة من الذي قدمناه. وقد غفلت المصنَّفات عن ذكرِ شعيرةٍ خُصَّتْ بها خولان دون قبائل قضاعة، أو منسك تفردت به دون غيرها؛ وذلك لخمولها في قبائل العرب، وعدم اشتهارها لدىٰ علماء الشّام والعراق الذين عُنوا بتدوين أخبار القبائل التي هي أكثر شهرة؛ من العدنانيّة أو اليمانيّة الذّائعة الصّيت، التي كان لها أثرٌ حاضرٌ علىٰ عرصات الأحداث السّياسيّة في صدر الإسلام.

---

(1) المحبر 179.

(2) المحبر 180 ـ 181، تاريخ اليعقوبيّ 1/ 257، المفصّل 6/ 357 ـ 361، موسوعة الميثولوجيا والأديان: 114. وانظر: شعراء بني أسد في الجاهليّة لأحمد بن موسىٰ الجاسم: 60.

(3) انظر: المفصّل 6/ 360.

2 ـ النَّصْرَانِيَّةُ فِيْهِم:

كانتِ النّصرانيّة في اليمن منتشرةً انتشاراً واسعاً، وذلك من نواحٍ مختلفة[1]، ويرجِّحُ د. شوقي ضيف أنّ بداية القرن الرّابع الميلاديّ كانت أوّل تباشيرها التي وجدت علىٰ شكل بعثات دينيّة كان القياصرة يشجّعونها[2]، وكان لانتشارها طرقٌ شتّىٰ مختلفة عن دخول اليهوديّة التي دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتّجارة. وفي ذلك يقول د. جواد علي: «فإنّ دخول النّصرانيّة إليها كان بالتّبشير، وبدخول بعض النّساك والرّهبان إليها؛ للعيش فيها بعيدين عن ملذّات الدّنيا، وبالتّجارة بالرّقيق، ولا سيّما الرّقيق الأبيض المستورد من أقطارٍ كانت ذات ثقافة وحضارة...؛ ولأنّ النّصرانيّة انتشرت في إمبراطوريّة الروم والسّاسانيّين بالتّدريج، ثُمَّ صارت ديانة رسميّة للقياصرة والرّوم والشّعوب التي خضعت لهم، فلم تظلّ النّصرانيّة أقليّة هناك، لتضطر إلىٰ الهجرة جماعة وكتلة إلىٰ بلد غريب»[3].

وليس ثمّة ما يدلّ علىٰ دخول الخولانيّين صراحة في النّصرانيّة غير ما نجده من نصوص لبعض علمائنا من أنَّ النّصرانيّة كانت في بعض قضاعة ـ وخولان من قضاعة ـ مثل ابن قتيبة الذي عقد فصلاً لأديان العرب في الجاهليّة؛ فقال: «كانتِ النّصرانيّة في ربيعة، وغَسَّان، وبعض قضاعة...»[4]، وقد حذا حذوه أبو حيان التّوحيديّ[5]، وكذلك تبعه الأبشيهيّ[6].

وتحدّث اليعقوبيّ عمّن تنصّر من أحياء العرب، فذكر عدداً من قبائل قضاعة؛ مثل: بهراء التي نزلت جنوب غرب الفرات في بلاد الشّام، وسَليح التي أقامت قريباً من ساحل بحر الرّوم، إلىٰ جانب قبائل عربيّة أخرىٰ؛ مثل: تنوخ، وغسّان، ولخم[7]، حيث النّصرانيّة المنتشـرة، ولم يتعرّض للنّصرانيّة المنتشرة في قبائل قضاعة المقيمة في الصّقع اليمانيّ، وإذا كانتِ اليمن قد رزحت تحت الاحتلال الحبشيّ في زمن الملك (عيزانا) Ezana، بعد وفاة (شمر يهرعش)، وذلك كان نحو 335م، فإنّ النّصرانيّة

---

(1) انظر: المفصّل 6/ 611 وما بعدها، ومن تلك النواحي: طريق الحجاز المؤدية إلى اليمن، وطريق الساحل، حيث المبشرون ينتقلون مع البحّارة والتجّار لنشر النصرانية، ويمكن أن تكون النصرانية جاءت من العراق كما تذكر بعض الموارد النصرانية السريانية.

(2) انظر: العصر الجاهليّ 99.

(3) المفصّل 6/ 587.

(4) المعارف: 621.

(5) انظر: البصائر والذخائر 5/ 44.

(6) انظر: المستطرف 2/ 380.

(7) انظر: تاريخ اليعقوبيّ 1/ 257.

صارتِ الدّيانة الرسميّة لعرب اليمن؛ لتبعيّتهم للحُبْش[1] الذين ارتبطوا بحلفٍ مع قبيلة السّواهر والخولانيّين؛ لغزو أصقاع بطون حاشد بن همدان، بحسب ما وُقِفَ عليه في النقوش الـمُسْنَديَّةِ[2] التي تُمِيطُ اللِّثَامَ عن نصرانيّة اليمن؛ كالذي نجده في نقش أبرهة المستهلّ بـ «بخيل وردا ورحمت رحمنن ومسحو ورح قدس سطروذن مزندن أن أبره عزلي ملكن أجعزين رمحز زبيمن ملك سبأ وذريدن وحضرموت ويمنت وأعربهمو طودم وتهمت»؛ أي: «بحول وقوة ورحمة الرّحمن ومسيحه وروح القدس سطّروا هذا المُسند: إنّ أبرهة نائب ملك الجعزيّين رمحز زبيمان ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في النّجاد وفي تهامة»[3].

واتّكاءً علىٰ ما سلف يمكن القول:

ـ كانتِ النّصرانيّة منتشرة في اليمن انتشاراً كبيراً، وهذا ما جعل خولان تتأثّر بها وتأخذ بطرف منها؛ أسوةً بالأحباش الذي احتلفت معهم بحلفٍ متينٍ، ولا سيّما أنّهم ظلّوا في اليمن ما يقرب من خمسة عقودٍ (525م ـ 570م)، وهو ما يُطلق عليه الاحتلال الثاني، فكانت العرب حينئذٍ في حيرة وشكٍّ تجاه فكرة الخلق، وتعطُّشٍ إلى من تتعلق به أفئدتها؛ فمالت إلى النّصرانيّة.

أمّا الأب لويس شيخو ففي حديثه عن النّصرانيّة من التَّحمُّل ما يثير العَجَبَ العُجَاب، ويدعو القارئ للوقوف عنده غير مرّةٍ؛ إذ سعىٰ من ورائه لِتَنْصِيرِ كلّ القبائل العربيّة التي عرض لها في مصنفه (النّصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة)؛ من ذلك أنّه عقد فصلاً وَسَمَهُ بـأعلام النّصرانيّة المحضة، وجعل فيه من الأسماء سِمْعَان، وقال: «من المحتمل أن يكون... هذا الاسم نصرانيًّا محضاً، وذلك إمّا إشارة إلىٰ القدّيس سمعان بطرس ـ ويقال: شمعون الصّفا هامة الرّسل ـ أو إلىٰ سمعان العمودي الشّهير بين العرب»[4]. وكثيرٌ من النّاس ممن سُمُّوا بهذا الاسم من غير النّصارىٰ وغيره من الأسماء؛ مثل: عدي، وعيسىٰ، ومريم، الذين جعلهم الأب شيخو في النّصرانيّة بالكليّة. وفي مبحث آخر عقده لأعلام النّصرانيّة الوصفيّة والمعدول بها والمقرَّبة ـ بحسب زعمه ـ جعل فيه بِشْراً وبشيراً نصرانِيَّيْنِ؛ فقال: «كلا الاسمين كان شائعاً في الجاهليّة، وكثر في القبائل التي مَرَّ بيان نصرانيّتها»[5]، وما أكثرها لديه! وفي كلامه إخلالٌ عجيبٌ يبعده عن الصّواب والحقيقة كثيراً، كما ذهب في الأسماء: ثابت، وجابر،

---

(1) انظر: المفصّل 3/ 455ـ 456.

(2) انظر: نقوش مسنديّة 103، 494.

(3) المفصّل 3/ 484.

(4) النّصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة 241.

(5) النّصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة 246.

والحارث، وخالد، وحكيم، ومالك، ومنصور، المذهب ذاته في التّدليل علىٰ نصرانيّة أصحابها، أو أنّها أسماء احتكرتها النّصارىٰ لأبنائهم، فرغبت فيها دون غيرها، وهذا ممّا لا يقبله العقل ويقنع به، بل هو الخطأ أو الشّطط بعينه.

علىٰ أنّه ليس في كتاب الأب شيخو السّالف الذِّكْرِ ذكر لخولان بعينها على أنّها بطنٌ من قضاعة، وربّما كان هذا من حسن طالع القوم؛ لأنّه لو ذكرهم بشيء يسيرٍ لأخرجهم عن ملّتهم التي كانوا عليها، مثلما دلّل علىٰ الأسماء السّالفة بأنّ أصحابها نصارىٰ، وما أكثرها في قبيلة خولان! ولا سيّما الشّعراء منهم.

3 ـ إِسْلَامُهُم:

لـمّا بلغ محمد صلى الله عليه وسلم من العمر أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين، وللنّاس هادياً وبشيراً، يخرجهم من الظّلمات إلىٰ النّور، ويهديهم سبل الرّشاد، فبدأ بدعوته في مكّة سرًّا ثلاث سنوات، حتىٰ جاءه أن يَصدع بما يؤمر، ويشقّ جموع الخلق بالتّوحيد في السّنة الرّابعة من ولادة دعوته التي لم يستجب لها في أوّل الأمر إلّا نفرٌ قليلٌ من الفقراء والـمُسْتضعَفِين؛ ليدخل فيها فيما بعد كثيرٌ من الأثرياء والمترفين؛ من مثل طلحة بن عبيد الله والزّبير بن العوّام والأرقم بن أبي الأرقم وغيرهم، وراح النّبيّ صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه في المواسم ـ إذا كانت ـ علىٰ القبائل العربيّة يدعوهم إلىٰ عبادة الواحد الدّيّان، واتّباع رسوله الذي هاجر فيما بعد إلىٰ المدينة المنوّرة؛ ليبدأ عهدٌ جديدٌ من دعوته الشّريفة، وجهاده ضد الشّرّ والكفر الذي ألقىٰ بحمله علىٰ جزيرة العرب، إلا مَنْ كان علىٰ دين إبراهيمَ ـ عليه السّلام ـ أو على إحدى الديانتين السّماويتين الأخريين[1].

بعث صلى الله عليه وسلم غيرَ واحدٍ من أصحابه بكتب إلىٰ ملوك العرب والعجم يدعوهم إلىٰ الإسلام؛ فكتب إلىٰ كسرىٰ، وقيصر، وأسقف الرّوم، وإلىٰ المقوقس عظيم القبط، وإلىٰ ملك الحبشة، وإلىٰ جيفر وعياذ ملكي عُمان، وإلىٰ الحارث بن عبد كلال الحميريّ ملك اليمن، وإلىٰ هَوْذَة الحنفيّ ملك اليمامة[2]، ومنها ما كتبه إلىٰ معدي كرب بن أبرهة الحميريّ: «وأنّ له ما أسلم عليه من أرض خولان»[3]. وكان من أبرز رسل النّبيّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ اليمن: مالك بن مرارة الرُّهَاويّ؛

---

(1) انظر: سيرة ابن إسحاق 215، السّيرة النّبويّة 2/ 53.

(2) انظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام 4/ 197 ـ 198، تاريخ ابن الورديّ 1/ 196 ـ 197، تاريخ الخميس 2/ 31 ـ 39، مجموعة الوثائق السياسيّة في العهد النّبويّ والخلافة الرّاشدة 23 ـ 41، 53 ـ 65، 105 ـ 138 وغيرها يطول ذكره.

(3) مجموعة الوثائق السياسية 119.

والمهاجر بن أبي أميّة ابن المغيرة المخزوميّ، وعياش بن أبي ربيعة المخزوميّ[1]، ومعاذ بن جبل ـ الذي تعرض لمحاولة اغتيال في صقع خولان (صعدة) علىٰ يد الأصبغ بن حجر بن سعدٍ الخولانيّ[2] ـ وأبان بن سعيد بن العاص بن أميّة، وأخوه خالد بن سعيد الذي قصد خولان، فأبت أن تُسْلم، فأفرىٰ فيهمُ السّيف، وقاتلهم قتالاً شديداً، وسبىٰ منهم كثيراً وشرّدهم[3].

والرّاجح لديّ أنّ ذلك كان بعد السّنة السّادسة من الهجرة، التي عُقِدَ في نهايتها صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش التي خرجت بالعُوذِ الـمَطَافِيْلِ[4] لاستقبال النّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنّه بعد أنْ تَمَّ الصّلح وأُشْهِد عليه نفرٌ من وجهاء العرب والمسلمين، كانتِ العرب تَرَبَّص بالإسلام أمر هذا الحيّ من قريش، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أنّ قريشاً كانوا إمام النّاس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام، ورأس العرب، وهم الذين نصبوا لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه، فلمّا فُتحت مكّة ودانت قريش له عرفتِ العربُ أنّه لا طاقة لهم، ولا حمل بحرب رسول الله عليه السّلام، فدخلوا في دين الله أفواجاً يضربون إليه من كل حَدَبٍ وصوب، في السّنة التّاسعة من الهجرة التي سُمِّيَتْ بعام الوفود.

واتكاءً علىٰ هذا يمكن القول: إنّ تأخّر دخول قريش عامّةً في الإسلام ـ وهي رأس العرب ومحطّ أنظارهم ـ أخَّر دخول بقيّة القبائل واعتناقها الدّين الحنيف.

ويجدر بنا ههنا أن نشير إلىٰ أمر مهمّ ـ قبل الولوج إلىٰ إسلام خولان ـ وهو أنّ بناء معاذ بن جبل مسجداً في مدينة صعدة ـ صقع خولان ـ في أثناء رحلته إلىٰ اليمن لدعوة أهلها للإسلام، لا يعني إسلام خولان بكليّتها، وأنّها جزءٌ من الدولة الإسلاميّة؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بعث خالد بن سعيد بن العاص مع فروة بن مُسَيْكٍ المراديّ إلىٰ مذحج، كلّفه بأن يدعو خولان التي أبت، فقاتلهم وسبىٰ منهم[5]، وأرسل السّبيّ إلىٰ المدينة.

ويؤكد ما نذهب إليه ما ألمح إليه الهمدانيّ من أنّ إحدىٰ زوجات النّبيّ صلى الله عليه وسلم نذرت أن تعتق عبداً من أبناء إسماعيل؛ أي: ليس من أبناء قحطان، فجاء سبيٌّ من اليمن من صقع خولان،

---

(1) انظر: السّيرة النّبويّة 4/ 183، اليمن في صدر الإسلام 127 ـ 134.

(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 83، المطبوع 1/ 357»، اليمن في صدر الإسلام 167.

(3) انظر: تاريخ صنعاء: 149.

(4) العوذ المطافيل: الإبل الحديثة النّتاج معها أولادها، وأراد أنهّم خرجوا بقضّهم وقضيضهم.

(5) معجم البلدان 2/ 407.

فأرادت أن تعتق منهم فنهاها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنّهم من أبناء قحطان، فلمّا جاء سبيٌ من أبناء مضر ـ وهم من أبناء إسماعيل ـ أمرها أن تعتق منهم[1]، ويبدو أنّ خالد بن سعيد لم يدخل خولان إلا عَرَضاً؛ لأن مهمّته كانت موجّهة في أُسّها إلىٰ مذحج ودعوتها للإسلام؛ لذا لم يدخل في قتال صريح ومستمرّ مع خولان كلّها؛ لأنّ صنماً من أصنامها بقي حتىٰ شعبان من السّنة العاشرة لم يُهْدَم، حتىٰ هدمه أهله.

فقد روي أنّ وفداً من خولان مكوّناً من عَشَـرَةِ نفرٍ قدموا على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في شهر شعبان من السّنة العاشرة مسلمين، وقالوا: «يا رسول الله، نحن علىٰ مَنْ وراءنا من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، مصدّقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حزون الأرض وسهولها، والمنّة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما ما ذكرتم من سيركم إليّ فإنّ لكم بكل خطوة خطاها بعيرُ أحدكم حسنة، وأمّا قولكم زائرين لك، فإنّه من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة. قالوا: يا رسول الله، هذا السّفر الذي لا توىٰ[2] عليه.
ثمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فعل عَمِيانَس ـ وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه ـ؟ قالوا: بِشَرٍّ، بدَّلنا الله ما جئت به، وقد بقيت منّا بعد بقايا من شيخٍ كبيرٍ عجوزٍ متمسّكون به، ولو قد قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله؛ فقد كنّا منه في غرور وفتنةٍ..... فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ الله ـ عز وجل ـ أنزل عليه في ذلك: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136]....».

وسألوه عن فرائض الدّين فأخبرهم، وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاور، وألّا يظلموا أحداً؛ قال:«فإنّ الظّلم ظلمات يوم القيامة»، ثمَّ ودّعوه بعد أيّام، وأجازهم، ورجعوا إلىٰ قومهم فلم يحلّوا عقدةً حتّىٰ هدموا عَمِيانَس[3]. وبعد أن نزلوا دار رملة بنت الحارث أمر الرسول صلى الله عليه وسلم من يعلمهم القرآن والسّنن، وحينما عزموا علىٰ الرّجوع أكرمهم بالجوائز

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 53، المطبوع 1/ 237»، وعنه في اليمن في صدر الإسلام 214.
(2) توىٰ: ضياع وخسارة، وهو من التّوىٰ: الذي يعني الهلاك.
(3) انظر: زاد المعاد 2/ 385 ـ 386، عيون الأثر 2/ 253 ـ 254، السّيـرة النّبويّة لابن كثير 4/ 179، السّيرة الحلبيّة 2/ 358، الكامل في التّاريخ 2/ 298، البداية والنّهاية 5/ 88، تاريخ ابن خلدون 2/ 478، إمتاع الأسماع 1/ 507، تاريخ الطّبريّ 3/ 140. وفي السّنة نفسها وفد علىٰ رسول الله وفد محارب، وكِندة، والرّهاويّين؛ وهم بطن من مذحج، ووفد صدف، وعبد القيس، وبني حنيفة، وزُبَيْد، وسلامان، ومراد، وقبائل أخرىٰ.

والعطايا، فعادوا وامتثلوا لما عهد به إليهم الرّسول[1].

والجدير بالملاحظة أنّهم قدموا مسلمين، ولم يهدموا صنمهمُ المذكور قبل مقدمهم علىٰ الرّسول صلى الله عليه وسلم، ولعلّ هذا عائدٌ إلىٰ عدم معرفتهم بأنّ بقاءه شركٌ، وما يوضح هذا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر من يعلمهم القرآن والسّنة، وأنّهم حينما قفلوا من عند النّبيّ صلى الله عليه وسلم وهدموا الصنم لم يعارضهم أحدٌ من قومهم، ويزيد الأمر وضوحاً ما جاء في آخر الرّواية من أنّهم حرّموا ما حرّم الله ورسوله، وأحلّوا ما أحلّ لهم، فكأنّهم أسلموا وبقيت أشياء؛ لعدم معرفتهم بها، فلمّا عرفوها أحلّوا ما أحلّ الله، وحرّموا ما حرّم.

وكان في الوفد القادم إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عَبْد رُضَى الخولانيّ، المكنىٰ بأبي مِكْنَف[2]، وهو الذي كتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً إلىٰ معاذ بن جبل حينما أرسله إلىٰ أهل اليمن برفقة أبي موسىٰ الأشعريّ رضي الله عنه، وبعث كل واحدٍ منهما إلىٰ مخلاف، قال: «واليمن مخلافان»، ثم قال: «يسّرا ولا تُعَسِّرا، وَبَشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا»[3]. فانطلق كل واحدٍ منهما إلىٰ عمله[4].

وكان ممن أسلم وحسن إسلامه ذؤيب بن كليب بن ربيعة الخولانيّ، حتّىٰ قيل عنه: أوّل من أسلم من اليمن، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله، وكان الأسود العنسي الكذّاب قد ألقاه في النار لتصديقه النبيَّ صلى الله عليه وسلم فلم تضره النار شيئاً، وهو شبيه بإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام[5]. وسفيان بن وهب الخولانيّ المشهور بأبي أيمن، وفد علىٰ النّبيّ وحضر حجّة الوداع[6]، وثُوَب الخولانيّ الذي صَحِبَ النّبيّ في بعض حياته[7]، وولده عبد الله الذي يعدُّ من خير التّابعين المعروف بأبي مسلم الخولانيّ[8]، وعبد الله بن عمرو الخولانّي الذي صحب النّبيّ وروىٰ حديثه[9]،

---

(1) انظر: طبقات ابن سعد 1/ 324، واليمن في صدر الإسلام 215.

(2) انظر: أسد الغابة 3/ 159، مجموعة الوثائق السّياسيّة في العهد النّبويّ 119 قد جاء «أبو مِكيف» وهو تصحيفٌ قبيحٌ، والصواب «مكنف»، وهو من الأسماء المستعملة في قبائل العرب؛ من مثل «مِكْنَف بن عدي بن حاتم الطائيّ».

(3) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: برقم 3038، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه: برقم 4526.

(4) انظر: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار 2/ 715.

(5) انظر: أسد الغابة 2/ 157.

(6) انظر: أسد الغابة 2/ 342.

(7) انظر: الإصابة في تمييز الصّحابة 1/ 232.

(8) انظر: ترجمته في الدّيوان.

(9) انظر: الإصابة 2/ 1104.

وهو والد عائذ الله المعروف بأبي إدريس الخولانيّ، أحد أهمّ رجالات السّند في الشّام[1]، وزَبِيْد بن عبيد الخولانيّ الذي أدرك النّبيّ صلى الله عليه وسلم وشهد فتح مصر ووقعة صفّين مع معاوية بن أبي سفيان[2]، وهند الخولانيّة - وهي شاميةٌ - زوج بلال بن رباح[3] رضي الله عنه، وعلقمة بن سُمَيّ الخولانيّ[4]، وأبو عِنَبَةَ الخولانيّ الذي صلّى القبلتين كلتيهما مع النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وعاش حتىٰ خلافة عبد الملك بن مروان، وكان قد أسلم علىٰ يد معاذ بن جبل حينما بُعِثَ هادياً لليمن[5]، وعِكْرِمَةُ بن عَبِيْد الخولانيّ الذي عَدَّه ابنُ حجر في الصّحابة[6]، ومنهم عبد الله بن شهاب الخولانيّ الذي أدرك النّبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يره، وروىٰ حديثه عن صحابته رضوان الله عليهم[7].

وكان من خولان رجالاتٌ لهم مِنَ النّباهة والاشتهار ما جعلهم مقدّمين عند أهل العلم لروايتهم لحديث النّبيّ صلى الله عليه وسلم وحفظه؛ منهم: الفضيل بن عِيَاض الخولانيّ، وهو من أفاضل التّابعين، روىٰ حديث النّبيّ صلى الله عليه وسلم عن الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه[8]، وبحر بن نصرٍ الخولانيّ، إمام محدِّثٌ ثقةٌ عند أهل الحديث[9]، وغيرهم يطول ذكرهم.

ومن رجالات القبيلة المشهورين الذين ذاع صيتهم في الآفاق وكانوا ذوي شأنٍ وعلم: الإمامُ المحدِّثُ الثَّبْتُ محمّد بن عبد الله بن عبد الرّحمن بن عثمان بن سعيد بن غلبون الخولانيّ القرطبيّ، كان ممّن عُنوا بجمع الحديث النّبويّ وحفظه[10]، وأحمد بن محمّد بن عبد الله بن عبد الرّحمن بن غلبون الخولانيّ مُسْنِد الأندلس، قال عنه ابن بشكوال: «كان شيخاً فاضلاً عفيفاً منقبضاً، من بيت علمٍ ودينٍ وفضلٍ وورعٍ وتقًى»[11].

---

(1) انظر: جوامع السّيرة 331، عيون الأثر 1/ 157، السّيرة النّبويّة لابن كثير 2/ 180، شذرات الذّهب 1/ 327، الكنىٰ والأسماء 1/ 317، 319.

(2) انظر: الإصابة 1/ 660.

(3) انظر: الإصابة 4/ 2660، تاريخ داريّا 58، أسد الغابة 5/ 415.

(4) انظر: الإصابة 2/ 1288، أسد الغابة 3/ 279.

(5) انظر: الإصابة 4/ 2312، تاريخ أبي زرعة 1/ 351 ـ 352، الكنىٰ والأسماء 1/ 136.

(6) انظر: الإصابة 2/ 1281.

(7) انظر: الإصابة 2/ 1448.

(8) انظر: سير أعلام النّبلاء 8/ 449.

(9) انظر: سير أعلام النّبلاء 12/ 502، الوافي بالوفيات 7/ 56.

(10) انظر: سير أعلام النّبلاء 18/ 22.

(11) كتاب الصّلة 1/ 73 (التّرجمة 160)، سير أعلام النّبلاء 19/ 296.

ومنهم أيضاً عبد القدوس بن الحجّاج الخولانيّ مُسْنِد حمص وإمام الحديث فيها، أبو المغيرة، حَدَّث عنه الإمام أحمد بن حنبل وابن مَعِين والذُّهليُّ، وقيل عنه: إنَّه ثقةٌ، وقال ابن زنجويه: ما رأيتُ أخوف لله من إسحاق بن سليمان، ولا رأيتُ أخشعَ من أبي المغيرة، صلّىٰ عليه الإمام أحمد بن حنبل حينما مات[1]، ومنهم أيضاً السَّمَّاك بن الفضل الخولانيّ الشّيخ الصّدوق، روىٰ عنه أبو داود والتّرمذيُّ والنَّسائيُّ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]، ومحمّد بن يزيد، أبو إسحاق الواسطيّ الخولانيّ أحد الأبدال، مُحَدِّثٌ مشهورٌ، وهو الذي نعته الإمام أحمد بن حنبل بالثَّبْتِ في الحديث، وقال عنه أبو داود والنَّسائيُّ: ثقة[3]. وكان منهم شيوخ في القراءة؛ منهم علىٰ سبيل التّمثيل: عمر بن اللّيث بن الحارث، أبو حفص الخولانيّ المِصـريّ المشهور بالدَّبَّاغ، مُقْرِئٌ متصدّرٌ[4]، وطاوس بن كَيْسَان، أبو عبد الرّحمن اليمانيّ الخولانيّ التّابعيّ المشهور، وَرَدَتْ عنه الرّواية في حروف القرآن الذي أخذه عن ابن عبّاس رضي الله عنه وعن طائفة من العلماء[5]، ومن أصحاب الاشتهار والنّباهة في القراءة حَمْدَان بن عون بن حكيم بن سعيد، أبو جعفر الخولانيّ، واحد من أقطاب العلم في القرن الرّابع الهجريّ[6]، والإمام الحافظ أبو عبد الخولانيّ الحِمْصِيّ الأبرش، حدَّث عن جملة من الأئمّة الأفذاذ، ومن كانت لهم يدٌ بيضاء في العلم؛ كالإمام الأوزاعيّ، ومحمّد بن الوليد الزُّبيديّ، ومحمّد بن زياد الألهانيّ، وولي قضاء دمشق؛ لشدَّة ورعه وتقاه في نهاية القرن الثّاني الهجريّ[7]. وهذا غيضٌ من فيض مما لا يُعدّ ولا يحصىٰ من الخولانيّين الذين طبَّقت شهرتهمُ الآفاق.

وقد استقرّ أمر الإسلام في اليمن، وكثر عدد الدّاخلين فيه رغبة أو رهبة، وبدأت أشتات النّاس تتآلف وتجتمع تحت راية التّوحيد، بل تحابّت في الدّين الحنيف، ونبذتِ الثّارات من حياتها، وصار اليمن كلًّا واحداً يسيرُ في خدمة دولة الإسلام النّاشئة بإرسال صدقاته إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي سأل لمـّا وصلت: من أين هذه؟ فقيل له: من وَسَخَةَ. فقال: بل من وَسَحَةَ، وهي من قرىٰ خولان، وكان ينزلها بنو يعنق وبنو بشر، وهم من سُمُّوا بالأديم؛ لأنّهم تحالفوا وكتبوا حلفهم في

---

(1) انظر: سير أعلام النّبلاء 10/ 223.

(2) انظر: سير أعلام النّبلاء 5/ 249.

(3) انظر: سير أعلام النّبلاء 9/ 302.

(4) انظر: غاية النّهاية في طبقات القرّاء 1/ 595.

(5) انظر: غاية النّهاية في طبقات القرّاء 1/ 341، شذرات الذّهب 2/ 40.

(6) انظر: غاية النّهاية في طبقات القرّاء 1/ 260.

(7) انظر: سير أعلام النّبلاء 9/ 57، شذرات الذّهب 1/ 341.

أديم[1].

هكذا صار حال اليمن بعد توحيد رسول الله صلى الله عليه وسلم له بثلاث وسائل في ثلاث مراحل:

أمّا المرحلة الأولىٰ: فتبدأ بالهجرة، وتنتهي في السّنة التّاسعة منها عندما أرسلتِ القبائل وفودها داخلة في الإسلام؛ لتصبح بعد ذلك جزءاً من الدّولة الإسلاميّة، وقد حرص النّبيّ صلى الله عليه وسلم علىٰ تحديد كريم كل قومٍ وشريفهم؛ ليولّيه عليهم، ولم يكن بالضّرورة ذلك الشريف هو زعيم القبيلة قبل الإسلام؛ مثل فروة بن مسيك المراديّ علىٰ مذحج جميعها، بينما هو علىٰ مراد فقط. وفي هذه المرحلة عُيِّنَ باذان الفارسيّ أميراً علىٰ جميع مخاليف اليمن، وهي إمارة رمزيّة؛ لأنَّ اليمن كلَّه لم يكن قد أسلم، وأنَّ سلطانه كان في أصقاعٍ محددةٍ، ولم يكن علىٰ اليمن جميعها، ولعلّ هدف النّبيّ من تعيين باذان هو السَّعيُ لتوحيد اليمن تحت مظلّة الإسلام الحنيف.

وأما المرحلة الثّانية: فامتدّت حتىٰ حجّة الوداع، وفي هذه المرحلة قسم رسول الله اليمن إلىٰ مخلافين كبيرين عيّن عليهما اثنين من كبار صحابته؛ وهما: معاذ بن جبل، وأبو موسىٰ الأشعريّ.

وأما المرحلة الثّالثة: فهي من بعد حجّة الوداع، وكان أبرز ملامحها تقسيم اليمن إلىٰ أربعة مخاليف كبيرة، وعلىٰ كل واحدٍ أميرٌ يجمع الصّدقات، ويصرّفها في مصارفها الصحيحة. وكانت علىٰ النّحو الآتي:

مخلاف تِهَامَةَ وعليه الطّاهر بن أبي هالة.

ومخلاف حَضْرَمَوتَ وعليه زياد بن لبيد البياضيّ.

ومخلاف الجَنَدِ وعليه معاذ بن جبل، إضافة إلىٰ إشرافه علىٰ بقية المخاليف.

ومخلاف صَنْعَاء وعليه شهر بن باذان بعد وفاة والده، إلا أنّ ظهور الأسود العنسيّ[2] قبيل وفاة النّبيّ صلى الله عليه وسلم وقيامه بالرِّدَّة[3] ـ وهي أوّل رِدّة في الإسلام ـ أدىٰ إلىٰ اضطرابٍ وزعزعةٍ

---

(1) انظر: صفة جزيرة العرب 250، 265، اليمن في صدر الإسلام 216.

(2) الأسود العنسّي: هو عَبْهَلةُ ـ كذا ورد اسمه ـ بن كعب بن عوف العنسّي، نسبة إلىٰ عنس بطن في قبيلة مذحج اليمانيّة، ادّعىٰ النّبوّة، وصدّقه: أهله وذَوُوهُ وكثيرٌ من شذّاذ اليمن، وبعض القبائل اليمانيّة. اليمن في صدر الإسلام 254ـ255.

(3) صنّف عدد من العلماء في حروب الرِّدة مصنفاتٍ؛ منهم: سيف بن عمر التّميميّ، ولوط بن يحيىٰ بن سعيد بن مخنف الأزديّ، وجاء بعدهما عبد الله بن وهب بن مسلم المتوفّىٰ (200هـ) وصنّف كتاباً في الرّدة، ومثله فعل إسماعيل بن عيسى

في شؤون المسلمين، قُتِلَ علىٰ أثرها شهر بن باذان، واستطاع العنسيّ إخراج عمّال النّبيّ من اليمن، وقتل بعضهم، ونجا معاذ بن جبل وأبو موسىٰ الأشعريّ من قبضته، حتىٰ انتهىٰ أمره علىٰ يد فيروز الدّيلميّ، وقيس بن مكشوح المراديّ، وداذويه، وحينها صار أمر اليمن كلّه إلىٰ معاذ بن جبل أميراً عليه، ولـمّا بلغهم انتقال النّبيّ إلىٰ جوار ربه، ازداد أهل اليمن فيما كانوا فيه من الحيرة والشَّكِّ، وطمع قيس بن مكشوح المراديّ في الإمرة باليمن، فعمل لذلك وارتدَّ عن الإسلام مثلما ارتدَّ كثيرٌ من العرب عامةً وخاصّة، إلاَّ قريشاً وثقيفاً وبعض القبائل اليمانيّة الأخرىٰ؛ مثل حِمير وهمدان وبَجِيْلة وخثعم إلا اليسير منها، بقيت ثابتة علىٰ إسلامها، وكتب أبو بكرٍ الصّدّيق إلىٰ الأمراء والأعيان من أهل اليمن أن يكونوا عوناً لفيروز والأبناء علىٰ قيس بن مكشوح حتىٰ تأتيهم جنوده سريعاً[1].

وكانت خولان في عداد القبائل المرتدَّة إلا قليلاً منها أخلصوا الدّين لله، وثبتوا علىٰ ما عاهدوا رسول الله عليه، وفي هذا يقول البلاذريُّ: «وارتدّت خولان باليمن، فوجَّه أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه إليهم يَعْلَىٰ بنُ مُنْيَةَ ـ ومُنْيَة أُمُّهُ، وهي من بني مازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مضر، وأبوه أُمَيَّة بن أبي عبيدة، من ولد مالك بن حنظلة بن مالك [من بني تميم] حليف بني نوفل ابن عبد مناف ـ فظفر بهم، وأصاب منهم غنيمة وسبايا، ويقال: لم يلق حرباً، فرجع القوم إلىٰ الإسلام»[2]. والرَّاجح أنَّه قاتلهم حتىٰ أذعنوا لأمر الدّين الحنيف؛ لأنَّ ثمّةَ خبراً ساقه ابن قتيبة يؤكد ما نذهب إليه في هذا التّرجيح من أنَّ سبايا من عُرْبِ خولان من اليمن سبوا علىٰ يد يعلىٰ بن مُنْيَةَ عامل أبي بكر الصّدّيق[3] رضي الله عنه. وفي خبر آخر يذكره الطّبريّ يؤيد هذا المذهب؛ أنّه «كان للمنصور [أبي جعفر] خادم أصفر إلىٰ الأدمة مائلٌ، ماهرٌ لا بأس به، فقال له المنصور يوماً: ما جنسك؟ قال: عربيّ يا أمير المؤمنين، قال: ومن أي العرب أنت؟ قال: من خولان، سُبِيْتُ من اليمن فأخذني عدوٌّ لنا،

العطّار من أهل بغداد؛ انظر: الفهرست 105، 106، 115، 122، كما صنَّف عليّ بن محمّد بن عبد الله بن أبي سيف المدائنيّ (225هـ) كتاباً في الرِّدة. انظر: تاريخ الإسلام 13/ 266.

(1) انظر: تاريخ الطّبريّ 3/ 242، 243، الكامل في التّاريخ 2/ 342، 375، اليمن في صدر الإسلام 254 وثمّة مصادره، البداية والنّهاية 7/ 42ـ 43.

(2) كتاب فتوح البلدان 1/ 119، وفيه يذكر البلاذريّ في خبر آخر تقسيم اليمن إلىٰ ثلاثة مخاليف قائلًا: «وكانت حضرموت أتت كِنْدَة منجدةً لها، فواقعهم زياد [بن لبيد الأنصاريّ] والمهاجر [بن أبي أميّة] فظفرا بهم، وارتدّت خولان، فوجَّه إليهم أبو بكر يَعْلَىٰ بنَ مُنْيَة، فقاتلهم حتىٰ أذعنوا وأقرّوا بالصّدقة، ثم أتىٰ المهاجر كتاب أبي بكر بتوليته صنعاء ومخاليفها، وجمع عمله لزياد إلىٰ ما كان في يده، فكانت اليمن بين ثلاثة: المهاجر، وزياد، ويعلىٰ، ووُلِّي أبو سفيان بن حرب ما بين آخر حَدِّ الحجاز وآخر حَدِّ نجران». ومثله في تاريخ دمشق 74/ 191، ونهاية الأرب 19/ 144.

(3) انظر: المعارف: 276.

فاسترققت، فصرت إلىٰ بعض بني أميّة، ثمّ صرت إليك»[1].

إنَّ في الخبر السابق ما يدل علىٰ قتال عامل أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه للخولانيّين حتىٰ رجعوا إلىٰ إسلامهم وإيمانهم، وأدركوا أنَّ النّبوّةَ أرفعُ من أن يدّعيها مدّعٍ أو عابثٌ ويتّخذها وسيلةً إلىٰ طلبته ومرامه، وأيقنوا أنّ الإيمان بالله لا يلتقي مع المطامع، وأنَّ الإسلامَ لا يتساوق ومعاني الجاهليّة، عرفوا ذلك بالدّماء والألم الذي اعتصر قلوبهم، والحسرات التي مزّقت عواطفهم.

واعتماداً على ما سبق يمكن القول: كانت خولان قبيلةً مثلَ غيرها من قبائل العرب، التي عبدت الأجرام السماويّة في بادئ الأمر، وقدّست للأصنام، وحينما وصلت تباشير الدعوة الإسلامية أسلمت وعادت عن عبادة الأصنام، وحَسُنَ إسلام أهلها الذين برز منهم غير واحد ممّن كان لهم صحبةٌ مع النّبي صلى الله عليه وسلم، لكن بعد وفاة الرسول الكريم ارتدّت خولان عن الإسلام مع عدد ليس بهيّنٍ من القبائل العربيّة، ثُمَّ عادت إلى إسلامها مرّةً أخرى في عهد أبي بكرٍ الصدّيق رضي الله عنه الذي أنفذ جيوشه إلى مخاليف اليمن؛ لتبدأ حقبةٌ جديدةٌ من تاريخ القوم، الذين انتشرت أشعارهم في أصقاع اليمن؛ لتدوّن فيما بعد في سجلاتٍ وزبرٍ قديمةٍ تُوُورِثَتْ في خولان وحِمير وآل أبان، ومصادر أخرى سنتبينها في مصادر شعر القبيلة.

---

(1) تاريخ الطّبريّ: 8/ 99، الكامل في التّاريخ 7/ 99.

الفصل الثاني

مصادر شعر القبيلة

أوّلاً ـ مصادر شعر القبيلة:

لا بدّ لأشعار كلّ قبيلةٍ أو شاعرٍ من منابع ومصادرَ استُقيت منها، ودُوِّنت في مصنّفاتٍ وسجلّاتٍ، ورُوِيت بين الناس وتُنُوقِلَتْ بين رواة الشّعر، يضاف إلى هذا مصادر الشّعر الذي جُمِعَ بين دفتي ديوان، سأقف في هذا المبحث عند رواية أشعار القوم وتدوينها وتناقلها في بلاد اليمن والشّام، كما سأتناول مصادر شعرهم الذي جمعتُهُ بين دفّتي الدّيوان، الذي برز فيه الإكليل مصدراً أساسيًّا في ضمّ أشعار القوم وغيرهم من اليمانيين؛ لاضطلاع صاحبه بأخبار صقعه وأدبه الذي أتت عليه غوائلُ الدهر ومصائب الأيّام، ففلّته بالضياع الذي سيكون محوراً آخر من حديثنا، ولا يفوتني أنْ أقف عند الهمدانيّ وما جاء فيه من أقوال للعلماء توثّق شخصَهُ و مقَالَهُ.

1 ـ رِوَايَةُ أَشْعَارِهم وتَدْوِينُهَا:

كان الشّعرُ عند العرب ديوانَ علمهم ومعارفهم، وسِجِلَّ مآثرهم، أودعوا فيه أيّامهم ومعاركهم، وحَذْفاً من أخبارهم، بل هو علمٌ لم يكن لهم أصحُّ منه، ولمّا جاء الإسلام تشاغلتِ العرب عنه بالجهاد والفتوح ولهت عن روايته، وهلك كثيرٌ من العرب الذين يحفظون الشّعر بالموت والقتل، فحفظوا أقلّ ذلك، وذهب عليهم منه كثيرٌ[1].

وإبّان البحث والتّنقير في بطون الكتب ومتونها التي وُقِفَ عليها، لم أقع علىٰ خبرٍ يدلّ علىٰ أن أحداً من أهل السّلف قد انبرىٰ لِلَمْلَمَةِ قوافي خولان وتقييد أشعارها في دفتي ديوانٍ أو مجموعٍ شعريٍّ، غير أنَّ حظها وطالعها قيَّض لها أبا محمّد الحسنَ بنَ أحمدَ الهمدانيّ المعروف بلسان اليمن (334هـ)، الذي دوَّن حَذْفاً من أشعارها وأخبارها في مصنَّفاته بعد أن انتهت إليه سجلّاتٌ وزُبُرٌ اطّلع عليها وقرأها، وعليه كان المعوّل في روايةِ أشعار القوم وتدوينِها، وثمّة أخبارٌ تدلّ دلالة دامغة علىٰ وقوفه علىٰ تلك السِّجلّات والزُّبُرِ القديمة؛ منها سجلّ محمّدِ بنِ أبانٍ الخنفريّ الذي تُوُورِث في آل أبان وخولان وحِمْير في صعدة، واعتوره نسّابُ اليمن وعلماؤُها؛ منهم أبو نصر الحنبصيّ اليهريّ، وابنُ رقطة الصَّعديّ ـ بحسب ما تدلّ عليه مادّةُ هذا السِّجلِّ ـ حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الهمدانيّ في أوائل القرن الرّابع الهجريّ، فوقف عليه لـمّا سكن بصعدة، وفي ذلك يقول: «وقد سكنت بها عشرين سنة، فأطللت علىٰ أخبار خولان وأنسابها ورجالها، كما أطللت علىٰ بطن راحتي، وقرأت بها سجلَّ محمّدِ بنِ أبان الخنفريِّ

(1) انظر: طبقات فحول الشّعراء 1/ 24، 25.

المتوارث من الجاهليّة»[1].

واطّلع أيضاً علىٰ سجلّ خولان، ونصَّ في غير موضع علىٰ وقوفه عليه، وأخذه عنه فيما نقله من أشعار خولان وأنسابها وأيامها[2].

ونصَّ أيضاً علىٰ أخذه عن علماء لم يُوقف علىٰ سِنِي وفياتهم؛ كشيخه أبي نصر الحنبصيّ اليَهِرِيّ الحميريّ، ومحمّدِ بنِ إبراهيم المحابيّ الكَلَاعيّ، وأحمدَ بنِ إبراهيم الزّعبليّ، وابنِ رقطة الصَّعْديّ، كانوا ممن انتهت إليهمُ السِّجلّات السّالفة الذّكر؛ يقول: «قال ابن رقطةَ الصَّعْديُّ ـ وهو بعض ورثة السِّجل ـ: إنّ مَنْ قَبْلَهُ رَوَوْا عن يزيدَ بنِ عبدِ الرّحمن، عن عبد الملك بن يغنمَ بن سلمة بن مالك بن عمير بن اللَّيث بن مالك بن أسد بن غنم بن حيّ بن خولان بن عمرو بن إلحاف...»[3].

ومن رواية الهمدانيّ أنْ قال: «وذَكَرَ جماعةٌ من علماء خولان وعلماء حِمْيَر بصعدة عن أشياخهم، عن مسلمة بن يضم أخي بني حيّ، وعن ابن المستنير الزَّبيديّ ـ وكانا علّامتي نجد، وهما قيّدا أنساب خولان مع مذحج وبني سُلَيْم وهَوَازِن، وأيام خولان بينها ـ أنّهما سُئِلا عن الأديم من خولان...»[4].

وقال أيضاً وهو يذكر نسب بني رازح بن خولان: «وخبرني بعض الحميريين بصعدة: أن يعنق ليس من ولد حجر بن الرّبيعة، وأنّ الرّبيعة تَغْلَطُ في قول عمرو بن يزيد. قال: وإنّما قال:

وَلَـدْنَـا يَـغْـنُـمـاً، فَـنَـجَـا لِيَعْلَى وعَـقَّ أَبَـاهُ يَـغْـنُـمُ يَـوْمَ سَـارَا

[الشعر]....»[5].

وفي موضع آخر يخبره نفرٌ من بطن الرّبيعة عن أمر حربٍ كانت في سالف الزّمن؛ يقول: «وله يقول بعض الرّبيعة أيضاً في حرب كانت بينهم في الزّمان الأوّل:

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 60، المطبوع 1/ 275». ومحمّدُ الخنفريّ: هو محمّدُ بنُ أبان بن حَرِيْز بن حُجْر بن زرعة الخنفريّ الحميريّ، صاحب السّجلّ المتوارث من الجاهليّة، الذي تُوورث في آل أبان وخولان وحمير في صعدة، وهو شاعر أمويٌّ عُرِفَ بجزالة الألفاظ، وفخامة المعنىٰ ووضوحه، وهو سَيِّدٌ ابن سَيِّدٍ في عصره، وفارس مغوار، وواحد من مساعير الحرب في الخنفريين. انظر: شعراء حمير (الدّراسة) 137 ـ 140.

(2) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 5، 56، 58، 59، المطبوع 1/ 256، 89، 269»، وفيها تصحيفات قبيحة ليس ثمةَ مكانٌ ههنا لعرضها والوقوف علىٰ صوابها.

(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 117، المطبوع 1/ 452».

(4) الإكليل: «المخطوط 1/ 93 ـ 94، المطبوع 1/ 387 ـ 388».

(5) انظر: الديوان: ق44/ ب1.

طعناً وضـــربــاً وجـــلاداً مُغْلَما
حـتـىٰ يـقـول حـجـراً ويـغـنـمـا
[الشعر]....»[1].

وقال أيضاً وهو يذكر بعض أنساب سعد بن سعد بن خولان: «حدّثني محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل الـمُحَابيّ - وقد كان جاور في بني حرب بقُدْس ورَضْوَىٰ وينبع وتلك النّواحي - في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة...»[2].

وكذلك كان الهمدانيّ يأخذ عن الخولانيين أنفسِهِم، الذين وقفوا علىٰ أشعار قومهم مع قلة بضاعتهم التي استقاها أبو الحسن الذي يقول: «وذكر لي محمود [بن علي بن عمرو بن جابر بن عمرو بن المسافر بن عمرو بن زياد بن سليمان بن الفاحش بن حرب] أنَّ بني حرب لـمّا صارت إلىٰ قُدْس من الحجاز وبها عنزة ومزينة.....»[3]. وهنا لا بدَّ من التّنبيه علىٰ أمرٍ مهمٍّ؛ فحواه أنَّ الهمدانّي كان يسوق أنساب خولان أو أحد بطونها ناصًّا في ذلك علىٰ سنده، ثُمَّ يأتي بعد ذلك بالأشعار التي تذكر أيّام القوم وشيئاً من أخبارهم، وقد أخذها عن علماء صعدة - موطن الخولانيين - أو قرأها في السِّجلّات والزُّبُر القديمة المتوارثة من الجاهليّة.

ومن الإشارات الصّريحة التي تدلّ علىٰ أنّ أشعار خولان - ومنها بعض ما اشتملت عليه دَفَّتَا هذا المجموع - كانت تُتَنَاقل في بلاد الشّام في صدر الإسلام، وتجري علىٰ الألسنة في تلك الحاضرة، ما رواه الحافظ ابن عساكر بسنده الطّويل لأبي مسلم الخولانيّ في الأرجوزة اليتيمة التي ارتجزها يوم صفّين - سواء صحّت نسبتها إليه أم لم تصحّ - يقول فيها:

مَـــا عِـــلَّـتِـــي مَـــا عِـــلَّـتِـــي
وَقَــــدْ لَــبِــسْــتُ دِرْعَــتِـــي
أَمُــــوتُ عِــنْــدَ طَــاعَــتِـــي[4]

وروىٰ العلّامة ابن منظور ومن بعده الزّبيديُّ أنَّ (الذِّيْخَ): الذِّئبُ الجَريءُ بلسان خولان،

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 104، المطبوع 1/ 419-420»، وانظر: الديوان: ق70/ ب1.
(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 96، المطبوع 1/ 393-394».
(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 97، المطبوع 1/ 398».
(4) انظر: الدّيوان: ق99 وثمّة حوالاته.

و(المَـذْيَخَةُ): الذِّئابُ[1]، وهي لغة انفردت فيها القبيلة دون سائر القبائل اليمانيّة أو غيرها من العدنانيّة.

أمّا شعراء القبيلة فلم أجد في المصادر القديمة أيَّ ذكرٍ لديوان شاعرٍ من شعرائها، أو خبرٍ وقعتُ عليه يُنْبِئ عن أحدِ أهل العلم قد صنع ديواناً لأحدِ بطونها، واتّكاءً علىٰ هذا لا بقيَّةَ موقوفاً عليها لإحدىٰ بُنَيّات القبيلة، أو أحد شعرائها خلا وضاحَ اليمن[2] - إن صحّت نسبته إلىٰ خولان - وقد أشار ابن النّديم إلىٰ كتاب اسمه (كتاب وضّاح اليمن وأم البنين) في أثناء عرضه أسماء العُشّاق الذين تَعَشَّقوا في الجاهليّة والإسلام، وقد أُلِّفَ في أخبارهم كتبٌ وكراريس[3].

وثمّة أخبارٌ لدىٰ أبي الفرج الأصفهانيّ تقول: إنَّ فخاراً وقع بين رجلٍ من أولاد الوليد بن عبد الملك بن مروان، ورجلٍ من زنادقة الشّعوبية، خرجا فيه إلىٰ أنْ أَغْلَظا الـمُسَابَّةَ، وذلك في دولة بني العبّاس، فوضع الشّعوبيُّ كتاباً لم يسمّه، زعم فيه أنَّ أمّ البنين عشقت وضّاحاً... هكذا ذكره خالد بن كلثوم الكلبيُّ والزّبير بن بكّار، وكذا الأمر في كتاب (المغتالين) لمحمّد بن حبيب بسنده عن ابن الكلبيّ[4].

وذكر بدر الدّين العينيّ (855هـ) أنّه نقل عن ديوان وضّاح اليمن، ورجع إليه، وكان من مصادره[5]. ونجد في (كشف الظّنون) لحاجي خليفة أيضاً (1067هـ) ذِكْراً لديوان وضّاح[6]، الذي عدت عليه عوادي الدّهر وصروفه، وتناهبته أيدي الضّياع، فَحُجِبَ عنّا مثلما حُجِبَ كثيرٌ من أشعار القبائل وشعرائها، ولم يعثر علىٰ أثر له حتّىٰ اليوم.

أمّا الشّاعر نفسه (وضّاح اليمن) فشاعرٌ أمويٌّ غَزِلٌ، كثير العشق، شَغِفٌ بمحادثة النّساء والتّودّد إليهنّ؛ ومن ذلك قوله:

---

(1) انظر: اللّسان والتّاج (ذَيَخَ). لم أقع عند غيرهما من علماء اللّغة على هذا التفسير، وكذا جاءت المادة العلميّة في اللّسان والتّاج بلا سندٍ أو إحالةٍ على من سبقهما من علماء اللّغة.

(2) هو عبد الرّحمن (أبو عبد الله) بن إسماعيل بن عبد كُلال، قيل: إنَّ وضّاحاً لَقَبٌ له، ويُحْتَمَلُ أن يكون اسمَه الحقيقيّ، شاعرٌ أمويٌّ عاصر عبد الملك بن مروان وابنةَ الوليدَ، توفّي سنة 90هـ. انظر ديوانه: 9.

(3) انظر: الفهرست 365 (طبعة رضا تجدّد). من هؤلاء علىٰ سبيل المثال: «كتاب كُثَيِّرٍ عزّة، وكتاب قيس ولبنىٰ، وكتاب مجنون ليلىٰ، وكتاب توبة وليلىٰ، وكتاب الصمَّة بن عبد الله وريّا، وكتاب ملهىٰ وتعلق...، وغيرهم كثيرٌ.

(4) انظر: الأغاني 6/ 224، ديوان وضّاح 15.

(5) انظر: المقاصد النّحويّة 2/ 218، 4/ 596.

(6) كشف الظّنون 1/ 819.

إنَّ قـلـبـي مُـعَـلَّـقٌ بِـنِـسَـاءِ   واضـحَـاتِ الخدودِ لَسْنَ بِهُجْنِ[1]

غلب عليه لقبُه (وضّاح) لجماله وبهائه؛ إذ كان يرتاد مواسم العرب مقنَّعاً يسترُ وجهه خوفاً من العين، وحذراً علىٰ نفسه من النّساء لوسامته[2]. وقد نقل محمّد بن إسماعيل الثّعالبيّ (429هـ) عن الجاحظ قوله: ثلاثةٌ من العبيد قُتِلوا بسبب العشق: منهم يسارُ الكواعب، ومنهم عبدُ بني الحسحاس، ومنهم وضّاح اليمن[3]. وقد اختُلِفَ في نسبه أيّما اختلافٍ؛ فقيل: إنّه من أولاد الفرس الذين قدموا اليمن لنصرة سيف بن ذي يزن الحميريّ علىٰ الحبش، وذهب آخرون أنّه من قبيلة خولان التي تنتهي في نسبها إلىٰ حمير بحسب زعمهم[4]. وشكّك آخرون في وجود شخصيّة وضّاح والقصص التي حِيكَتْ حولها، وذهبوا في ذلك مذاهب مختلفة[5]؛ منها شعره الذي يميل إلىٰ السهولة واللّين إلىٰ حدّ الإسراف؛ إذ لا متانة فيه ولا جزالة، ولا رصانة الأسلوب، ولا وعورة الألفاظ وخشونتها، التي يمكن للباحث أن يجدها عند شعراء الغزل في القرن الأوّل الهجريّ، وهو علىٰ ما فيه من عيوب لا يخلُو من تكلُّفٍ واضحٍ يخرجه أحياناً عن أصول النّحو، ينكره العقل ويمجُّه الذّوق السّليم.

وقد ضربت صفحاً عن هذا الشّاعر لأمورٍ عدَّةٍ؛ منها:

أوّلاً: إن طَلَبَة هذا الدّيوان ـ الذي سُعِي فيه إلىٰ جمع ما تفرّق من شعر خولان ـ إنّما هي الأشعار غير المجموعة المنثورة في متون الكتب وبطونها، وشعر وضّاح تعاقب عليه غير جامع وتناولته أيادٍ بيضاءُ بالدّرس والتّعليق؛ فقد جمع باحث بقية قوافيه وسعىٰ إلىٰ لملمتها، ونشـرَها في مجلّة المورد العراقيّة (المجلد 3/ 1984)، ثمّ تبعه آخر وأضاف ما وجد إلىٰ إضافته سبيلاً، فخرج إلىٰ النّاس ديوان وضّاح في سنة 1996[6].

ثانياً: عدم ثبات نسبة الشّاعر وضَّاح إلىٰ خولان صليبة، وتعدّد الرّوايات في ذلك؛ إذ ليس بين يديّ من المصادر والمظان التي وردت فيها ترجمته ما يثبت صحّة نسبته إلىٰ القبيلة ويقطع بذلك.

ثالثاً: تشكيك الباحثين في شخصيّة الشّاعر وضّاح والقصص التي حِيكَت ـ بحسب زعمهم ـ حولها،

---

(1) ديوانه: 90.

(2) انظر: تاريخ دمشق 27/ 88.

(3) انظر: ثمار القلوب 1/ 206، الأغاني 6/ 225، تاريخ دمشق: 27/ 88.

(4) انظر: الأغاني 6/ 209 ـ 211، فوات الوفيات 2/ 272، حديث الأربعاء 1/ 233، وانظر ديوانه 9 وثمّة مصادره.

(5) انظر: حديث الأربعاء 1/ 234. وانظر ما كتبه د. محمّد خير البقاعيّ من ردٍّ علىٰ د. طه حسين في تشكيكه في شخصيّة وضّاح: الديوان 20 ـ 26.

(6) انظر: ديوان وضّاح اليمن: 5 وما بعدها.

معتمدين في ذلك علىٰ أدلّة دامغة.

رابعاً: أنَّ الهمدانيَّ لم يأتِ له على أيّ ذكرٍ، وهو الحريص على ذلك لو كانت له حقيقة.

ولهذا كلّه فقد أُبعد شعر وضّاح اليمن من ديوان خولان هذا، وأُخرِجَ معه ما يمكن أن يستدرك علىٰ ديوانه؛ لأنّ باب الاستدراك مفتوح اليوم أكثر من السّابق علىٰ الدّواوين المصنوعة قديماً؛ لِعِظَمِ ما يمكن أن يقف عليه الباحث، ولسهولة الوقوف علىٰ المؤلّفات المحقّقة، في زمن كان يُسْتَغْرَقُ فيما مضىٰ في تقليب أوراق كتاب قد لا يجد فيه الباحث شيئاً يخدمه فيما يبحث عنه.

2 ـ مَصَادرُ شِعْرِهِمُ المَجْمُوعِ:

حينما وطّدتُ نفسي علىٰ جمع أشعار خولان ودراستها، سعيتُ سعاية المجدِّ الحريص إلىٰ لملمة أشعار القوم ورصِّ قوافيهم في ديوان شعري، فعكفتُ سُنَيَّاتٍ أضربُ متون الكتب وأُنَقِّرُ في بطونها؛ باحثاً عن الشّعر الذي ألزمتُ نفسي استكناه مكنونه وتلمّس صُواه، فوقفتُ علىٰ ما وقف عليه من كتب التّراجم المتنوّعة، وكتب الاختيارات الشّعرية، والأدب العامّة، ومصنَّفات النّحو واللُّغة، والشّروح، والتّفاسير المتعدّدة، والأنساب، والتّاريخ، والجغرافية، والمعجمات، مع معرفتي ودرايتي أنَّ جَمْعَ ما تناثر من شعر شاعر واحد من شعراء الجاهليّة أو صدر الإسلام أو العصر الأمويّ أو قبيلة من القبائل، طريق وعرةٌ، صعبة السّبيل، السّائر فيها تتقاذفه ناتئات صلدة، وتعترضه مشكلات عويصة، تتمثّل في أمور عدّة؛ منها: كثرة التّصحيفات والتّحريفات التي يمكن أن نجدها في روايات متعدّدة لبيت شعريٍّ واحد، يضاف إلىٰ هذا قلّة ما يمكن أن يصيبَ من شعر هذا، أو القبيلة تلك؛ لأنَّ ما صار إلينا من شعر شاعر نجا من صوارف الدّهر وعواديه، ليس بشيء يؤبه له مقارنة بما ضاع واندثر، أو هو قليلٌ جدًّا، إذ إن ما كان يحفظه بعض أهل السَّلف من شعر شاعر من الشّعراء، يكاد يجاوز معظم أشعار القبائل التي اعتنىٰ مجموعة من الباحثين بجمع ما تبقىٰ من أشعارها بأَخَرَةٍ، ثُمَّ يصيب من يستدرك علىٰ حفظه الكثير، مثال ذلك ما وَقَفَنَا عليه أبو الفرج الأصفهانيّ من أنَّ عَمَّ الموصليّ كان يحفظ للسيِّد الحميريّ في بني هاشم ألفين وثلاثمئة قصيدةٍ، حتّىٰ خال نفسه أنّه استوعب شعر السَّيد جميعه، إلىٰ أن جالس رجلاً أنشده ثلاث قصائدَ لم تكن عنده، ولا هي من محفوظه[1].

أمّا دواوين القبائل التي أشار إلىٰ جمعها العلماء القدامىٰ[2]، فعلىٰ كثرتها لم تنجُ من عوادي الدّهر

---

(1) انظر: الأغاني 7/ 182.

(2) انظر: الفهرست 59، 73، 75، 86، وعنه في مصادر الشعر الجاهليّ 547.

التي امتدّت إليها فأتلفتها، أو جعلتها هاجعة تغفو في رفوف إحدىٰ المكتبات تنتظر من يهتدي إليها ليخرجها إلىٰ النّور والحياة، إلّا ما انتهىٰ إلينا من صنعة السّكريّ لأشعار قبيلة هُذَيْل التي لا تعدل سوىٰ بيتٍ من بيوتات العرب، مقارنة بالدّواوين التي زخرت بأسمائها المصادر العربيّة.

أمّا ما يخصّ أشعار خولان فيما جمعناه في هذا الدّيوان، فبلغ حتىٰ نهاية عصر بني أميّة ستة وتسعين وخمسمئة بيتٍ (596) لثلاثة وأربعين شاعراً، في ثماني عشْرة قطعة ومئة، تقاسمتها المقطّعات ـ وهي الكُثْرى عدداً في الدّيوان ـ والقصائد والنّتف والأبيات اليتيمة، عَشْرُ مقطّعات منها لشعراء مجهولي العصور، وسبعُ نتفٍ لآخرين مجهولي الأسماء والعصور.

وأمّا جهد الهمدانيّ وفضله في لملمة شتات أشعار خولان وجمع بُقَيّا قوافيهم فكبيرٌ جدًّا؛ إذ يكاد يكون متفرّداً برواية أشعار القوم قاطبةً دون غيره، وأشعار القبائل اليمانيّة التي أفرد لأنسابها وأيامها وأخبارها مصنَّفات، ومن تلك القبائل همدان ومذحج وحمير، وقد خلت المصنَّفات التي اعتنت بأخبار القبائل العدنانيّة أو التي افترشت بطن جزيرة العرب وبلاد الشّام والعراق أرضاً لها من أخبارها. غيرَ أنّ بعض أشعار الخولانيين الذين نزلوا الشّام إبّان الفتوحات الإسلاميّة، أُصِيبَتْ عند ابن عساكر في تاريخه، ونُسبت إلىٰ عصر بني أميّة، ولم تكن تلك الأشعار بالكثيرة؛ إذْ لم تتجاوز قطعةً لعثمان بن مُرَّة الخولانيّ[1] جاءت في سبعة أبيات، ومقطّعتين إحداهما للـمُسَوَّر الخولانيّ[2] في ثلاثة أبيات، والأخرىٰ عِدَّتُها ثلاثة أبيات أيضاً لعبيد الله بن عوف الخولانيّ[3]، وأرجوزةً يتيمةً وقعت في ثلاثة أشطارٍ لأبي مسلم الخولانيّ[4]؛ هذا فضلًا عن رواية الهمدانيّ لأشعار خولان في عصر بني العبّاس التي عرض لكثيرٍ منها في الجزء الأوّل من مخطوط الإكليل، وفاقت في عددها أشعارهم التي جمعناها؛ ليتبيَّنَ لنا عِظَمُ ما رواه الهمدانيّ، وخَطَرُه في تَقْييد أشعار خولان دون غيره.

وإذ كان الهمدانيُّ راويةَ أشعار خولان ومستودعَ أخبارهم وأيّامهم، سيكون حديثي عن المصادر والمظانّ الأخرى التي أُصِيبَت فيها أشعار القوم وجيزاً، مقتضباً علىٰ قدر ما ورد فيها من أشعار تُنُوقِلَتْ فيما بعد علىٰ ألسنة العلماء ودُوِّنت في المصنَّفات والكراريس، وهذا ممّا لم يحدث البتّة، عدا ما نقله ياقوتُ الحَمَويُّ وأبو عبيد البكريّ عن مؤلّفات الهمدانيّ، وهو نزرٌ يسيرٌ جدًّا ليس ذا بالٍ إذا قورن

---

(1) انظر: الدّيوان ق94.

(2) انظر: الدّيوان ق96.

(3) انظر: الدّيوان ق97.

(4) انظر: الدّيوان ق99.

بدواوين القبائل الأخرىٰ التي جُمِعَتْ أشعارها بأَخَرَةٍ، ودُرِسَتْ مصادرها دراسة مفصَّلة حتىٰ كادت تكون وحدها رسالة جامعية[1].

وسأصنِّفُ أكثر المصادر رواية لأشعار القوم، مشيراً إلىٰ عدد الشّعراء في كل مصدر، ولم أصرف اهتماماً يُذكر لعصور المصادر وزمنها؛ وذلك لأسباب؛ من أهمها:

أولاً: قلّتها وقلّةُ عددها؛ إذ لم تبلغ مصادرُ أشعار خولان كلُّها إبَّان البحث والتّنقير في المكتبة العربيّة سوىٰ عَشَرَةِ مصادر.

ثانياً: قلّة ما ورد من شعر في غير مصادر الهمدانيّ.

ثالثاً: عدم سيرورة الشّعر وارتحاله خلال القرون التّالية لعصر الهمدانيّ، وعدم تعاور العلماء إيّاه بالنّقل أو الزّيادة أو الاطِّراح منه مقارنة بروايته الأصليّة؛ ولهذا سعىٰ الهمدانيُّ إلىٰ تدوين شعر اليمن ـ ومنها خولان ـ لمعرفته بقلته بأيدي علماء الشّام والعراق؛ يقول: «وقد كتبنا ما أدركنا...؛ لأنّه معدوم بالعراق والشّام، قليل في أيدي العلماء»[2]. ولعلَّ هذا سببٌ من جملة الأسباب التي جعلت أشعار القوم غيرَ متعاورة بالنّقل والرّواية بين العلماء القدامىٰ.

ويأتي علىٰ رأس تلك المصادر: الإكليل في جزئه الأوّل؛ إذ روىٰ فيه الهمدانيُّ للقوم ثلاثة وثمانين وثلاثمئة بيتٍ (383) لتسعة وعشرين شاعراً، جاءت أشعارُ ستّةٍ منهم موزّعة في تباين مع كتاب الدّامغة[3]، وأربعة شعراء منهم جاءت أشعارٌ لهم في مطبوع الجزء الثّاني من الإكليل[4]، وشاعران منهم وردت أشعارٌ لهم في مطبوع الجزء الثّامن من الكتاب نفسه[5].

وفي الجزء الأوّل من الإكليل روىٰ الهمدانيُّ قصيدة ليعلىٰ بن سعد المالكيّ، جاء في الجزء الثّامن بمعظم أبياتها وبالرّواية نفسها، خلا بعض الأبيات التي دخلها بعض الاختلاف والزّيادة (ق53/ ب1 ـ ب4، ب7 ـ ب11، ب13، ب19)، وجاء أيضاً في مخطوط الجزء الأوّل من الإكليل بقصيدة

---

(1) انظر: مصادر الدّواوين التي جمعها عدد من الباحثين؛ مثل: شعر ضبّة وأخبارها في الجاهليّة والإسلام: 43، وشعراء تغلب (الدّراسة) 251، وشعراء حمير (الدّراسة) 177، وديوان بني كلب (الدّراسة) 210.

(2) الإكليل 2/ 270 ـ 271.

(3) انظر: الشّعراء السّتة: المقدام بن زيد الحيوانّي، عمرو بن يزيد العوفيّ، يعلى بن سعد المالكيّ، المحنون العوفيّ، الحارث بن عمرو السّعديّ، مالك بن قطينة العوفيّ.

(4) انظر: عمرو بن يزيد العوفيّ، عمرو بن حجر المالكيّ، عمرو بن يزيد السّعديّ، مالك بن قطينة العوفيّ.

(5) انظر: يعلى بن سعد المالكيّ، عمرو بن حجر المالكيّ.

لعمرو بن زيد الخولانيّ المشهور بمغرق الأكبر (ق6/ ب1 ـ ب4)، والأبيات الأولىٰ منها هي عند ياقوت الحَمَويّ (626هـ) في معجم البلدان، وكذا الأمر في مخطوط الجزء الأوّل من الإكليل؛ ففيه بيتان للمسلم بن يغنم المالكيّ من قصيدة له (ق61/ ب1 ـ ب2) هما في معجم البلدان لياقوت الحَمَويّ، وفيه أيضاً بيتان للحارث بن عمرو السّعديّ من كلمة له (ق71/ ب7 ـ ب8) هما في معجم البلدان، ورجّعَ الهمدانيّ له روايةَ قصيدةٍ في الجزء الثّامن (ق76) كان قد أثبتها في الجزء الأوّل من الكتاب نفسه من ذي قبل، وهي نفسها ثابتة في معجم البلدان عند ياقوت، وكذا الأمر مع عمرو بن زيد الغالبيّ في الجزء الأوّل من الإكليل؛ فقد ساق له الهمدانيُّ بيتين (ق83/ ب1 ـ ب2) هما في الجزء الثّامن من الإكليل، والأول منهما فقط في كتاب الدّامغة. وفي معجم البلدان بيتٌ لإبراهيم بن كُنَيْف الشّهابيّ من مقطّعة له (ق104/ ب1) ساقها الهمدانيُّ في مخطوط الجزء الأوّل من الإكليل.

أما الجزء الثّاني من الإكليل، فقد روىٰ فيه الهمدانيُّ أربعة وخمسين بيتاً (54) لخمسة شعراء؛ اثنان منهم تقاسم كِتَابُ الدامغة بعضاً من أشعارهما[1]، وشاعر واحد وردت ثُلّةٌ من أشعاره في الجزء الثّامن[2].

وفي الجزء الثّامن من الكتاب نفسِهِ روىٰ الهمدانيُّ تسعة وعشـرين بيتاً (29) لستّة شعراء، شاعر واحد منهم تفرّقت بعض أشعاره في الدّامغة[3]. وهنا يجدر بنا التّنبيه علىٰ أنّ بيتاً يتيمًا (ق117) رواه أبو عبيد البكريّ نقلاً عن الهمدانيّ في الجزء الثّامن من الإكليل. وفي الدّامغة ثمانية وخمسون بيتاً (58) لستة شعراء، بعضٌ من أشعارهم حظي الإكليلُ بأجزائه الثّلاثة بروايتها.

وأمّا المصدر الثاني وهو: (صفة جزيرة العرب) ـ علىٰ عِظم اهتمامه بتنائف اليمن وأمواه خولان، واشتماله علىٰ كثيرٍ من الأمكنةِ التي تفرّد بترجمتها والوقوف عندها ـ فليس فيه ما كان متوقّعاً خلا أرجوزة الرّداعيّ التي بلغت المئين من الأبيات، وهي خارج الدّيوان لتأخّرها عن عصر بني أميّة، وخلا سَوْقَهُ داليّة يتيمة لعلقمة الخولانيّ وقعت في خمسة وأربعين بيتاً (45)، وهي أطول ما وقفت عليه من أشعار القوم.

وأمّا المصادر الأخرىٰ التي أُصيبت فيها أشعار خولان، فيأتي في مقدّمتها تاريخ دمشق، وهو ـ علىٰ عظم جرمه، واستيعابه لترجماتٍ كثيرةٍ، وأشعار يصعب عدُّها وإحصاؤها ـ ضنينٌ بأشعار خولان،

---

(1) انظر: أشعار عمرو بن يزيد العوفيّ، مالك بن قطينة العوفيّ.

(2) انظر: أشعار عمرو بن حجر المالكيّ.

(3) انظر: أشعار يعلى بن سعد المالكيّ.

شحيحٌ بترجمات شعرائها، علىٰ الرّغم من نزول بطونٍ منها دمشق، وشغلهم مناصب مهمّة في دولة بني أميّة، جعلتهم في بعض الأحيان يديرون دفّة السّياسة فيها[1]، واتّكاءً علىٰ هذا فليس فيه سوىٰ أبياتٍ قليلةٍ لا تتجاوز مجتمعة قصيدة واحدة من قصائد الشّعراء الصّعاليك المشهورين، ومن تلك الأبيات في التّاريخ الكبير قصيدةٌ لعثمان بن مُرَّة الخولانيّ (ق94)، ومقطّعتان: الأولىٰ منهما للمُسَوَّر الخولانيّ (96)، رواها ابن العَدِيم (660هـ) في بغية الطّلب، والمِزيّ (742هـ) في تهذيب الكمال، وابن منظور (711هـ) في (مختصر تاريخ دمشق)، وابن تغري بردي (874هـ) في (النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، والمرتضىٰ الزَّبيديُّ (1205هـ) في (تاج العروس)، والبيت الثّاني والثّالث فقط في (ولاة مصر) للكِنديّ (350هـ). والثّانية هي أرجوزة لأبي مسلم الخولانيّ (ق99)، رواها علي بن محمّد الجزريّ (630هـ) في (أُسْدِ الغابة)، ومحمّد بن أحمد الذّهبيّ في (تاريخ الإسلام) و(سير أعلام النّبلاء)، نقلاً عن الحافظ ابن عساكر في تاريخه، الذي تفرّد برواية مقطّعة (ق97) دون غيره لعبيد الله بن عوف الخولانيّ.

وعلىٰ الرّغم من هذه البُقيّا التي انتهت إلينا من أشعار خولان في تاريخ دمشق، يمكن التّنبيه علىٰ خطورته من جانب أنّه جاء بترجمات وأخبار لقبيلة خولان ـ علىٰ قلتها ـ ليست عند غيره، بل سكتت عنها كتبُ التّاريخ والتّراجم، وهذا ما جعلها عظيمةً في بابها، كبيرةً في فائدتها، ولعلّ هذه المزيّة جاءت من السّمت الذي جعله الحافظ لتاريخه الكبير بأن ترجم لكلِّ من وَرَدَ دمشق، أو مَرَّ فيها، أو أقام ليلةً واحدةً.

ومن المصادر التي ضمّت أشعار خولان (كتاب أنساب الخيل) لأبي المنذر هشام بن محمَّد بن السّائب الكلبيّ (204هـ)، الذي ساق ثمانية أبيات لأربعة شعراء لم تُعْرَفْ عصورهم؛ بيتان منها لِـمُحَطِّم بن الأرقم الخولانيّ (ق107)، البيت الأوّل منها في (نثر الدّرّ) للآبيّ (421هـ)، وبيتان للسّمح بن هند الخولانيّ (ق108)، البيت الأوّل منهما عند الأسود الغُنْدُجَانيّ (231هـ) في (أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها)، وعند الصّاحبيّ التّاجيّ (677هـ) في (الحلبة في أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والإسلام)، وعند الآبيّ في (نثر الدّرّ)، بينما روىٰ المرتضىٰ الزّبيديّ البيتين معاً في (تاج العروس)، وبيتان لأبي الرَّيْسَان الخولانيّ (ق109) هما في (أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها) و(تاج العروس)، بينما روىٰ الآبي البيت الأوّل فقط، وبيتان للمنذر بن الأعلم الخولانيّ

(1) انظر: مبحث العلاقة بين خولان ودولة بني أميّة في الدّراسة، ولا سيما دور معاوية بن حَدِيج وعظم شأنه في أيّام معاوية بن أبي سفيان.

(ق110) هما في (أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها) و(تاج العروس)، والأوّل فقط منهما في (نثر الدّرّ) للآبيّ. وروىٰ ابن عبد الحكم (257هـ) في (فتوح مصر والمغرب) بيتين (ق69) لمجهول خولانيّ من صدر الإسلام، هما بتمامها في (فتوح مصر وأخبارها) للمؤلِّف نفسِهِ، وكذلك ساق نشوان الحميريّ (573هـ) بيتين في (شمس العلوم) (ق112) هما في (منتخبات في أخبار اليمن) في موضعين.

وفي (البيان والتَّبيين) للجاحظ (255هـ) بيتٌ يتيم أنشده الأصمعيُّ لخولانيٍّ (ق113)، وهو عند الزّمخشريّ (538هـ) في (ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)، و(التّذكرة الحمدونيّة) لابن حمدون (761هـ) أيضاً.

3ـ توثيقُ الهَمْدَانيِّ وما جاء في مُصَنَّفاته:

قبل الولوج في الكلام علىٰ الهمدانيّ وما جاء في تصانيفه، يحسن بنا التّنبيه علىٰ أمرٍ مهمّ؛ فحواه: أنّ الحديث عن مكانة الرّجل وعِظم شأوه وما كتبه بريشته لم يكن بالمستحدث من الأمر ههنا؛ إذ سبق إلىٰ التّنبيه علىٰ خطره وسموق مكانته وبسط القول فيه غير باحث[1]. وعلىٰ الرغم من هذا، ولأجل توثيق ما رواه الهمدانيُّ من شعر وأخبار لقبيلة خولان في مصنَّفاته التي انتهت إلينا ـ وعليه كان المعول وحدَه ـ وجدت نفسي منصاعاً لتدوين ما يُثبت صدقَ روايتِهِ، ولا سيّما أنَّ الناظر فيها يرىٰ أموراً منافية لمنهجه الذي يلامس الصَّواب، فتلقي عليه الحيرة بظلالها، وتخيّم الشّكوك التي قد توصله إلىٰ ما يوقعه في التّناقض حول شخصيّة الرّجل وعلمه، فيذهب إمَّا إلىٰ تخطئته ـ وهذا ممّا لا يتّفق مع ما كتبه عنه العلماء القدامىٰ من مقالات نفيسة عالية ـ، وإمَّا إلىٰ عزو تلك الأمور إلىٰ النّسَّاخ أو المختصِرين؛ من مثل محمّد بن نشوان الحميريّ الذي اختصر الإكليل.

فممّا قاله العلماء في مؤلّفاته مقالة الوزير جمالِ الدّين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القِفْطي (646هـ) في كتاب الإكليل: «هو كتاب عظيم الفائدة يشتمل علىٰ عَشَرَةِ فنون، وفي أثناء هذا الكتاب جمل حسان من حِسَابِ القِرانَاتِ وأوقاتها، ونبذ من علم الطّبيعة، وأصول أحكام النّجوم، وآراء الأوائل في قِدَمِ العالَم وحدوثه، واختلافهم في أدواره في تناسل النّاس ومقادير أعمارهم أو غير ذلك»[2]. وكذا مقالته أيضاً في مناسبة أخرىٰ عن الإكليل: «وهو كتابٌ جليلٌ، عزيزُ الوجود، لم أر

---

(1) سبقني إلىٰ هذا حمد الجاسر في بحث نشره في مجلّة المجمع العلميّ بدمشق 36، 533 ـ 554، والقاضي محمد بن علي الأكوع الحوالي في بحث مماثلٍ نشره في المجلّة نفسها 51، 402 ـ 403، وانظر: شعراء حمير (الدّراسة) 204، ومجلّة التّراث العربيّ (95) 2004 ـ ص200، والموسوعة العربيّة، مج 21، ص518.

(2) كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء: 13.

منه إلا أجزاء متفرّقة وصلت إليّ من اليمن»[1]. ويعزو ابن القفطيّ ندرة وجود هذا العِلْق النّفيس في رفوف المكتبة العربيّة لوجود المثالب المذكورة فيه عن بعض قبائل اليمن، التي أعدمت كلَّ ما وجدَتْهُ من الكتاب الذي تعرَّض لها بالقدح والذّم، فتتبّعوا إعدام النّسخ منه، فحصل نقصه[2]، ولم يصل إلينا كاملاً.

يضاف إلىٰ ما سلف مقالته في كتاب الهمدانيّ الموسوم بـ «أيّام العرب» بأنّه «كتاب جميل»[3]، ثمّ يعطف بقوله ـ بعد أن سَمَّىٰ عدداً من تآليف الرّجل[4] ـ: «وله من التّصانيف الشّاذّة إلى البلاد ما يكثر، ولا يكاد يعرفه إلّا أهل اليمن، وله كتاب القصيدة الدّامغة النونية علىٰ مَعَدّ والفُرْس، وهي قصيدة طويلة، وقد شرحها ولده، وفيها علم جَمٌّ»[5]. وهي من أتمِّ المطوّلات التي انتهت إلينا من تركة شعراء اللّسان العربيّ، وفي شروحاتها مقطّعات ونتفٌ شعريّةٌ ليست في غيرها مِن التّصانيف؛ من مثل أشعار للأعشىٰ الكبير ليست في ديوانه، وأخرىٰ عظيمة الفائدة قد قيلت قبل الدّامغة؛ «مثل قصيدة الكميت الأسديّ ودِعْبِل الخزاعيّ والأعور الكلبيّ، وهاتيك القصائد أمدت أدبنا برافدٍ غزيرِ العيون، مستمر الجريان، ثمّ حُجِبَتْ عنّا فيما حُجِبَ من ذخائر نفيسةٍ وأعلاق عزيزةٍ، فلم ينته إلينا إلا النّزر اليسير»[6]. وكذا الأمر أيضاً فيما يخصُّ تحضُّرَها أخباراً لقبائل العرب اليمانيّة، وأيّاماً منها ما ذكر في تآليف الأيّام والوقعات، ومنها ما غفلت عنه تلك التّآليف، وكان جديداً في هذه الدّراسةِ لأيّام القبيلة وعلاقاتها.

أمّا عظم الرّجل وخطره، فقد كان أبو محمّد الحسن بن أحمد الهمدانيّ (334هـ) ـ المشهور بلسان

---

(1) إنباه الرّواة علىٰ أنباه النّحاة: 1/ 317.

(2) انظر: إنباه الرّواة علىٰ أنباه النّحاة: 1/ 318.

(3) إنباه الرّواة علىٰ أنباه النّحاة: 1/ 318.

(4) منها: كتاب المسالك والممالك باليمن، كتاب القوىٰ في الطّب، سرائر الحكمة في صناعة النّجوم، كتاب الجواهر العتيقة، كتاب الطّالع والمطارح.

(5) إنباه الرّواة علىٰ أنباه النّحاة 1/ 318. والدَّامغة: الأصل فيها الدّمغ، وجاء عند الزَّبيديّ: «ودمغ فلاناً يَدْمَغُهُ دَمْغاً: ضرب دِمَاغه وكسر صاقورَتَهُ. وقيل: الدّمغ: الأخذ والقهر من فوق؛ كما يدمغ الحقُّ الباطلَ، وقد دمَغَهُ دَمْغاً: أخذه من فوق وغلبه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 18]». وقد وُسِمت قصيدة الهمدانيّ بالدّامغة؛ لأنّه دفع بها الكميت الأسديّ وغلبه وكسر شوكته في قوله:

وَدَامِـغَـةٍ كَـمِثْلِ الفِهْرِ تَهْـوِي ... عَـلٰى بَـيْـضٍ فَـتَـتْـرُكُـهُ طَحِيْنَا

تَـرُدُّ الـطُّـولَ لـلأَسَـدِيِّ عَرْضاً ... وتَـقْـلِـبُ مِـنْـهُ أَظْـهُـرَهُ بُطُونَا

انظر: الدّامغة 42.

(6) الدامغة: بحث في مجلة التّراث العربي الصّادرة عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، العدد 95، سنة 2004، ص200.

اليمن، وبالنَّسّابة، وبابن الحائك[1]، وبابن الدُّمينة - الأديبَ، النحويّ، المنجِّم، الإخباريّ، اللُّغويّ اليمنيّ، وهو «شاعرٌ يمانيٌّ عباسيٌّ مُفْلِقٌ فحلٌ، مُحْسِنٌ في تصريف القوافي، قابضٌ بنواصيها، وأديبٌ فَطِنٌ بتوليد المعاني، مولَعٌ بابتكارها، ولغويٌّ مُتبَحِّرٌ في لسانه، ونحويٌّ حَذِقٌ بأنحاء العربيّة، ونسّابة لم يبلغ شأوه غيرُهُ، عليه كان المعوّل في أنساب... [الخولانيين]، وفيلسوفٌ ممنوحٌ علم الفلسفة، مُهَيّأ طبعه للعناية به، وجُغْرَافيٌّ مُنَقِّبٌ بَحّاثة، وأثريٌّ فكَّ طِلَّسمات الخطِّ المُسْنَدِ، وأنطقَ حروفَهُ، وأحْيا لِسَان حِمْيَر، ومنجّمٌ بارعٌ»[2].

وقيل فيما قيل عنه: إنّه «نادرة زمانه، وفاضل أوانه، الكبير القدر، الرّفيع الذِّكْر... ولو قال قائل: إنّه لم يخرج اليمن مثله لم يَزِلَّ؛ لأنَّ المنجِّمَ من أهلها لا حظَّ له في الطبِّ، والطّبيب لا يَدَ له في الفقه، والفقيه لا يَدَ له في علم العربيّة، وأيّام العرب وأنسابها وأشعارها، وهو قد جمع هذه الأنواع كلَّها، وزاد عليها»[3]. وها هو ذا الحافظ جلال الدين السّيوطيّ يثبت مقالة الخزرجيّ في الهمدانيّ قائلًا: «هو الأوحد في عصره، الفاضل علىٰ مَنْ سبقه، المبرِّز علىٰ مَنْ لحقه، لم يولد في مثله علماً وفهماً ولساناً وشعراً وروايةً وفكراً، وإحاطة بعلوم العرب من النّحو واللّغة والغريب والشّعر والأيّام والأنساب والسِّيَر

---

(1) لقب بابن الحائك لحوكه الشّعر؛ إذ كان سليل أسرة توارثت حوك القوافي وتثقيفها، وجدّه سليمان بن عمرو المعروف بابن الدّمينة أبياتٌ في الحكمة مستجادةٌ مستحسنةٌ، تغصُّ بالمعاني الشّريفة الجليلة؛ منها قوله:

إذا المَرْءُ لم يَسْتُرْ عن الذَّمِّ عِرْضَهُ	ببلغة ضيفٍ أو بحاجة قاصدِ
فما المال إلا مُظْهِرٌ لعيوبِهِ	وداعٍ إليه من عدوٍّ وحاسدِ
وما المرء محموداً علىٰ ذي قَرَابة	كفاه مُهِماً دون نَفْعِ الأباعدِ
ومن لا يُوَاتِيْهِ علىٰ الجود وجدُهُ	فإنَّ جميلَ القولِ إحدَىٰ المحامدِ

الإكليل 10/ 166 - 167 وعنه في الموسوعة العربيّة - مج 21، 518، ومجلة التّراث العربي العدد (95) السنة (24)، الصفحة 201، وبهذا لم يكن أبوه حائكاً، ولا أحدٌ من أهله ولا في أصله حائكٌ، وإنّما هو لقب لمن يشتهر بقول الشّعر وقرضه؛ انظر إنباه الرّواة علىٰ أنباه النّحاة 1/ 314. في حين ذهب الأب أنستاس ماري الكرملي مذهباً مختلفاً حينما قال في ترجمة الهمدانيّ: «والذين ذكروه باسم ابن الحائك أرادوا تحقيره؛ لأنّ الأقدمين كانوا يحقّرون الصّنائع، بخلاف أقوامنا في العصور المتأخّرة...» الإكليل 8/ 297.

(2) انظر: ترجمة الهمدانيّ في إخبار العلماء بأخبار الحكماء: 113، معجم الأدباء 1037، مختصر تاريخ دمشق 11/ 150، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المشهور بالخطط المقريزيّة 2/ 14، معجم المؤلّفين 538، كشف الظّنون 144، 785، 972، 983، 986، 1338، 1415، 1822، 2050، بغية الوعاة 1/ 421، إيضاح المكنون في الذّيل علىٰ كشف الظّنون 1/ 362، الأعلام 2/ 179، مجلّة التّراث العربي، العدد (95)، الصفحة (201).

(3) إنباه الرّواة علىٰ أنباه النّحاة 1/ 314.

والمناقب والمثالب، مع علوم العجم من النّجوم والمساحة والهندسة والفلك»[1]، بل إنّ «هذا الرّجل أفضل من ظهر ببلاد اليمن،... كان من أهل اللّغة، [والأيّام والأخبار العزيزة التي تفرّد بروايتها وتدوينها]، يدلُّ علىٰ ذلك قصيدة الدّامغة»[2]، التي انتهت إلينا في ستمئة بيتٍ وبيتين، والنّاظر فيها يجد غزارةً في القوافي، وتنوّعاً عجيباً ينمّ علىٰ شاعرٍ كبيرٍ، ومعانٍ شريفةٍ رُزِقَهَا الهمدانيّ، وتشبيهات مناسبة للأغراض المطروقة، وفخامة في الألفاظ، ومتانة في سبك الأبيات وصياغتها، وقد بلغت أشعاره من الاشتهار ما دفع الحسين بن خالويه بعد وفاة الهمدانيّ إلى الرّحيل لتحصيلها من العراق إلىٰ اليمن، وفي هذا يقول القِفطيُّ: «ولما دخل الحسين بن خالويه الهمدانيّ النّحويّ إلىٰ اليمن، وأقام بها بِذَمَار، جمع ديوان شعره، وعَرَّبه وأعربه، وهذا الدّيوان بهذا الشّرح والإعراب موجودٌ عند علماء اليمن، وهُمْ به بخلاءُ، وشعره يشتمل في الأكثر علىٰ المقاصد الحسنة، والمعاني الجزلة، والألفاظ والتّشبيهات المصيبة الأغراض، والنّعوت اللّاصقة بالأغراض، والتّحريض المحرّك للهمم المِرَاضِ، والأمثال المضروبة، والإشارات المحجوبة، والتّصرف في الفنون العجيبة»[3].

ويُعَدُّ الهمدانيُّ من المتبصّرين بنقد الشّعر وفهم معانيه، ومعرفة ضعيفه من قويّه، ومُصَفَّاهُ من مُكَدَّرِهِ، يدلُّ علىٰ ذلك ما جاء في شرحه البيت 561 من قصيدة الدّامغة، حينما ذكرَ الخليلَ بنَ أحمدَ الفراهيديّ ونعتَ شِعْرَهُ بالضّعف والخور؛ فقال: «وهو حكيم المسلمين وفيلسوفهم، وصاحب العروض الذي علّم به الصّبيان قول الشّعر، ولكنّ شِعْرَهُ ضعيفٌ لا نَفَسَ له؛ لأنّه كلامٌ مُرَتَّبٌ، وليس الشّعر إلّا ما دَسَعَ بَيْتَهُ طبعٌ، فخرج البيتُ علىٰ كماله مثل السّهم المارق من الرَّمْيَةِ»[4]. فإذا كان هذا النّص لا يكفي للقطع بشاعريّة الرّجل ونقده؛ فإنّ الأقوال السّالفة التي وردت عن بعض أهل العلم فيه، تحدو بنا إلىٰ القطع بعلم الرّجل وتبحُّرِهِ بعلوم العربيّة، وشاعريّته الملموسة في تضاعيف قصيدة الدّامغة، التي قال عنها محقّقُها ومُبَرِّئها من علل التّصحيف والتّحريف، الواقفُ عند الغريب فيها: «أَلِفَ النّاظر في القصائد المطوّلات ذوات المئين من الأبيات، أن يرىٰ ضعفاً يدبُّ في أوصالها، وفي قوافيها، وتكراراً في مبناها ومعناها، وضعفاً يتفشّىٰ في ثناياها، تكاد تتقطّع حَرَجاً له أنفاس الشّعراء، كأنّما يَصَّعَّدُونَ في السّماء، إلا مَنْ كانت له شفاعة من طبعٍ فُطِرَ عليه، وغزارة من قوافٍ ومعانٍ رُزِقَها، وقد كان الهمدانيُّ في مطوّلته ذاك الرّجلَ؛ إذ يحار المرءُ ـ وهو يُسَرِّحُ طَرْفَهُ فيها ـ في قوة إحكامها،

---

(1) بغية الوعاة 1/ 421.

(2) إخبار العلماء بأخبار الحكماء 113.

(3) إنباه الرّواة 1/ 319 وعنه في مجلّة التّراث العربيّ ـ العدد (95)، ص203.

(4) شرح قصيدة الدّامغة 563، مجلّة التّراث العربيّ، ص203، وفيها ترقيم البيت 560 الذي دللنا عليه فيما سلف. دسع: دفع.

وحسن سبكها، وفخامة لفظها، فلله أنت يا أبا محمّد!»[1].

أمّا ما أُخِذَ علىٰ أبي محمد الهمدانيّ من هناتٍ وهفوات ـ ولكلِّ جوادٍ كبوةٌ ـ من قبل أهل العلم والفضل، فأمورٌ عِدَّةٌ[2]:

يأتي في مقدّمتها ما وَقَفَ عليه يحيىٰ بن الحسين (1099هـ) أشهر علماء الزّيديّة في كتابه (طبقات الزّيديّة) من أنَّ الهمدانيّ «أكثر تصانيفه لا يخليها من التّعصب لقحطان علىٰ عدنان، حتىٰ خرج إلىٰ الكذب، وكان مشهوراً بالكذب في الأنساب مع معرفته بها...، ومِن كَذِبِهِ أنّه ذكر في بعض مصنّفاته في فضائل قحطان، إنكاره دخول الحبشة اليمن وصنعاء، وقال: العرب أرفع شأناً وأقوىٰ مكاناً من أن يدخلهمُ الحبشة، وإنَّما دخلوا من ساحل جُدَّة إلىٰ مكّة»[3]. وقد صارت إلىٰ أحدهم قطعة مخطوطة من الإكليل لـمّا تنشر ـ إن صحت نسبتها للهمدانيّ ـ ولم تكن من تدليس الرّواة عليه، فيها ما نبَّه عليه صاحب الطّبقات بعدم دخول الأحباش إلىٰ اليمن، وأنَّ القصة من عمل المتحاملين والكارهين المبغضين؛ يقول الهمدانيُّ تحت عنوان فِقْرَةٍ (ذكر قذفهم اليمن بالرّوايات والبهتان، وإجابتهم بأصحّ الرّوايات والبرهان): «تزعم النّزاريّة من قبيح الدّعوىٰ، وعلىٰ خبيث ما تُكِنُّه لإخوانها من قحطان من العداوة والبغضاء، أنَّ الحبشة دخلوا اليمن وملكوه ثمانين سنة، وأنّ الحبشة لم تزل في اليمن حتىٰ وصل سيف بن ذي يزن بثمانمئة رجلٍ من فارس، فقتلوا من الحبشة مئة ألف كانوا باليمن، وأنّ وَهْرز رمىٰ كبير الحبشة عندما نزل من الفيل والفرس، وصار علىٰ بغلٍ، فرمَاه وقتلوا الحبشة عن آخرهم، وتطابقوا هم والفرس»[4].

---

(1) انظر: (الدامغة) بحث في مجلة التّراث العربيّ ـ العدد 95، سنة 2004، الصّفحة 204 وما بعدها.

(2) انظر شعراء حمير (الدّراسة) 206.

(3) ساق هذا الكلام الشّيخ حمد الجاسر في أثناء تقديمه لمطبوع صفة جزيرة العرب: 15، نقلًا عن مخطوط كتاب (طبقات الزّيديّة) الموجودة في دار الكتب المصريّة 28، 61.

(4) سقت بهذا الكلام من شعراء حمير (الدراسة) 206 الذي نقله صاحبها عن القطعة المخطوطة من الإكليل التي كانت في حوزته، وفيها بعد ذلك: «وأن موجب كون الفرس في بادية صنعاء ـ بزعمهم هذا الوجه ـ وتواردوا جميعاً علىٰ هذه الرّواية المستحيلة، والحكاية الكاذبة. أمّا الفرس فأرادت أن تتخذ بذلك يداً علىٰ أهل اليمن، لا أصل لها، وأمّا النّزاريّة فَلِمَا يَسرُّهم من قبيح الأحدوثة علىٰ أهل اليمن، وقد كذّبوا ذلك بقبيح رواياتهم؛ لأنّهم لم يُثبتوا ذلك في أيّ وقت كان، أقبل عام الفيل أم بعده؟ لأنّه لا خلاف عند أهل العلم في عام الفيل، وأنَّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل، فإن يكن ما يروون من دخول الحبشة اليمن قبل عام الفيل، فقد بطل قولهم؛ لأنّهم ذكروا أنّهم لم يزالوا في اليمن حتىٰ وصل سيف بن ذي يزن بثمانمئة فارس، فقتلت مئة ألفٍ من الحبشة، وحينئذٍ استقرّ سيف بصنعاء، وقدم عليه عبد المطّلب مهنّئاً له بالظّفر علىٰ الحبشة، فبشَّره سيف برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذٍ ابن بِضْع سنين، قد مات أبوه وأمُّه، وكفله جدّه عبد المطّلب وعمّه أبو طالب.

وذكر الهمدانيُّ في الموضع نفسه أنّ دخول الفرس إلى اليمن لم يكن لنجدة سيف بن ذي يزن ونصرته علىٰ الحُبْش، وإنما فرَّ عددٌ منهم مستجيرين بسيفِ الحميريّ؛ فقال: «وأمّا دخول فارس اليمن، فإنّهم خرجوا عن أمر كسرىٰ في طلب بكر بن وائل، فلمّا رأت بكر ذلك رموا بأنفسهم علىٰ كسرىٰ، فأمّنهم وكتب إلىٰ وَهْرِز يكفّ عن طلبهم، فغضب وَهْرِز ومن معه من أبناء فارس، وأُلْحِقُوا بسيف بن ذي يزن بصنعاء، فاتّخذهم جُنْداً، فغضبت هَمْدان في ذلك، فلمّا كان بعد ذلك بزمنٍ جَرىٰ بين قومٍ من حمير وبين الأبناء مشاجرة، فَغُضِبَ الأَبْنَاءُ علىٰ الانصراف من جوار صنعاء، ورحلوا حتّىٰ صاروا بالبَوْن، وأمسكهم هَمْدَان، وبذلوا لهم مقاضاة لما فعله حمير وسيف بن ذي يزن، وإرغاماً منهم لحمير، وتحالفوا علىٰ التّناصر والتّظاهر، فهم كذلك إلىٰ اليوم»[1].

وممّا أخذه الشيخ حمد الجاسر علىٰ الهمدانيّ: «تصرّفه في الشِّعر وإيراده بروايات مختلفة؛ ففي شرح الدّامغة أورد أبياتاً لعلقمة تختلف عن إيراده لها في الإكليل... بلْ صَـرَّح بمثل هذا؛ فقال عن أرجوزة الرَّداعيّ: [ما كان معيباً من جهة الاضطرار ولا فائدة فيه، فقد ثَقَّفْتُهُ وأصلحته]، ومن أسوأ أنواع

وكيف يكون ذلك قبل عام الفيل علىٰ هذه الصّفة؟! أَوُطِّن الحبشة في اليمن وأصحاب الفيل بمكّة؟! فذلك أقومُ للعار عليهم، وأشدُّ استطاراً لأصحاب الفيل؛ إذا كان لهم في اليمن من قومهم من قد قطن ثمانين سنة أو قربها. وفي الإجماع أنه لم يأتِ علىٰ سيف بن ذي يزن ـ ومن تقدّم عبد المطّلب إليه ـ رأسُ الحول حتّىٰ هلك، فهذا مستحيل، لا تحقيق له ولا دليل. وإن قالوا: إن كان دخول الحبشة إلىٰ اليمن بعد عام الفيل، فذلك أبطل لقولهم وأدْحض لحجّتهم؛ لأنّه لم يكن بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم للحبشة خبر، ولا يصحّ لهم ذلك ولا أثرٌ، وذلك أنّهم أقاموا باليمن ثمانين سنة، والنّبيّ صلى الله عليه وسلم لم يقم بعد موت جدّه إلّا نيّفاً وثلاثين سنة ونزل عليه الوحي، فقد كذّب أصحاب هذه الرواية أنفسهم، واكتفينا عن إجابتهم. وإنّما الخبر الصحيح في الحبشة وسبب خروجهم من بلدهم إلىٰ اليمن علىٰ ما رُوِي عن أبي معشر الفلكيّ أنّه رواه غيره: أنّ ذا نواس كان علىٰ دين اليهوديّة، فبلغه أن أهل نجران علىٰ دين النّصرانيّة، فخرج إليهم، وأمر بأخدود فاحتفرها، وملأها ناراً، وعرض النّاس عليها؛ فمن تابعه علىٰ دينه خلّىٰ سبيله، ومن كره ذلك ألقاه في النّار. فخرج قَيْلٌ من أقيال اليمن يقال له: (ذو ثعلبان) غاضباً لدينه، مستنصراً بملوك النّصارىٰ علىٰ دين ذي نواس، فصار إلىٰ ملك الحبشة ـ لم يلحقه أحدٌ من قومه ـ فحكىٰ لملك الحبشة [فقال]: لست بقاطع معك أمراً إلّا برأي ملك الرّوم؛ وذلك أنّهم علىٰ دين واحد، فخرج ذو ثعلبان إلىٰ قيصر وأعلمه، فكتب معه إلىٰ ملك الحبشة لقربه من اليمن: أن جهّز العساكر... إلىٰ البيت الذي تحجّه العرب ـ إن قدرت علىٰ ذلك ـ وأعلمني.
فجهّز مئة ألف رجل.. حتّىٰ نزلوا في ناحية جُدّة متوجّهين إلىٰ البيت، فلم يسمع بهم عربيٌّ إلّا خرج لقتالهم إلّا ذو نواس، فإنّ الله رمىٰ حَلْقَه بداهية يقال لها: الخُنَاق، فمات منه، وافترق بعده أمر حمير وقتاً قريباً». انظر: شعراء حمير (الدراسة) 207، نقلاً عن الإكليل المخطوط 75 ـ 76.

(1) شعراء حمير (الدراسة) 208 نقلاً عن قطعة الإكليل المخطوطة 77. ولكن كيف لنا أن نقبل بأنَّ ثمانمئة رجل من فارس قتلوا مئة ألف فارس حبشي، حتىٰ لو التقوهم متفرقين، وأن الأحباش لم يقتلوا أحداً من هؤلاء الفرسان الفرس؟! وهذا ممّا يدلّ علىٰ أن في الخبر غلوّاً صريحاً وتضخيماً عجيباً.

التّصرّف تغيير أسماء المواضع»[1]. بل كان الأمرُ أعظمَ من هذا حينما روىٰ الهمدانيٌّ قصيدةً ليعلىٰ بن سعد المالكي في الجزء الأوّل من الإكليل، ثمَّ روىٰ معظم أبيات القصيدة بالرّواية نفسها، لكن مع إدخال بعض الاختلافات والتّغييرات الطَّفيفة في الجزء الثامن من الإكليل، حتّىٰ إنّه أضاف أبياتاً لم تكن موجودة في رواية الجزء الأوّل، وحذف أخرىٰ كانت في الرّواية نفسها. وكذا الأمر في روايته بيتاً لعمرو بن زيد الغالبيّ في الجزء الأوّل من الإكليل، ورواه في الجزء الثامن برواية جديدة، ثمَّ عاد يرويه في الدّامغة برواية مخالفة للرّوايتين السَّابقتين.

وأخذ عليه الشّيخ محبّ الدّين الخطيب نزعته لقومه، وتعصّبه لأهل اليمن ولا سيّما همدان، وفي هذا يقول: «وأَثْبَتُ نزعاتِ الهمدانيِّ همدانيَّتُهُ ويمنيّته؛ فهي لونه الثابت الذي كان يحبُّ أن يصبغ به كلَّ ما يقع نظره عليه، ومن هنا أتىٰ،..... وأنا قد راقبت المؤلف [الهمداني] فرأيته يثبت حقائق العلم علىٰ صحتها ما استطاع في كلِّ ما لا يمس همدانيته ويمنيته؛ فإذا لامس العلم هذا الجانب الحسّاس من المؤلف وجد فيه ضعفاً، نرجو الله سبحانه أن يغفر له»[2].

وسأقف عند أقوال العلماء ـ طيَّب الله ثراهم ـ وأناقشها في حدود معرفتي لشخصيّة الهمدانيّ، من خلال ما أنبأتنا به مصنَّفاته.

فأمّا ما ذكره يحيىٰ بن الحسين من إنكار الهمدانيّ دخول الأحباش الصّقع اليمانيّ، فإنه إمَّا أن تكون مقالةُ الهمداني صحيحةً، وحكايةُ الأحباش ودخولهم اليمن فِرْيَةً من افتراءات النّزاريّة علىٰ اليمانيّة، وإمّا أنَّ ما انتهىٰ عن الهمدانيّ من قطعة الإكليل المخطوطة مدسوسٌ عليه، وليس له فيها نصيبٌ؛ لأنَّ شهرته التي نالها والمنزلة التي أُنْزِلَهَا عند رؤوس خولان حينما أقام بصعدة، أثارت حسد شعراء صعدة وبغضهم، و(صعدة) مقر الإمام العلويّ الزَّيديّ، النَّاصر لدين الله أحمد بن يحيىٰ (325هـ)، وساق الشَّيخ محبُّ الدين الخطيب في ذيل ترجمته السّالفة للهمدانيّ نقلاً عن الخزرجيّ قوله: إنَّ الهمدانيّ «في مدَّة إقامته بصعدة هاجىٰ شعراءها، فنسبوا إليه ما أوَّلوه تقصيراً في حقِّ سَيِّد الخلق صلى الله عليه وسلم»[3].

---

(1) صفة جزيرة العرب: 12.

(2) انظر مَبْدَأ الشَّيخ محبّ الدّين الخطيب للجزء العاشر من الإكليل وترجمته للهمداني فيه، (الدّار اليمنيّة للنّشر والتّوزيع) التي نشرت هذه الطبعة عارية عن اسم المحقق 20، وعنه في المقدّمة القشيبة للشّيخ حمد الجاسر في صفة جزيرة العرب: 11.

(3) انظر: الإكليل 10/ 23.

فإذا كان الأمر بهذا التّوجه، فلا غرو أن يقال علىٰ لسان الهمدانيّ ما قيل من أمر دخول الأحباش اليمن وإنكاره لذلك.

وأمّا ما جاء في تفضيله قحطان علىٰ عدنان، فعائدٌ إلىٰ هؤلاء الشُّعراء الصَّعديين الذين دسُّوا له الإمام النّاصر لدين الله أحمد بن يحيىٰ، وأضافوا إلىٰ قصيدته التي يفخر فيها بقحطان أبياتاً تمسّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، وفي هذه المناسبة يقول الشّيخ حمد الجاسر عن تأثير قصيدة الدّامغة في عدنان ـ إذ غلب الهمداني شعراءهم وقهرهم، وأثبت فيها محامد قحطان ومكرماته ـ: «لا شكَّ أنَّ «الدّامغة» هي التي فتحت علىٰ الهمداني أبواب الطّعن وسبل الاتهام؛ ولهذا وصفه الزيديون بأنّه كان سبّاباً لأهل البيت، وطعنوا في خلقه ورموه بالكذب»[1]. ولو صحَّ أنّه قال هذا الشِّعر لانفضت عنه قبيلة خولان التي أكرمته وانتصرت له، وتحوطته برعايتها، وهي التي طلبت فيما بعد من الإمام النَّاصر أن يطلق سراحه، هذا في الرَّاجح لدينا؛ لأنَّ عصبيته للقحطانيَّة ـ في حقيقة أمرها ـ لم تكن لتبلغ به هذا المبلغ، لولا أنّه من أهل العلم والفضل والأخلاق الحميدة، وهي من الأوصاف التي شهد له بها ثلّةٌ من علمائنا القدامىٰ. وكثيراً ما تنعدم معايير الحقِّ والإنصاف عند أصحاب المذاهب والنّحل، ولا سيّما أنّ صاحب الطّبقات المذكور آنفاً من علماء الزّيديّة[2]، وبينه وبين الهمداني بونٌ شاسع ليس بهيِّن.

وأمّا إنشاد الهمدانيّ الشّعر بروايات مختلفة، فلا ريبَ عائدٌ إلىٰ اتّساع حفظه للشّعر وروايته له، ولم يكن في مقدوره أن يلاحظ كلَّ اختلافٍ يمرُّ به، هذا من ناحية، أمّا من ناحية ثانية فهو ناقل كغيره، مطّلع علىٰ سجلّاتٍ وزبرٍ فيها الحابل والنّابل، يضاف إلىٰ ذلك اعتماده علىٰ أشعار الشّعراء الذين ذكروا أسماء المواضع والأمكنة في أشعارهم، فتعرّفها الهمدانيّ وثبّتها في مجلّدةٍ، وهذه هي حال كثيرٍ من الجغرافيّين الذين وقفوا علىٰ أسماء المواضع، وما تثقيفه ما كان مَعِيْباً من أرجوزة الرّداعيّ وإصلاحه إيّاه إلّا لأنّه عمله وصنعتهُ؛ فهو عالمٌ بعلوم العربيّة، محسنٌ في تصريف القوافي، نحويٌّ حذقٌ بأنحاء اللّغة، والذي يقع نظره علىٰ خطأٍ ما في قصيدة شعر أو وهم، لا يقف عنده، بل يثقّفه أو يهذِّبُهُ؛ حتّىٰ يصير معافًى بريئاً من العلل، وما أكثرها في أشعار المتأخّرين! وخصوصاً في أرجوزة الرداعيّ التي بلغت المئتين من الأبيات، وفيها أشياء كثيرة لا يستحسن تركها، فنبّه عليها الهمدانيّ وأقال عثرتها وصوّب سبيلها.

أمّا ما أخذه الشّيخ محبّ الدّين الخطيب علىٰ الهمدانيّ ونزعته لليمانيّة، وتعصّبه لقومه ولا سيّما

---

(1) صفة جزيرة العرب: 15.

(2) انظر: صفة جزيرة العرب 15.

الهمدانيّة، فليس مِنْ ملامةٍ عليه في هذه النّزعة؛ لأنّه غَيورٌ علىٰ أهله وقومه، وهي غيرة الابن علىٰ الأهل التي لم تبلغ بصاحبها مبلغ التّطرّف والغلوّ، فلا بدَّ أن نتلمّس لصاحبها العذر في هذا التّعصب، ومَنْ منّا لا يملك الهوىٰ منه شيئاً لأمرٍ يحبه أو يشغف فيه؟!

4- ضَيَاعُ شِعْرِهِم:

يقول ابن خلدون: «واعلم أنَّ فنّ الشّعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب؛ ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم، وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم»[1]؛ ولذلك كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يقول: «كان الشّعر علم قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه»[2] وأفضل، وقد بلغت عناية العرب بالشّعر أنّه إذا ما ظهر شاعر في قبيلة ما، وفدتِ القبائل الأخرىٰ تهنئها بنبوغه وظهوره، وفي هذا يقول ابن رشيق القيروانيّ: «وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتتِ القبائلُ فهنّأتها، وصنعتِ الأطعمة، واجتمعت النّساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس... وكانوا لا يهنّئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تُنْتَج»[3]. ويروىٰ من اهتمام العرب بالشّعر أنّ ابن عبّاس رضي الله عنه يقول: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب؛ فإنَّ الشّعر ديوانُ العرب، وكان إذا سئل عن شيءٍ من القرآن أنشد فيه شعراً»[4]. وروي أيضاً أنَّ عائشة رضي الله عنها: «كانت... كثيرة الرّواية للشّعر، ويقال: إنّها كانت تروي جميعَ شعر لبيد»[5].

وممّا يدلّ أيضاً علىٰ اهتمام العرب بالشّعر: ما ذكره ابن قتيبة من أنّ قبيلة تغلب كانت تُحَفِّظ معلّقة شاعرهم عمرو بن كلثوم التّغلبيّ وترويها لكلّ أبناء القبيلة؛ مفاخرين بها غيرَهم من العرب، وظلّوا كذلك حتىٰ هجاهم أحد شعراء بكر بن وائل حيث يقول:

أَلْهَىٰ بني تَغْلِبٍ عَـنْ كـلِّ مَكْرُمَةٍ ... قَـصِيـدةٌ قالها عَـمْـرُو بـن كُـلْـثُـومِ

يُـفَـاخِـرُونَ بِها مُـذْ كـانَ أَوَّلُـهُـمْ ... يا للرِّجالِ لِفَخْرٍ غَيْرِ مَـسْـؤُومِ![6]

---

(1) مقدّمة ابن خلدون 1/ 785.

(2) طبقات فحول الشّعراء 1/ 24، ونحوه في العمدة 1/ 22.

(3) العمدة 1/ 89.

(4) العمدة 1/ 27.

(5) العمدة 1/ 27.

(6) الشّعر والشّعراء 1/ 230، وعنه في رؤىٰ نقديّة في دراسات أدبيّة: 29.

هذا من باب أهمية الشّعر في حياة العرب، أمّا روايته وقوله فيقول الجاحظ: «وكلُّ شيءٍ للعرب فإنّما هو بديهة وارتجال، وكأنّه إلهام، وليست هناك معاناةٌ ولا مكابدةٌ، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنّما هو أن يصرفَ وهْمَه إلىٰ الكلام، وإلىٰ رجز يومِ الخصام، أو حين يمتَح علىٰ رأس بئرٍ، أو يحدُو ببعيرٍ، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراعٍ أو حربٍ، فما هو إلّا أن يصرف وهمَه إلىٰ جملة المذهب، وإلىٰ العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيِّده علىٰ نفسه، ولا يَدْرُسُه أحداً من ولده، وكانوا أمِّيِّين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلّفون، وكان الكلام الجيِّد عندهم أظهر وأكثرَ، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحدٍ في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع... وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذىٰ علىٰ كلام مَنْ كان قبله، فلم يحفظوا إلّا ما عَلِق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتّصل بعقولهم، من غير تكلّفٍ ولا قصد، ولا تحفّظ ولا طلب، وإنَّ شيئاً هذا الذي في أيدينا جزءٌ منه، لبالمقدار الذي لا يعلمه إلّا من أحاط بقَطْر السَّحاب وعدد التّراب، وهو الله الذي يحيط بما كان، والعالمُ بما سيكون»[1].

يفهم من قالة الجاحظ أنّ العرب رواةٌ للشّعر، حفّاظٌ له بطبعهم بلا عناءٍ أو تعبٍ، وإنّ الذي انتهىٰ إلينا من محفوظهم مدوناً في صحائفَ قديمةٍ أشار العلماء إليه، هو غيض من فيض، نبّه عليه ابن سلّام الجمحيّ (231هـ) عن يونس بن حبيب: «قال أبو عمرو بن العلاء (154هـ): ما انتهىٰ إليكم ممّا قالتِ العربُ إلّا أقلُّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثيرٌ»[2].

وأشار ابن سلّام نفسُه إلىٰ أنّه: «لا يحاطُ بشعرِ قبيلةٍ واحدة من قبائل العرب، وكذلك فرسانها وساداتها وأيّامها»[3]. وذهب مذهبه في هذه المقالة ابن قتيبة (276هـ) حينما تحدّث عن كثرة الشّعراء في الجاهليّة والإسلام؛ فقال: «والشّعراء المعروفون بالشّعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهليّة والإسلام أكثر من أن يُحِيْطَ بهم محيطٌ، أو يقف من وراء عددهم واقفٌ، ولو أنفد عُمُرَهُ في التّنقير عنهم، واستفرغَ مجهوده في البحث والسّؤال، ولا أحْسِبُ أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتّىٰ لم يَفُتْهُ من تلك القبيلة شاعر إلّا عَرَفَه، ولا قصيدةٌ إلا رَوَاها»[4]. وقد تبينَّ لنا صدق مذهب ابن قتيبة في كلامه السّالف من مطالعة بعض المصادر القديمة لنا، بالوقوف علىٰ دواوينَ كثيرةٍ لقبائلَ عديدةٍ، من ذلك ما ذكره الآمديّ مبثوثاً في كتابه (المؤتلف والمختلف)، وروايته شعراً للشّعراء الذين ذكرهم في كتابه،

---

(1) البيان والتّبيين 3/ 28، 29.
(2) طبقات فحول الشّعراء 1/ 25.
(3) طبقات فحول الشّعراء 1/ 3.
(4) الشّعر والشّعراء 1/ 61، 62.

وكثيراً ما يذكر أسماء شعراء جاهليين أو إسلاميين، ثم ينبّه علىٰ عدم إيجاده لهم ذكراً أو شعراً فيما بين يديه من الدواوين التي عاد إليها[1].

ومن أمثلة حفظ العرب للشّعر وروايته ما نقله ابن قتيبة بسنده عن أبي حاتم السجستانيّ عن الأصمعيّ عن كرْدِين بنِ مِسْمَع قال: «جاء فتيانٌ إلىٰ أبي ضَمْضَم بعد العشاء، فقال لهم: ما جاء بكم يا خبثاء؟ قالوا: جئناك نتحدَّثُ. فقال: كذبتم، ولكن قلتم: كَبِرَ الشَّيخُ فَنَتَلَعَّبُهُ، عسىٰ أن نأخذ عليه سقطةً!! فأنشدهم لمئة شاعر، وقال مرَّة أخرىٰ: لثمانين [شاعراً]، كلُّهم اسمه عمرو... قال الأصمعيّ: فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر علىٰ ثلاثين! فهذا ما حفظه أبو ضَمْضَم - وهو لا شكَّ كثيرٌ جَمٌّ - ولم يكن بأروىٰ النّاس، وما أقرب أن يكون مَنْ لا يعرفه من الـمُسَمَّيْنَ بهذا الاسم أكثر ممن عرفه! هذا إلىٰ مَنْ سَقَطَ شعره من شعراء القبائل ولم يحمله إلينا الرّواة والنَّقَلَةُ»[2]، مع حفظهم لهاتيك الأشعار الكثيرة، وروايتهم لها إمَّا مشافهة وحفظاً في الصّدور، وإمّا مدوّنة في كراريس وكتب، فقد ضاع جُلُّها، ولم يتفلّتْ من عوادي الدّهر إلا ديوان هُذَيل، وليست هذه برمّتها سوىٰ ثلاثين شاعراً ونيِّف، وهي أقلّ بكثير مما رواه أبو ضمضم لشعراء كلُّهم اسمُهُ عمرو.

ومن أسباب ضياع أشعار العرب قاطبة ما ذهب إليه ابن سلّام من أنَّ مجيء الإسلام وانتشاره في الأمصار شغل النّاس عن رواية الشّعر وحفظه وتداوله في الأسواق، مقارنة بما كان عليه قبل الإسلام؛ فقال: «فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، وَلَهَتْ عن الشّعر وروايته، فلمّا كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّتِ العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشّعر، فلم يؤولوا إلىٰ ديوانٍ مدوّنٍ، ولا كتاب مكتوب، وأَلْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلّ ذلك، وذهب عليهم منه كثير»[3].

---

(1) وقف الآمديّ علىٰ ستين ديواناً لستّين قبيلة، وكذا الأمر عند ابن النّديم الذي عدَّ للسكّريّ ثمانية وعشرين ديواناً لثمانٍ وعشرين قبيلة، ومع هذا لم يستوعبا دواوين القبائل كافّة. انظر: مصادر الشّعر الجاهليّ 543.

(2) الشّعر والشّعراء 1/ 62، 63، وقد سُقت هذه المقالة علىٰ طولها؛ لنفاستها وجودتها فيما يخصّ حفظ النّاس لأشعار شعرائهم ورواياتهم لها.

(3) طبقات فحول الشّعراء 1/ 25، وعلَّق علىٰ مذهب ابن سلاّم هذا، الباحث النّعمان عبد المتعال القاضي بقوله: «هذا القول يجانب الصّواب، ولم يقتصر علىٰ ابن سلّام وحدَهُ، إنّما تابعه فيه كثيرٌ من الدّارسين، حتّىٰ استحال عصر صدر الإسلام لدىٰ بعضهم إلىٰ عصر ركود أدبيّ» شعر الفتوح الإسلاميّة في صدر الإسلام: 171.
أقول: إنّ في مقالة ابن سلّام حديثاً عن فكرة ضياع الشّعر عند العرب الذين لم يولوا اهتماماً بالغاً لحفظ أشعارهم وحمايتها من عوامل الاندثار، وفي مذهبه حقٌّ؛ لأنَّ ما انتهىٰ إلينا من كتب التّراث ومُصَنَّفاته قد تحدّثت عن دواوين القبائل والشّعراء التي تناهبتها أيادي الضّياع، وهذا خير دليل يقدّمه ابن سلّام علىٰ ضياع الشّعر الذي وضعه الباحث النّعمان

وإذا كان انشغال الناس بالفتوح وغزو الأمصار سبباً من أسباب ضياع الشّعر، فإنَّ قلَّة ما وصل إلىٰ الرُّواة من أشعار بعض فحول الجاهليّة أيضاً ليس سبباً، بل هو دليلٌ عنده على الضّياع يقول: «ومما يدلّ علىٰ ذهاب الشّعر وسقوطه قِلَّة ما بقي بأيدي الرّواة المصحّحين لطرفةَ وعَبِيْدٍ، اللذين صحَّ لهما قصائدُ بقدْرِ عشرٍ، وإن لم يكن لهما غيرُهُنَّ فليس مَوضِعُهُما حيث وضعا من الشّهرة والتَّقْدِمَة، وإن كان ما يُرْوَىٰ من الغثاء لهما فليس يستحقّان مكانهما علىٰ أفواه الرُّواة، ونرىٰ أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير، غير أنَّ الذي نالهما من ذلك أكثر، وكانا أقدمَ الفحول، فلعلَّ ذلك لذاك»[1].

إنَّ في كلام ابن سلّام ما يشير إلىٰ ضياع قسمٍ كبيرٍ من أشعار الفحلين، علىٰ ما أُنْزِلاه من مكانة سامقة بين الشّعراء، وقُدِّما علىٰ أقرانهما الذين يعدلونهما في الشّعر والمتانة وحسن السّبك، وغيره من المعايير النّقديَّة المهمَّة. ومن دلائل ضياع الشّعر ما ذكره ابن سلّام أيضاً في طبقاته، ناعياً ما كان من أشعار الفحول التي مُدِحَ فيها النّعمانُ وأهل بيته، وقد تُوورثت في أهله حتىٰ صارت كُلُّها أو شيءٌ

عبد المتعال في غير موضعه الصّحيح؛ لأنه استهلَّ حديثه بمقالة ابن سلّام التي ذهب فيها مذهباً خاطئاً عندما قال: «عصر صدر الإسلام... ركود أدبيّ»، وما كان المراد منه هذا، إنّما كان منه أنَّ الشّعر الذي قالته العرب ـ لو حفظ ودُوِّن ـ لكان أكثر بكثيرٍ ممّا انتهىٰ إلينا في صدر الإسلام، وهو لا يعني ركود صدر الإسلام البتّة. ثُمَّ يذهب بعد ذلك لِيُسْهِبَ في شرح مهمّة الشّعر في صدر الإسلام من أنّه وسيلة نافعة تُتّخذ للذّود عن الدّين الجديد، وتُسَخَّرُ من أجل مجموع المسلمين، ويكون هذا الشّعر بمثابة طاقة نفسيّة تخدم هذه الجماعة؛ فيصبح بذلك ذا قيمة فاعلة في حياة المسلمين، علىٰ عكس ما كان عليه في الجاهليّة من اتخاذه «أُلْهِيَةً تتلهّىٰ به طبقة معيّنة من النّاس» دون غيرها، ثمَّ يعود مرة أخرىٰ للقول: «إنَّ شغل المسلمين عن الشّعر لم يكن إلا نتيجة لمحاولة الإسلام تغيير مفاهيم الشّعر ليتّفق وتعاليمَهُ ومُثُلَهُ، وأن الشّعر عجز عن أن يقدّم للنّاس ما وجدوه في القرآن، فَخَفَتَ صوته» شعر الفتوح الإسلاميّة في صدر الإسلام: 175.

إنّ في مذهب الباحث هذا أشياء لا بدَّ من التّنبيه عليها:

أولاً: عدم توفيقه في استشهاده بمقالة ابن سلّام التي تحدّثت عن ضياع الشّعر؛ لأنَّ حديثه عن مهمّة الشّعر شيءٌ، وما عناه ابن سلّام في مذهبه شيء مختلف.

ثانياً: لم يكن تقصيد القصائد في الجاهليّة أُلْهيةً محصورةً في فئة دون غيرها، إنّما لكلّ قصيدة مناسبة تخصُّها، ودعت إلىٰ قولها، فسجَّل الشّاعر في شعره ما نتج عن تلك المناسبة.

ثالثاً: لم أجد من رابطٍ بين انشغال المسلمين عن رواية الشّعر وحفظه، ومحاولة الإسلام تغيير مفاهيم الشّعر الذي وُظّف لخدمة الدّين الجديد والذّود عنه، وإذا صحّ مذهب الباحث النّعمان في جزءٍ منه فلا يصحّ في كليّته؛ لأنّ أغراض الشّعر جميعها التي سادت في صدر الإسلام ـ ولا أقول: في [عصر صدر]!!! ـ هي امتداد لما كان سائداً في الجاهليّة، عدا تهذيب بعض الأغراض مثل الهجاء والغزل، والدّليل علىٰ هذا ما قاله بعض الشّعراء المخضرمين الذين لم يُبَدِّل الإسلام فيهم كثيراً من أساليبهم وعباراتهم، بل ظلّت طعومُ الجاهليّة تحت ألسنتهم يتمزمزونها في كلّ مناسبة تدعوهم لقول الشّعر. وأما خفوت صوت الشّعر وعدم وجود النّاس في الشّعر ما وجدوه في القرآن، فأقول: إنّ الذين دخل الإيمان إلىٰ قلوبهم وأسلموا إسلاماً صحيحاً كانوا يدركون أنّ الله أبدلهم خيراً من الشّعر، وليس من مقارنة تعقد في هذا الباب، فمن أين سيجدون ما يبحثون عنه في الشّر وقد أبدلهمُ الله القرآن، وهو كتابُ بلاغةٍ وفصاحةٍ وتشريعٍ وأخلاقٍ...؟!

(1) طبقات فحول الشّعراء 1/ 26.

منها إلىٰ بني مروان؛ فقال: «وقد كان عند النّعمان بن المنذر منه ديوانٌ فيه أشعار الفحول، وما مُدِحَ هو وأهل بيته به، صار ذلك إلىٰ بني مروان أو صار منه»[1].

ويمكن أن نعدّ ما سلف من الأسباب العامّة التي أدّت إلىٰ ضياع أشعار العرب وفيها قبيلة خولان، يضاف إليها أسباب خاصّة تشير إلىٰ فقدان أشعار القبيلة، تكمن في بعض النّقولات والإيماءات الواردة في طيّات المصادر التي ساقت هذا النّزر اليسير من أشعار خولان، وقد نبّه أصحابها على أنَّ ما سيق من أشعار مستلٌّ من كثيرٍ، أَخَذَ منه مُؤَلِّفه بقدر حاجته في مؤلَّفه، وتَرَكَ ما ليس له فيه مصلحة، وليته لم يفعل؛ لكان وصل إلينا شعرٌ كثيرٌ، ولا سيّما أنَّ الهمدانيَّ كان الأوحد في تدوين أشعار القبيلة، والمعوَّل عليه في نقل أشعارها وجعلها بين أيدي النّاس.

فمن الأسباب الخاصّة التي أدّت إلىٰ ضياع أشعار خولان: ما أقامه اليمن الذي كان ينضوي تحت لواء الحميريّة (نحو 115 ق.م ـ 625م) من علاقات مع غيره من الأمم المجاورة؛ كالأحباش الذين دخلوا اليمن محتلّين، وأُخْرِجُوا منه سنة (575م)، بمساندةٍ من الفرس للحميريّين، ودخول الرّوم اليمن، ومحاولتهم بسط نفوذهم في حملة إيليوس جالليوس (25 ق.م) التي دامت أشهراً، إلاَّ أنّها باءت بإخفاق ذريعٍ سَبَقَتِ الإشارة إليه.

هذا الاختلاط باللِّسان غير العربيّ لزمن طويل ـ ولا سيّما الفارسيّ ـ هو مظنّة ازورار العلماء عن أشعار خولان، وإعراضهم عن الاحتجاج بعربيّتها، وقلّة الاستشهاد بها في تفسير القرآن وغريبه والحديث النّبويّ الشّريف.

ويمكن تضمين القبائل اليمانيّة الأخرىٰ في هذا السّبب؛ لأَنَّهُ كان عامًّا ويشملُ اليمنَ كُلَّهُ، وما مذحج وهمدان وخثعم إلا أجزاءٌ منه، بل كانت خولان ملاصقةً لحمير ومرتبطةً بعددٍ من بطونها، حتىٰ إنّ عدداً من البطون الخولانيّة انتسبت إلىٰ حمير؛ لإقامتها معها في صقع واحدٍ، يَصْعُبُ علىٰ المرء الفصلُ بينهما؛ لما لهما من الاندماج والتّماهي.

ثمّ إنّ في مقالة أبي عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيَّتهم بعربيّتِنَا»[2] سبباً في عزوف العلماء عن رواية أشعار خولان؛ لأنّ قبيلة خولان تمتدّ علىٰ أطرافٍ شاسعة من الصّقع اليمانيّ، وتكون بهذا الامتداد مُتَضمّنَةً في أقاصي اليمن، علاوة علىٰ انضوائها تحت لواء

---

(1) طبقات فحول الشّعراء 1/ 25.

(2) طبقات فحول الشّعراء 1/ 11، المزهر 1/ 174.

الحميريّة واحتبائها فيه. يضاف إلى هذا أنّها من أقدمِ القبائل الجنوبيّة وأكثرِها انتشاراً، و تعود إلىٰ الألف الأوّل قبل الميلاد[1]، وهو ما يعني أنها موجودة بذاتها قبل نشوء دولة حمير العظيمة (115 ق.م)، وما كلام أبي عمرو علىٰ لسان حمير وأقاصي اليمن إلّا كلامٌ علىٰ خولان التي تمتدّ في قدمها إلىٰ أبعد من حمير زمناً، ولا سيّما أنّ استشهاد ابن سلّام بكلام أبي عمرو كان في معرِض نفيه وجود شعر لأوائل العرب القدامىٰ ـ عاد وثمود ـ يقول: «ولا نجد لأوَّليّة العرب المعروفين شعراً، فكيف بعاد وثمود؟... وقال أبو عمرو بن العلاء في ذلك: وما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا...»[2]، وفي موضع آخر قال: «لم يكن لأوائل العرب من الشّعر إلا الأبيات يقولها الرّجل في حاجته، وإنّما قُصِّدَتِ القصائد وطُوِّل الشّعر علىٰ عهد عبد المطّلب، وهاشم بن عبد مناف، وذلك يدلّ علىٰ إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتُبّع»[3]. فإذا كانت خولان أكثر قِدَماً من حمير وأعمق زمناً منها، وقد سقطت أشعار الأخيرة، وجُعِلَتْ في فئة عادٍ وثمود في القُدْمَةِ، فكيف الحال بأشعار خولان، وهي العائدة إلىٰ الألف الأول قبل الميلاد؟! وهذا لا يعني عدم وجود حمير قبل هذا التاريخ، وإنّما قُصِدَ بذلك المذهب إلى ولادة حمير (115 ق.م)، والأشعار التي أشار إليها ابن سلام في طبقاته، التي جُعِلتْ في فئة عاد وثمود في القدمة، انبجست عن حمير يوم كانت دولة حكمت اليمن.

وثمّة أمرٌ يمكن أن يكون سبباً مباشراً لضياع أشعار القوم؛ وهو التّزاوج والتّداخل بين الخولانيّين والأعاجم، ولا سيّما الفرس الذين ارتبطوا بخولان بعلاقة مصاهرة[4]، وما يمكن أن يولّده هذا التّقارب في نفوس العلماء الذين عزفوا عن رواية أشعار القوم وحفظها، بل نفروا منها خَشية دخول اللّحن والـمُوَلَّد إلىٰ العربية الصّافية، كما نجد في شساعة الصّقع الذي كان موطناً للقبيلة الأمّ ولكثيرٍ من بطونها سبباً من أسباب ضياع أشعار خولان، حيث صَعْدَة وفيها سجلّاتٌ وزُبُرٌ قديمة متوارَثة من الجاهليّة، حوت بين دفّتيها أخبار القوم وأنسابهم، وحَذْفاً من أيّامهم التي بسط القول فيها الهمدانيّ في كتاب الأيّام، وأطال فيه الكلام علىٰ وقعات أهل اليمن.

وفي بُعْد صعدة وعدم رحيل العلماء إليها ما فوّت علىٰ العلماء خيراً كثيراً؛ يقول الهمدانيُّ: «لو كانت صعدة في القديم من البلدان التي رحل إليها أصحاب الحديث، لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار

---

(1) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 2/ 400.

(2) طبقات فحول الشّعراء 1/ 11.

(3) طبقات فحول الشّعراء 1/ 26 ونحو ذلك في قول ابن قتيبة: «لم يكن لأوائل الشّعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرّجل عند حدوث الحاجة...» الشّعر والشّعراء 1/ 105.

(4) انظر: مبحث علاقات المصاهرة في هذه الدّراسة.

صنعاء... وقد سكنت بها عشرين سنة، فأطللت علىٰ أخبار خولان وأنسابها كما أطللت علىٰ بطن راحتي، وقرأتُ بها سجلَّ محمد بن أبان الخنفريّ المتوارَث من الجاهلية»[1].

أما الأدلة التي أمكن تَلَمُّس هواها في ضياع أشعار خولان فهي ما وقفنا عليه في كلام الهمدانيّ، في أثناء وصفه بعض شعراء القبيلة بأنّهم سادة أشراف وشعراء مقدّمون في قومهم؛ مثل نعته لسعد بن اللَّيث المالكيّ الذي قال عنه: «كان من سادة بني مالك وأشرافها وشعرائها»[2]، فكيف يكون من شعراء القوم المعدودين ولم نعثر له إلا علىٰ خمسة أبيات، جاءت في مقطّعةٍ وبيتٍ يتيمٍ، قالها في رجلٍ يُوَبِّخُهُ ويقرّعهُ علىٰ ما اقترفته يداه من سوء الفعل؟! ومن الشّعراء السّادة الأشراف أيضاً عمرو بن يزيد العوفيّ، الذي نعته الهمدانيّ بأنّه «كان فارس العرب، وحمّة البلد، وسيّد بني عوف، ولسان خولان»[3] كلِّها؛ أي: شاعرها الأوّل الذي قال عنه أحمد محمد الشّامي[4]، وعن صوره الشّعرية: إنَّنا «لا نستطيع أن نتجاهل مدىٰ أثرها في حياة الشّعب اليمنيّ بما خلّفته من حقائق وأساطير، تشبه إلىٰ حد بعيد أساطير عنترة وعمرو بن معدي كرب ومَنْ في طبقتهم من الشّعراء الفرسان»[5]. أقول: لا بدَّ لمن يُجعل في طبقة عنترة وعمرو الزُّبيديّ وطبقة الشّعراء الفرسان أن يكون عنده مجموعٌ شعريٌّ كبيرٌ، يميط اللِّثام عن فروسيّته وشجاعته، ويصوِّر بطولاته في الوقعات والمعارك؛ إذ لم يصل إلينا من شعر عمرو العوفيّ - وهو علىٰ ما وصَفه به الهمدانيّ - سوىٰ ستة وعشرين ومئة بيتٍ، وهو مجموعٌ قليلٌ إذا قورن بأشعار مَنْ هو في طبقتهم، وهذا ممّا يدلّ علىٰ ضياع قسمٍ كبيرٍ من أشعاره التي لم يصل إلينا منها إلا حذفٌ يسيرٌ.

ومن الشّعراء أيضاً عمرو بن يزيد السَّعديّ، الذي وصفه الهمدانيّ بقوله: «كان شجاعاً، فارساً، جواداً، شاعراً»[6]. وهل يمكن للهمدانيّ أن يقول عنه: (كان شاعراً) ولم نعثر له إلاَّ علىٰ ثمانية عشر بيتاً، جاءت في قصيدة ومقطّعتين ونتفة، دارت معظم ألفاظها في موضوعٍ شعريّ واحد؛ هو الحرب والبطولة؟! في حين بسط الهمدانيّ القول في شجاعته وفروسيته وعزف عن نعت شعره، خلا موضعاً

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 60، المطبوع 1/ 257».

(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 85، المطبوع 1/ 364».

(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 87، المطبوع 1/ 370».

(4) هو أحد أعلام الأدب والثقافة في اليمن.

(5) قصّة الأدب في اليمن: 249.

(6) الإكليل: «المخطوط 1/ 98، المطبوع 1/ 402».

واحداً ذكر فيه شجاعة الأبيات وندرتها في شعر الفروسيّة عند العرب قاطبةً[1].

ومن الأدلّة أيضاً كثرة ما اجتمع لدينا في هذا المجموع الشّعريّ لخولان من مقطّعات ونتفٍ وأبيات يتيمةٍ، هي في الغالب أجزاء من قصائد لم نجد لها أثراً في المصادر والمظانّ؛ مَثَلُ ذلك ما وُقِفَ عليه في بيتٍ يتيم لصاعد بن مسلم الشهابيّ، لم نقع له علىٰ غيره، قاله وهو يذكر محالفة بني شهاب لبني خولان:

أَخَذْنَا بِحَبْلِ القَبْلِ حُجْرٍ فَلَمْ نَزَلْ ... إلـىٰ غَـايَـةِ الأَيَّــامِ نَنْفِي الأَعَـادِيَـا[2]

ومنها ذلك أيضاً بيتٌ لمجهولٍ أمويٍّ قاله في محمّد بن كُثَيِّر الخولانيّ:

مَـا زَالَ مِنَّا بِـأَبْـوَابِ المُلُوكِ فَتًى ... يُعْطَىٰ الرَّغَائِبَ والأَمْـوَالَ والـحُلَلَا[3]

ومنها نتفةٌ لعمرو بن زيد الغالبيّ يمزج فيها الفخر بالرّثاء؛ حينما استهلّ كلامه بالفخر بملك آبائه في مأرب، ثم يرثي هذا الملك في البيت الثّاني ويتأسّىٰ علىٰ ضياعه:

أَبُونَا الَّـذِي أَهْمَىٰ السَّـرُوْحَ بِمَأرِبٍ ... وآبَــتْ إِلــىٰ صِــــرْوَاحَ يَـوْمـاً نَوافِلُهْ
لِسَعْدِ بْنِ خَوْلانٍ رَسَا المُلْكُ واسْتَوَىٰ ... ثَمانِيْنَ حَـوْلاً ثُـمَّ رَجَّـتْ زَلَازِلُــهْ[4]

وهذه النّتفة بلا شكٍّ هي بقيّا قصيدة رثىٰ فيها الشّاعر مجد آبائه المؤثّل الذي عُمِّر ثمانين حولاً، فكيف يختصر الشّاعر ملكاً دام طويلاً من الزمن في بيتٍ أو في بيتين؟! وغيره يطول ذكره من النّتف والأبيات النَّادةِ.

ومنها أيضاً ما نجده في المقطّعات التي فيها ما يدلّ علىٰ أشياء أو صفات أو أشخاص ذكرها الشّعراء في أبياتٍ سابقةٍ لم نُوفَّق للوقوف عليها، وهي كثيرةٌ، وقد اجتزئت من قصائد طويلة بحسب ما يتحوجه المجتزئ في أثناء عرضه للفكرة التي يسوق الشّعر للتّدليل عليها ببيتين أو ثلاثة أبيات دون البقيّة التي ضاعت.

من ذلك قول عمرو بن يزيد العوفيّ في مقطّعة له حينما شهد حرب الأشباء والصَّدف وحضرموت مع سيف بن ذي يزن الحميريّ:

---

(1) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 98، المطبوع 1/ 402».
(2) انظر: الدّيوان: ق27/ ب1.
(3) انظر: الدّيوان: ق101/ ب1.
(4) انظر: الدّيوان: ق 83/ ب1ـ2.

مَا قُلْتُ إِلَّا الحَقَّ قَوْلاً فَاعْلَمِي ... أُبْدِي بِذَاكَ بَرَاهِناً وشُهُودَا[1]

فالياء عائدةٌ علىٰ أنثىٰ مخاطبة ليس لها ذكرٌ في المقطّعة، بل ذكرت في أبيات سابقة، اجتزئت هذه المقطّعة منها.

ومن ذلك أيضاً ما نجده في مقطّعة لعمرٍو العوفيّ الخولانيّ يذكر فيها ضمير جمع المؤنث الغائب؛ يقول:

فَهُنَّ لَنَا دُوْنَ البَنِيْنَ وِرَاثَةٌ ... وَمَا كَانَ فِيْهِمْ لِلهُمَامِ مُخَالِفُ[2]

وهي بلا شكّ راجعة علىٰ مجموع إناث غائبات ليس لهنّ وجود في هذه المقطّعة، بل في أبيات سابقة عليها، ضاعت ولم تصل إلينا، ودلَّ عليها الضمير.

ومثل هذا ما نجده في قصيدة لعمرو بن زيد الغالبي التي يستهلّها بالفاء الاستئنافيّة:

فَلَا تَفْخَرْ بِقَوْمٍ لَسْتَ مِنْهُمْ ... وَجَدُّكَ في مَحَلٍّ بَنِيْ كَلَعْدِ[3]

وما هي إلا دلالة علىٰ أبيات سابقة اجتزئت أبيات هذه القصيدة منها؛ وذلك بدليل الفاء التي تستأنف الكلام علىٰ آخر سابقٍ لها.

وثمّة ضرب آخر من ضروب ضياع أشعار خولان؛ يكمن فيما نجده لهم من إيماءات وإشارات صرّح بها الهمدانيّ في أثناء سوقه أخبار القوم وأشعارهم، تدلّ دلالة دامغة علىٰ أن لهذه الأبيات أو القصيدة بقيّة لم يأتِ بها راويها؛ من مثل قوله: «في شعر له طويل»[4]، أو «في قصيدة له طويلة...»[5]، أو «في الشّعر طول فحذفناه»[6]، و«قال في قصيدة امتدحه بها؛ منها»[7]. وجاء أيضاً في كلام الهمدانّي وهو يذكر خبر حكيمٍ العلّاف وكيف أجاره عمرو العوفيّ من أهله وذويه: «فذلك ممّا جرىٰ في أمر حكيم بعد أن كادوا يتفانون فيه، وخبره يطول فحذفنا أكثره»[8]. ويصّرح الهمدانّي حين ذكر بعض

---

(1) انظر: الدّيوان: ق39/ ب4. براهن: واحدها برهان؛ وهو الحجّة الفاصلة، وقد صرفه للضرورة.
(2) انظر: الدّيوان: ق9/ ب2.
(3) انظر: الدّيوان: ق80/ ب1.
(4) شرح الدّامغة 179، 181، 190، 198 ـ 199.
(5) شرح الدّامغة 187.
(6) شرح الدّامغة 188.
(7) الإكليل: «المخطوط 1/ 122، المطبوع 1/ 463» وفيه تصحيف، فوهم المحقّق فقرأ (منها): (بها).
(8) شرح الدّامغة: 199.

وقعات خولان مع بعض قبائل قضاعة بأنّه مختصِرٌ للشّعر بحسب حاجته؛ لتوضيح ما يذهب إليه دون أن يقف علىٰ جميعه: «وقد نبّهنا علىٰ كل وقعةٍ منها ببيتين وبثلاثة... لئلّا يطول الكتاب؛ لأنّ شأننا الاختصارُ، وقد جمع ذلك الحسن في كتابه المؤلّف في مفاخر اليمن ووقائعها»[1].

وممّا يدلّ علىٰ ضياع أشعار خولان: ما نجده في كلام الهمدانيّ عن اجتزائه النّتف من أشعار القوم التي أودعها كتاب الأيّام الذي جعله في أيّام اليمانيّة؛ فقال: «هذه نتف ذكرناها من أشعارهم التي جرت في قتل عُمَارَةَ [بن مرداس السُّلميّ]، ولم يمكننا أن نذكر أقلّ ممّا ذكرنا؛ إذ كان الأمر يعظم في أيّامهم، فإذا أردت أن تنظر ذلك علىٰ كماله، فانظر في كتاب الحسن بن أحمد المؤلّف في هذه الأيام»[2].

وأخيراً يمكن القول: إنّ طالع خولان لم يكن مثل طالع أخواتها القبائل العربيّة؛ فينجو من شعرها ما نجا من شعرهم من صوارف الدّهر وغوائل الأيّام، التي أبت إلا أن تتقلّد هاتيك الأشعار عقداً نفيساً، وتتقرّط أبياتها قُرطاً ثميناً، فضاع جُلُّهَا، وما انتهىٰ إلينا إنّما هو قليلٌ لا يكاد يساوي ما قاله فحل واحد من فحول الجاهليّة المشهورين، وهو أمر يُورِث في القلب حَسرَة لا تنجلي إلا بانكشاف مخطوطٍ خبيءٍ يحوي أشعار القوم أو كثيراً منها. ولا أدلّ علىٰ صدق ما ذهبنا إليه من أن قصيدة واحدة لابن الجَمَهْوَرِ الشهابيّ الخولانيّ العباسيّ انتهت إلينا في خمسة وثلاثين ومئة بيتٍ، قالها في تحريضه علىٰ الأبناء واستباحتهم ابن يعفر، وما الشّهابيّون حين انطوائهم تحت لواء خولان سوىٰ بُطَيْن، ومثل هذا ما نجده أيضاً في أرجوزة الحجّ لأحمد بن عيسىٰ الرّداعيّ ـ زُهاء النّصف الأوّل من القرن الثّالث الهجريّ[3] التي انتهت إلينا في خمسة وثلاثين وستمئة بيتٍ، وهي أكثر من الدّيوان المجموع لخولان كُلِّها، وأين هذان الشاعران قريبا العهد من أهل الصنعة والطّبع من شعراء خولان في الجاهليّة وصدر الإسلام والعصر الأمويّ؟! و هذه العصور لو انتهت إلينا أشعارها تامّةً لوصلنا خيرٌ كثيرٌ.

---

(1) شرح الدّامغة: 184. أقول: «ويصرح الهمدانّي حين ذكر بعض.....»؛ التصريح لنشوان الحميريّ أو ابنه محمّد؛ لأنّ أحدهما قام باختصار الإكليل والدَّامغة ونسخهما على الصورة التي وصلا فيها إلينا، إلّا أنّني عددت الكتاب تامًّا وتركت التصريح لصاحبه الهمداني، فكنت أقول كلّما دعت الحاجة إلى الاستشهاد من الإكليل أو الدامغة: قال الهمداني، أو يصرّح، وهذا منهجي في تلقّف المادة العلمية من الكتابين.

(2) شرح الدّامغة: 194.

(3) انظر: خولان الأرض والقبيلة: 45، وانظر بحث الدكتور محمد الثنيان بعنوان: نقوش إسلاميّة مؤرّخة من طريق الحجّ اليمنيّ الأعلىٰ (محافظة بيشة ـ المملكة العربيّة السعوديّة) علىٰ الشّابكة، تحدث فيه علىٰ ما يخصّ هذه الطّريق مستعيناً بأرجوزة الحجّ للرداعيّ.

ثانياً - تَوْثيقُ شِعْرِهِمْ:

1- الاضْطِرَابُ في نِسْبَةِ الشِّعْرِ:

تعدُّ مشكلة الاضطراب في نسبة الشّعر وتقييد هذا النسبة من المشكلات التي تعتاص علىٰ الباحث في دراسته، وهي مشكلة قديمة قدم اهتمام العلماء بتطلاب الشّعر وتدوينه من أفواه الرُّواة، ولا يكاد يخلو منها مُصَنَّفٌ له أدنىٰ صلة بالشّعر من اختلال نسبة أبياتٍ أو مقطّعةٍ أو قصيدةٍ إلىٰ غير واحد من الشّعراء، وقلَّ أن يحدث هذا في القصائد والمطوّلات، ولعلّ مَرَدَّ ذلك إلىٰ قلّتها مقارنة بما وصل إلينا من شعر، واشتهارها وتطاير أخبارها علىٰ ألسنة العلماء، علىٰ خلاف المقطّعات أو الأبيات اليتيمة، ولا سيّما العالية منها التي ينسبها كلُّ واحدٍ منهم لشاعرٍ ما دون غيره؛ لغاية معينة؛ مثل تفضيله علىٰ أقرانه، أو إعلاء شأن قبيلته التي ينتسب إليها، أو اختلاط الأمور علىٰ العالم النّاقل للخبر أو الـمُدَوِّن للشّعر؛ كالتّشابه في أسماء الشّعراء وأنسابهم، ولا سيّما الذين ينتمون إلىٰ أرومة واحدةٍ، والتّشابه في موضوعات الشّعر، أو أوزان القصائد وقوافيها، أو الوهم والاختلال وقلّة التثبّت[1]، وغير ذلك من الأسباب التي تقف وراء هذه الظّاهرة التي لم يُوقَف - فيما أعلم - علىٰ مؤلّفٍ واحدٍ من أهل السَّلف تحدّث في هذا الباب منفرداً، بل غالباً ما يكون كلام أحدهم عَرَضاً دون القصد إليه وفقاً لما يقتضيه الشّعر، وكذا الحال عند المحدَثين، ولا سيّما الذين عُنُوا بجمع أشعار القبائل ودراستها في الوقوف عند صحيح النّسبة ومضطربه، الذي يأتي في كثيرٍ من الأحيان من وهم الرّواة وتخليطهم في نسبة هذا وذاك؛ للأسباب التي أشرت إلىٰ بعضٍ منها.

وتكاد تكون مشكلة الاضطراب في نسبة أشعار خولان معدومةً؛ لأسباب سنأتي علىٰ ذكرها، وأمَّا ما وُقِفَ عليه من هذه المشكلة في أشعار القوم، ممّا تعلق بأسماء الشّعراء، وأنسابهم، وما اعتراها من علل التّصحيف والتّحريف، والخلط والوهم في سوق النّسب وإلحاقه بالجدِّ الأكبر للقبيلة، فَعُولِج في موضعه في تراجم الشّعراء وسوق نسبهم وتصحيحه إلىٰ الأرومة الأصلية، وإن كان هذا الأمر قليلاً لا يتعدّىٰ شاعرين في الديوان المجموع.

وأمَّا ما أصاب الشّعر من تصحيف أو تحريفٍ، أو اختلاف في الرّواية، أو نقصٍ حمل علىٰ اضطراب الوزن ونفوره، واختلالِ مُسْتَقِيمِهِ، فقد أُشِير إليه في محلّتهِ من التّعليق علىٰ الأبيات في حواشي الدّيوان

---

(1) انظر: العجّاج حياته ورجزه: 155، وديوان أميّة بن أبي الصّلت: 139، وشعراء تغلب 1/ 283، وديوان حُميد بن ثور الهلاليّ: 88، وديوان بني كلب 232، وشعراء حمير (الدّراسة) 220.

التي طالت على نحو غير مسهبٍ فيه.

وأمّا ما اختلطت نسبته بين شعراء خولان أنفسهم، وبينهم وبين غيرهم من شعراء القبائل، فمعدوم لعددٍ من الأسباب، خلا موضعين اثنين؛ أوّلها: الشّطر الأوّل الذي وُقِفَ عليه في بائيّة لعمرو بن يزيد العوفيّ، نبّه فيها علىٰ صلات القربىٰ التي تصل بني عوف ببني مالك بن زيد بن أسامة الخولانيّ، وما يمكن أن تفعله الفرقة في أبناء العمومة من شرذمةٍ وهوانٍ وذُلٍّ أمام القبائل العربيّة الأخرىٰ؛ يقول فيها:

يَـمِـيْـنَ بَـرٍّ بـالـلـهِ مُـجْـتَـهِـدٍ   يُـعْـرَفُ مِـنْـهُ الـوَفَـاءُ لا الـكَـذِبُ[1]

نُسِبَ الشّطر الأوّل فقط من البيت السّالف لدرهم بن يزيد بن ضُبَيْعَةَ الأوسيّ في الأغاني، من قصيدة قالها مُحَذِّراً مالك بن العجلان الخزرجيّ من قتل أخيه سُمَيْر الأوسيّ؛ بسبب ملاحاة دارت بينهما لتفضيل الخزرجيّ علىٰ أهل يثرب قاطبة، وإقدام سمير بعد ذلك علىٰ قتل كعب الثعلبيّ، وهو حليف مالك بن العجلان الخزرجيّ.

إنّ نبرة التّحذير واللّوم حاضرةٌ في تضاعيف النّصين اللّذين نُسجَا علىٰ البحر المنسرح، الذي تسهل معه معاني الألفاظ والتّراكيب، والتي أراها في الموضعين قسماً كانت العرب تستخدمه لتقسم به لأجْلِ مُعَظَّمٍ، عندما تريد التّنبيه علىٰ علوّ شأوه وعظم قدره، وهل أعظم من قتل النّفس إلا الفرقة والارتحال لقتلِ نفسٍ؟[2]

وفي الموضع الآخر الذي وُقِفَ عليه في قصيدة لعمرو بن حجر المالكيّ، وهي عينيَّة يلوم فيها نفسه ويُوَبِّخُها علىٰ مشاركته في وضيع الفعل ودنيئه في فرقة أبناء العمومة بني مالك وبني عوف، ودخول الأخيرة بدار عنز بن وائل؛ يقول:

هُـمَـا أَخَـــوَانِ كَـعَـظْـمِ الـيَـمِـيْـنِ   وفَـــرْعَـــا أُسَـــامَـــةَ إِذْ يُـــفْـــرَعُ[3]

إذ نُسِبَ الشّطرُ الأوّل لأبي طالب عمِّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم في سيرة ابن إسحاق، في قصيدة بائيّة يذكر فيها صحيفة قريشٍ وظهارهم لبني هاشم وبني عبد المطلب، إلى أن أخبر النّبيُّ عمَّه أبا طالب بأمر الصّحيفة، ليتبرّأ منها ـ بعد ذلك ـ المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وهشام بن

---

(1) انظر المقطّعة (34) من الدّيوان.

(2) انظر: الأغاني 3/ 18.

(3) انظر المقطّعة (59) من الدّيوان.

عمرو أخو عامر بن لؤي بن حارثة. وما يبدو من هذا التّركيب السّالف أنّ العرب كانت تتقارضه للدّلالة علىٰ الالتئام والمؤاخاة[1].

أمّا أسباب انعدام الاضطراب في أشعار القوم، فعائدٌ في الرَّاجحِ إلى:

أوّلاً: قِلَّة ما انتهىٰ إلينا من شعرهم، وقد تكون هذه الظاهرة متفشّيةً في أشعار خولان فشوّها في أشعار القبائل الأخرىٰ، لو لم يحتجب عنّا كثيرٌ من أشعارها.

ثانياً: تفرُّد الهمدانيّ برواية معظم أشعار القوم؛ إذ كان عليه المعوّل في حفظ أشعارهم وتدوينها في مصنَّفاته التي تغوَّلتها غوائل الأيّام، ولم يصل إلينا منها إلا قليلٌ يفصح عن قبيلة عظيمة الشّأن والمكانة في قضاعة جميعها.

وإنَّ أقربَ الأسباب لهذه الظاهرة وأكثرها ملامسة ما ذكره الهمدانيّ مُسْتَهِلًّا به نسب خولان في قوله: «لو كانت صعدة في القديم من البلدان التي رحل إليها أصحاب الحديث، لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء... وقد سكنْتُ بها عشرين سنة، فأطللت علىٰ أخبار خولان وأنسابها ورجالها كما أطللت علىٰ بطن راحتي، وقرأت بها سجلَّ محمّد بن أبان الخنفريّ المتوارث من الجاهليّة؛ فمن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب، ومنها ما دخل في كتاب الأيّام»[2].

لقد كان في احتجاب العلماء عن صعدة وعدم رحيلهم إليها لتلقّف أخبارها وأشعارها ـ وهي التي احتوت علىٰ أشعار القوم وأخبارهم من السِّجلّات والأسفار التي أخذ عنها الهمدانيّ ـ سببٌ مهمٌّ لعدم اضطراب الشِّعر، ولا سيّما أنّ الهمدانيَّ نصَّ علىٰ إثباته أشعاراً غايته من إثباتها ـ علاوة علىٰ تحوّجه إليها في بناء تصانيفه ـ قلّتها بأيدي علماء الشّام والعراق، وذلك في أثناء سوقه رأس مرثيّة لشاعر حميريٍّ يدعىٰ علقمة ذا جدن الحميريّ:

لِكُلِّ جَنْبٍ، اجْتَنَىٰ، مُضْطجَعُ ... والموتُ لا يَنْفَعُ مِنْهُ الجَزَعُ

فقال بعد هذا: «وقد كتبنا ما أدركنا من شعره في كتابنا هذا؛ لأنّه معدوم بالعراق والشّام، قليل في أيدي العلماء»[3].

وما ينطبق علىٰ هذا الحميريّ ينطبق علىٰ أشعار خولان؛ لأنَّ أشعارهم معدومة بأيدي علماء العراق

(1) انظر: سيرة ابن إسحاق 144.
(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 60، المطبوع 1/ 275».
(3) الإكليل 2/ 270، 271.

والشّام، فكيف لهؤلاء العلماء أن يضطرب شعر خولان بأيديهم وهم لا يعرفونه ولم يصل إليهم منه شيءٌ؟

وربما يقول قائل: لو كان شعر خولان من الأشعار العالية الرّصينة المهمّة لانتشر في الآفاق، وسار في المصنَّفات والتآليف القديمة سيرورة أشعار القبائل الأخرىٰ المشهورة، وجرىٰ عليه ما جرىٰ علىٰ غيره من الاستشهاد به، وغير ذلك.

أقول: إنّ مثل هذا الكلام عُرْضَةٌ للردّ من غير جانبٍ واحدٍ:

أوّلاً: إنَّ في اجتزاء العلماء لبعض أنساب القبائل وعدم سوقهم نسبها كاملاً ـ وأخصّ بالقول (خولان) ـ كما سيقت أنساب القبائل الأخرى دليلاً دامغاً علىٰ عدم معرفة هؤلاء العلماء لهاتيك القبائل وأشعارها، أو إهمالهم لها إهمالاً كبيراً، ولا سيّما التي قطنت الصّقع اليمانيّ منها[1]؛ إذ نجد همَّ العلماء قد انصرف إلىٰ جمع أنساب القبائل وتتبع أخبارها، التي سكنت بطن الجزيرة العربيّة وأطراف الشّام والعراق، ربما لأنّها كانت محوراً للحالة السياسيّة والاقتصاديّة السّائدة.

ثانياً: إنّ عدم اشتهار قبيلة ما ومعرفتها لدى العلماء والرّواة ـ ولا سيّما التي كانت بعيدةً عن مراكز تطلاب الرّواة للشّعر[2] ـ ليس سبباً في عدم جودة أشعارها وعلوّها، فلا بدَّ أن يكون فيها من الشّعر ما يضاهي أشعار الفرسان؛ من مثل عنترة، وخفاف بن ندبة، ودريد بن الصّمّة، وعبّاس بن مرداس. وهذا ما كان في خولان التي انتسب إليها شعراء يماثلون هؤلاء شعراً وفروسيّة وسيرة[3].

ثالثاً: إنَّ في قالة الأصمعي ومذهبه ما يؤكد لنا صدق الهمدانيّ في عدم رحيل العلماء إلىٰ صعدة، وانتشار أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء؛ قال: «سُئِلَ شيخ عالم: مَنِ الشعراء؟ فقال: كان الشّعر في الجاهليّة في ربيعة، وصار في قيس، ثم جاء الإسلام فصار في تميم. قلت للأصمعيّ: لِمَ لَمْ يذكرِ اليمن؟ فقال: إنّما أراد بني نزار، فأمّا هؤلاء كلّهم فإنّما تعلّموا من رأس الشّعراء: امرئ القيس، وإنّما كان الشّعر في اليمن»[4]. فإذا كانت أوّليّة الشّعر لأهل اليمن، فكيف سيكون غير رصينٍ ولا متين؟ وهم مَنْ هم من العرب في قولِ الشّعر وحفظه والعناية به.

---

(1) انظر: مبحث نسب القبيلة؛ ففيها فضل تفصيل.
(2) انظر: ما كتبه د. عبد الحفيظ السّطلي عن مصادر سماع الأصمعيّ في العجّاج: حياته ورجزه 113.
(3) انظر: ترجمة عمرو بن يزيد العوفيّ وعمرو بن يزيد السعديّ وعمرو الغالبيّ في الدّيوان.
(4) فحولة الشّعراء للأصمعيّ 48.

وعلىٰ الرّغم من قِدَمِ خولان، وقوّتها، وضخامتها التي ذكرتها بعض الكتابات العربيّة الجنوبيّة، ومشاركتها في توجيه دفّة السّياسة في اليمن، ودورها المؤثّر في أيّام الأبناء، الذي أقضّ مضجع خصومها وأعدائها، يُضاف إلىٰ هذا علاقاتها الواسعة مع الأقوام المجاورة ودولة الإسلام النّاشئة ومن بعدها دولة بني أميّة، لم يكن لها حظّ أخواتها القبائل العربيّة من الشّهرة وذيوعة الصّيت والانتشار، لولا بعضُ بطونها وأرهاطها التي خرجت مع الخارجين في أثناء حركة الفتوح إلىٰ الشّام ومصر، وهم قِلّة ليسوا ذوي بال إذا قورنوا بأرومة القبيلة الأمّ في الصّقع اليمانيّ، لما انتشرت بعض أخبارها بعد الإسلام، في أثناء تطوّر حركة التّأليف والتّدوين في بداية دولة بني العبّاس.

2ـ النَّحْلُ في شِعْرِهِمْ:

لا بدَّ في بادئ القول من التنبيه على أمرٍ مهمٍّ يكمن في خلط بعضهم بين ثلاثة مصطلحات متداخلة تداخلاً ليس هيناً؛ هي: الانتحال، والاضطراب، والنّحل أو الوضع والصُّنع؛ فأمّا الانتحال: فهو ادّعاءُ شاعرٍ أشعارَ غيره لنفسه، مأخوذةٌ من النِّحْلَةِ؛ وهي الدَّعوى، وهذا يؤدي إلى الاضطراب الذي يعني الاختلاف في نسبة الشعر بين شاعر وآخر، وهو غير موجود في أشعار خولان، وقد سلف الكلام عليه، أمّا النَّحل فهو بمعنى: وَضْع شعرٍ أو صنعه ثُمَّ نسبته عمداً ـ لأسباب عديدة ـ إلى شاعرٍ لم يقله، أو ربّما لم يقل شعراً قطّ؛ كالنَّحل على التبابعة[1].

تعدُّ قضية نحل الشّعر وصنعه من أكثر قضايا توثيق الشعر أهميةً ـ بل انتشاراً في الـمُصَنَّفات الشّعريّة القديمة والتّآليف النّقدية ـ التي تنبَّه إليها العلماء القدامىٰ والمحدَثون، وأدلَوا فيها بدلوهم، وقالوا فيها مقالاتهم[2]. من ذلك ما رُوِي عن الأصمعيّ وابن الأعرابيّ في دفعهما أوّليَّة بيت لعنترة بن شداد، وتشكيكهم في صحّة نسبته؛ قال أبو الفرج الأصفهانيّ: «(هل غادر الشّعراء من متردَّم)، يدفع أكثر الرُّواة أن يكون لعنترة، وممّن يدفعه الأصمعيّ وابن الأعرابيّ، وأوّل القصيدة عندهما (يا دار عبلَةَ)»[3]. ومن ذلك أيضاً مقالة الأصمعيّ التي نقلها الإمام السُّيوطيّ (911هـ): «أقمت

---

(1) انظر: شعراء حمير (الدّراسة) 235، وانظر مصادره ثمّة.

(2) انظر: الحيوان 2/ 246، 3/ 49، 4/ 248، العمدة 1/ 285، ذيل سمط اللالي 69، السّيرة النّبويّة 1/ 59، 61، 65، 182، 185، 186، مصادر الشّعر الجاهليّ 321، 337، نمط صعب ونمط مخيف 356 وما بعدها؛ وفيها عقد الشّيخ محمود شاكر حديثاً عالياً في القضيّة، العصر الجاهليّ 164، حديث الأربعاء 164، شعراء حمير (الدّراسة) 235، ديوان بني كلب (الدّراسة) 264، شعراء تغلب (الدّراسة) 292، شعراء عبد القيس في العصر الجاهليّ 137.

(3) الأغاني (طبعة صادر) 9/ 164.

بالمدينة زماناً، ما رأيتُ بها قصيدةً واحدةً صحيحةً إلّا مُصَحَّفَةً أو مصنوعةً»[1]، ومقالته في شعر المهلهل بن ربيعة التّغلبيّ: «وأكثر شعره محمولٌ عليه»[2]، وكذا في كلمته عن شعر امرئ القيس: «يقال: إنَّ كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه»[3].

ومن العلماء القدامىٰ الذين وقفوا علىٰ هذه القضية ابن سلام في غير ما موضعٍ من طبقاته؛ إذ يقول منبّهاً في أحدها علىٰ هذه البليّةِ الكبيرة التي ابتُلِي بها شعرنا القديم: «وفي الشّعر مصنوعٌ مفتَعلٌ موضوعٌ كثيرٌ لا خير فيه... وقد تداوله قوم من كتابٍ إلىٰ كتابٍ، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه علىٰ العلماء»[4]؛ كالذي كان يُعْرَضُ علىٰ ابن إسحاق فيقبله علىٰ حاله، بلا تمحيصه أو تنقيته من آفاته وعلله، علىٰ معرفته بالسّير والمغازي والأخبار التي أمسك بناصيتها، وكانت لبنة أساسيّةً في مصنّفاته[5].

وقبل الولوج إلىٰ مشكلة النَّحْلِ في أشعار خولان، يحسن بنا التّنبيه علىٰ أمرٍ مهمٍّ يكمن في عدم وقوفي - بعد إطالة البحث - على مقالةٍ لأحد أهل السّلف المتقدّمين أو العلماء المتأخّرين، تُثْبِتُ أو تشير في عبارة سريعة أو تُلْمِع إلىٰ نحلِ شيءٍ مما انتهىٰ إلينا من أشعار خولان، كما لم أصب قولاً واحداً للهمدانيّ نفسِهِ نصَّ فيه علىٰ أنَّ هذه القصيدة مصنوعةٌ أو منحولةٌ، أو هذا البيت من وضع واضع عالم بخفايا الشّعر وغريب لفظِهِ وحسن صناعته وثقافته، أو تلك المقطّعة زيّنتها الأخبار وتثاقلت ألفاظها بالقصِّ والأحداث التاريخيّة، فجفَّ ماؤها وجمدت قوافيها في بعض أبياتها، حتىٰ بدت باردة لا حياة فيها، تعبّر عن موات صاحبها، وجفاف مخيلته، واندثار شاعريّته.

لكن هناك مواضع وقفت عليها وأنعمت النّظر فيها غير مرةٍ، فوجدت أنَّ نحلاً قد أصابها، ليس من جهة اليقين؛ إنّما من جهة الاتّهام والشَّكِّ فيها فقط، دون القطع بِصُنْعِهَا، وسأحاول أن أجد ما يدفع هذا الاتّهام عنها من أدلةٍ وبراهين قد تكون مقنعةً ومزيلةً لتلك الشّبهات.

أوّل المواضع التي يمكن أن يثار حولها الشَّكُّ، هو بيت علقمة الخولانيّ من داليّته اليتيمة التي يذكر فيها الشّعاب والمسالك التي سلكها من بلده صعدة، ثمَّ إلىٰ صنعاء في وسط بلد همدان؛ طالباً العون

(1) المزهر 2/ 413.

(2) فحولة الشّعراء 40، الموشّح 90.

(3) فحولة الشّعراء 36، الموشّح 31.

(4) طبقات فحول الشّعراء 1/ 4 ونحو هذا في الصّفحات 5، 8، 26، 46، 247، 2/ 739.

(5) انظر: طبقات فحول الشعراء 1/ 8.

والمدد من سيف بن ذي يزن الحميريّ علىٰ قبائل قيس عيلان كما مرَّ فيما سلف، وحينما وصل وفد خولان ورأىٰ ما يُبْهِرُ الناظرَ ويشدُّهُ، علت أصوات بعضه بالتكبير:

فَصَبَّحنَ ذَا قَـيْـنٍ وكَـبَّـر وَفْـدُنَـا ... وقــد قـابـلـتْـنَـا أَنْــجُــمٌ وسُــعُــودُ

إنّ الدّاعي إلىٰ اتّهام هذا البيت هو لفظة التّكبير، وهي من شعائر الإسلام، ولم تكن من الألفاظ المستخدمة في طقوس العرب الدّينيّة قبل الإسلام، علىٰ الرّغم من قرب تلك الطّقوس من طقوس الإسلام في كثيرٍ من مفرداتها[1].

فإنَّ في معاني هذه اللفظة ما يكفي المتعجّل في نظرته للشّكّ في البيت بأنّه من صنع رجلٍ إسلاميٍّ، واتّهامه بأنّه من تلك الأشعار التي كانت تُصْنَع لرواة الأخبار والسِّيَر، يتخذونها في بناء قصائدهم إلىٰ جانب تلك الأشعار الصّحيحة لتكون وشيَّةً يزينون بها صدور نفائسهم، إلّا أنَّ التّروي وإطالة النّظر في تلك الأشعار يجعل الشّكَّ فيها ضرباً من الوهم والتّعَسُّفِ؛ لأنَّ في حوزتنا ما يدفع هذا الشّكَّ الذي يُرَدُّ عليه بأنَّ وجود كلمةٍ هي من شعائر الإسلام دليل غير كافٍ للقول بصنع البيت ونحله؛ لأنَّ «بعض الأفكار الدينية كانت معروفة لبعض الشّعراء قبل الإسلام، ومن الصعب أن يُفصَلَ في بعض... المعاني العامة التي تتصل بتلك الأفكار إن كانت جاهليّة أو إسلاميّة»[2]، ولا سيما أنَّ هذا البيت الذي يمكن أن يشكّك فيه مع مجموع أبيات القصيدة من الشّعر الرّصين، أُحْكِمَ سبكه وانتظم وزنه، واستدَّ معناه الذي جاء علىٰ قدر لفظه، فولّد صورة خلّابة يُشْتَفىٰ بها ويسعىٰ إلىٰ تطلابها، والشّعر كان يومئذٍ علىٰ ما وصفتُ وقدّمتُ، يضاف إلىٰ هذا أنّ التّكبير الذي شُكِّكَ فيه ليس تكبيراً لإعظام قدر الله عزّ وجل، إنّما استعمل للتعجّب لبثّ الرَّهْبَةِ وسلب ألباب النّاظرين الطّالبين للعون من الملك الحميريّ؛ لما رأوه من عظيم قصره، ووسيع أرضه، وفرط قوته التي طبّقت سمعتها الآفاق.

وقد جاء عند المحبّيِّ أنّ مثل هذا يستعمل للتعجب، وهو ممّا استعمله المولّدون؛ مثل قول المتنبّي:

كـبَّـرْتُ حَــوْلَ دِيَـارِهــم لـمَّا بـدَتْ ... تلك الشُّموسُ وليس فيها الـمَشْرِقُ

ووقع في مجلس أُبيّ بن زُهْر[3] أنَّ بعض أدباء الأندلس كان عنده، فدخل فاضلٌ من أهل خراسان

---

(1) انظر: مبحث عقيدة خولان من هذه الدراسة. وقد بحثت في معتقدات العرب قبل الإسلام، فلم أعثر علىٰ لفظة التكبير التي قُصِدَ من ورائها تعظيم الله عز وجل، وإعلاء عزّته علىٰ كل شيء.

(2) ديوان أميّة: 176.

(3) ابن زهر: هو أبو بكر محمّد بن عبد الملك بن زهر الإيادي، الأندلسي الإشبيلي، صاحب شعر رقيق، وموشّحات انفرد في عصره بإجادة نظمها. وفيات الأعيان 4/ 434، الأعلام 6/ 250.

عليهم، فأكرمه ابن زُهر وأجلَّهُ، فقال الأندلسيُّ: ما تقول في أهل الأندلس وأدبائهم وشعرائهم؟ فقال: كبُرَتُ! فلم يُفْهم جوابه، فلما فهم ابن زُهر إنكارَه، قال: قرأتَ شعر المتنبي؟ قال: نعم، وحفظته. قال: أما سمعتَ قوله... [وأنشد البيت]، فعلىٰ نفسِك فَلْتكبّر، ولِفَهمِكَ اتّهِم وأنْكر. فخجل، واعتذر[1].

وربّما يقول قائلٌ: إنّ لفظة (كبّر) كانت بمعنى أعظم؛ أي: عدّوه عظيماً أو كبيراً في نفوسهم؛ مثلما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]؛ أي: أَعْظَمْنَهُ في نفوسهنّ، وفي هذا نظرٌ يرمي ذلك الشّكّ ويلقي به بعيداً.

أما الموضع الثّاني الذي يمكن للشّكّ أن يتناوله ويجد إليه سبيلاً، فهو نتفةٌ مجهولة القائل والعصر، وقد يأتيها الشّكّ لما فيها من تناقض، ورخاوة في المعنى، وهلهلة في النّسج، وهذا ممّا يوحي بأنّها لناظم ليس له في الشّعر نصيب، ساقها نشوان الحميريّ (573هـ) متفرّداً بذكرها دون غيره من العلماء، وقد عزاها لشاعر من خولان العالية[2]:

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ أَنسَابِنَا ... نَحْنُ خَوْلَانُ بنُ عَمْرِو بنِ قُضَاعَهْ

نَحْنُ مِنْ حِمْيَرَ في ذُرْوَتِهَا ... وَلَنَا المِرْبَاعُ مِنْهَا والرِّبَاعَهْ

إنّ ثمّة أموراً تدعونا إلىٰ اتّهام البيتين إن كانت نظرتنا عَجْلَىٰ غير متأنية؛ فمن تلك الأمور تفرّد نشوان الحميريّ برواية البيتين في موضعين من كتابين له[3]، ولم يرد منها شيءٌ عند الهمدانّي (334هـ)، وهو الذي أنفق معظم كتابه (الإكليل) في جزئه الأوّل لسوق نسب خولان وأخبارها وأشعارها، أو لتحقيق نسب قضاعة وتصحيحه[4]، ولا عند غيره مما يعاضد هذه الرّواية ويشدُّ أزرها.

ولعلّ سبب هذا التّفرّد عائدٌ إلىٰ فقدان تآليف الهمدانيّ واحتجابها عنّا ـ وهو الذي دوَّن أخبار القوم وأشعارهم ـ لأنَّ جُلَّ ما نقله نشوان الحميريّ من أخبار خولان وغيرها من القبائل العربيّة، كان الهمدانيّ معوّله الأوحد، يضاف إليه ما نقله أيضاً عن عُبَيْد بن شَـرِيَّةَ الجرهمي ووهب بن منبّه،

(1) نفحة الرّيحانة 2/ 453،454، ونحو هذا في نهاية الأرب 21/ 211، وفيه التّكبير بمعنىٰ التّرهيب في خطبةٍ للحجّاج بن يوسف الثقفيّ.

(2) انظر: الدّيوان: ق112/ ب1 ـ 2.

(3) انظر: شمس العلوم 7/ 4724، منتخبات في أخبار اليمن 40، 76.

(4) انظر: الإكليل: «المخطوط 1/ 48، المطبوع 1/ 209 وما بعدها».

وما لفّ تآليفهما من الأخبار العجيبة، والسّير الغريبة، والقصص الشّعبيّة التي ليس لها من الصّواب حظٌّ ولا نصيب.

أمّا ما جاء في نسيج البيتين، فهلهلة ورخاوة، وسذاجة في معانيهما، حتّىٰ ليبدوانِ كأنّهما نُظِمَا لما كان من خبرهما، أو أنّ ألفاظهما رُتِّبَتْ لتخدم الوزن لا المعنىٰ الذي بدا شاحباً هزيلاً، يضاف إلى هذا أسلوب المباشرة الذي استهلّ فيه كلامه الضّعيف في بنائه، القريب إلىٰ النّثر أكثر منه إلىٰ الشّعر الرّصين.

ومن الأمور الدّاعية للشّكّ أيضاً قوله: (نحن خولان بن عمرو بن قضاعة)، وفي البيت الثّاني: (نحن من حمير في ذروتها)؛ فتارة هو في قضاعة، وأخرىٰ في حمير، وثالثة يجعل قضاعة من حمير، وهو ما يدعو المتعجّل لاتّهام النّتفة، وجعلها في المنحول من الشّعر الذي مُلِئت به مصنّفات الأخباريين وأصحاب السّير والقصص الشّعبيّ؛ كالذي كان يصنع لمحمد بن إسحاق.

إلّا أنّه يمكن أن يُرَدَّ علىٰ هذه الشّكوك بما يمكن قوله في هذا الشّأن من أنّ تفرّد نشوان الحميريّ برواية البيتين - وهو من علماء القرن السّادس الهجري؛ أي: متأخر - ليس بكافٍ لإثارة الشّكّ حولهما واتّهامهما بالنَّحل؛ لأنّ معظم ما أَلَّفَه الهمدانيُّ وقيّد فيه أشعار القبائل اليمانيّة وأخبارها ضاع، ولم ينتهِ إلينا منه إلا الذي كان بين أيدينا من بقيّة الإكليل وشرح الدّامغة، يضاف إلىٰ هذا أنّ كثيراً من تراث اليمن ومَنْ سكنه من القبائل لا يزال مخطوطاً ضاع منه جزء، وآخر يهجع في رفوف المكتبات يحتاج إلىٰ من يخرجه إلىٰ النّور، فلا شكّ أنّ نشوان الحميريّ أخذ هذه الأبيات عن أحد مصنّفات الهمدانيّ التي أتت عليها صوارف الدّهر، وأشرتُ إلىٰ مثل هذا في موضع سالفٍ.

وأمّا ضعف البيتين وهلهلة نسجهما وسذاجة معانيهما، فحال كثيرٍ من الشّعراء القدامىٰ والمتأخرين أن يقولوا الشّعر الرّصين العالي، والشّعر اللّين الخالي من مقوّمات الجمال والقوّة والعمق في المعنىٰ، ولا سيّما أنّ البيتين من مجهولي الأسماء والعصور.

وأمّا ما يتعلّق بقضيّة النسب إلى قضاعة تارةً وإلى حمير تارةً أخرى، فإنّ المتتبع لهذه القضية في شعر خولان، وما كتبه الهمدانيّ وجاءت به النّقوش في هذا الباب، يثبت انتماء خولان إلىٰ قضاعة، أمّا إلحاقها بحمير فعائدٌ إلىٰ بعض البطون الخولانيّة التي نزلت في أرض حميريّة، فانتسبت إلىٰ ذاك البطن الحميريّ المقيم في تلك الأرض وألحقت في نسبه، علاوة علىٰ سيطرة حمير علىٰ اليمن كلّه يوم كانت دولة عظيمة الشّأن، بسطت نفوذها من نجران إلىٰ حضرموت، ودانت لها قبائل اليمن جمعاء، ونُسِبَ إلىٰ ملوكها جُلُّ بلدان الصّقع اليمانيّ وأجلّها. وأمّا انتساب قضاعة إلىٰ حمير فأمر فصّل فيه القول غير

باحثٍ ممّن تناولوا شعر القبائل بالجمع والدّراسة[1]، وهو ما عناه الشّاعر وسعىٰ إلىٰ تطلابه في النّصّ السّابق من إلحاق نسب قضاعة بحمير، وهو ما كان محطّ نظر الهمدانيّ، وموضع عنايته في غير ما موضع من الإكليل، إلّا أنّه تجلّىٰ واضحاً في فصلٍ أفرده لذلك ووسمه بـ «تصحيح نسب قضاعة»، فمسألة انتماء قضاعة إلىٰ حمير، ووقوف شعراء خولان عليها، ذكرها غير شاعرٍ خولانيّ؛ منهم مثلاً عمرو بن زيد الخولانيّ، الذي قال في يوم خزازى ـ وكان قد نال من شهرة هذا اليوم في قضاعة ما لم ينله غيره من الشّعراء ـ[2]:

وَحِمْيَرٌ قَوْمُنَا سَارَتْ مَقَاوِلُهَا ... وَمَذْحِجُ الغُرُّ سَارَتْ في تَعَابِيْهَا

يضاف إلىٰ هذا أنّ قائل هاتيك الأبيات التي تذكر جذْم القوم في الحميريّة، هو شاعرُ خَوْلَان العالية، هكذا أورد نسبتها نشوان الحميريّ؛ والعالية من خولان هم الذين اختلطوا في كثيرٍ من الأحيان ببطون حمير وعشائرها، وشاركوها في الأرض حتىٰ بلغ بهمُ الأمر إلى أنّ عدداً من بطونهم نُسِبُوا في حمير وصاروا في عدادِ بطونها[3].

وفي نهاية المطاف يمكن القول: إنَّ طالع خولان وحظها قيَّضا لها لسان اليمن أبا محمّد الحسن بن أحمد الهمدانيّ (334هـ)، الذي دوَّن حَذْفاً من أخبارها وأشعارها في مصنَّفاتها التي عكف على تدوينها سنواتٍ، بعد اضطلاعه بسجلاتٍ وزُبُرٍ ضمَّت أشعار القوم، وعليه كان المعول في روايتها.

خلو المصادر والمظان القديمة. من الدلالة على أيّ مجموعٍ شعريٍّ لشاعرٍخولانيّ، أو للقبيلة نفسها ـ خلا وضّاح اليمن، وهو الذي لم تثبت نسبته إلى خولانَ ـ سوى ما وقف عليه الهمدانيّ في مصنّفاته التي عدت عوادي الدهرعلى جلّها، ونجا منها قليلٌ كان مُعْتَمَدَنا في صناعة الديوان بالأدلة الدامغة، والشواهد القاطعة.

ضياع كثيرٍ من أشعار خولان التي لم يصل إلينا منها إلّا قليلٌ، على الرّغم من عِظَم جرْمها، وذلك بأدلّة صرّح بها نشوان الحميريّ، أو ابنه محمد؛ لأنّ أحداً منهما اختصر (الإكليل) و(الدامغة) اللذين صرفهما الهمدانيّ لتدوين أخبار اليمن، ولا سيّما خولان وحمير.

---

(1) انظر: مبحث نسب خولان من هذه الدّراسة، ففيه فصل حول الخلاف في نسب قضاعة.

(2) الدّيوان ق6/ ب4.

(3) انظر: مبحث نسب خولان من الدّراسة.

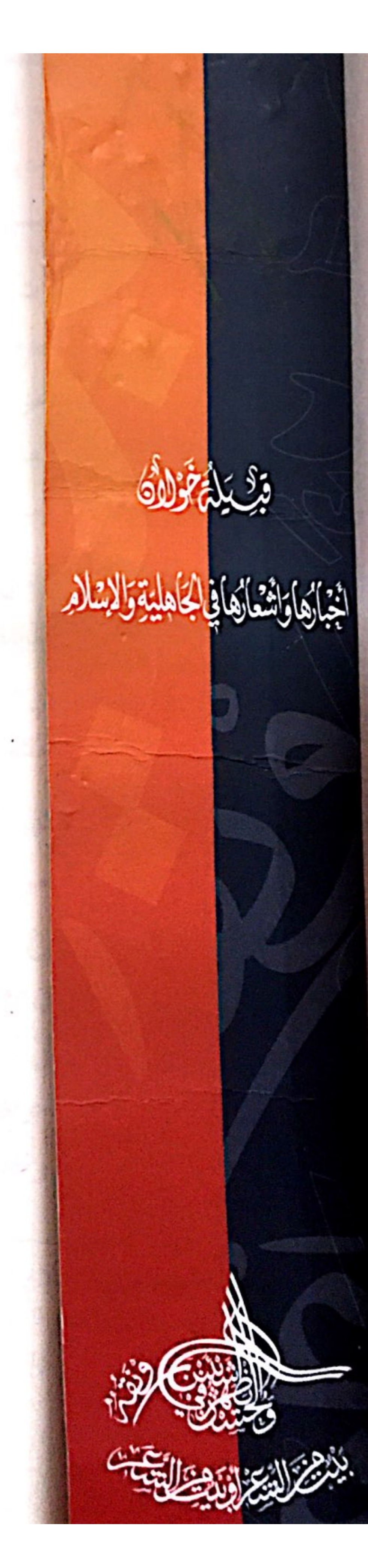
(2) وشعراء حمير (الدّراسة) 10 ـ 20، وديوان بني كلب (الدّراسة) 122؛

علوّ شأو الهمدانيّ، وعظم عمله الذي حفظ لليمانين أخبارهم ومعظم أشعارهم؛ فهو ثقةٌ فيما روى، خلا أشياء رواها عن غيره كعُبيد ووهب، وهي ليست بذات بالٍ إذا ما قورنت بما وقف عليه من شعرٍ ونقدٍ له، يضاف إلى تفرد مؤلفاته بأخبارٍ وأشعارٍ هي ليست عند غيره من العلماء، في مقدمتها توثيقه لأنساب حمير وجلِّ أشعارها، ووقوفه عند أنساب خولان وهمدان ومعظم أشعارهما.

انعدام الاضطراب في أشعار القوم؛ لانحسار الشعر في أصقاعه، وتفرد الهمدانيّ برواية معظمه، وعدم معرفة علماء الشام والعراق به؛ لعدم ترحاله إلى العصور التي تلت عصر الهمدانيّ، وكذا الأمر ينطبق على المنحول من أشعارهم، الذي انعدم إلَّا في موضعين اثنين أُثِيرَتْ شكوكٌ حولهما، وربّما كان أكثر من ذلك في موضوعات أشعار القبيلة المختلفة التي سنتعرفها في المبحث الآتي.

الفصل الثالث

موضوعات شعر القبيلة



أشرتُ غيرَ مرّة في هذه الدّراسة إلىٰ سقوط جُلّ أشعار العرب وذهابها، ولا سيّما الشّعر الجاهليّ الذي أتت صوارف الأيّام وغوائل الدّهر علىٰ أنْفَسِهِ وأعزِّه، وإنّ ما انتهىٰ إلينا منه هو مقاطيعُ لمطوّلاتٍ، وبقيّةُ قصائد عريضةٍ، ونتفٌ بسيطةٌ، وهذا هو حال أشعار خولان التي كانت أكثرَ عرضةً مِن القبائل العربيّة لهذه الآفة الكبيرة؛ فقد ضاع معظمُ شِعْرِهَا وأَجَلّه، وما سلم من تلك الآفة لا ينقع بِلّة ولا يروي صادياً؛ فمعظم الذي صار إلينا ـ وهو معوّلنا في دراسة موضوعات أشعار القبيلة ـ هو نتفٌ وأفذاذٌ جدُّ يسيرةٍ، خلا قصائدَ معدودةً، ومطولةً يتيمةً.

أمّا الموضوعات التي راضها شعراء القوم وطرقوا بابها، فكانت: الحماسة، والفخر، والوصف، والمدح، والحكمة، والرّثاء، والهجاء طلبتهم، وإنْ بدا بعضها هزيلاً كئيباً عزيز الحضور في هذا المجموع الشّعريّ، وأمّا الغزل فقد نأىٰ بشوقه وصباباته، ولطافة معانيه، ورقيق لفظه وحلوه، بعيداً عن مقالة القوم، عدا موضعاً يتيماً ذكر فيه الشّاعر ظعائن ودمناً تبلىٰ، سأقف عنده في حينه، وإن جدَّ مجتهدٌ في بحثِ العلل والأسباب الدّاعية لبينونة الغزل وهجره أشعار خولان، فإنّه قد يأنس بالآتي:

ـ فلولُ كثيرٍ من أشعار خولان بالضّياع؛ إذ لم ينجُ من صوارف الدّهر وغوائل الأيّام إلا قليلٌ قليل ـ وهو بين أيدينا ـ ولو انتهىٰ إلينا جميع ما قالته شعراؤهم لانتهى إلينا خيرٌ كثيرٌ، وقد نبَّه ابن سلّام (231هـ) علىٰ مثل هذا فيما رواه بسنده عن أبي عمرو بن العلاء؛ قال: «ما انتهىٰ إليكم ممّا قالتِ العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثيرٌ»[1].

ـ معظم ما انتهىٰ إلينا من أخبار ـ وهي قليلة ـ عن قبيلة خولان، ينبئ عن قبيلة عظيمة الشّأن، كبيرة القدر في بلاد اليمن السّعيدة، طالبة للكرِّ والفرِّ، وعن شعراء سُعَاةٍ لقراعِ الكتائب، وخوض الوغىٰ بالمبهمة من الدُّرع وبالأَسَلَات[2] الحادَّة، بعيداً عن الشّوق والعشق، والتّهالك في الصَّبابة والفناء فيها، وما إليها من معاني الوصل والهجر والبينونة، وسعادة وغصّة ولذّة وحرقة... إلخ. ولكن هذا لا يكفي للدّلالة علىٰ ابتعاد القوم عن طَرْقِ غرض الغزل؛ إذ إنّ «لفيفاً من الشّعراء ـ حمل لواءهمُ امرؤ القيس ـ أوقفوا حياتهم لهذا الغرض، وحَبَوهُ جُلَّةَ قوافيهم، فلهم خصوصيّتهم وتفرّدهم»[3]. علىٰ أنّ هذه الخصوصيّة وتلك الفرادة يمكن أن تكون لأحد شعراء خولان أو غيرهم من القبائل العربيّة التي

---

(1) طبقات ابن سلام 1/ 25. وقد بسطت القول في هذه القضيّة؛ انظر: ضياع شعرهم.
(2) الأسلات: هي الرّماح ذات الرّؤوس الحادّة.
(3) شعراء مذحج 275.

بدا موضوع الغزل لدىٰ شعرائها هزيلاً ضعيفاً، لا يكاد يُلحَظُ في شعرهم مرّة أو مرّتين، فإنَّ أشجان الإنسان وعواطفه تجاه المرأة التي مَثَّلتِ الحياة بكلِّ معانيها، حاضرة في نفس كلِّ إنسان على درجاتٍ متفاوتةٍ؛ إذ لا يستطيع أن يرغب عن المرأة والتعلّق بها؛ لأنّه فُطِرَ علىٰ ملازمتها والعيش بجوارها.

ـ أَلِفَتْ خولان في ممضاها الإقامة في القصور والقلاع، ومن ذلك ما ذكره الهمدانيّ من تملُّك خولان بصرواح التي دوَّى صِيتُها بعيداً في أشعار العرب؛ يقول: «وخولان تقول: إنّ سعد بن خولان لـمَّا خرج من مأرب تملَّكَ بها [أراد صرواح؛ وهو من قصور اليمن الشّامخة آنذاك]، وقد ذكرها شعراؤهم»[1].

واتكاءً علىٰ هذا فإنّ شعر خولان خلا ممّا دُبِّجَ به شِعْرُ غيرها من أهل الوبر، وعَزَّ أن يرىٰ المرء رحلةً للظّعائن أو آثاراً دارسةً عافيةً، أو آراماً مُطْفِلَةً تنهض من كلِّ مَجْثَم، فصار يرىٰ محبوبته ويتواصل معها من دون رحلةٍ للظّعائن التي كان الشّعراء يتوسلون بها؛ للوصول إلىٰ الأهل الظّاعنين، وهي رحلة فنيّة في القصيدة العربيّة القديمة. وفي هذا يقول ابن قتيبة: «سمعتُ بعضَ أهل الأدب يذكر أنَّ مُقَصِّدَ القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكرِ الدِّيار، والدِّمَنِ والآثار، فبكىٰ وشكا، وخاطب الرَّبْعَ، واستوقَفَ الرّفيقَ؛ ليجعلَ ذلك سبباً لذكر أهلها الظّاعنين عنها؛ إذْ كان نازلَةُ العَمَدِ في الحلول والظَّعْن علىٰ خلاف ما عليه نازلةُ الـمَدَرِ؛ لانتقالهم عن ماءٍ إلىٰ ماءٍ، وانتجاعهم الكلأ، وتَتَبُّعِهِمْ مساقط الغيث حيثُ كان. ثُمَّ وصلَ ذلك بالنّسيب، فشكا شِدَّةَ الوجد وألم الفِرَاقِ، وفرط الصّبابة والشّوق؛ لِيُمِيلَ نحوَه القلوبَ، ويصرفَ إليه الوُجوهَ؛ لِيَسْتَدْعِيَ به إصغاء الأسماع إليه؛ لأنَّ التّشبيب قريبٌ من النّفوس، لائطٌ بالقلوب؛ لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبّة الغزل وإلْفِ النّساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلّقاً منه بسببٍ، وضارباً فيه بسهمٍ؛ حلال أو حرام، فإذا علم أنّه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عَقَّبَ بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النَّصَبَ والسَّهَرَ، وسرىٰ اللَّيلِ وحرَّ الهجير، وإنْضاءِ الرَّاحلةِ والبعيرِ»[2].

وحَالُ ما وصل إلينا من بقيّة أشعار خولان يوافق مذهب ابن قتيبة في مقالته السّالفة، فخلت أشعارها من المقدّمات الطّلليّة خلوًّا تامًّا، خلا موضعاً يتيماً استهلّه الشّاعر بمقدّمة طلليّة ـ ذكر فيها المرأة والمنازل، وعهده بها الذي كان ما يزال جديداً ـ توسّل بها لوصف الرّحلة إلىٰ الممدوح الذي يأمل

---

(1) انظر: الإكليل 8/ 75، معجم ما استعجم 3/ 831، معجم البلدان 3/ 402، مختصر كتاب البلدان: 34، المسالك والممالك 144، الرّوض المعطار 357، وانظر: رسم صرواح في معجم مواضع خولان الذي ذيّلت به هذه الدّراسة.

(2) الشّعر والشّعراء 1/ 75ـ76.

عطاءه ومعروفه في إرسال العون والمدد لمحاربة قبائل قَيْس عيلان[1].

ولهذه الأسباب وغيرها خلت أشعار خولان من غرض الغزل، أو لم تصل إلينا، وضاعت قصائد فيما ضاع من أشعارها.

أمّا الموضوعات الأخرىٰ، فقد ذهب شعر الحماسة والفخر بمعظم أشعار خولان في الجاهليّة وصدر الإسلام والعصر الأمويّ، حتّىٰ إنَّ عمرو بن يزيد العوفيّ، وهو أكثر شعراء خولان شعراً، أنهب قوافيه - التي تنهض بديوانٍ مستقلٍّ - علىٰ حيالها شعرَ الحماسة والفخر إلّا أقلّها جاء في موضوعات الحكمة والعتاب والشّكوىٰ والرّثاء والمدح، التي بدت عزيزة الحضور في شعره، متداخلة مع غيرها (الحماسة والفخر). وطالبُ الحماسة والفخر في شعره بوصفهما غرضين مستقلّين، إنّما يطلب شيئاً عسيراً، وغالباً ما تأتي الموضوعات السّالفة مختلطةً ومتداخلةً، لائطاً بعضها بتلابيب بعضٍ، لدرجةٍ بات يصعب علىٰ المرء أحياناً المَيْز بين ما هو في الحماسة والفخر بشقّيه الذّاتيّ والقبليّ، وما هو في الشّكوىٰ والعتاب واللّوم، والوصف والمدح، أو المدح والرّثاء. ومثل العوفيّ نجد في شعراء خولان الحارثَ بنَ عمرٍو السَّعديَّ، وهو أشهر شعرائها في العهد الأمويّ، وقد أنفق معظم قوافيه في الحكمة والنَّصيحة، وسماع صوت العقل بعيداً عن الحميّة الجاهليّة، وإن بدت صورة تلك الحكمة غير واضحة المعالم كما هي عند غيره من الشّعراء، فأُشربت معنىٰ الحكمة وغُذّيت من لبانها، وكانت شديدة الإبانة عن نفسها، وبرزت مزدانةً بتلاوين الحماسة والفخر أحياناً، والمدح حيناً آخر.

وسوف أتناول موضوعات شعر خولان، وأقف علىٰ ما في هذه الموضوعات من تَعَالُقٍ وتَدَاخُلٍ فيما بينها، محاولاً تفسير ذلك إذا كان في الإمكان، وسأعرض في كلِّ موضوعٍ ما جاء في الشّعر الجاهليّ، وأعطفه بما جاء في شعر المخضرمين وصدر الإسلام وعصر بني أميّة؛ ليتبيَّن لنا ما طرأ علىٰ مسيرة الشّعر من اختلاف؛ من حيث تناول الموضوعات الشّعريّة، والمعاني التي نهضت بهذه الموضوعات، حتّى إذا ما عرضتُ لكلِّ موضوعٍ، وأفرغتُ فيه جعبتي، وأدليت فيه بدلوي، أعدتُ النّظر فيه غير مرّة؛ لمقارنته بما ورد في أشعار عددٍ من القبائل الأخرىٰ التي جُمِعَت أشعارها بِأَخَرَةٍ ونالت حظها من الدِّرَاسَةِ، أو في أشعار بعض الشّعراء من الذين توازي أشعارهم أشعار الخولانيّين؛ لتتبيَّن بذلك مكانةُ ما انتهىٰ إلينا من شعر خولان مقارنة بما وصل من أشعار غيرهم.

---

(1) انظر الدّيوان: ق1.

1- الحَماسَةُ والفَخْرُ:

لطالما اعتاد العربيّ في صحرائه حياةً قاسيةً خَشِنَةً، ملؤها الكرُّ والفرُّ ومكابدةُ القحط والمحل والفاقة، وهو ذو شخصيّة أَنِفَةٍ عزيزةٍ كريمة تأبىٰ الضّيم، فكان لا بدَّ أن يكون شجاعاً، ثابت الجَنان، قويًا، شديدَ الثِّقة بنفسِهِ التّائقة للانتصار علىٰ كلِّ ما يواجهها من أهوال ومخاطر، صلداً، محارباً مُنْجِداً، مؤثِراً، حامياً للحِمَىٰ، جواداً، ومال في الوقت نفسه إلىٰ تصوير هذه الحياة في شعره، حتىٰ استغرق شعرُ الحماسة والفخر معظمَ أشعار العرب؛ لما كانوا يعيشونه ويعانونه... فغدا هذا الغرض من أكثر الأغراض أهميّةً ومكانةً عند حبيب بن أوسٍ الطّائيّ (228هـ)، الذي صنَّف أوّلَ مُصَنَّفٍ في الاختيارات الشعريّة تبعاً لموضوعات الشّعر الذي أنهبه قسماً كبيراً من أشعار الحماسة والفخر، حتىٰ صدّر هذا الموضوع أول أبواب كتابه الذي أثنىٰ عليه العلماء أيّما ثناءٍ[1]، بل وَسَمَ به مُصَنَّفَهُ كُلَّهُ وغَلَّبَه علىٰ غيره من الأغراض الشّعريّة، ولم يجهد نفسه عناء الفصل بينهما؛ لما لهما من الالتئام واللُّحْمَةِ والتّداخل إلىٰ درجة يصعب معها المَيْز بينهما؛ فترىٰ الفخر قد احتبىٰ بفناء الحماسة، ولَاذَ بظلّها، ولم يستطع مفارقتها؛ لأنّه كثيراً ما كان يأتي الفخر بلبوس الحماسة، فلا يكاد يُعرف من تَلَبُّسِهِ لتلك (الشِّدَّةِ والمَنْعِ والمُحَارَبَةِ)[2]، علىٰ خلاف ما فعله أبو عبادة البحتريّ (284هـ) من تشقيقٍ لأبواب حماسته وتفريعٍ لها؛ فجعل علىٰ سبيل المثال الشّجاعة والإقدام، والفتك، والبروز للعدوّ وتركَ التّستُّر منه.. إلىٰ غير ذلك من المعاني التي تنضوي تحت لواء الحماسة، وليس لنا بدٌّ من اتباع نهج أبي تمّام الطّائيّ في أثناء تناوله لهذين الموضوعين اللذين جاءا ملزوزين في مصنّفه.

فكانت الحماسة والفخر في شعر خولان علىٰ ضربين اثنين: ذاتيٍّ وقَبَلِيٍّ، وكلٌّ منهما موصول بالآخر لما للشّعراء من فروسيّة وشجاعة وسيادة وقوّة، فخروا بها وتعالَوا علىٰ بقيّة أقرانهم؛ إذ عرفنا خولان قبيلةً محاربةً قويَّةً تأبىٰ الحيف والضَّيْمَ والذُّلَّ، حتىٰ أنفق معظم شعرائها كثيراً من قوافيهم في هذا الغرض.

الحَماسَةُ والفَخْرُ القَبَلِيَّان: فأمّا في الشّعر الجاهليّ فيتبيَّن لنا بنظرة عَجْلَىٰ غَلَبَةُ هذا الشّطر من الحماسة والفخر علىٰ تِرْبِهِ الفخر الذّاتي، الذي كان يَظْهَرُ لُـمَحاً في أثناء الفخر القبليّ وتضاعيفه، ولعلّ مَرَدَّ ذلك إلىٰ ما تزيّنت به القبيلة جميعُهَا من محامدَ ومناقب، تجمَّل بها جميع فرسانها وشعرائها، فأدلجت في القبائل سيرتهم، حتّىٰ صاروا مضرب المثل في خوض المعارك والانتصار فيها، ولم يبرز منهم فارس

---

(1) انظر: مقدّمة شرح الحماسة للمرزوقيّ 10 وما بعدها.

(2) اللّسان، والتّاج، ومقاييس اللّغة (حَمَسَ).

دون البقيّة، بل كانوا جميعهم فرساناً، وربّما يقول قائل: كيف لا يظهر في هذه القبيلة فارسٌ انماز بشجاعته دون غيره، ويظهر في القبائل الأخرىٰ فرسان طَبَّقَتْ شهرتهمُ الآفاق تميّزوا من أقرانهم؟ مثل هذا يمكن أن يقال فيه: إن ما اهتبله شعراء خولان في حماستهم وفخرهمُ القبليّ من المعاني التي تبرز قوّة خولان وعزتها، وتجذّرها في أرومة النّسب إلىٰ قضاعة، وتبرز أيضاً طريف المجد وتليده الذي نعمت فيه القبيلة مُذ أقدم العصور، جعل شعراءها يقطفون ما نضج من شعر الفتك والبأس والشِّدَّة والأنفة؛ إذ عُرِفَ عن خولان أنّها أَنْفُ قُضَاعَةَ[1]؛ لما لفرسانها من عزَّةٍ وكبرياء انمازوا بها دون بقيّة القبائل.

ومن الفخر القبليّ ما فخر به عمرو بن زيد (مغرق الأكبر) بيوم خَزَازَىٰ، وكان من أيّامهم المشهورة والمشهودة، وكان لهم فيه الشَّرف والظَّفر، وظهور قبائل مَعَدٍّ علىٰ قبائل اليمن (حِمْيَر ومَذْحِج...)، وهو اليوم الذي انتصفت فيه مَعَدٌّ من قبائل اليمن التي ذاقت مرارة الهزيمة؛ فيفخر مغرق الأكبر بجموع قضاعة التي جاءت من كل حَدَبٍ وصوب، وانضوت تحت لواء كُلَيْبٍ الذي كان يحميها، وهو لا ينسىٰ انتسابه إلىٰ أرومة حِمير، الأصل والـمَحْتِدِ، وفخره في لحمة نهد وجرم وخولان التي انضمّت إلىٰ قبائل قضاعة[2]:

كَـانَـتْ لَنَا بِـخَـزَازَىٰ وَقْـعَـةٌ عَجَبٌ ... لما التَقَيْنَا وحَـادِيْ المَوْتِ يَحْدِيْهَا

مِلْنَا علىٰ وَائِـلٍ في وَسْـطِ بَلْدَتِهَا ... وَذُوْ الفَخَارِ كُلَيْبُ العِزِّ يَحْمِيْهَا

قَـدْ فَـوَّضُـوْه وسَـارُوا تَـحْـتَ رايَـتِـهِ ... سَـارَتْ إلـيْـهِ مَـعَـدٌّ مِـنْ أَقَاصِيْهَا

وَحِـمْـيـرٌ قَـوْمُـنَـا سَـارَتْ مَقَاوِلُهَا ... وَمَـذْحِـجُ الغُرُّ سَـارَتْ في تَعَابِيْهَا

والحَيُّ من صِيْدِ هَـمْـدَانٍ لها شَنَفٌ ... يَفْرِي الـفَـرِيَّ ويُقْمِيْ مَـنْ يُنَاوِيْهَا

ومِـنْ قـضـاعَـةَ حـيًّـا بَـأْسِـهَـا نَـزَلا ... نَـهْـدٌ وجَـرْمٌ، وخَـوْلَانٌ تُواتِيْهَا

---

(1) جاء في قصيدة الدّامغة: 173، البيت 192:

نَـحْـنُ المُـزجِـفُـونَ لأرضِ نَجْدٍ ... بـأَنْـفِ قُـضَـاعَـةٍ والمَذْحِـجِـيْـنَـا

أراد بأنف قضاعة: خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة، ونهد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن إلحاف، وجرم بن ربان...، وانظر نحو هذا في الإكليل 2/ 215.

(2) الدّيوان: ق 6/ ب1 ـ 6.

وبعد أن تجمهَرَ الفريقان وقُدِّمَتِ العوادي بعضها لبعضٍ، والحميّة تأكل قلوب الفرسان الأشدّاء، الذين أبدوا كُلَّ صلابةٍ في اللِّقاء، وأخرجوا كل غيظٍ وحقدٍ، صارتِ المعركة ناراً مُحْرِقَةً، وانقض أسودها من كلِّ وَكْرٍ[1]:

وَسَـارَ بَـعْـضٌ إلـىٰ بَـعضٍ بِـرَايَـتِـهِ ... وَقُـدِّمَـتْ لـعَـوَادِيْـنَـا عَـوَالِـيْـهَـا

حَتَّىٰ التَقَيْنَا بِأَكْنَافِ المَسِيْلِ وَقَـدْ ... أَبْـدَىٰ لعَمْرُكَ مَا فِي النَّفْسِ مُخْفِيْهَا

ثُمَّ اصْطَلَيْنَا، وَنَـارُ الحَرْبِ سَاطِعَةٌ ... كَـأُسْـدِ غَـابٍ تَـدَاعَـتْ مِـنْ نَوَاحِيْهَا

ومن الفخر القبليّ ما نجده في لاميّة عمرة الحيوانيّة التي أفنت قوافيها في هذا الغرض، وحَلَّت مكانة باسقة في مدارج فخر خولان، وعجّت بمعانٍ جليلة شريفةٍ جاءت علىٰ معظم ما يمكن أن يقال في الفخر ببني حيٍّ الذين عَزَّ نظيرهم في العرب، إذا ما نزلت نازلة أو ألمت جائحة بأَحَدٍ ما، فهم الذين تناسلوا من جَدٍّ كريم فاضلٍ علىٰ كل أقرانه، فابتنىٰ لهم عزًّا ومأثرةً تُذكر وتُروىٰ وتطمو علىٰ الخلق جميعاً، ثُمَّ تفخر بعَدْلِهِم إذا ما حُكِّمُوا، لا تأخذهم في الحقّ لومة لائم، وهم أسودٌ كواسرُ شجعان، أصحاب جرأة وسطوة، يستأصلون عدوّهم ويجتثّونه، لا ينامون ولا تغمض لهم عين إذا ما ألَـمَّ بجارٍ لهم ضيمٌ، ويأبون الظُّلم والحَيْفَ؛ تقول[2]:

مَـنْ ذا كَمِثْلِ بَنِي حَـيٍّ إذا نَزَلَتْ ... أُحْـدُ الجَوائِحِ والأَرْمَـاحُ تُنْتَبَلُ؟!

قـومٌ بَـنَـىٰ لَـهُـمُ عِـزًّا ومَـأْثُـرَةً ... جَـدٌّ كـريـمٌ وفَـرْعٌ شَـامِـخٌ خَضِلُ

سَـادُوا البَـرِيَّـةَ إِذْ شَـدُّوا مَـآزِرَهُـمْ ... وفـي قُضَاعةَ أَرْبَـابٌ فَـقَـدْ فَضَلُوْا

كَانُوا مُلُوكَ بَنِي عَمْرٍو وَجَوْهَرَهَا ... والفَاصِلِينَ إِذَا مَا حُكِّمُوا عَدَلُوْا

أُسْـدٌ ضَـرَاغِـمَـةٌ بِـيْـضٌ غَـطَـارِفَـةٌ ... غُلْبٌ جَحَاجِحةٌ هِيْسٌ إذا اتَّصَلوا

لا يَهْجَعُونَ إِذَا مَـا ضِيْمَ جَـارُهُـمُ ... وَلَا عَلَى حُكْمِ خَسْفٍ لِلْعِدَا نَزَلُوْا

لا يَجْبُنُونَ إذَا الـدَّاعِـيْ دَعَـا لَهُمُ ... مُحَنَّباً عِـنْـدَمَـا يَـسْتَلْحِمُ الـرَّجُـلُ

ومن معاني فخرها بقومها أنهم أسخياءُ في أعطياتهم، يجبرون الفاقة ولا يبخلون بالعطاء إذا ما

(1) الدّيوان: ق6/ ب7ـ8ـ10.

(2) الدّيوان: ق102/ ب1ـ7.

سُئِلوا، ولا تراهم إلىٰ جيرانهم فِرَقاً يفزعون، ويبغون فَضْلاً ندًى منهم إذا رملوا، ولا تسبىٰ لهمُ امرأة حتىٰ في أكثر الأوقات عسراً وشدَّةً، حمَّالون للمغارم والدِّيَات إلىٰ أهلها، ولا يحملها إلا شريف مُقَدَّمٌ في ذؤابة قومه وعشيرته، وتفخر بخوضهم المعارك إذا ما اصطُليت نارها وتعالت ألسنتها، وهم أصحاب مِرَاسٍ في منازلة الأقران؛ ولا سيّما حينما يحتوش عليهم العدوّ من كلِّ حَدَب وصوب[1]:

ولا يُـقِـلُّـونَ إِنْ أَعْـطَـوا لِسَائِلِهِمْ	ولا يَضِنُّوْنَ بالمَعْرُوفِ إِنْ سُئِلُوا
ولا تَـرَاهُـمْ إِلـىٰ جِيْـرَانِـهِـمْ فِـرَقـاً	يَبْغُوْنَ فَضلَ نَـدًى مِنْهُمْ إِذَا رَمِلُوا
ولا تُـسَـاقُ لَهُمْ عَـــذْرَاءُ إِنْ لَمعَتْ	بَـــوَارِقٌ فـي خَـمِـيْـسٍ حَـبْـلُـهُ تَهِلُ
الـوَاهِـبِـيْـنَ إِذَا مَـا ضَـــاقَ جَـارُهُـمُ	والحَامِلِيْنَ لِـمَـاذَا حُمِّلُوا حَمَلُوا
والـــوَارِدِيْـــنَ حُمَيَّاهَا إِذَا حَمِيَتْ	والـطَّـاعِـنِـيْـنَ إِذَا مَـا خَـيَّـمَ البَطَلُ

ونار بني حيٍّ أبداً مستعرةٌ إمّا لحرب وإمّا لِقِرًى؛ فهم أصحاب جِفَانٍ مشهودة، تُفْتَرَصُ وتؤخذ علىٰ ما فيها من الطَّعام الذي استدارَ بها وعلا فوقه اللَّحمُ وأُحْدَق به كالإكليل، حتىٰ صارت كالأكمة في بُدُوِّهَا وظهورها[2]:

والمُطْعِمِيْنَ إِذَا مَـا أَزْمَـــةٌ نَـزَلَـتْ	أَبْصَـرْتَ فِيهِم جِفَانَ الشِّيْزِ تُهْتَبَلُ
قَـدْ كُلِّلَتْ بِسَدِيْفٍ فَـوْقَ ذُرْوَتِـهَـا	كـأَنَّ إِشْـرَافَهَا مِـنْ تَحتِهَا الأُبُـلُ

فهذه هي المناقب التي تَقَرَّظَ بها بنو حيّ الذين تعرفهم ساحات الوغىٰ، وتعرف أنّهم لا ينكصون ولا يجبنون إذا ما نزلت بوائق المعركة وحمي وطيسها، بل يردّون الجوائح الشِّداد بسيوف رقيقة مطاوعةٍ باترةٍ، زُيِّنَتْ مقابِضُها بِخَرَزٍ حُمْرٍ حتَّىٰ بدت كأنّها النّار المشتعلة، وهذا ما يضفي عليها جمالاً أخّاذاً[3].

فَـــذَاكَ فِـعْـلُ بَـنِـي حَـيٍّ إذا نَـزَلَـت	إِحْـدَىٰ المُلِمَّاتِ، رَدُّوْهَـا ومَا نَكَلُوا
بِـكُـلِّ عَـضْـبٍ رَقِـيْـقِ الـحَـدِّ زَيَّـنَـهُ	عَـقِيْقَـةٌ فـي ذُرَا مَـتْـنَـيْـهِ تَشْتَعِلُ

ومن الفخر القبليّ ما نجده في فخر المقدام بن زيد الحيوانيّ بأيّامٍ كانت لقضاعةَ ومَذْحِجَ علىٰ

(1) الدّيوان: ق102/ ب8ـ12.
(2) الدّيوان: ق102/ ب13ـ14.
(3) الدّيوان: ق102/ ب15ـ16.

هَوَازِنَ، وهي من الأيّام المعدودة التي أحسن فيها فرسان خولان البلاءَ، حينما نَهَدَت قبائل قضاعة وبكّرت على ماء قَطْقَطٍ، بسيوف حادّةٍ أُحْكِم صقلها في الهند، وتجاوزت تلك القبائل هوازن بكلّ تليع من الخيل، سبط اللّحم ممتلئ الأطراف مكتنزِها، كأنّها الأسود الهواصر؛ لما تبديه من نشاط وعَدْوٍ[1]:

وَنَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ علىٰ مَـاءِ قَطْقَطٍ بِكُلِّ رَقِيْقِ الحَدِّ مِـنْ قُضُبِ الهِنْدِ

وَيَــومَ رَسِيْـعٍ قـد أَفَـانَـا حِمَالَكُمْ بِـكُـلِّ تَـلِيْـعٍ مُـعْـكِـرٍ مُـدْمَـجٍ وَرْدِ

وفي يوم آخر بأجزاع المعادن قد تركوا نساء أعدائهم يبكيْنَ قتلاها، ويَدْعِيْنَ عليهم بالموت والهلاك والعذاب واللُّؤم والشُّؤم...[2]:

ويَـومـاً بـأجْـزَاعِ المعَادِنِ قَـد دَعَـتْ نِـسَـاؤكُـمْ بالثُّكْلِ والـوَيْـلِ والنَّكْدِ

وهذا سعد الرّبيعة يفتخر بما لقومه من عزٍّ ومجدٍ مؤثّلٍ، نَدَّ نظيره عند غيرهم، شادوه في صِرْوَاح التي غدا صيتها بعيداً في أشعار العرب، وقد تفرّق عنها النّاس؛ فشطرٌ منهم أنجد في قفاف الأرض وصلابتها، وأوعر آخر في الحزنة الصّعبة من الأرض التي تتعثّر فيها الدّوابُّ، إليهم يتهاوىٰ الكرام، ويهوي العظام أصحاب الشَّرف والسُّؤدد؛ لأنّهم من هؤلاء[3]:

فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ؟! إِذْ بَانَ سَبقنَا دَوَاوِيْــنَ في صِــرْوَاحَ تُثْنَىٰ وتُنْشَرُ

أَقَـمْـنَـا بِها والـنَّـاسُ عَنْهَا تَفَرَّقُوا فَـأَنْـجَـدَ قَــوْمٌ في الـبِـلَادِ وأَوْعَــرُوا

إِلَيْنَا جَمِيْعُ النَّاسِ تَهْوِي وفُـوْدُهُـمْ وكَـانَ لَنَا فِيْهَا العَدِيْدُ المُجَمْهَرُ

وإذا كان هؤلاء الشّعراء قد فخروا بما لهم من مناقبَ ومحامدَ، فإنَّ عوفاً الخولانيّ يتغنّىٰ بأمجاد قومه الملوك أصحاب المكارم والفضائل، الذين طما فضلهم علىٰ كلِّ مِفضَالٍ، حتّىٰ إنَّ خولان جميعًا اعترفت بفضلهم ومناقبهم الحميدة، وقهرهم لكلِّ من يقف في طريقهم؛ فهم ذوو قوّة وبأس شديدين، بهما يحمون عِرَاصَهُم أن تُبَاحَ، ويرعون مَنْ ينزل بفيئهم من الجوائح والنّوازل[4]:

قَوْمِي المُلُوْكَ ذَوِي المَكَارِمِ لَمْ تَزَلْ أَهْـلَ الـسَّـوابِـقِ فَضْلُهُمْ لا يُنْكَرُ

(1) الدّيوان: ق13/ ب1ـ2.
(2) الدّيوان: ق13/ ب3.
(3) الدّيوان: ق24/ ب1ـ3.
(4) الدّيوان: ق7/ ب1ـ4.

وَلَنَا لِوَاءُ المُلْكِ مِنْ آبَائِنَا إِرْثاً وَرِثْنَاهُ وَفَخْراً يُنْشَرُ

مَنْ ذَا يُفَاخِرُ مَعْشَرِيْ فِي مَحْفلٍ إِلَّا وَفَخْرِي قَاهِرٌ مَنْ يَفْخَرُ؟!

عَرَفَتْ لَنَا خَوْلَانُ بَيِّنَ فَضْلِنَا وَلَنَا المَكَارِمُ والحِمَىٰ المُتَخَيَّرُ

فالتّفاخر بالملوك من أبناء القوم، وحيازتهم المُلْكَ ردحاً طويلاً من الزّمن، وعَدُّ الفضائل والمناقب التي جمّلت سيرة القوم في قبائل العرب، أكْثَرَ خاطبي وِدِّهم، وتهافتَ النّاس للتّقرُّب منهم؛ لأنّهم حماة الحمىٰ والعِرَاص. ولا تنفصل هذه المعاني عن الفخر بالانتساب إلىٰ الأصل والأرومة، بل يفضي كلُّ معنىً منها إلىٰ الآخر، حتىٰ عُدَّ التّفاخر بالمَحْتِدِ مزيّةً انماز بها شعراء خولان في الجاهليّة؛ لكثرة تردادها علىٰ ألسنتهم، وهذا ما فاخر به المقدام بن زيد الحيوانيّ النّاسَ حينما ذكر اتصاله بأمٍّ كريمة المنبت والأصل «ضَرِيَّة بنت ربيعة بن نزار، وأم حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة»، وهي من خيار النّاس وأفاضلهم أصلاً وكرماً، حتىٰ بالغ الشّاعر في مفاخرته بها؛ فجعلها البتول المنقطعة عن الرّجال؛ لطهرها ونقائها وصفاء نسبها الذي لا تشوبه شائبة، أُنسِلَتْ من قيدار بن إسماعيل، وهو نسب من أشرف الأنساب وأعلاها، فيفاخر الشّاعر بنفسه وبقومه الذين عزَّ نظيرهم في نقاء النّسب وصفائه؛ فأخوالهم من أحاسن الخَلْقِ جوداً وكرماً وخُلُقاً وسماحةً، وأعمامهم أقيال حِمير، وعن مثلهم لا يُسْأَلُ؛ فهم الذين قهروا الملوك الجبابرة، وداسوا عروشها، وأذلّوا تيجانها، وبَدَّدُوا عِزَّها[1]:

نَمَتْنَا إِلَىٰ عَمْرو عُرُوقٌ كَرِيمَةٌ وَخَولانُ مَعْقُودُ المَكَارِمِ والحَمْدِ

أَبُونَا سَمَا فِي بَيْتِ فَرْعَي قُضَاعَةٍ له البَيْتُ مِنهَا فِي الأَرُوْمَةِ والعَدِّ

وأُمِّـيَ ذَاتُ الخَيْرِ بِنْتُ رَبِيعَةٍ ضَرِيَّةُ من عِيْصِ السَّمَاحَةِ والمَجْدِ

غَذَتْنَا بَتُولٌ مِنْ سُلَالَةِ قَيْذَرٍ بخيرِ لِبَانٍ إِذْ يُرَشَّحُ فِي المَهْدِ

فَنَحْنُ بَنُوهَا مِنْ أَعَزِّ نَبِيْتَةٍ وأَخوَالُنَا مِنْ خَيْرِ عودٍ ومِنْ زَنْدِ

وأَعْمَامُنَا أَهْلُ الرِّيَاسَةِ حِمْيَرٌ فَأَكْرِمْ بِأَعْمَامٍ تَعُودُ إِلَىٰ جَدِّ

ونجد في أشعار الآخرين من شعراء الجاهليّة من خولان أمثالَ هذه المعاني وغيرها من الحماسة والفخر القبليّ، عند كُثَيِّر بن عمرو الشِّهابيّ مثلاً، وقد شايعَ قومُهُ بني خولان، ودخلوا فيهم وتبوّؤوا

(1) الدّيوان: ق12/ ب1ـ6.

ظلّهم، حتّىٰ باتوا فيهم بطناً من أشهر بطونهم وأكثرها مشاركة في درء الملمّات والجوائح التي جمعتهم في صعيد واحد غير مرّة، وهذا ممّا لم يصرفهم عنِ التّفاخر بنسبهم إلىٰ أصلهم ومحتدِهم كندة في أظلّة خولان التي تفضّلت عليهم، وتكرَّمت في سموق مجدهم، وعلوِّ نسبهم الذي غلب كُلَّ متفاخر، بل هم يرافقون القَرْمَ حُجْراً في سموّه ورفعته، حتّىٰ حُبُوا مكانته وصاروا لِفْقاً له وترباً ينزلون بجواره، هذا كلّه كان بصنعِ من كِنْديٍّ بن ثَوْرِ بن مُرْتَع وتدبيرٍ منه[1]:

لَنَا العِزُّ مِنْ خَـوْلَانَ في عُقْرِ دَارِهَـا ... وَكِـنْـدَةُ قَوْمِي في الـفُـرُوْعِ النَّوَاظِرِ

إِذَا حُصِّلَتْ أَنسَابُ كِنْدَةَ أَصْبَحَتْ ... مَنَاسِبُنَا تَـزْهُـو عَـلَـىٰ كُـلِّ فَـاخِرِ

لَنَا الفَضْلُ مِنْهَا، والفَضَائِلُ والعُلَا ... إذا انْتَسَبَتْ في عِـزِّهَـا والأَوَاصِـرِ

بَنُو الشَّيْخِ كِنْديٍّ بنِ ثَـوْرِ بنِ مُرْتَعٍ ... تَبَحْبَحَ في أَصْـلٍ كَـرِيْـمِ العَنَاصِرِ

أَحَـلَّ بَنِيْهِ في ذُرَا عُـقْـوَةِ الحِمَىٰ ... مَـعَ الـقَـرْمِ حُجْرٍ في رَفِيعِ المَنَاظِرِ

حتّىٰ إنّ الانتقال إلىٰ قبيلة أخرىٰ والانتساب إليها ـ وهو ممّا ألفه العرب في ممضاهم ـ لم يصرف ذلك البطن أو تلك القبيلة عن تذكّر الأَصْل والمَحْتِدِ والمفاخرة بهما، وهذا شأن النّواقل في العرب عامّة، وما خولان سوىٰ بيتٍ من بيوتاتها، وقد عَيَّرَ بعضُ بني حرب بن رَشْوَان بن خولان، بني مخلف بن رَشْوَان، بالانتساب إلىٰ عنز بن وائل يوم دخلوا فيها ولاذوا بفيئها[2]:

أَقَـمْـنَـا علىٰ دَارِ الأُبُـــوَّةِ لَـمْ نَـزَلْ ... وَلَـمْ نَنْتَقِلْ في حَـيٍّ عَنْزِ بنِ وَائِـلِ

ونَحْنُ إلىٰ خَـوْلانَ لَمْ نَشْرِ أَصْلَنَا ... بِـوَكْـسٍ مِـنَ الأَثْـمَـانِ بَيْنَ المَحَافِلِ

ورَشْـــوَانُ خَـــوْلَانٍ أَبُـوْنَـا وَعَمُّنَا ... حَوَىٰ المُلْكَ في صِـرْوَاحَ دَارِ المَقَاوِلِ

فهاهي ذي أفئدتهم معلّقة حيث ولدوا وعاشوا واشرأبّوا، وهم ـ وإن دخلوا في قبيلة عنز بن وائل ـ لم يبيعوا ذلك النّسب إلىٰ الأرومة والأصل بأبخس الأثمان ولا أغلاها، ويدلّلون علىٰ عمق ارتباطهم بالأب خولان وتمسّكهم به بأن حاز الملك واستولىٰ عليه في صرواح، دار القيول والملوك من حمير.

(1) الدّيوان: ق18/ ب1ـ5.
(2) الدّيوان: ق28/ ب1ـ3.

يتضح مما سلف أنّ المعاني التي رَاضَهَا شعراء القوم وتعاوروها هي: الشَّجاعةُ، والإقدامُ والجرأةُ، والسّطوةُ؛ مثلما وجدنا في شعر مغرقِ الأكبر، وجاء سعد الربيعة وغيره علىٰ الافتخار بعزّ قومه وعلوّ مكانتهم وصفاء محتدهم، ونلاحظ أن الفخر بالنّسب والارتباط بالأرومة من المعاني التي دارت بكثرة علىٰ ألسنة الشّعراء، وتكرّرت غير مرّةٍ عند غير واحدٍ، وورد ذكر لسيوفٍ قواطعَ، تلوح في الجوّ كأنّها البرق في جمالها وأسرها، تدمغ الفرسان وتصافح رقابهم؛ منها ما سوّي في الهند وأحكم صقلها، ومنها ما شاد ملكاً مؤثّلاً في صرواح حِقَباً وسنين طويلة.

وكان من شأن هذه المعاني كافّةً أن نُظِّمت وعُدِّدَت في خولان وحدَها، ونأت بنفسها عن قبائل أخرىٰ مثلما فعل معظم الشّعراء، وأحياناً كان يحشر الشّاعر هذه المعاني الفخريّة في بطن دون بقيّة البطون؛ كفعل كُثَيِّر بن عمرو الشّهابيّ الذي أفنىٰ كلماته في تزكية أنساب بني شهاب وصفاء مَحْتِدِهم، ورسوخ أقدامهم في العزّ، وربّما تبجح الشّاعر في هذا الأمر وخصَّ به ثُلّةً من القبائل؛ كما فعل مغرق الأكبر في يائيته.

ويتّضح لدينا أيضاً أنَّ معظم أشعارهم في هذا العصر ـ التي غلبت عليها المقطّعات ـ قد أُنْهِبَتْ معاني الحماسة والفخر، حتّى إنّ غير مقطعة أتت علىٰ معنىً أو معنيين فقط من معاني الحماسة؛ مثلما نجد عند المقدام بن زيد الحيوانيّ.

وكثيراً ما كان يمتزج هذا الفخر بقرينه الفخر الذّاتيّ، الذي تبيَّن إبَّان البحث والتّنقير ـ فيما انتهىٰ إلينا من أشعار خولان التي تفلّتت من أيدي الضّياع والاندثار ـ قِلَّتُهُ وشُحُّهُ، حتّىٰ لا تكاد تنهض الأبيات التي وصلت إلينا ـ وهي يسيرة جدًّا ـ بقصيدة ممّا كان يحفظه السَّلفُ من شعر شاعر من الشّعراء في هذه البابة، أو ممّا وصل إلينا من قصيدة حماسيّة من أشعار الفحول، ومردُّ هذا الأمر ـ كما أسلفنا في غير ما مناسبة ـ إلىٰ ضياع أشعار القوم من جهة، واحتجاب تآليف الهمدانيّ عنّا الذي تفرّد برواية أشعار القوم من جهة أخرىٰ. فلم نلحظ هذا الفخر إلّا في ثلاثةِ مواضعَ فقط، وكان لا يظهر إلا لَـمَحاً في أثناء قصيدة، أو مقطّعة في الغالب، أو في نتفة، ولم يُقْصَدْ غرضاً لذاته عند أحدهم، بل كان مَدْخلاً للحماسة والفخر القبليّ عند عمرو بن زيد (مغرق الأكبر)، الذي جعله سبيلاً يسلكه للوصول إلىٰ مناقب القوم ومآثرهم، ذُكِرَ عرضاً بعد أن أفضىٰ إليه الفخر القبليّ في قصيدة لم تخلُ من المعاني المدحيّة ببني حيّ بن خولان، فكان في نتفة اختلط فيها القبليّ بالذّاتيّ، وهي فيما يبدو بقيّة قصيدة تغوّلتها غوائل الأيّام، يذكر فيها عمرو بن زيد (مغرق الأكبر) جَلْبَ قومه الكريمات من الخيل النّجيبات منها، المكتنزات من اللّحم، العظيمات المشرفات، من مكانٍ بعيدٍ؛ لِيُخْرِجَ بني حيّ من

(صعدة) موطنهم إلىٰ صعيد مصر؛ لما اقترفته أيديهم من سوء الفعل ووضيعه حينما خَصَوا رجلاً من بني الحارث بن سعد كان قد تقدّم لخطبة إحدىٰ كرائمهم، فرفضوه وأكبروا نفوسهم عليه، حتىٰ كانت الحرب التي حَطَّتْ أوزارها وانتهت إلى تشريدهم، يقول[1]:

جَلَبْنَا عِتَاقَ الخَيْلِ مِنْ بَطْنِ لِيَّةٍ ... بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْبُو كَلَاكِلُهْ

فَأَلْحَقْتُ حَيًّا بالصَّعِيْدِ بِمَا جَنَوا ... وأَقْفَرَ مِنْهُمْ خُنْفُعُرٌ فَقَابِلُهْ

ومثلما فضّ بيضة بني حيّ وشتّتَ شملهم في صقع شاسع، فإنّ رايتَه شامخةٌ لا تزول أبداً، عاليةٌ سامقةٌ؛ بفضل صولة فرسان كِنْدَةَ وجولة كرام عبد مالك وحيّ شرحبيل، الذين يأبون الفِرار والنَّجاة إذا دارت عليهمُ الدّوائر واحتوشهم العدوّ من كلِّ جانب، وهذا ما يقوّي الشّاعرَ ويشدُّ أزرَهُ وعزيمته علىٰ الكرّ والفرّ[2]:

إذا خَطَرَتْ حَوْلِي بَهَالِيْلُ كِنْدَةٍ ... فَمَا رَايَتِي عِنْدَ اللِّقَاءِ تَزُوْلُ

إذا اجْتَمَعَتْ لِي الغُرُّ مِنْ عَبْدِ مَالِكٍ ... وحَيُّ شُرَحْبِيْلٍ، فَثَمَّ أَصُوْلُ

وممّا افتخر به الشّاعر أنَّ الحرب حينما تُضْرَمُ نارها وتعلو ألسنتها، وينهض فرسانها، وينهد كلٌّ إلىٰ عدوٍّ، يكون بنو شهاب سنداً للشّاعر وعوناً، يسعفونه ويذودون عنه بضربهم الكِبَاشَ والرّؤوسَ علىٰ أعقابهم - وهم أذلّاء لا محال - ليلحقوا العار بهم والذِّلَّة، ويطاردون آخر فلولهم، وهم لا يقدرون علىٰ الفرار والنّجاة، ولا يفوته أن يفاخر بطريف مجدهم وتليد عزّهم، علىٰ مرور الأزمان والأيّام[3]:

أُولئِكَ قَوْمِيْ إِنْ رَمَيْتُ رَمَوا مَعِي ... وإِنْ يُسْعِدُونِيْ، فَالعَدُوُّ ذَلِيْلُ

هُمُ يَضْرِبُونَ الكَبْشَ حَتَّىٰ يَفُوتَهُمْ ... علىٰ عَقْبِهِ، والحدُّ مِنْهُ كَلِيْلُ

هُمُ وَرِثُوا السَّادَاتِ مِنْ عَبْدِ مَالِكٍ ... وعِزُّ شِهَابٍ في البِلادِ أَصِيْلُ

ولم يكن عزُّ بني شهاب ومجدُهُم في البلاد ثابتاً وقديماً، إلّا لوجود المحنّكين الأذكياء منَ الرّجال، أصحابَ الرّؤوس المرفوعة، السّادة والأقيال الذين شادوا ملكاً عظيماً وعِزّاً عزيزاً، حتّى صاروا منارةً يهتدي بنورها الشّاعر، بل هم أنصاره وجنوده المدافعون عنه كلّما أحوجه ذلك، فشبّه قوّتهم وشدّة

(1) الدّيوان: ق5/ ب1-2.
(2) الدّيوان: ق4/ ب1-2.
(3) الدّيوان: ق4/ ب3-5.

بأسهم بالمنارةِ التي يهتدي بها الضائع إذا ما فُقِدَ الهادي والدليل، وشبّه الجائحة بِبُهْمَةِ اللّيل؛ يقول[1]:

هُمُ وَرِثُـوا الـسَّـادَاتِ مِنْ عَبْدِ مَالِكٍ ... وعِـزٌّ شِـهَـابٍ فـي الـبِـلادِ أَصِـيْـلُ

وفـي كِـنْـدَةَ الشُّمُّ المُلُوْكُ نِقَابُهُمْ ... ومـا زَالَ فِـيْـهِـمْ سَـادَةٌ وقُـيُـوْلُ

بِهِمْ أَسْتَضِـيْءُ الدَّهرَ في كُلِّ بُهْمَةٍ ... إذَا لـمْ يَـكُـنْ لِـي في الـبِـلاَدِ دَلِـيْـلُ

وممّا افتخر به المصعب بن زيد الحيوانيّ أنّه من خالص بني حيٍّ، بل أكرمهم نسباً، سما نسبه في السّمو والرّفعة، وتناهى وعلا حتّىٰ فاق كل متفاخر، وقد جاء فخره الذّاتيّ عرضاً غير مقصودٍ لذاته في قصيدة جعلها للحماسة والفخر القبليّ، فوجد في نفسه سَعَةً للوقوف علىٰ علوِّ نسبه السّامق[2]:

أنَـا ابـنُ عَـدِيٍّ في صَمِيْمِ صَمِيْمِهَا ... سَمَوْتُ إلَيْهَا فِي الـفُـرُوْعِ الأَطَـاوِلِ

أمّا ما جاء من شعر الحماسة والفخر لشعراء خولان المخضرمين في صدر الإسلام ففيه القبليّ والذّاتيّ، ويرجع معظم فخرهم القبليّ وحماستهم إلىٰ حروب طاحنة كانت مشهورة في قبائل قضاعة وقيس عيلان؛ لطمع الأخيرة بأرضٍ لقضاعة اليمن، وأتتِ الجميعَ النّذيرةُ، وهم علىٰ أشدّ ما كانوا من القتال، فاختلطت خولان ونهد وجرم بمذحج أيضاً، بقيادة فارس العرب وحَيَّتها عمرو بن يزيد العوفيّ، الذي ثنَىٰ قبائل قَيْس عَيْلَان عن موقفها، وفضَّ بيضَتَها، وجَنْدَلَ فرسانها في أعتىٰ المعارك وأشدّها، وممّا انتهىٰ إلينا من أخبار تلك الأيّام يوم بِيْشَةَ ويوم الغُمَيْر المشهود، وما جَرَّت تلك الأيّام من حلف عَقَدَهُ أشراف قضاعة وسادتها مع الملك الحميريّ سيف بن ذي يزن، الذي أمدَّهم بخمسة أقيال؛ لمؤازرة خولان وأخواتها ضد هوازن وسليم، وما نتج عن ذلك الحلف من خيانة وغدر وشتات لقبائل قضاعة، حتىٰ ظفر عمرو العوفيّ بالخائن مُرِّ بن عامر بن الحارث بن زرعة بن سبأ الأصغر الحميريّ ـ وهو أحد الأقيال المدد ـ وقتله جَبْهَةً علىٰ رؤوس الأشهاد، وثمّة أشعارٌ لا ترتبط بهذه الأيّام والوقائع وما جرىٰ فيها، وإنّما قصدت لذاتها بالفخر بحيازة الملك زمناً طويلاً، والمفاخرة بالنّسب والاتّصال بأرومة شريفة خالصة.

ولم يصل إلينا من حرب الغُمَيْرِ إلّا ثلاث قصائد؛ ثنتان لعمرو بن يزيد العوفيّ، وثالثة للمحنون العوفيّ؛ فنجد عمراً العوفيّ في أولها يفاخر بقتله عُمارةَ بن مرداس السُّلميّ، ولم يكن يومئذٍ أخوه العبَّاسُ

(1) الدّيوان: ق4/ ب5ـ7.
(2) الدّيوان: ق10/ ب3.

بالحضرة، وقد استهلّ قصيدته البائيّة بتصوير الرّاحلة، والعناء الذي أصابها، والجهد الذي بلغها حتّى باتتْ عيونها غائرةً صغيرةً، وقد خَضَّبَهَا العرق ونال منها حظّه، وما إن لاحت خيوط الفجر الأولى وتبلّجت، حتّىٰ سلّت قبائل قضاعة سيوفاً من أغمادها، ونثلتها فوق الأكتاف، وقد أُنْهِبَتْ جماجم أعتىٰ فرسان بني سليم وأكثرهم شدّة وعلوًّا في الشّرف والنّسب، وأُسْقِيَتْ من دمائهم حتّىٰ ملّتِ الشّراب، وردوا إليهم مُعْلَمِين غيرَ مختلسين للظّفرِ بهم وتمريغِ أنوفهم بالتّراب[1]:

فَلَمَّا بَـدَا صُـبْـحٌ، ولَاحَـتْ خيُوطُهُ   نَثَلْنَا عُـرَا الـمَـاذِيِّ فَـوْقَ المَنَاكِبِ

وَجِئنَا إِلَيْهِمْ جَـهْـرَةً في بُيُوتِهِمْ   بِكُلِّ رقيْقِ الحَدِّ عَضْبِ المَضَارِبِ

فَخَرَّ عُـمَـارُ الخَيْرِ يَكْبُو لِوَجْهِهِ   وَفِتْيَانُ صِـدْقٍ في رَفِـيْـعِ المَنَاسِبِ

وقد سقط أشرف الفرسان وأعتاهم ـ بل أكرمهم حسباً ونسباً ـ صرعىٰ لا حَوِيْلَ لهم، بسيوفٍ قواطعَ مُجَلَّاةٍ، تخيّرها سادة خولان وأشرافها ومن آزرها وساندها من ذؤابة نَهْدٍ وراسبٍ، الذين يتيهون ويتبخترون بجرّ ذيول الكبرياء والعظمة والفخار؛ لما فعلوا بِغُرَّةِ بني سليم من قَتْلٍ وكَسْرٍ لشوكتهم؛ يقول[2]:

بِسَادَةِ خَـوْلَانَ بنِ عَمْرِو ذَوِي العُلَا   وبالصِّيْد مِـنْ أَبْـنَـاءِ نَهْدٍ وَرَاسِـبِ

هُـمُ صَبَّحُوا مَـاءَ الغُمَيْرِ فَـأَرْمَـلُوا   خِـيَـارَ سُلَيْمٍ بالسُّيوفِ القَوَاضِبِ

وتزدحم المعاني، وتتعدّد مشاربها، وتختلط صورها بين حكمة وفخر ذاتيّ وآخر قبليّ، في قصيدة يذكر فيها عمرو بن زيد العوقيّ إجارته رأساً من رؤوس بني سليم وهوازن في يوم الغُمَيْر لاذ بحماه، وكان لعمرو فيه قصاصٌ، وقد صُرِعَ من سادة خولان وأشرافها مَنْ صُرِعَ؛ من مثل: سعد بن يعلىٰ، ومالك بن مسعود ابن أخي عمرو العوقيّ، وغيرهما، حتّىٰ لحاه قومه ونافروه؛ لما قدّمه من حماية ذلك السّيِّد المعظّم في أهله، فاختلطت معانيه الشّعريَّةُ حتّىٰ أُشْرِبَ بعضها معنىٰ الحماسة والقَبَلِيِّ من فخره، وغُذِّيَ صورها، وإن بدت غير شديدة المكنة في هذا الغرض؛ فممّا فخر به أنّه وقومه أوفياء لم يعرفوا الغدر يوماً، وليس من صفاتهم وشياتهم، يرعون من يلوذ بفيئهم ويستظلّ بحماهم، ويذودون عنه ما ذرّ شارق، لا خوفاً من أحَدٍ، ولا جبناً ولا وهناً، ولكن حكمة تُذْكَىٰ بين السّادة وتُعرف لدىٰ العِظَامِ؛

(1) الدّيوان: ق31/ ب3ـ5.
(2) الدّيوان: ق31/ ب6ـ7.

يقول[1]:

أَجَـرْتُ يَوماً أَسِـيـراً، فَـابْـتَـدَرْتَ لهُ ... ما نَحْنُ فِيمَا مَضَىٰ من قِبْلِنَا غُـدُرُ

فَـاتْـرُكْ صَنِيْعَةَ ما أَمْسَيْتَ تَكْتُمُهُ ... بَيْنَ الضُّلوعِ فَمَا في عُـوْدِنَـا خَـوَرُ

فهم أصحاب أخلاقٍ كريمةٍ، وصفات عظيمةٍ، يصرعون الفرسان ويجندلون الأبطال في المعارك، ويجيرون من يلوذ بهم، ولا يغيرون عليه خُلْسَةً ويقتصّون منه[2]:

نُجِيرُ يَـوْمـاً خِـفَـارَاتٍ ونُنْفِذُهَا ... ونَـحْـنُ نَـدْفِـنُ سَـاداتٍ لَهمْ خَطَرُ

إنّ الوفاء وعدم الغدر، والقوّة والشّجاعة والشّهامة والبروز للعدوّ، وترك التّستر منه، ودفع الفرسان بسيوفٍ قُضُبٍ، هي المعاني التي وردت في شعر حَيَّةِ العرب ولِسَانِ خَوْلَانَ عمرِو العوفيِّ، ونجد لهذه المعاني أمثالاً في شعر المحنون العوفيّ، الذي يستمدّ مادته في فخره من فيالق خولان وفرسانها الأشاوس الذين يسعفونه في فخره؛ فهم الذين تعرفهم الحرب إذا ما أُضْرِمَتْ نَارُها، وسُعِّرتْ وتعالت ألسنتها التي يديرونها كيفما شاؤوا وأرادوا، فتضع أوزارها، وتؤتي أُكُلَهَا لمصلحتهم[3]:

فالحَرْبُ تَعْرِفُنَا يَـوْمـاً إذا لَقِحَتْ ... أَنّـا سَـنُـنْـتِـجُ مِـنْـهَا بِـكْـرَهَـا رَتَـعَـا

ويفخر بحمايتهم للجار الذي يلوذ بهم، ويحتمي بظلِّ سيوفهم، وما عُرِفَ عنهم أنّهم غدروا بمستجيرٍ، أو بنازلٍ بهم شَسِعَ في البلاد وأوعر فيها هرباً من كيدهم وغدرهم الذي لا يطولون به أحداً وإن كان عدوّهم[4]:

إنَّ الأَسِـيْـرَ أَسِـيـرُ الـقَـوْمِ فَاعْتَرِفُوا ... ما خَـافَ يَوماً لَنَا جَـارٌ ولا شَسِعَا

كما يفخر بإرخاصهم أنفسهم، وبذلها زهيدةً بَخْسَةً للموت الذي لا يهابون غماره في ساحات الوغى، ولا يمكن لخصم أن يتّقي ضربات سيوفهم؛ إذ إنّ الموت مُرَابِطٌ تحت ظلّها، ينتظر بُدُوَّهَا ثُمَّ سرعتها، وهي تدمغ الفرسان وتصافح رقابهم[5]:

---

(1) الدّيوان: ق43/ ب3ـ4.

(2) الدّيوان: ق43/ ب6.

(3) الدّيوان: ق64/ ب3.

(4) الدّيوان: ق64/ ب6.

(5) الدّيوان: ق64/ ب7.

لا يُتَّقَىٰ حَتْفُهَا يَوماً إِذَا طَلَعَا

نَحْنُ الفَوَارِسُ يَومَ الرَّوْعِ ضَاحِيَةً

وكان أيضاً يوم بِيْشَةَ من الوقائع التي لهج النّاس بذكرها، وتغنّوا بنتائجها، وتفاخروا بخوض غمارها، منهم عمرو بن يزيد العوفيّ الذي يفاخر ـ منبّهاً عشيرته ـ بقوّة فرسانه وشدَّة بأسهم، الذين لا يفزعون ولا ينكصون إذا ما تناهىٰ الشّرّ وطالت ألسنته أجسادهم، ولا يجبنون إذا ما كشَّرتِ الحرب وأبدت نواجذها؛ فهم أهل الثّبات والصّبر والجَلَدِ في يوم عصيب تذعر الشّمطاء منه، بل يكشفون قناع هذه الحرب بفتيان عَزَّ نظيرهم في العرب جميعهم، متوثّبين، صُدُورُهُم تستشيطُ غضباً وغيظاً؛ يقول[1]:

فَلا تَجْزَعُوا إِنْ أَسْفَرَتْ مِنْ نِقَابِهَا فَإِنَّا نُجَلِّيهَا بِكُلِّ فَتًى شَهْمِ

وهم عُدَّةٌ لقومهم وعَتَادٌ يتقوّون بهم علىٰ خصومهم، يستظلّون بفيء رماحهم، ويحتمون بسيوفهم القواضب، فيسحجون مَنْ يريدون، فيصير ثاوياً بين طمرين في التّراب، ويفخر أيضاً بجلبه خيولاً من أسفلِ قَصَبةِ صَنْعَاء باليمن، من قصر غُمْدَان ـ وكأنّ بها من العتق والنّجابة ما جعلها مفضّلةً علىٰ غيرها ـ ترامت إليهم وهوت برماحٍ مثقّفةٍ أُعِدَّتْ لانتظام كُلَىٰ الخصوم، سودٍ لكثرة ما وردت بطون الأعداء وأشربت من دمائهم[2]:

فَإِنَّ لَنَا رُكْناً نَلُوذُ بِفَيْئِهِ فَنَفْحَسُ مَنْ شِئْنَا وَيُصْبِحُ فِي الرَّدْمِ

مِنَ أَسْفَلِ غُمْدَانٍ جَلَبْنَا جِيَادَنَا تَرَامَىٰ إِلَيكُمْ بِالمُثَقَّفَةِ السُّحْمِ

وعلىٰ قضاعة ـ وفيها خولان ـ جَرَّت تلك الأيّام حِلْفاً عُقِدَ مع الملك الحِميري سيف بن ذي يزن، فأمدّ جيش قضاعة بخمسةِ أقيالٍ هم من أكثر قوّاده بأساً وفتكاً بالعدوّ؛ للمؤازرة وللعون علىٰ قبائل قَيْس عَيْلَان (هوازن وسليم). وكان من هؤلاء من أخلَّ بجيش خولان، ففرّقها وشتّت قوّتها وبدّد شملها؛ لبوحه بكلِّ سرٍّ وخطّةٍ تعقد إلىٰ هوازن وسليم، وقتله الحُصَيْن بن حريز الخنفريّ أحد الأقيال المدد، فنال حظّه من الخيانة واللّؤم.

فهذا عمرو بن يزيد العوفيّ يفخر بميله علىٰ مُرِّ ذي سخيم... بن زرعة بن سبأ الأصغر ـ حينما أظهر بغضه وعداوته ـ بغضبٍ وعذابٍ شديدين أزالاه من الوجود، وجعلاه خاوياً لا قوّة له ولا ذكر

(1) الدّيوان: ق49/ ب1.
(2) الدّيوان: ق49/ ب3ـ4.

يُلْهَجُ به، وإنّما الذِّكرُ والقوّة لفوارس بني عوف بن زيد بن أسامة، الذين إذا ما سوّوا رماحهم وأعادوا صقلها وجَلاءَها، حسبت أن جبال الأرض ترتحل منهم ذعراً وخوفاً من بطشهم وكيدهم؛ لأنّهم بشرٌ إذا ما كانوا آمنين مطمئنّين، وجنٌّ إذا ما ركبوا مراكب الغضب والغيظ، يفعلون فعلهم، ويسلكون سبلهم التي يجهلها غيرهم، حتىٰ لتبدو السّيوف التي في أيديهم مشاعلَ نارٍ، أو هيَ نارٌ تحرق كلَّ مَنْ يلامسها، وقد زحفوا إلىٰ الحصن الذي لاذ فيه مُرٌّ بن عامر الخائن، وامتنع خلف أسواره، وما إن رأىٰ سيوف القوم قد لاحت بوارقها من بعيد حتىٰ دَبَّ الفزع في نفسه، وتملّكه الهلع، ولمعت فرائصه في عَدْوٍ سريعٍ، هارباً من الموت.. يقول[1]:

لَـمَّـا أبَـانَ لَـنَـا مُـرٌّ عَـداوَتَـهُ	مِلْنَا عَلَيْهِ بِرَجَّاسٍ لَهُ زَجَلُ
مِنْ آلِ عَوفٍ، إذَا حَرُّوا رِمَاحَهُمُ	حَسِبتَ مِنْهُمْ جِبَالَ الأَرْضِ تَحْتَمِلُ
إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا، جِنٌّ إذا غَضِبُوا	تحتَ العَجَاجَةِ في أَيْمَانِهِمْ شُعَلُ
سِرْنَا إلىٰ حِصْنِ مُرٍّ حِينَ لَاذَ بِهِ	فَلَمْ يَكَدْ عَن ظُبَا أَسْيَافِنَا يَئِلُ

ويفخر عمرو العوفيّ في القصيدة نفسها بصرع نوال بن عتيك، غلام سيف بن ذي يزن، المشهور بنازع الأكتاف؛ لشدَّة فتكه وجبروته، وكان أحدَ الأقيالِ المددِ لخولانَ في حربها مع قبائل قَيْس عَيْلَان، «وتصوير قوّة الخصم يحمل في طيّاته تصويراً لقوّة من نهض لمحاربته»[2]، وذلك لما أبداه القيل من خيانة وغدر بجيش خولان وميل لهوازن وسليم. فدلف نحوه عمرو العوفيّ في رويَّةٍ ومَهْلٍ، حتّىٰ جادت يده بطعنة نجلاء برمحٍ مِطْوَاعٍ حَرَّت أحشاءه حتىٰ صار الدّم يتصبّب منها بغزارة وكأنّه سَيْلٌ، فبات جثّةً هامدةً لا حَراك فيها، كأنّه جذع نخلة قد يَبِسَ وقُطِعَ من أرومته... وقد مُرِّغ أنفه بالتّراب حتّىٰ يهينَهُ ويذلَّه أيّما إهانة وذلٍّ، ولم يكن ليقتله ويصرعه إلا مَنْ هو نِدٌّ له وكفءٌ، صاحب زُهُوٍّ وتيهٍ واختيالٍ، وكأنَّه الأسد في طلعته ومشيته، لا يخشىٰ ملامةً أو عتاباً من أحد، حتىٰ لو كان الملك الحميري نفسه[3]:

وقَـد تَـرَكْـنَـا نَـوَالاً لا حَـوِيـلَ لهُ	كأَنَّهُ الجِـذْعُ، جِـذْعُ النَّخْلَةِ القَطِلُ
لمَّا أَبَىٰ حُكْـمَ مَـوْلَاهُ دَلَـفْـتُ لهُ	مِـنِّـي بِـأَسْـمَـرَ أَلْـويـهِ فَـيَـنْـفَـتِـلُ

(1) الدّيوان: ق48/ ب1ـ4.

(2) ديوان بني كلب (الدّراسة) 295.

(3) الدّيوان: ق48/ ب5ـ8.

حَتّىٰ اجْلَعَبَّ عَلىٰ الخَدَّيْنِ مُنْعَفِراً ... وفَــوقَ حَـيْــزُوْمِــهِ غَــرَّافَــةٌ نَــهِلُ

مِـنْ كَـفِّ أَصْـيَـدَ لا يَخْشَـىٰ عَـوَاذِلَـهُ ... وَلَـيْـسَ يَـدْخُـلُ فِيْهِ الـلَّـومُ والـعَـذَلُ

ولا تبرح خيانةُ مُرِّ بن عامر نفسَ عمرو بن يزيد العوقيّ؛ لِـمَا كان لها من أشدِّ الأثر في نفسه، فألقت بظلالها صوراً يذكرها ويردّدها غير مرّة في أشعاره[1]:

أُتِيْـنَـا بِـمُـرٍّ كَـي يَـقُـوْمَ بِنَصْرِنَا ... فَنَوَّخَ فِيْنَا - يا لَقَوْمِي! - الدَّوَاهِيَا

فَـدَبَّـتْ إليـهِ فـي الـحَـدِيـدِ عِصَابَةٌ ... فَأَصْبَحَ رَهْـنـاً بَيْنَ طِمْرَيْنِ ثَاوِيَا

هذا؛ وقد أهلكت جماعة من الفرسان مُرًّا، وجعلته خاوياً في القبر، ولم يكن عمرو بن حجر المالكيّ بمنأى عن هذه المعاني؛ إذ لم يَفُتْهُ أن يفخر بمصرع ذلك الخائن - في نتفة هي بقيّا قصيدة في غالب الظَّنِّ - فقد أُسقي سمًّا ذعافاً يقتله من ساعته برماح رُدَيْنِيَّةٍ جديدةٍ، بدت كعوبها عطشىٰ للدّماء وسفكها، وبسيوف - متونُها بِيْضٌ - لاحت في الجوّ، مرسلةً بريقاً أبيض جميلاً، كأنَّه البرق سرعة وعلوًّا في كفِّ ثائر موتورٍ، لن يُشْفَىٰ غليله إلّا بقتل مُرّ بن عامر الذي باعهم بأوكس الأثمان إلىٰ عدوّهم؛ يقول[2]:

أَلَا هَـلْ أَتَـىٰ أُمَّ الـحُـصَـيْـنِ بأَنَّنَا ... سَقَيْنَا ذُعَـافَ السُّمِّ مُـرَّ بنَ عَامِرِ؟

بـكـلِّ رُدَيْـنِـيٍّ ظِـمَـاءٍ كُـعُـوبُـهُ ... وأَبْـيَـضَ مِثْلِ الـبَـرقِ فـي كـفِّ ثَائِرِ

نلاحظ ممّا سلف بمقالة سريعة: أن قوّة فرسان خولان والاعتزاز بهم، وشدّة بأسهم وفتكهم بالعدوّ، وبذلهم أنفسهم رخيصة للموت الذي لا يهابون، وخوضهم غمار المعارك الطّاحنة، وجندلتهم أعتىٰ الفرسان وتأديب خصومهم، وتمريغ أنوفهم بالتّراب والوحل، هي المعاني التي استلهمها الشّعراء من واقع القوم المعيش، يضاف إليها معانٍ أُخَر؛ منها الافتخار بأرومة النَّسب وصفائها من كل شائبة، حتّىٰ لتعلو علىٰ كلِّ المناسب إلىٰ الذّروة والرّفعة، إذا ما عُدِّدَتْ أرومات النّسب في مجالس الأقوام، ومنها أيضاً السّبق إلىٰ الاشتهار والصَّدارة علىٰ كلِّ الأقران، ومن معاني فخرهم وحماستهم أيضاً أنّهم يواظبون علىٰ اقتناء خيولٍ جسيمةٍ، مشرفةٍ مرتفعةِ الخَلْق، صافية في نسبها، أصيلة في عُرْبِيَّتِها، جريئة، في ظهرها المنأىٰ عن الأذىٰ، وفيها لمن خاف العِدَا مُتَعَزَّلُ، وقد استطاعوا أن يبطشوا

(1) الدّيوان: ق52/ ب3ـ4.

(2) الدّيوان: ق57/ ب1ـ2.

بخصومهم، ويقهروهم بقتلٍ وتشريدٍ واستباحة للحمىٰ، وهم أبداً الممتنعون الـمُتَحَصِّنون، اللّائذون بظلّ سيوفهم التي أنهبوها جماجمَ أعدائهم، وأسقوها من دمائهم، وأنالوها من أحشائهم، ولم يتركوا لهم فرصةً تُفْتَرَصُ للقصاصِ منهم، وتُنْتَهَزُ لقهرهم، ولو مَرَّةً واحدةً يحفظون بها ماء وجوههم التي مُرِّغت بالعار والذلّ والقهر يوم الحنوّ، يومئذٍ نَهَدَ عمرو بن زيد (مغرق الأكبر) بفرسانه الأشدّاء لتغلب وأشياعها، فظفر بعتَّاب بن سعد بن زهير التّغلبيّ، وحاطب بن حِلِّزة اليشكريّ، وهل أحسن من هذه المعاني؟! مَدْعَاةً للفخر وهي ما نجدها في كلمة قصيرة لعمرو بن حجر المالكيّ، الذي يجعل الفخر الذّاتيّ مَدْخَلاً للفخر بقومه الذين سَلَفَ وصفهم؛ يقول[1]:

وإنّـي لَـمِـنْ بَيْتَيْ أُسـامـةَ في الـذُّرا	إذا حُصِّلَتْ يوماً كِـرَامُ المَنَاسِبِ
لَنَا البيتُ منها والـلِّـوَاءُ وَسَبْقُهَا	وفِينَا رِبَـاطُ المُعْرَبَاتِ السَّلاهِبِ
أَبَـيْـنَـا فَـلَا نُـعْـطِي الـعَـدُوَّ مَـقَـادَةً	لنَا السَّطوَةُ الغَلبَاءُ يـومَ التَّغَالُبِ
أَلَـيـسَ أَبـونَـا قَـادَ لِـلْـحِـنْـوِ جمعَهُ	فـفَـازَ بِـعَـتَّـابٍ وعَـلَّـىٰ بـحَـاطِـبِ؟!

وبعد: إنّ الافتخارَ بالأصل والمَحْتِدِ، والبروزَ للعدوّ، وتأديبَ الخصوم، وصرعَ الفرسان، وحمايةَ الجار والذّمار، والأخلاقَ الحميدة، وقهرَ العدوّ، وإعمالَ الرّمح والسّيف في نحورهم ورقابهم، والقوّةَ والمنعة ورباطة الجأش، وتملُّكَ الخيول الطّويلة الصافية، وغير ذلك من معاني الحماسة، هي المعاني التي استلهمها شعراء الفخر القبليّ في الجاهليّة.

أمّا الفخر الذّاتيّ فلم يكن بعيداً عن تلك المعاني؛ لأنّ الفرد في مجتمع القبيلة جزء منها لا يتجزّأ، ويشكل لَبِنَةً أساسيّة في بناء قبيلته أو عشيرته.

وما وُقِفَ عليه في هذا الموضع من فخر ذاتيّ، ذهب بكليّته عمرو بن يزيد العوفيّ، عدا موضعاً واحداً لعمرو بن حجر المالكيّ ـ وقفنا عليه فيما سبق ـ كان قد جعله صاحبه مفتاحاً للفخر القبليّ، وما جاء في ذاتيّ عمرو العوفيّ وحماسته خمسة وعشرون بيتاً، أنهبها معانيَ القوّةِ والشّجاعةِ والإقدامِ، والاقتدارِ وعدمِ الانتباه للموت ـ فإن كان الحتف فلا أَسَفَ ولا حزن ـ وغِشَايةِ الكماةِ، وقتلِ الملوك والأقيال، والتّهديدِ والوعيد للمتلاعبين بأمصار النّاس، الغادرين بالقوم والأهل، والانتسابِ إلىٰ أرومة صافية، باسقة في مدارج الأنساب، خالصةٍ من كلِّ شائبة.

---

(1) الدّيوان: ق55/ ب1 ـ 4.

ويذهب عمرٌو العوقيُّ ليفتخر بنفسه في مقطّعةٍ تناثر بعض أجزائها في موضعين من الإكليل؛ فمزج فيها بين فخره الذّاتيّ، وفخره ببني شهابٍ الذين دخلوا معه في حرب مَذْحِج وحرب هَوَازن وبني سُلَيم، وقد أشْبَلَ السُّلميُّون وأحلافهم علىٰ عمرو العوقيّ، وكان قد أُرْدِيَ من فرسه بطعنةٍ فاستنقذه بنو شهاب، ولم يُرْتَثّ كُلَّ الارتثاثِ، فركب ونجا وهو غاضبٌ يُخْرِجُ ما لديه من نشاط وقوّة، ويحفز فرسه علىٰ الهجوم، ويستنهضه للدّخول في حمام المعركة ولهيب نارها، وإنْ كان حتفه قد دنا واقترب أو وقع فلا مهابةَ ولا أسفاً، ويفخر ببني شهاب؛ فهم ذؤابة قومه وعِزَّتهم، أهل الضّرب والصّبر والثّبات علىٰ المكاره، الذين سلُّوا السُّيوف حوله، يذودون عنه، وينعم هو في حماهم الذي لم يصبه أحد بسوءٍ، وبهم يُجْلِي الصّفوفَ ويشقُّ علىٰ خصومه، ويُبَدِّدُ مجمعهم إذا ما تحفَّزَ للقتال وتهيَّأ؛ يقول[1]:

حَمَلْتُ علىٰ الكَتِيبَةِ مِنْ مَعَدٍّ ... ولـو أنّـي قُـتِـلْـتُ لَـمـا حَـفَـلْـتُ

حَمَلْتُ المُهْرَ إذْ حَمِيَتْ لَظَاهَا ... ولا والـلّـهِ مـا فِـيـهَـا نَـدِمْـتُ

حَمَتني الـغُـرُّ، إخْـوَتُـنـا شِـهَـابٌ ... لَهُم كَـانَ الـمِـصَـاعُ بِحَيثُ كُنْتُ

رَمَـوا دُوْنِـي وسَـلُّـوا البِيضَ حَولِي ... وفـي نَـعْـمَـاءِ سَـادَتِـهِـم قَـفَـلْـتُ

أُولَـئِـكَ مَعشَرِي وسَـرَاةُ قَومِي ... بِـهِـم أَرْضَـىٰ هُـنـاكَ إذَا غَضِبْتُ

شِـهَـابٌ رَأسُ خَـولانَ بـنِ عَـمْـرٍو ... بِهِمْ أُفْضِي الصُّفُوفَ إذَا حَمَلْتُ

وقد علَّق الهمدانيُّ نفسه علىٰ البيتين الأوّلَيْن بقوله: «البيتان الأوَّلان من الشّجاعة بموضع، وأبيات سَمِيِّهِ أندرُ»[2]؛ وأراد بسميِّه: عمرو بن يزيد السَّعديّ، وهو شاعرٌ أمويٌّ له في هذه البابة أشْعَارٌ عاليةٌ ستأتي في موضعها، وللهمدانيّ كلام فيها. وها هو ذا يرمي مالك بن يزيد الصَّدفيَّ الملك في حرب الأَشْبَاءِ والصَّدف وحَضْرَمَوتَ التي شهدها مع سيف بن ذي يزن الحميريّ، فيرديه صريعاً وهذا ما دفع شاعر الصّدف للقول فيه هاجياً[3]:

ألا شَـلَّـتْ يـمـيـنُـكَ يـا بـنَ زيـدٍ ... فـقـدْ أَوْرَيْـتَ زَنْـدكَ فـاسْـتَـنـارا

ونراه يفزع إلىٰ تصوير قوّة ذلك الملك وشجاعته؛ فينعته بالصّنديد، المخلَّص من الأدران والعيوب،

---

(1) الدّيوان: ق35/ ب1ـ6.

(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 122، المطبوع 1/ 462».

(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 88، المطبوع 1/ 371».

و«تصوير قوّة الخصم يحمل في طيّاته تصويراً لقوّة من نهض لمحاربته»[1] ـ وقد أشرت إلىٰ مثل هذا في غير هذا الموضع ـ يقول[2]:

أَغشَىٰ الكُمَاةَ إِذَا تَـراجَـعَ لَحظُهَا ... لا طَـائِـشـاً فَـرِقـاً ولا رِعْـدِيْـدَا[3]

وَلَـقَـد جَلَستُ مَجَالِساً مَحْمُودَةً ... وحَـزَزتُ مِـنْ حَلْقِ المَلِيْكِ وَرِيْـدَا

وقَتَلتُ ذَا الـتَّـاجِ الـمُـهَـذَّبَ مَالِكاً ... ولَـكَـمْ أَفَـتُّ مُـهَـذَّبـاً صِـنْـدِيْـدَا

مَـا قُـلْـتُ إِلَّا الـحَـقَّ قَـوْلاً فَاعْلَمِي ... أُبْـدِي بِـذَاك بَـرَاهِـنـاً وشُـهُـوْدَا

وفي قالة أخرىٰ يفخر بقتله هذا القَيْلَ بقوله[4]:

وَلَـقَـدْ تَـرَكـتُ أَخَـا المَهَابَةِ مَالِكاً ... رَهْـنَ الضَّـرِيحِ مُـرَمَّـلاً مَـدْفُـوْنَـا

وَلَـقَـد رَمَـيْـتُـهُ تَـحْـتَ مَـفْـرِقِ رَأْسِـهِ ... وَتَـرَكْـتُ لِـلـنِّـسْـوَانِ فِـيْـهِ رَنِـيْـنَـا

وفي قصيدة أخرىٰ يَلْتَفِتُ إلىٰ عددٍ من المعاني التّقليديّة، يصوّر فيها قوّته، وفتكه، وشدّة بأسه، وإيقاعه بخصمه الذي تجنّىٰ عليه فغشّهُ، وظَلَمَهُ ظلماً شديداً، فأبدىٰ له طَيِّبَ الكَلَامِ وحلوه، وأضمر له حقداً وكرهاً كبيرين، وأباح إلىٰ قبائل قَيْس عَيْلَان كلَّ سرٍّ، ومزج الخيانة بغدرٍ، ولم يترك سبيلاً يُسْلك للإيقاع بعمرو إلَّا سلكه، وكان قد طلب عمرو العوفيّ عونه ومؤازرته بجيشه علىٰ خصومه الذين تقرَّب منهم، وأفشىٰ لهم أسراره، يقول مخاطباً إيّاه[5]:

بَـدَأْتَ لَـنَـا الـعَـداوَةَ والـتَّـجَـنِّـي ... وَبَـغْـيـاً لَـيْـسَ تَـمْـزُجُـهُ بِـبِـرِّ

أَبَـانَ لَـنَـا الـعَـدَاوةَ يَـومَ سِـرنَا ... مُـصِـرًّا أَيَّـمَـا ضِـغْـنٍ مُـصِـرِّ

طَـلَـبْـنَـا نَـصْـرَهُ، فَـتَـلا عَـلَـيْـنَـا ... أَحَـادِيـثـاً مُـزَخْـرَفَـةً بِـسُـحْـرِ

فَـأَبْـدَىٰ غِـشَّـهُ لـمـا الـتَـقَـيْـنَـا ... بِـأَقْـبَـحِ سِـيْـرَةٍ مـنـهُ ومَـكْـرِ

(1) انظر: ديوان بني كلب (الدّراسة) 295.
(2) الدّيوان: ق39/ ب1ـ4.
(3) الفَرِقُ: الخائف الفزع. الرعديد: الجبان المضطرب.
(4) الدّيوان: ق50/ ب1ـ2.
(5) الديوان: ق41/ ب2ـ6.

يُبِيحُ إلىٰ هَوَازِنَ كُلَّ سِرٍّ ... ويَخْلِطُ كلَّ خائنةٍ بِغَدْرِ

ويرىٰ عمرٌو العوفيُّ في خذلانه وخيانته تأكيداً لقتله وإذلاله، وسَقْيِهِ سُمَّاً ذُعَافاً بكأسٍ هو أمرّ من العَلْقَمِ، وأكثر منه صَبْراً، ولسوف يقتل بحرب مُعْلَمَةٍ، وعمرٌو غيرُ غاضبٍ أو هائجٍ، غيرُ مختلس للطّعان فيها والمضاربة، تفزع منها الشّمطاء - وهي مَنْ هي قُمْئاً وقبحاً - وتحيض منها البكر قبل بلوغها. ثم يفخر بقتل خصمه بكلِّ سيف حَدِيدٍ ذَكَرٍ - وذلك أدعىٰ للقوّة - كأنَّ في جانبيه لَهِيبَ جَمْرٍ يشوّهُ كلَّ من يلامسه أو يصافحه، وبكلِّ رُمْحٍ مُثَقَّفٍ مِطْوَاعٍ يجاري صاحبه في المعركة؛ يقول[1]:

فَإنْ أَسْلَمْ وَتَعْطِفْنِي اللَّيَالِي ... أُجَرِّعْهُ الذُّعَافَ بِكَأْسِ صَبْرِ

وضَرْباً بالمُشَطَّبِ غَيْرَ قَطْمٍ ... وطَعْناً بالأَسِنَّةِ غَيْرَ نَبْرِ

وحَرْباً تُذْعَرُ الشَّمطَاءُ مِنْهَا ... وتُطْمَثُ كُلُّ عَذْرَاءٍ وبِكْرِ

بِكُلِّ مُهَنَّدٍ ذَكَرٍ حُسَامٍ ... كَأَنَّ بِصَفْحَتَيْهِ لَهِيبَ جَمْرِ

وكُلِّ مُقَوَّمٍ لَدْنٍ تَرَاهُ ... علىٰ عَسَلانِهِ في الكَفِّ يَجْرِي

ثمَّ نراه بعد هذه المعاني التي ألبسها ألفاظه الفخمة يتوعّد مُرَّ بن عامر بأنَّه سيفعل فيه الأفاعيل، بل إنّ طعنةً نافذةً تكفيه لكي يكون هاوياً إذا ما التقيا بجعجاع المكرّ[2]:

ألا يا مُرُّ وَيْلَكَ فانْظُرَنِّي ... فَإنِّي في مَسَاتِكَ سَوفَ أَفْرِي

وحَسْبُكَ طَعْنَةٌ مِنِّي إذا ما ... تَلاقَيْنَا بِجَعْجَاعِ المَكَرِّ

ليختم بعد هذه المعاني بتقبيحه بـ(مرٍّ) وتوبيخه ورميه بالشّؤم والخذلان؛ لأنَّه كسر وحدة خولان، وبدَّد شملها، وفرّق أهلها وخذلها، ولم يدرك لها أحدٌ بثؤرٍ منه؛ يقول[3]:

لَحَاكَ اللهُ مِنْ قَيْلٍ مَشُومٍ ... فَضَضْتَ اليومَ بَيْضَةَ آلِ عَمْرِو

وقَدْ خَذَّلْتَ خَوْلانَ بنَ عَمْرٍو ... ولَمْ يُدرِكْ لها أَحَدٌ بِوِتْرِ

فَلا أَمْسَيتَ ثَمَّ قَرِيرَ عَيْنٍ ... ولا أُسْقِيْتَ فِيْهَا صَوْبَ قَطْرِ

(1) الديوان: ق41/ ب7ـ11.
(2) الدّيوان: ق41/ ب12ـ13.
(3) الدّيوان: ق41/ ب14ـ16.

ويجدر بنا ههنا أن نشير إلى أمرٍ مهمٍّ: هو أنّ ما جاء من شعرٍ لقبيلة خولان في صدر الإسلام، كان خلواً من المعاني الإسلاميّة التي يمكن لنا أن نجدها عند غير قبيلةٍ، ولعلّ ذلك عائدٌ إلى عدم تأثر شعرائها بالإسلام، أو أنّ شعراً إسلاميًّا قيل في الفخر والحماسة ضاع ولم يصل إلينا.

أمّا حماستهم وفخرهم القبليّ في عصر بني أميّة، فلم ينأ بمعانيه بعيداً عن مَقِيْل حماستهم وفخرهم القبليّ في الجاهليّة وصدر الإسلام؛ لأنّ ما أَلِفَتْهُ خولان في ممضاها القديم من حياة ملأى بالحروب والوقائع والأيّام والفتن، صار سنّةً ورَّثُوها أبناءهم، ينهضون بها في مرور أيّامهم، ولا سيّما عندما كانوا يشعرون بحيف أو ضيمٍ من أحدهم، وهم أصحاب أَنَفَةٍ وإباءٍ وامتناعٍ من الـخَسْفِ.

فقد دارت معظم معاني حماستهم وفخرهم القبليّ في فَلَكِ القوّة والشّجاعة، وضرب الخصوم، وكسر شوكتهم، وخوض غمار الحروب الطّاحنة، وما تتطلّبه من رباطة جأش وبأس شديدين، وتناولوا الفخر بحيازة الملك زمناً طويلاً، وبأرومةِ النَّسبِ ـ علىٰ قلّة ما جاء فيها من أشعار ـ وعُلوِّ المنبت وشرفه وعزِّ أصحابه، وذودهم عن الأهل الذين كانوا مُلهَماً للفخر أيضاً، وكان نصيب هذا الفخر أوفر حظًّا وأكثر حصة من لِفْقِهِ الفخر الذّاتيّ، الذي كاد يكون معدوماً لولا مقطّعةٌ ونتفةٌ يتيمتان لعمرو بن يزيد السَّعْديِّ.

فهذا الحارثُ بن عمرو السَّعديُّ حليم بني خولان وحكيمها يفخر بِقِدَمِ قصور أجداده، وبقاء رسومها علىٰ مرِّ العصور والأدهر، وقد كان فيها أبناء الحُماة الخُضَارمِ من غُرَّة بني جبر وذؤابة معيش، فرعَيْ يعلىٰ بن غالب بن سعد بن سعد بن خولان، وهم لُبَابُ قومهم وخيارهم، وكذا الأمر في قَيْوَان ويَسْنُم وكَهْلَان، ديارٌ طما عِزُّها علىٰ النّاس جميعاً، حتىٰ إنَّ السَّعْدِيّين غدوا جمرةً غالبيَّةً من جمرات العرب التي لا تتجاوز ثلاث جَمَرَاتٍ ـ وهو من قبيل المبالغة ـ[1]:

لنَا الـدَّارُ في تَضْـرَاعَ بَـاقٍ رُسُومُهَا	بهَا كـانَ أولادُ الحُمَاةِ الخُضَارِمِ
سَـــرَاةُ بَني جَـبْـرٍ وحَـــيَّ مُعِيْشِهَا	لُـبَـابُ لُـبَـابٍ مـن حُـمَـاةٍ أَكَـــارِمِ
ودارٍ بِـقَـيْـوانٍ لـنَـا كـانَ عـزُّهَـا	تَـوَارَثَـهَـا نَـسْـلُ الـمُـلُـوكِ القُمَاقِمِ
ويَـسْـنُـمُ دارُ الـعِـزِّ من دِمْـنَـتَـيْ دَفَـا	إلـىٰ أسفلِ المِعْشَارِ فَـرْعِ التَّهَائِمِ
ودارٍ بـكَـهْـلانَ لِـشِـبْـلٍ أَخِـيْـهُـمُ	دِعَــامَــةُ عــزٍّ مِــنْ تِــلَاعِ الـدَّعَـائِـمِ

(1) الدّيوان: ق76/ ب1 ـ 6.

وآلُ سـعـيـدٍ جَـمْـرةٌ غَـالِـبِـيَّـةٌ بِسَفْحَي سَـرُوْمٍ بينَ تلكَ الرَّجَائِمِ

ومن تلك الجمرة الغالبيّة عَمْرُو بن زيد الغالبيُّ، يفخر بعدم تركه لما اعتاد عليه من سُنَّةٍ سنَّها إخوانهُ وأهلهُ؛ وهي مداومة القتال وخوض الحروب، وذلك عشيَّة ساروا مجتمعين، وقد حشدت خولان ذؤابتها وغُرَّتَها، تقود الكتائب المدجّجة بالرِّماحِ والأسلحة الأخرىٰ، عندما آذنتِ الشَّمس بالغروب، وراحت تلملم ما بقي من أشعّتها، وأدلج القوم حتّىٰ صبّحوا خصومهم بالموت في وسط ديارهم، قبل أن يتبلّج الفجر، وترسلَ الشَّمسُ خيوطَها الأولى، داسوا بني عوفٍ، وأذلُّوا مُلْكَهُم بأعتَى الفرسان وأشدّهم بأساً؛ يقول[1]:

سَلِي تُخْبَرِي يا هِنْدُ هَلْ عِفْتُ مَشْربي؟ وهَلْ عَافَهُ قَوْمِي بِجَنْبِ الأَخَاشِبِ؟

عَشِيَّةَ سِـرْنَـا حَـاشِـدِيْـنَ وَقَـدْ بَـدَتْ مِنَ الشَّمْسِ عَيْنٌ أَو تَـوَارَتْ بِحَاجِبِ

وقَـدْ حَـشَـدَتْ فِيْهَا ذُؤَابَـةُ سَعْدِهَا وحَـيَّـا عَـدِيٍّ بالقَنَا والـكَـتَـائِـبِ

صَبَحْنَاهُمُ بالمَوْتِ في عُقْرِ دَارِهِـمْ وَقَدْ لَاحَ ضَوْءُ الفَجْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

فَدُسْنَا بَنِيْ عَـوْفٍ بِـزَوْرٍ وكَلْكَلٍ وَمِـلْـنَـا عَلَيْهِمْ مَـيْـلَـةً بالمَنَاكِبِ

ويخاطب المسلم الشِّهابيُّ عَمْرَو بنَ يزيدَ السَّعديَّ، الذي قُتِلَ بحومة الصِّراعات الدّائرة بين بطون قبيلة خولان ثأراً له من واتريه، ومفاخراً بوقع جياد فرسانه في المعركة، وقد أثارت غباراً كثيفاً، حتّىٰ بدتِ الرِّماحُ المُشْرَعةُ كأنَّها مشاعلُ نارٍ لاحت أضواؤها من بين العَجَاجِ[2]:

يا عَـمْـرُو لو عَايَنْتَ وَقْـعَ جِيَادِنَا لَـدَفَـى فُـؤَادُكَ، حِـيْـنَ ثَـارَ غُبَارُهَا

والـسَّـمْـهَـرِيُّ شَـوَارِعٌ أَسَـلَاتُـهُ قَـدْ لاحَ مِـنْ بينِ الـعَـجَاجِ نِيارُهَا

ثم يفخر بجموح خيوله بفوارسها في رهج تلك الحرب التي تَقْرَعُ فيها السّيوفُ بَيْضَاتِ الحديد علىٰ رؤوس المقاتلين، وتنفي مَقَاوِلَ حِمير، وتزيلهم عن الوجود، وبنو شهاب أسيادها وقوّادها، وإليهم الرُّجْعَى في أمورها، ويفخر بأسود (مغرق) الذين يقاتلون خصومهم مُقَاتَلَةَ غَرِيْبَةِ الإبل؛ لما فيها من شدَّة وقسوة، ثمَّ يعود وينادي ذلك الميت متمنيًا لو أنَّه شاهد فيلقاً من فوارس بني شهاب

---

(1) الدّيوان: ق78/ ب1ـ5.

(2) الدّيوان: ق89/ ب1ـ2.

يقوده جرّارٌ من الأبطال.

وفي ذلك الفيلق الشُّجْعَانُ أصحابُ البأسِ والفتكِ، وجوههم مُتَجَهِّمَةٌ تحت ظلال القنا تطلب النّزال، وتحمِّس الفرسان علىٰ الظّفر والنّصر، عيونهم مُحْمرَّةٌ تجندل فتيان الكماة وترديهم صرعىٰ، ويفخر بإعلام ذلك المدفون في التّراب بأنَّ فوارس بني شهابٍ حماةُ المعركة إذا ما دارتِ الدّوائر، وهم جمرها إذا ما اشتدَّ أوارها وعلت ألسنتها[1]:

يَجْمَحْنَ بالفُرْسانِ في رَهَجِ الوَغَىٰ والبِيْضُ يُقْرَعُ بالتَّرِيْكِ غِرَارُهَا

لَعَلِمْتَ مَنْ يَلْقَىٰ المَنِيَّةَ حِسْبَةً مِنْهُ، ومَنْ نَشِبَتْ بِهِ أَظْفَارُهَا

تَنْفِي مَقَاوِلَ حِمْيَرٍ وسَرَاتَهَا وَبَنُو شِهَابٍ وَكْرُهَا وقَرارُهَا

وَلُيُوثُ مُغرِقَ يَضْرِبُونَ فُرُوعَكُمْ ضَرْبَ الغَرائِبِ، أَعْرَكَتْكَ بِكَارُهَا

يا عَمْرُو لَو عَايَنتَ مِنَّا فَيْلَقاً يَهْدِيْ سَوابِقَ وَدْقِهَا جَرَّارُهَا

فِيهِ الكُمَاةُ عَوَابِساً تَحْتَ القَنَا تَسَلُ النِّزَالَ وَقَدْ بَدَتْ أَخْبَارُهَا

تَرِمِي إِلَيْكَ بأَعْيُنٍ مُحْمَرَّةٍ وتَسُوْقُ رَيْعَانَ الكُمَاةِ كِبَارُهَا

لَعَلِمْتَ أَنَّا في المَكَرِّ حُمَاتُهَا وَعَلِمْتَ أَنَّا في الصِّلَاءِ جِمَارُهَا

وإذا كان فرسان خولان ضراغمةً في ساحات الوغىٰ، يفتكون بالرُّؤوس من الخصوم، فإنّهم عند ثابتِ العوقِ يفعلون العَجَبَ العُجَابَ حين تشتدُّ الحرب التي كشّرت عن نواجِذِها، وكأنّها ليثٌ هَصُورٌ يستعدّ لاقتناص فريسته، وإنّ المرء ليبصر حُمَاةً لا نظير لهم، يسلّون السّيوف ويثبّتون الدّروع والتّروس؛ يقول[2]:

إنّا إذَا الحربُ أَبْدَتْ عن نَوَاجِذِهَا أَبْصَرْتَ مِنَّا لدىٰ رَيْعَانِها عَجَبَا

أَبْصَرْتَ مِنَّا حُمَاةً لا كِفَاءَ لهمْ يُجَرِّدُوْنَ سُيُوْفَ الهِنْدِ واليَلَبَا

وتتبدىٰ ملامح الحرب التي سُعِّرتْ بين القيسيَّة واليمانيَّة في قصيدة لعثمان بن مرَّة الخولانيّ، يجيب

(1) الدّيوان: ق89/ ب3ـ10.
(2) الدّيوان: ق98/ ب1ـ2.

فيها قيساً الهلاليّ الذي يفخر علىٰ اليمانيَّة في يوم داريّا[1]. وقد مزج شيئاً من الهجاء الشّخصّي بفخره القبليّ، أو أنّه جعل الأوّل مفضياً للآخر ومفتاحاً له؛ فنعته بالكَذِبِ في أوّل كلمةٍ في القصيدة، ثمّ باللّين والضّعف والخور لكلّ أمرٍ يسوءُهُ، ويتوعّده بجلبه خيلاً جياداً وفرساناً يخالهم أسوداً؛ لِيُنْسِي قوم قَيْسٍ الهلالي فخارهم وعزَّهم الذي كان يتباهون به، ويلحقهم بركب عادٍ وثمود اللتين عفا ذكرهم التاريخ، وهما السابقتان على عَيْلَان[2]. وقيل: «إنّ أهل اليمن كان الرّجل منهم يأتي ومعه كاتبٌ وطِنْفِسةٌ يقعد عليها، فيأخذ من أموال نزار ما يشاء»[3]، ولكن مثلما قيل: (يوم لنا ويوم علينا)[4]، أعلىٰ من شأن هؤلاء العبيد (القيسيَّة). ويتساءل منكراً غير مقالته بأنّهم أصحاب الرّفعة والشّأن، وأهل القيادة، ويفخر بأنّهم أصحاب تيجان، وعِزُّهم طما علىٰ الخلق كافَّةً؛ يقول[5]:

كَـذَبْـتَ لَـقَـدْ تَـنِـيْـتَ لِـكُـلِّ أَمْـرٍ ... يَـسُـوءُكَ فَـاسْـتَـمِـعْ مِـنِّـي الـوَعِـيدَا

سَـأَجْـلِـبُ نَـحْـوَكُـمْ خَـيْـلاً جِـيَـاداً ... وفِـتْـيَـانـاً تَـخَـالُـهُـمُ الأُسُـوْدَا

فَـنُـنْـسِـيـكُـمْ فَـخَـارَكُـمُ وَشِـيْـكـاً ... وأُلْـحِـقَ قَـتْـلَـكُـمْ جَـمْـعـاً ثَـمُـوْدَا

مَـتَـىٰ طَـمِـعَـتْ بَـنُـو عَـيْـلانَ فِينَا ... فَنَطْمَعَ أو نُـرَجِّـيَ أنْ نَـسُـوْدَا؟!

وَلَـكِـنْ دَوْلَـةٌ دَارَتْ عَلَيْنَا ... ودَهْـرُ الـسَّـوءِ قَـدْ رَفَـعَ العَبِيْدَا

أَلَـسْـنَـا المُنْجِبِينَ ذَوِي المَعَالِي ... وأَهْـلاً أنْ نَـسُـوسَ وأنْ نَـقُـودَا؟!

---

(1) جاء في تاريخ دمشق لابن عساكر مقالة قيس الهلالّي يفخر بيوم داريّا بقوله:

كَـأَنَّـا يَـوْمَ دَارَيّـا أسـودٌ ... تُـدَافِـعُ عَـنْ مساكِنِها أُسُـوْدَا

تَـرَكْـنَـا أَهْـلَ دَارَيَّـا رَمِـيّـاً ... حُـطَـامـاً في مَـنَـازِلِـهِـمْ هُـمُـوْدَا

قَـتَـلْـنَـا فِـيْـهِـمُ حَـتَّـى رَثَـيْـنَـا ... لـهُـمْ ورأيـتَ جَمْعَهُمُ شَـرِيْدَا

إذا غَـضِـبَ الإلـهُ عـلى أُنـاسٍ ... دَعَـا قَـيْـسـاً فَـصَـيَّرَهُـمْ خُـمُـوْدَا

وذلـك أنَّ قَـيْـسـاً غَـيْـرَ شَـكٍّ ... مِنَ الصَّوَّانِ بَلْ خُلِقَتْ حَدِيْدَا

فأجابه عثمان بن مرّة الخولانيّ بالأبيات. انظر: تاريخ دمشق 49: 499.

(2) انظر لمحة في الأنساب العدنانيّة والقحطانيّة في: العصبيّة القبليّة وأثرها في الشّعر الأمويّ 35ـ52.

(3) العقد الفريد 5: 246.

(4) هذا صدر بيتٍ للنَّمِر بن تَوْلَب، وعجزه: «ويوم نُساءُ ويوم نُسَرّ». انظر: ديوانه: 57.

(5) الدّيوان: ق94/ ب1ـ7.

لَبِسْنَا التَّاجَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ   زَمَانَ تَحُوكُ شَارَتُهَا البُرُودَا

فهذه هي المعاني التي ازدانت بها حماستهم وفخرهم القبليَّان في عصر بني أميَّة، ونلاحظ أنَّ ميدان الفخر متعلِّقٌ ببني خولان وَخْدَهم، وفي أكثر الأبيات التي وُقِفَ عليها وانتهت إلينا من أشعار القوم، كان الفخر خاصًّا ببعض بطون القبيلة، خلا قصيدةً وحيدةً كان الفخر القبليّ فيها أوسع من نطاق خولان ليشمل فخر اليمانيَّة علىٰ القيسيَّة؛ بسبب حرب أُذِلَّتْ بها قبائل اليمانيَّة التي نزلت الشَّام، وسكنت غوطتها، وكما قيل: فإنَّ «أعظم قرىٰ أهل اليمن بغوطة دمشق»[1]، ولا سيّما داريّا التي افترشها الخولانيّون الذين أمسكوا بطرف من أطراف السّياسة الأمويَّة في الشَّام، وعلىٰ الرَّغم من تقرُّبهم من خلفاء بني أميّة وشغلهم مناصب مهمّة في الدّولة، تصل أحياناً إلىٰ رتبة عامل علىٰ صقع من الأصقاع، أو قاضٍ أو رئيس شرطة[2]، لم نلاحظ أيَّ صدًى للحياة السّياسية في أشعارهم، على خلاف كثيرٍ من أشعار بني أميّة التي صوّرت مسرح الحياة السياسيّة. ولا عجب في هذا؛ لأنَّ خولان لم تنل حظَّ أخواتها القبائل اليمانيّة أو العدنانيّة من الشُّهرة والاتّساع؛ لتحظى باهتمام العلماء والرّواة وأهل الفضل الذين تنبَّهوا إلىٰ تدوين الشِّعْرِ وحفظهِ.

أمّا ما وقفنا عليه من حماستهم وفخرهِم الذّاتيّين، فدار ـ علىٰ قلَّته ـ في فلك الإقدام والشَّجاعة وخوض المعارك الطّاحنة، وتَنَاوَلَ الفَخْرُ بعضَ بطون القبيلة، والاعتزاز بشدة فتكهم وجبروتهم وقوّة بأسهم، وهي مناقب للقبيلة جميعها قبل أن تكون لعددٍ من أفرادها الذين برز منهم مستأثراً ببعض تلك المناقب عَمْرُو بن يزيد السَّعديُّ، الذي وجد في إضرام نار الحرب وإشعال فتيلها وتجديد لهيبها فخراً له، وقد سانده فيها كماةٌ أشرافٌ هم أشبه بالأسود عزةً وتيهاً وكبرياءَ، من بني حرب بن سعد وبني غالب بن سعد، الخولانيّين جِذْماً[3]:

شَبَبْتُ لَقَاحَ الحَرْبِ لمَّا تَبَوَّخَتْ   فَأَسْفَرَ لي من ضَوْئِهَا كُلُّ جَانِبِ

وَوَازَرَنِي فيها حُمَاةٌ أَعِزَّةٌ   هُمُ الصِّيدُ مِنْ حَرْبٍ وسَادَةُ غَالِبِ

ويتابع في مثل هذا الفخر في موضع آخر من أشعاره التي ينسجها علىٰ أوتار الشّجاعة والإقدام، حتّىٰ عَلَّق الهمدانيُّ عليها بقوله لـمّا أعجبته، ووجد فيها وشيَّةً تزيّن باب الحماسة والفخر: «ما قال أحدٌ

(1) انظر: تاريخ داريّا: 9، عن تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر 7/ 190 (مطبوعات الترقي بدمشق 1351هـ).
(2) انظر: مبحث علاقة خولان بدولة بني أميّة.
(3) الدّيوان: ق85/ ب1 ـ 2

من العرب في قديمها ولا في حديثها أشجعَ من هذه الأبيات، وهي لا أخت لها»[1]:

يَقولُ عَمْرٌو لَنَا والخَيْلُ مُشْرعَةٌ تحتَ الكُمَاةِ، وقدْ جَالَتْ عَوَادِيْهَا:

مَهلاً لكَ الخَيْرُ لا تَفعلْ، فَقُلْتُ لهُ: أَقْصِرْ، فإنَّ مُميتَ النَّفسِ مُحْيِيْهَا

هَمَزْتُ مُهْري بِرِجْلِي، ثُمَّ قُلتُ لهُ: اِذْهَبْ، إِلَيكَ، فَقَدْ سَارَت بِمَا فِيْهَا

أَكْرَهْتُهُ فَمَضَىٰ في جَوْفِ غَمْرتِهِمْ وَالرُّمْحُ يَأْخُذُ صِيْداً ثُمَّ يُرْدِيْهَا

وبذلك يتّضح لنا أنَّ الفخر والحماسة في أشعار خولان في عصر بني أميّة كانا علىٰ شقّين اثنين: فرديٌّ وقَبَليٌّ، كما هي حال العصور السّالفة التي وقفنا عليها، ويتبيّن أيضاً غلبة الجانب القبليّ علىٰ الفرديّ في هذا العصر، كالذي وقفنا عليه في شعر الحماسة والفخر في الجاهليّة وصدر الإسلام، ولعلَّ مرجعَ ذلك إلىٰ ذوبان الشّاعر في سلطان قبيلته التي انحدر من أرومتها، فتغنّىٰ بمكارمها وطِيْبِ أعراقها، وذِكْرِ أيّامها وتخليد آثارِهَا، والتَّعْرِيف بمناقبها وفضائلها التي طمت علىٰ كلِّ ذكرٍ وفضلٍ، حتّىٰ غدا في كثيرٍ من الأحيان لسانها الذي تنطق به وتحارب؛ وهذا ما أدىٰ إلىٰ ذوبان شخصه فيها. ومصداق ذلك ما ذهب إليه د. حسين نصّار بقوله: «والحقّ أنّ المجتمع القبليّ لا يعرف الأفراد، بلِ الجماعات، فلا فواصل بين الفرد والقبيلة، ولا كيان للفرد وحيداً»[2]، وفي هذا المذهب كانت القبيلة مفخرة للشّاعر، يبرز مناقبها التي ازدانت بها، في حين يذهب د. محمّد النّويهيّ إلىٰ عدِّ مثل هذا الأمر من الخطأ الذي فشا علىٰ ألسنة كثير من الباحثين، وأنَّ للأمر خصوصيّةً تمسّ عاطفة الشّاعر وكيانه الذاتيّ، وما يعبّر عنه هو إرادته التي آمن بها[3].

ثمَّ إنَّ استمرار النّزاعات والانقسامات بين بطون القبيلة وإشعال الحروب والفتن، ولا سيّما بين جذمي خولان: الرّبيعة بن سعد، وسعد بن سعد، في نهاية القرن الأوّل الهجريّ، كان دافعاً لاشتداد العصبيّة القبليّة أو للبطن؛ وهو ما أدّىٰ إلىٰ طغيان الفخر القبليّ علىٰ الذّاتيّ؛ «لأنّ اتّساع نطاق العصبيّة في هذا العصر [أي: بني أميّة] لم يلغِ العصبيّات الضيّقة إلغاء تامًّا، فظلّتِ العصبيّة للرّهط والبطن

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 98، المطبوع 1/ 402»، الدّيوان ق88/ ب1ـ4.
(2) رؤى نقديّة في دراسات أدبيّة 29 ـ 31 عن كتاب الشّعر الشّعبيّ العربيّ ـ د. حسين نصّار ص35، ونحو ذلك في الشّعراء الصّعاليك في العصر الجاهليّ 89 ـ 90.
(3) ثقافة النّاقد الأدبيّ 265.

قائمةً»[1]. على أنّه لم تكن هذه العصبيّة في العصر الجاهليّ غائبة عن بطون خولان، بل كانت موجودة، وأثرت في الشّعر تأثيراً حسناً[2]. ويضاف إلى ما سلف أنّ نزوع القبائل اليمانيّة نحو العصبيّة كان أشدَّ وطئاً من نزوع القبائل العدنانيّة، ونلاحظ أنّ معظم المعاني التي تفنّنوا في استلالها وتوظيفها لخدمة ما رنوا إليه، هي معانٍ تقليديّةٌ في شكلها العامّ، لم تخرج عن كثرة القتل في العدوّ، والإيقاع بالخصوم، والبروز للعدوّ، وترك التّستر منه، وركوب الموت خشية العار، والفتك والشَّجاعة والإقدام، وإبراز جوانب القوّة المختلفة والمنعة والصّبر على المكاره... وغابت معانٍ أخرىٰ كثيرة كانت في أشعار القبائل الأخرىٰ؛ من مثل: الامتناع عن الصّلح، والتّشمير عند الحرب، ورفض النّساء، وذمّ الفرار والتّعيير به، والفخر بسبي النّساء والتّحريض عليه، والإطراق حتّىٰ تُمكن الفرصة والإغارة علىٰ عدوٍّ بقصد نهب أمواله وغصبها[3]، مع أنّ خولان كانت في ممضاها القديم تُغِيُر علىٰ القوافل التّجاريّة وتعترضها؛ بغية سلبها وأخذ ما فيها[4].

واتّكاءً علىٰ ما تقدّم يمكن القولُ: إنّه لم يكن هناك تطوّر ذو بالٍ في مسيرة أشعار القوم من الجاهليّة حتىٰ آخر عهد بني أميّة، بل كانت أشعارهم علىٰ وتيرة واحدة تسير؛ بسبب ما عصف بالقبيلة من أحداث هزّت فروعها، وشتَّت بطونها وأرهاطها، ولم تبق مستقرةً في بيئة واحدة، وقد أشرت إلىٰ هذا الأمر في غير ما موضع من الدّراسة.

وإذا كانت جُلُّ قوافيهم قد فنيت في الفخر والحماسة، فإنَّه حال معظم قبائل العرب التي انبرىٰ للملمة قوافيها ودراستها بأَخَرَةٍ ثُلّةٌ من أهل العلم والفضل، الذين توصّلوا إلىٰ النّتيجة ذاتها؛ إذ حظي شعر الحماسة والفخر بالقسط الأوفىٰ من موضوعات الشّعر لدىٰ ديوان بني كلب[5]،

(1) العصبيّة القبليّة وأثرها في الشّعر الأمويّ: 274، وانظر نحو ذلك في 281 ـ 286، ونحو ذلك في العجّاج حياته ورجزه: 266 ـ 267؛ إذ يتحدّث مؤلّفه عن تبدّي الفرديّة بجلاءٍ في عصر بني أميّة، بعد أن كان الفرد ذائباً في القبيلة في الجاهلية، فصار الشعور الذّاتيّ يطمو على الشّعور القبليّ.

(2) انظر: ترجمة عمرو بن زيد (مغرق الأكبر) في الدّيوان.

(3) انظر: حماسة البحتريّ 15 ـ 24، 35 ـ 41، 44، وغير هذه الصّفحات، وما فيها من أبواب الحماسة.

(4) انظر: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 2/ 400.

(5) انظر: ديوان بني كلب 276 ـ 320.

وحِمْير[1]، ومَذْحِج[2]، وبني عامر[3]، ولم يكن ضامراً في قريش[4]، بل كان جسيمًا لدىٰ بني عقيل[5]، وهمدان[6] وذبيان[7]، وتغلب[8]، وأسد[9]، وطيّئ[10]، وقد تأخّر في شعر بني قشير؛ ليسبقه موضوع الغزل إلىٰ الصّدارة، ورغم ذلك لم يكنِ الفخر والحماسة في شعرهم شاحِبَيْن[11].

ولم تكن تلك المعاني الفخريَّة التي أشرنا إليها فيما سلف مقتصرةً علىٰ شعراء خولان دون غيرهم، بل هي معانٍ عامة موجودة لدىٰ قبائل العرب جميعها، وما بناه حبيب بن أوسٍ الطّائيّ وتلميذه البحتريّ في اختياراتهما يقوم «في لحمته وسداه علىٰ تلك المعاني التي تعدّ في إطارها العام مشتركة بينهم، بيدَ أنَّ البيئة التي كانت تعيش فيها كلُّ قبيلة قد تجعل لبعض القبائل مفخرة ما لا نجدها عند غيرها»[12].

فمذحج مثلاً «كان جلّ شعرائها من القادة والفرسان... وكان تأثير القبليّ في الفرديّ أكثر، وباعه أطول»[13]، فكثرت أيّامها ووقائعها حتىٰ أحصى الباحث لها ثمانياً وأربعين وقعةً مع القبائل العربيّة، وستّ عَشْرَة وقعةً مع القبائل اليمانيّة، وأربع وقعاتٍ داخليّة بين بطونها، وسبع وقعات وردت في متون الشّعر، وهذا ما جعلها في مقدّمة القبائل التي تهوىٰ الحرب، وتميل أفئدة أفرادها إليها، فصار خوضها من مفاخرهم القبليّة والذّاتيّة؛ منها كلمة شريفة ذات معانٍ جليلةٍ في بابها، لعمرِو بن معدي كرب الزُّبيديّ، ولو لم تكن كذلك لما اختارها نفر من العلماء وصَدَّروا بها مصنَّفاتهم[14]؛ يقول[15]:

---

(1) انظر: شعراء حمير (الدّراسة) 255 ـ 271.

(2) انظر: شعراء مذحج 193 ـ 214.

(3) انظر: شعر بني عامر 96 ـ 136.

(4) انظر: شعر قريش 195 ـ 209 وفيه مبحث الصراع على الخلافة.

(5) انظر: شعراء بني عقيل 1/ 140 ـ 146.

(6) انظر: شعر همدان: 75 ـ 90 و155 ـ 158.

(7) انظر: شعر قبيلة ذبيان 101 ـ 112.

(8) انظر: شعراء تغلب وأخبارهم 1/ 328 ـ 342.

(9) انظر: شعراء بني أسد 242 ـ 254. وقد توصل إلى النتيجة نفسها أحمد موسى الجاسم في (شعر بني أسد في الجاهلية) 110 وما بعدها.

(10) انظر: شعر قبيلة طيّئ 1/ 529 ـ 567.

(11) انظر: شعراء بني قشير: 133 ـ 188، 240 ـ 250.

(12) ديوان بني كلب (الدّراسة) 317.

(13) شعراء مذحج 193.

(14) انظر: الأصمعيّات: 121، شرح حماسة أبي تمام للأعلم الشّنتمريّ 1/ 155، ونحوه في حماسة البحتريّ: 1.

(15) ديوانه 52 ـ 56.

ومُـرْدٍ علىٰ جُـرْدٍ شَـهِـدتُ طِـرادَهَـا ... قُبَيْلَ طلوعِ الشَّمسِ أو حين ذَرَّتِ

صَبَحْتُهُمُ بيضاءَ يـبْـرُقُ بَيْضُهَا ... إذا نظرتْ فيها العيونُ ازْمَـهَـرَّتِ

ولـمّا رأيـتُ الخيلَ زُوْراً كأنّها ... جَـدَاوِلُ زَرْعٍ أُرْسِـلَـتْ فاسبطرَّتِ

فَـجَـاشَـتْ إلـيَّ الـنَّـفْـسُ أوّلَ مـرَّة ... فَــرُدَّتْ علىٰ مَكْرُوهها فاستقرَّتِ

هتفتُ فَـجَـاءتْ من زُبَـيـدٍ عِصابةٌ ... إذا طَــرَدَتْ فــاءتْ قريباً فـكَـرَّتِ

عَـلَامَ تقولُ: الرمحُ يُثْقِلُ عاتِقي، ... إذا أنـا لم أَطْـعُـنْ إذا الخيلُ كَـرَّتِ

ومن شعرائهم ومساعير حربهم وفرسانهمُ المعدودين: عمرو بن قِعَاس المُرَاديّ، صاحب تائيّة عالية في الفخر والحماسة، تناهبتها مصنَّفات اللُّغة والأدب؛ ومنها قوله[1]:

وعَــادِيَــةٍ لَــهَـا ذَنَــبٌ طَـوِيْـلٌ ... رَدَدْتُ بِمُضْغَةٍ فِيْمَا اشْتَهَيْتُ

أُثَـبِّـتُ بَـاطِـلـي فَـيَـكُـونُ حَـقّـًا ... وَحَـقّـًا غَـيْـرَ ذِي شِـبْـهٍ لَـوَيْـتُ

وحَـيٍّ نـاسِـلِـيْـنَ وهُـمْ جَـمِـيْـعٌ ... حِــذَارَ الشَّرِّ يَـوْمـاً قـد دَهَـيْـتُ[2]

وقـد عَـلِـمَ الـمَعَاشِرُ غَـيْـرَ فَخْرٍ ... بـأَنّـي يـومَ غَـمْـرَةَ قـدْ مَـضـيْـتُ[3]

فَــوَارِسَ مِـنْ بَنِي حُجْرِ بـنِ عَمْرٍو ... وأُخْـــرَىٰ من بَـنِـي وَهْـبٍ حَمَيْتُ

مَـتَـىٰ مـا يَـأْتِـنِـي يَـوْمِـي يَـجِـدْنِـي ... شَـبِـعْـتُ مِـنَ الـلَّـذَاذَةِ واشْـتَـفَـيْـتُ

ثمَّ يقولُ بعد ذلك:

وبـيـتٍ لـيـسَ مـنْ شَـعْـرٍ وصُــوفٍ ... على ظَـهْـرِ الـمَـطِـيَّـةِ قـدْ بَـنَـيْـتُ

وغير ذلك يطول ذكره مع شعراء مذحج[4]، ومثل ذلك ما نجده عند شعراء قيس عيلان وفرسانها الذين نالوا حظًّا وافراً من الاشتهار، حتّىٰ أُثِرَ عنِ الأصمعيّ قولُه: «... سئل شيخ عالم: من

---

(1) شعراء مذحج (الدّيوان) 518، وانظر: مصادره ثمة.

(2) وحيّ ناسلين: أيْ هم ماشون مسرعون، وهي مشية الذِّئب إذا أسرع.

(3) غمرة: اسم جبل، وكان به يوم من أيّامهم.

(4) شعراء مذحج (الدّيوان) 365 ـ 368، 476 ـ 483، 375 ـ 381.

الشّعراء؟ فقال: كان الشّعر في الجاهليّة في ربيعة، وصار في قيس.... وقال: أفي الدّنيا مثل فرسان قيس وشعرائهم؟ فذكر عدّة منهم: عنترة، وخفاف بن ندبة، وعبّاس بن مرداس، ودريد بن الصّمّة، وقال لي مرّة: دريد وخفاف أشعر الفرسان»[1]. وقد عُرِفَ عن هؤلاء الفخر والحماسة أكثر من أقرانهم؛ لما انمازوا به من خصائص ومناقب تحلّت بها قبائلهم قبلهم، وهم من أبنائها وأفرادها. فمثلاً نرىٰ الفخر يحظىٰ بحصّة الأسد من أغراض الشّعر لدىٰ دريد بن الصِّمّة، وبلغت أبياته ربع ما وصل من أشعاره، بل تجاوز ذلك بقليل؛ لأنّ وقائع قومه وغاراتهم الكثيرة، فضلاً عن سمات الفروسيّة التي اتّسمَ بها، مَعِينٌ ثرٌّ مدَّه بأصولِ فخره، ولا ينطق هذا الفخر بانفصاله عن أرومته ومحتده (قومه)[2].

وكذا الأمر لدىٰ عنترة العبسيّ، الذي «ذهب بعامّة ذكر الحرب»[3] التي كانت ديدن قومه علىٰ مرور الأيّام، فطارت شهرته في الآفاق، وطبّق صيتها الأصقاع، حتىٰ غدا فرسانها مضرب المثل في الشّجاعة والإقدام والفروسيّة[4]. ونجد عند العبّاس بن مرداس السُّلميّ الأمر نفسه؛ من حيث تمتّعِ قبيلته بمعاني الفخر والحماسة[5]، وهذا حال خفاف بن ندبة الشّـريديّ.

فللبيئة أبلغ الأثر وأعظمه في حياة هؤلاء الفرسان، الذين دفعوا الجاحظ (255هـ) للقول في أثناء ذكر بعض أبناء الزّنجيّات حين نزعوا في البسالة والأنفة: «... خفاف بن ندبة، وعبّاس بن مرداس،... عنترة الفوارس... فهؤلاء أُسْدُ الرّجال، وأشدّهم قلوباً، وأشجعهم بأساً، وبهم يضرب المثل»[6].

ومثل هذا أيضاً ما نجده عند الشّعراء الصّعاليك الذين عاشوا حياة حافلة بالفقر والجوع والفاقة والتّشرّد والحرمان... إلخ، وغير ذلك من المعاني التي استمدّوا منها ما تضمّنته أشعارهم؛ فهذا عروة بن الورد، الملقّب بعروة الصّعاليك، والمشهور بسيّدهم ومعتمدهم، كان يفخر بصعلكته؛ لأنّها شيمة الشّجعان الأقوياء، ويتغنّىٰ بمناقب رفاقه، وإقدامهم علىٰ الموت الّذي دنا منهم في يوم الرَّقَم؛ يقول[7]:

---

(1) فحولة الشّعراء: 48.

(2) ديوان دريد بن الصّمّة: 18.

(3) فحولة الشّعراء: 49.

(4) انظر: ديوانه 11ـ12.

(5) انظر: مقدّمة ديوانه.

(6) رسائل الجاحظ 1/ 192.

(7) انظر: ديوانه: 66، والرَّقَم: جبال دون مكّة بديار غطفان، وماء عندها أيضاً، وكانت فيه وقعة لغطفان على بني عامر، وقد فرَّ عامر بن الطفيل عن أخيه الحَكَم في هذا اليوم، فخنق الحكم نفسه خوف المثلَة. وهذا ما أشار إليه عروة.

نَحْنُ صَبَحْنَا عامراً إِذْ تَمَرَّسَتْ ... عُلَالَةَ أَرْمَاحٍ وضَرْباً مُذَكَّرا[1]

بِكُلِّ رُقَاقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدٍ ... وَلَدْنٍ من الخَطِّيِّ قد طُرَّ أَسْمَرَا[2]

عَجِبْتُ لَهُمْ إذ يَخْنُقُونَ نُفوسَهُمْ ... ومَقْتَلُهُمْ تَحْتَ الوَغَىٰ كانَ أَعْذَرَا

يَشُدُّ الحليمُ مِنْهُمُ عَقْدَ حَبْلِهِ ... ألا إِنَّما يَأْتِي الَّذي كَانَ حُذِّرا

وإذا كانت أشعار الصّعاليك ضرباً من ضروب الحياة، وصدىً للواقع المعيش وصورة للحقيقة، فإنّنا نرىٰ عروة يفاخر بكرمه وسخائه ومشاركة النّاس له في طعامه وإنائه؛ يقول[3]:

إنّي امرؤٌ عافي إنائيَ شِرْكَةٌ ... وأنتَ امرؤٌ عافي إنائكَ واحِدُ[4]

أَتَهْزَأُ مِني أَنْ سَمِنْتَ وقد تَرَىٰ ... بجسمِيَ مَسَّ الحقِّ، والحَقُّ جاهِدُ؟!

أُقَسِّمُ جِسْمِي في جُسُومٍ كثيرةٍ ... وأَحْسُو قَرَاحَ الماءِ، والماءُ بَارِدُ[5]

فذلك هو تأثير البيئة في أشعار أصحابها الذين تميّزت أشعارهم بخصيصةٍ ما، لا نجدها عند غيرهم، وقد تبيّن لنا أنَّ القيمَ التي تغنّىٰ بها شعراء خولان ـ كالشَّجاعة والبسالة والإقدام وعدم الخوف من الموت، وغيرها من القيم التي احتفىٰ بها الشِّعر الجاهليُّ وصدر الإسلام والعهد الأمويّ ـ عامّة عند جميع القبائل، التي تَعُدُّ مثل هذه القيم من المكارم والمناقب التي تزيّن الفارس، وترسم صورةً مثاليّة له، وإذا كان من خلافٍ يُرْصَدُ بين الشّعراء، فذلك عائدٌ إلىٰ الطّبع وطريقة التّناول، والاحتفاء بقيمةٍ أكثر من غيرها.

2 ـ الوَصْفُ:

يعسر علىٰ الباحث في موضوعات الشِّعْرِ إقامة الحدود والفواصل بين ما يدخل في باب الوصف، وما يدخل في سائر الموضوعات الأخرىٰ؛ لأنَّ الوصف وفقاً لما عرَّفه أهل العلم هو «ذكر الشيء بما

---

(1) عُلالةُ كل شيءٍ: ما جاء منه بعدما يمضي أوّله؛ أيْ: فطعنهم طعناً بعد طعنٍ. مُذَكَّر: موصوف بالشِّدَّة والصّعوبة وكثرة القتل.

(2) طُرَّ: سُنَّ وحُدَّ.

(3) ديوانه 68 ـ 69، وانظر: الشّعر الجاهلّي 234 ـ 236.

(4) أي: عافي إنائي: يأتيني من يشركني فيه؛ يقول: أملأ إنائي لبناً حتى يفيض عندي، وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحدٌ؛ أي: تستأثر لنفسك وحدك دون أضيافك، فتشبع وهم يجوعون، وأنا أهزلُ وأضيافي يسمنون.

(5) جسمه: طعامه، الماء القراح: الذي لا يخلطه لبنٌ ولا غَيْرُه، والماء بارد: أي في الشّتاء؛ فذاك أشدُّ.

فيه من الأحوال والهيئات»[1]، أو كما قال ابن رشيق: «وأصلُ الوصفِ الكشف والإظهار، يقال: قد وصفَ الثوبُ الجسم، إذا نمَّ عليه، ولم يستره»[2]. وبهاتين الكلمتين يكون الوصف داخلًا في معظم موضوعات الشّعر، ممتزجاً فيها، حتّىٰ كاد يذهب بجميع الشّعر؛ لما فيه من معنىٰ الاتّساع والشُّمولية، وقد نبّه أهل العلم من السّلف علىٰ هذه المشكلة قبل الخلف؛ فقال ابن رشيق: «الشّعر - إلّا أقلّه - راجعٌ إلىٰ باب الوصف، فلا سبيل إلىٰ حَصْرِهِ واستقصائه»[3].

والنّاظر في أشعار خولان يجد فيها ما يجد في أشعار القبائل الأخرىٰ من عدم استقلال هذا الموضوع في قصائد خاصّة، ولم يكن حظّه مثلَ سلفه الفخر الذي أفردت مقاطيع خالصة لوجهه، ويعزىٰ ذلك إلىٰ ضياع قسمٍ كبيرٍ من أشعار القوم؛ فقد برز الوصف في أشعار خولان في أبيات مفردة من قصائد ضاع أكبر أجزائها، أو في مقطّعات، أو نتف هي بُقَيّا مطوّلاتٍ؛ لذا سنتناول هذا الموضوع في إطار ما انتهىٰ إلينا من شعر خولان، محاولين تَلَمُّس الأحوال والهيئات، والكشف والإظهار للأشياء في أشعارها، وأوّلُ ما نبدأ به وصفهم الجاهليّ الذي كادت تظفر بجميعه مطوّلة علقمة الخولانيّ، علىٰ نحوله وضعفه، لولا أبياتٌ معدودةٌ تناثرت في أجزاء الدّيوان.

تناول علقمة الخولانيّ - دون غيره - في يتيمته وصف الطّلل أو الدّيار، وما يعتريها من معانٍ تناولها شعراء الجاهليّة وتفنّنوا في استلهامها.

فطالعنا في مقدّمة قصيدته بالحديث عن الطَّلل وسقياه بالأمطار الغزيرة، وما يمثّله هذا الطَّلل في موروث الشّعر العربيّ القديم من مأساة إنسانيّة تمثّلت بالصِّراع الدّائر بين ثنائيّة الحياة والموت، لكنَّ الرّعود التي حملت معها الوسميّ بلّلتِ المكان وبثّتِ الحياة فيه، وأنقذت خولان وبطونها من القحط والجفاف والمحل، ثُمَّ يذكر أنَّ عهده بتلك الدّيار - علىٰ قدمه - ما يزال جديداً؛ يستذكر كلّ ما جرىٰ له، وهنا لا بدَّ من التّنبيه علىٰ أمرٍ مهمٍّ؛ فحواه أنَّ قصيدة علقمة الخولانيّ توشّحت عباءة المدح القشيبة، وانضوت تحتها موضوعات متباينة متلازمة، تربط بينها وحدة الشّعور النّفسيّ؛ لأنّ الشّاعر قد توسّل بهذه الموضوعات (الطّلل - المحبوبة - الرّحلة والرّاحلة) للوصول إلىٰ الغاية المنشودة[4]. يقول[5]:

---

(1) نقد الشّعر 118، عنه في العمدة 2/ 1096.

(2) العمدة 2/ 1097.

(3) العمدة 2/ 1096.

(4) انظر: بنية القصيدة العربيّة حتّى نهاية العصر الأمويّ «قصيدة المدح نموذجاً» 157.

(5) الدّيوان: ق1/ ب1، 3، 5 - 6.

سَقَىٰ طَلَلاً بالجَلْهَتَيْنِ رُعُودُ ... وَغُرٌّ سَوَارٍ سَيْلُهُنَّ مَجُوْدُ

وَقِدْماً أَرَاهَا وَهْيَ جَامِعَةُ الهَوَىٰ ... يَنُوسُ بِهَا عَصْرُ الصِّبَا وَيَرُودُ

....

أَرَاكَ طَوَيتَ الكَشْحَ هَجْراً عَلَىٰ الَّتِي ... كَلِفْتَ بها والقلبُ مِنْكَ عَمِيْدُ

فقُلتُ لها: إنِّي أُؤمِّلُ رِحْلَةً ... إلىٰ مَلِكٍ مَحْضٍ نَمَتْهُ جُدُوْدُ

يفصح الشّاعر في البيت السّادس عن طِلْبَتِهِ وهدفه؛ وهو القيام برحلة طويلة ـ شقَّ بها علىٰ نفسه ورفاقه ـ إلىٰ الملك الحميريّ سيف بن ذي يزن؛ ليمدحه بأطيب الكلام وأعذبه، ويأمل نواله وعطاءه، بأنْ يمدَّ قومه بجيش يعينهم علىٰ قبائل قَيْس عَيْلَان (هوازن وسليم)؛ إذ تناول الطّلل أو الدّيار في مقدّمة القصيدة، «وهو شكلٌ فنيٌّ يتضمّن أعمق التّجارب»[1] الفنيّة لدىٰ الشّاعر في حياته الصّحراويّة[2]، وقد حذا علقمة حذو القدماء في الوقوف علىٰ الدّيار وتذكّر المحبوبة، ثمَّ الانتقال إلىٰ ذكر الرّحلة ومشقّتها، وإنضاء الرّاحلة والبعير، فإذا علم أنّه قد أوجب علىٰ صاحبه حقَّ الرّجاء وذِمَامَة التّأميل، وقرّر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه علىٰ المكافأة، وهزَّه للسّخاءِ وفضَّله علىٰ الأقران[3]. وقد ذهب الحاتميّ إلى مثل هذا فقال: «من حكم النّسيب الذي يفتتح به الشّاعر كلامه أن يكون بيا بعده ـ من مدح أو ذم، أو غيرهما ـ غير منفصلٍ منه»[4]، ومن ذلك الوصف ما نجده من وقوف علىٰ تصوير الرواحل التي امتطتها رجالات الوفد إلى الملك الحميري، وقد سارت سيراً مرفوعاً كأنّها نتوءُ جبلٍ مُعْوَجٍّ؛ يقول[5]:

تقولُ الَّتي مِنْ بَيْتِها شَحَصَتْ بنا ... رَكَائِبُ أَمثالُ العَطَائِفِ جُوْدُ

....

إليكَ ابنَ ذِي التَّاجيْنِ سِرْنَا رَكَائِباً ... مُرفَعَةً كأَنَّهُنَّ حُيُودُ

(1) تميم بن أبيّ بن مقبل ـ حياته وشعره: 194.
(2) الصّورة في شعر تميم بن أبيّ بن مقبل: 74.
(3) انظر: الشّعر والشّعراء 1/ 76.
(4) حلية المحاضرة 1/ 215، وعنه في العمدة 2/ 775.
(5) الدّيوان: ق1/ ب4، 7 ـ 8.

إذا انْبَعَثْنَ غَـادَرْنَ للسَّبْعِ شُنَّةً قِـرًى، وقَـرَاهُـنَّ الـبِـلادَ وَخِـيْـدُ

ويصف علقمة سير تلك الإبل، ويلحّ علىٰ مفهوم سيرها الممزوج باللّين تارةً، والسّرعة تارةً أخرىٰ، وهي التي أقرّت السَّبُعَ بما رمته من السَّلى وألقت به لبعد الممدوح؛ لتصل إلىٰ بغيتها قبل فوات الأوان؛ أي: قبل أن تسرع قبائلُ قَيْس عَيْلَان بخيولها ورماحها، وتعملَ السَّيف في بني خولان وحلفائهم قتلاً وتشريداً وتفريقاً، ثُمَّ يصف قلق خشب الرّحل واضطرابه المستمرّ؛ نتيجة لتقاذف الطّريق الوعرة لتلك الرّواحل بين هنا وهناك؛ إذ تتبع ما صار خالياً من نتوءات الحجارة الصّلدة وما إليها، حتّىٰ إذا ما مرّت بماء الحبط مالت إلىٰ التّهويد في سرعتها والتّبطيء، وكأنّها ستأخذ حظّها من الرّاحة بعد أن سارت طويلاً[1]:

سَلَكْنا بِهِنَّ السَّهْلَ سَهْلَ سُحَامَةٍ لها ذَمَـلٌ مِـنْ تَـحْـتِـنَـا وَسَـمِـيْـدُ

تَـرَامَـىٰ بِنَا مِثْلَ السَّعَالِي فَجَافِجٌ وذو خَـفْـقَـةٍ فَـوْقَ الـقُـتُـودِ يَمِيْدُ

طَـوَيْـنَ جَميلَ الخَافِقَيْنِ بِسُحْرَةٍ ومَـرَّتْ بِـمَـاءِ الحَبْطِ، وهـيَ تَهودُ

ونرىٰ الشّاعر يصوّر بعد ما سلف ظهورَ أوّل الإعياء؛ متمثّلاً برسم أخفاف تلك الرّواحل لخطوطٍ في الأرض التي صارت أشبه بالوجوه التي تمسحها أيادٍ هي أخفاف تلك الإبل[2]:

إذَا مَسَحَتْ أَخْفَافُهَا الأَرْضَ في الخُطَا ظَـنَـنْـتَ أَكُـفًّـا تَـحْـتَـهُـنَّ خُـدُودُ

وفي مشهدٍ آخر يصوّر شيئاً من عناء تلك الرّواحل في أثناء سفرها للملك الممدوح، وقد تقاذفتها سهولُ الأرض وقفافها[3]:

وَمَـالَـتْ إلـىٰ رُكْـنَـيْ عَجيبٍ رِكَابُنَا يُـقَـلِّـبُـهَـا خَـفْـضٌ لَـهُ وصُـعُـودُ

إلا أنّ ذلك التّعب لم ينل منها شيئاً، ولم يحطّ من عزيمتها وقوّتها، بل ظلّت كما كانت يوم خرجت قاصدةً الملك سيفَ بن ذي يزن الحميريَّ مُضَمَّرةً مشرفةً، ويُسْمَعُ وطء حوافرها من بعيد[4]:

---

(1) الدّيوان: ق1/ ب12ـ14.

(2) الدّيوان: ق1/ ب19.

(3) الدّيوان: ق1/ ب27.

(4) الدّيوان: ق1/ ب 35.

ومالَتْ إلىٰ أجْـزَاعِ حَيْفَةَ ضُمَّراً   شَـــوَازِبَ فـي تَـسْـيَـارِهِـنَّ وَئِـيـدُ[1]

أمّا وصفهم للخيل فقليلٌ جداً، ولم يُلْمَح إلا في موضعين، وُقِفَ عليهما في باب الحماسة والفخر فيما سلف؛ كان الأوّل منهما لعمرو بن زيد الخولانيّ المعروف بمغرق الأكبر، يصوّر كريمات الخيل والنّجيبات منها التي جلبها من بطن لِيَّةٍ بأنَّها مثلُ الطَّودِ ضخامةً وإشرافاً وعلوًّا؛ يقول[2]:

جَلَبْنَا عِـتَـاقَ الخَيْلِ مِـنْ بَطْنِ لِيَّةٍ   بِـأَزْعَـنَ مِثْلِ الطَّـوْدِ تَحْبُو كَلَاكِلُهْ

والثّاني منهما للمقدام بن زيد الحيوانيّ، الذي لفت انتباهه طول عنق الفرس، وكرُّهُ وانعطافُهُ في ساحات الوغىٰ، واكتنازه وامتلاؤه، واحمرار لونه الذي يحمل علامة الجرأة والإقدام[3]؛ يقول[4]:

ويــومَ رَسِـيـعٍ قـد أَفَـانَـا جِمَالَكُمْ   بِـكُـلِّ تَـلِـيْـعٍ مُـعْـكِـرٍ مُـدْمَـجٍ وَرْدِ

أما وصفهم للسلاح في الجاهليّة فملزوز في نصوص الفخر والحماسة التي تدور في فلك الحرب، ولم تفرد نصوص أو مقطّعات خاصّة لوجهه، وكانت تأتي لمحات سريعة في بيت أو بيتين في تضاعيف الفخر؛ فمن ذلك ما جاء لدىٰ عوف الخولانيّ لُـمَحاً سريعاً، لم يقصد لذاته، في أثناء فخره يوم سَفْحِ عُنَيْزَةَ بما فعله قومه بالخصوم والأعداء؛ من لقائهم برماحٍ عَوَاسِلَ مطاوعةٍ لأصحابها، تهتزّ كما يريدون لها؛ يقول[5]:

سَـلِ الـنَّـاسَ عنَّا يـومَ سَـفْـحِ عُنَيْزَةٍ   غَـــدَاةَ التَقَيْنَا بـالـرِّمَـاحِ العَوَاسِلِ

وهو وصفٌ شاحبٌ، ضامرٌ، لا يكاد يشعر به القارئ، ولا بجماله الذي يمكن أن يشفع للمقدام ابن زيد الحيوانيّ وهو يفاخر بأنّه وقومه نالوا من أعدائهمُ الذين نالوا منهم أيضاً، حينما كانت الرّماح الخطِّيَّة مشرّعة، وقد تناولت كلَّ فتًى شجاعٍ جريء[6]:

فَنِلْنَا ونَـالُـوْا والـرِّمَـاحُ شَـــوَارِعٌ   وَقَـــدْ نَـظَـمَ الخَطِّيُّ كُـلَّ فَتًى وَرْدِ

أما ما جاء عن وصفهم للسيوف ففي موضعين فقط، أو في بيتين بعبارة أكثر دقّةً؛ جاء الأوّل في

---

(1) الشوازب: الضوامر من الأفراس.

(2) الدّيوان: ق5/ ب1.

(3) التّاج (ورد).

(4) الدّيوان: ق13/ ب2.

(5) الدّيوان: ق10/ ب5.

(6) الدّيوان: ق14/ ب2. الرماح الخطيّة: من أجود رماح العرب وأحسنها.

معرِض فخر عمرة الحيوانيّة ـ وهي من مجاهيل القوم ـ بقومها بني حيّ الذين ندَّ نظيرهم وعَزَّ؛ لما لهم من مناقبَ ومآثر كثيرة؛ منها ردُّهمُ الملمّات، ورفعهم للنّوازل والمصيبات بسيوف بواتر قواطع، زُيِّنَتْ أعالي متونها بالعقيق الأحمر الذي تُتّخَذُ منه الفصوص، وفي هذا الوصف دلالةٌ علىٰ عنايتهمُ الفائقة بسيوفهمُ التي يتخيّرونها لمعاركهم؛ فعلاوة علىٰ حَدِّها وصقلها، يُجَمّلونها بالخرز. تقول[7]:

فَــذَاكَ فعلُ بَنـي حَــيٍّ إذا نزلتْ ... إحـدىٰ الملمات رَدُّوهـا وما نَكَلُوا

بـكـلِّ عـضـبٍ رقـيـقِ الـحَـدِّ زَيّـنَـهُ ... عَـقِـيْـقَـةٌ فـي ذُرَا مَـتْـنَـيْـهِ تَشْتَعِلُ

أما الموضع الثّاني فجاء في أثناء وصف خالد بن قيس الحيوانيّ لفعلة بني شهابٍ الوضيعة؛ حينما أعملوا السّيف قتلاً في بني حيّ، وهم الذين احتفلوا بهم يوم دخل هؤلاء فيهم واستجاروا بعباءة بني خولان؛ فيوم قام عمرو بن زيد (مغرق الأكبر) بإخراج بني حيّ إلىٰ مصر، آزر بنو شهاب قوم عمرو بن زيد، فصوَّر المقدام السّيوف التي قُتِّلَ بها أهله وذووه؛ فقال[8]:

وَلَدْنَا السَّرَاةَ الغُلْبَ مِنْ عَبْدِ مَالِكٍ ... فَقَامُوا عَلَيْنَا بِالسُّيُوفِ الهَوَاتِكِ

فهذا الذي جاء في وصفهم للسّلاح، وهو أشبه بالنّادر العزيز، وفيه تقصيرٌ واضحٌ، في الرّاجح عائدٌ إلىٰ ضياع معظم أشعار القوم؛ لأنّه من غير المعقول أن نقع علىٰ أبيات لا تتعدّىٰ أصابع اليد في أوصاف السّلاح، وهي خلو من الوصف الفنّي الرّصين الذي يمكن أن نلحظه عند غيرهم من القبائل العربيّة الأخرىٰ، ولا سيّما أنّ خولان قبيلة كرٍّ وفرٍّ، وقد ذهب كثيرٌ من أشعارها بموضوع الفخر بخوض المعارك الطاحنة والبروز للأعداء، وصرع الفرسان الأشدّاء... إلخ، فذلك ما أُثِرَ لهم ـ وهو قليل ـ في وصفهمُ الجاهليّ الذي خلا من الأوصاف المشهورة عند غيرهم، فلا نلاحظ وصفاً لمشاهد الصّحراء المختلفة من جبالٍ وهضابٍ ورمالٍ وغدرانٍ ورياضٍ ونخيلٍ، ولا وصفاً لحيوانٍ من بقَرٍ أو حُمُرٍ أو أسودٍ أو نعامٍ أو طيورٍ مختلفةٍ أو ضِبَاعٍ أو أفاعٍ ونحو ذلك، وربّما يعود ذلك إلىٰ علّتين اثنتين:

الأولىٰ: أنَّ خولان قبيلة حضريّة لم تسكن بطون الصّحراء كغيرها من القبائل، ولم يألف أفرادها ما ألفه أهل الوبر من صعوبة العيش وقسوته؛ فقد سكنت خلف أسوار منيعة، في قصور شاهقة منيفة، تردّ طرف النّاظر إليها، فلم يكن في مقدور شعراء القوم تصوير تلك المشاهد من الطّبيعة الحيّة.

---

(7) الدّيوان: ق102/ ب15 ـ 16.
(8) الدّيوان: ق15/ ب1.

الثانية: ضياع كثيرٍ من أشعارهم، وقد نبّهت غير مرّة علىٰ هذه العلّة... حتىٰ إنّ تصويرهم للطّلل بدا شاحباً؛ فلم نلحظ فيه الأثافي والنّؤي وبعر الآرام والرّماد والوشم وغير ذلك، وكذا الحال في موصوفاتهم الأخرىٰ؛ من مثل النّاقة التي ألحّ علقمة الخولانيّ علىٰ مفهوم السّرعة في رحلتها، دون الالتفات إلىٰ العناصر الأخرىٰ؛ مثل أوصاف العندل، والجماليّة، والجسرة، والحَرْفِ، والقلوص، والعنس، وغيرها من الأوصاف الخارجيّة، فضلاً عن أوصافها الدّاخلية للكشف عن عواطفها وشعورها ـ ولا سيّما أنّها كانت في رحلة طويلة ومُتْعِبَةٍ ـ كالذي نجده عند غيره؛ مثل زهير بن جناب الكلبيّ[1]، أو عمرو بن قميئة[2]، أو طَرَفَة بن العبد الذي أفاض في الوصف الموضوعيّ والذّاتيّ أيّما إفاضة[3].

أما أوصاف السّلاح فجاءت عرضاً غير مقصودةٍ لذاتها، ولم يهتموا بها كثيراً، حتىٰ إنّهم قصّروا فيها تقصيراً بالغاً؛ لعنايتهم بشعر الحماسة والفخر، وهي واحدةٌ من عناصر صورة الفخر بالمعركة وخوضها، وكذا الأمر في وصف الخيل التي أسبغوا عليها حَذْفاً يسيراً من الصفات الخارجيّة، دون الالتفات إلىٰ تصوير شعورها الداخليّ والذّاتيّ.

أما ما جاء عن وصفهم في عصر الخضرمة وصدر الإسلام، فلم يكن بأحسنَ حالاً من سلفه؛ إذ بدا تصويرهم شاحباً في بيت هنا وآخر هناك، ولا سيّما وصفهم للسّلاح الذي جاء ملزوزاً في نصوص الفخر والحماسة.

من ذلك قول عمرو بن يزيد العوفيّ حينما افتخر بقتل عمارة بن مرداس السّلميّ، يوم أغاروا علىٰ قومه مُغْلَمِين في وضح النّهار، مُعْمِلين السّيوف القواطع البواتر الرقيقة في رقاب السُّلَميين[4]:

وجِئْنَا إِليهمْ جَـهْـرَةً في بُيُوتِهِمْ ... بِكُلِّ رقِيْقِ الحدِّ، عَضْبِ المَضَارِبِ

وقد أرمدوا خيار بني سليم وأشرافهم بسيوفٍ مماثلة، بيضٍ لجلائها؛ يقول[5]:

هُـمُ صَبَّحُوا مَـاءَ الغُمَيْرِ فَـأَرمَـدُوا ... خِـيَـارَ سُلَيْمٍ بالسُّيوفِ القَوَاضِبِ

(1) ديوانه ق17/ ب12 ـ 15، ق10/ ب1 ـ 2.
(2) ديوانه ق3/ ب3 ـ 9.
(3) ديوانه ق1/ ب11 ـ 40.
(4) الدّيوان: ق31/ ب4.
(5) الدّيوان: ق31/ ب7 ـ 8.

فَحُسْنَاهُمْ بالبِيْضِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ   جـزَاءً بمَا أَسْـدَتْ إلينَا سَرَاتُها

وفي قصيدة أخرىٰ يفخر عمرٌو العوفيّ، ويتوعّد مُرَّ بن عامر بن الحارث الحميريّ - الذي خان عهده مع خولان، وأباح كلّ مكنون إلىٰ هوازن وسُليم - بأن سيقتله بكل سيف طبع في الهند، ذَكَرٍ وحادٍّ، كأنَّ لهيباً من النّار في متنيه لما له من حدَّةٍ وجلاءٍ، ولم يكن الشّاعر ليأتي بهذا التشبيه إلّا لرغبته في القضاء على خصومه، بسرعةٍ تشبه سرعة النار في التهامها الحطب، وبكلِّ رُمْحٍ مُثَقَّفٍ، مطواعٍ، ليِّنٍ، مُهْتزٍّ، يكون رهين صاحبه؛ يقول[1]:

بِـكُـلِّ مُـهَـنَّـدٍ ذَكَـرٍ حُـسَـامٍ   كَـأَنَّ بِـصَـفْـحَـتَـيْـهِ لَـهِـيْـبَ جَـمْـرِ

وكُـلِّ مُـقَـوَّمٍ لَـدْنٍ تَـرَاهُ   علىٰ عَـسَـلانِـهِ فـي الـكَـفِّ يَـجْـرِي

وفي موضع آخر أيضاً يفخر بقومه آل عوفٍ الذين إذا ما جروا رماحهم، احتملت جبال الأرض منهم ورحلت؛ لأنّهم جنٌّ إذا غضبوا تحت العجاجة، وفي أيمانهم سيوف كأنّها شُعلُ نارٍ[2]:

إِنْـسٌ إذَا أَمِـنُـوا، جِـنٌّ إذا غَضِبُوا   تحتَ العَجَاجَةِ في أَيْمَانِهِمْ شُعَلُ

ونجد في أربعة مواضعَ وقوفهم علىٰ وصف الرّماح؛ الأوّل منها لعمرو بن يزيد العوفيّ، وصف حاله التي آل إليها، وما أصابه من المشيب والكبر بسبب كثرة الحروب التي خاضها في مقارعة الخصوم والأعداء، حتّىٰ غدتِ الرِّماحُ علىٰ لَبَانِه أشطاناً لَفَّتْ قَلِيباً لم تطوَ[3]:

ومُـخْـتَـلَـفُ الـرِّمَـاحِ عـلىٰ لَبَانِي   كَـأَشْـطَـانٍ أُلِـفَّ بـهـا قَـلِـيْـبُ

وفي مقطّعة أخرىٰ يجعل هذه الرّماح مثقّفةً، وسُحْماً، وما سَحَمها إلَّا دلالة علىٰ كثرة الطّعن فيها، واستعمالها كلما دعت الحاجة[4]:

مِـنَ اسْـفَـلِ غُـمْـدَانٍ جَلَبْنَا جِيَادَنَا   تَـرَامَـىٰ إِلـيكُمْ بالمُثَقَّفَةِ السُّحْمِ

وثالث المواضع جاء في مِدْحَةٍ قصيرة ليعلىٰ بن سعد المالكيّ، أسبغ فيها أشرف الصّفات وأرفعها منزلةً يوم التقىٰ فوارس خولان (بحُزْوَىٰ) فوارسَ تميم، وكانتِ الرّماح تنهال علىٰ تميمٍ كأنّها حَبٌّ

---

(1) الدّيوان: ق41/ ب10 ـ 11.
(2) الدّيوان: ق48/ ب3.
(3) الدّيوان: ق33/ ب3.
(4) الدّيوان: ق49/ ب4.

يُذْرَىٰ[1]:

بِـــدَارِ تَـمِـيـمٍ غَـــدَاةَ الـجِـفَـارِ　　　　وزُرْقُ الأَسِـــنَّـــةِ يَـــذْرِيْـــنَ ذَرْوا

ونقل لنا عمرو بن حجر المالكيّ وصفاً للرّمح والسّيف في بيت واحد؛ حينما أعلم أمّ الحصين بقتله لمرّ بن عامر بن الحارث الحميريّ، بكلّ رمحٍ عَطِشٍ، وبكلّ سيف لاح في الجوّ مثل برقٍ سرعةً ومضاءً، لزم كفّ موتور يطلب ثؤره[2]:

بِـكـلِّ رُدَيْـــنِـــيٍّ ظِـمَـــاءٍ كُـعُـوبُـهُ　　　　وأَبْـيَـضَ مِثْلِ الـبَـرقِ في كـفِّ ثَائِرِ

أمّا ما جاء به شعراء العصر الأمويّ فنجد وصف عتاد الحرب فيه متداخلاً، يصعب معه مَيْز بعضه من بعضٍ؛ إذ أتىٰ أحياناً في البيت الواحد وصف السّلاح ومعه الفرسان والخيل، ولا بدّ للشّاعر في هذا المقام من رسم الصّورة كاملةً، وللمة أجزائها التي تمثّل مادّةً حيّةً لها، تأتي حسيّة حركية؛ فهذا قول المسلم الشّهابيّ - يصف الحرب التي دارت رحاها بين أشهر بطنين في خولان: سعد بن سعد، والرّبيعة بن سعد - لعمرو بن يزيد السّعديّ، فيصوّر جموع الخيول بفرسانها في رهج الوغىٰ، والسّيوف تضرب أشدّ المقاتلين وأعتاهم من أشراف حِمير وسراتها، حتّىٰ غدا بنو شهاب أسيادها وقادتها، وعشيرة مغرق يضربون خصومهم ضَرْبَ غَرَائِبِ الإبلِ؛ لما فيه من القوّة والشِّدّة والغيظ، وكأنّهم أسودٌ؛ يقول[3]:

يا عَـمْـرُو لو عَايَنْتَ وَقْـعَ جِيَادِنَا　　　　لَـدَفَـى فُـــؤَادُكَ، حِـيْـنَ ثَـارَ غُبَارُهَا

والـسَّـمْـهَـرِيُّ شَـــوَارِعٌ أَسَـلاتُـهُ　　　　قَـدْ لاحَ مِـنْ بينِ الـعَـجَاجِ نِيارُهَا

يَجْمَحْنَ بالفُرسَانِ في رَهَـجِ الوَغَىٰ　　　　والبِيْضُ يُـقْـرَعُ بالتَّرِيكِ غِـرَارُهَـا

لَعَلِمْتَ مـنْ يَلْقَىٰ المَنِيَّةَ حِسْبَةً　　　　مِـنْـهُ، ومَــنْ نَـشِـبَـتْ بـهِ أَظْـفَـارُهَـا

تَنْفِي مَـقَـاوِلَ حِـمْـيَـرٍ وَسَـــرَاتَـهَـا　　　　وَبَـنُــو شِـهَـابٍ وَكْـرُهَـا وقَــرَارُهَـا

ولُيوثُ مُغْرِقَ يَضْـرِبُونَ فُروعَكُمْ　　　　ضَـرْبَ الغَرائِبِ، أَعركَتْكَ بِكَارُهَا

وينادي عَمْراً: لو أنّه عاين ذلك الفيلق الضّخم، وفيه الكماة عوابساً تصول وتجول تحت ظلال

---

(1) الدّيوان: ق54/ ب2.

(2) الدّيوان: ق57/ ب2.

(3) الدّيوان: ق89/ ب1 ـ 6.

القنا، تسألُ النّزال والمبارزة، وقد اشتهتِ القتال، فاحمَرَّتْ عيونهم، واكفهرَّت وجوههم، لَعَلِمَ أنّهم الذّائدون عنِ الحمىٰ، بل هم جِمَارُهَا إذا ما علت ألسنةُ نِيَارِها[1]:

يَـا عَـمْـرُو لَـو عَـايـنـتَ مِـنَّـا فَيْلَقاً … يَـهْـدِيْ سَـوابِـقَ وَدْقِـهَـا جَـرَّارُهَـا

فيهِ الـكُـمَـاةُ عَـوَابِـسـاً تَـحْـتَ القَنَا … تَسَلُ الـنِّـزَالَ وَقَـدْ بَـدَتْ أَخْبَارُهَا

تَـرْمِـي إِلَـيْـكَ بِـأَعْـيُـنٍ مُـحْـمَـرَّةٍ … وتَـسُـوْقُ رَيْـعَـانَ الـكُـمَـاةِ كِبَارُهَا

لَعَلِمْتَ أَنَّـا فـي الـمَـكَـرِّ حُمَاتُهَا … وَعَلِمْتَ أَنَّـا فـي الـصَّـلَاءِ جِمَارُهَا

ومثل هذا الوصف نجده لدىٰ محمّدٍ المالكيّ، الذي يصوّر شجاعة بني عوف وبني مالك الذين يفلقون الجماجم ويكسرونها، ثم يشبّههم بأبعرٍ بلغتِ التّاسعة من سنّها، تبقىٰ ظِمَاءً للورود، حائمةً حوله[2]:

مَتَىٰ أَدْعُ بالسِّبْطينِ عَـوفٍ ومَالِكٍ … يُجِبْنِيْ حُمَاةٌ يَفْلِقُونَ الجَمَاجِمَا

يَـدِبُّـونَ حَولِي في الحَدِيدِ كَـبُـزَّلٍ … تَـظَـلُّ ظِـمَـاءً لِـلـوُرُودِ حَـوَائِـمَـا

ثُمَّ ينعتهم بالأسود كرًّا وفرًّا في حومة الوغىٰ، يضربون كبير القوم بالسّيوف القواطع الّتي أعْلَتْ من شأن الشّاعر وقدره، وبالرِّماح المتعطّشة كعوبها للدّماء التي تزيل ما علق بالنّفس من الوتر، وتشفي قلب الثّائر الأَحِنِ[3]:

رأَيْتَهُمُ كـالأُسْـدِ في حَـوْمَـةِ الوَغَىٰ … يُعَالُونَ هَـامَ الـقَـومِ بِيضاً صَـوَارِمَـا

هُـمُ بَيَّضُوا وَجْـهِـي غَـدَاةَ دَعَوتُهُمْ … بِكُلِّ رَقِيقِ الحدِّ يَنْفِي المَظَالِمَا

وكُـــلِّ رُدَيْـــنِـــيٍّ ظِـمَـاءٍ كُـعُـوبُـهُ … يُجَلِّي بِـهِ الأَوتَـارَ مَـنْ كَـانَ نَاقِما

ووصف محمّدُ بن قرف المالكيّ ـ وهو صاحب راية الرّبيعة بن سعد بن خولان في حربها مع بني سعد بن سعد بن خولان ـ الخيلَ والسّيفَ الذي لاح في الجوّ كأنّه البرق مضاءً وسرعةً، ويبري الرِّماح لحدَّته وجلائه، ووصف أيضاً فرسان الحرب الذين قلَّدوا ناقة أشبهت جرادةً لخفتها وسرعة انتقالها،

---

(1) الدّيوان: ق89/ ب7 ـ 10.
(2) الدّيوان: ق90/ ب4 ـ 5.
(3) الدّيوان: ق90/ ب7 ـ 9.

حتىٰ فُلِقَتْ منها الأحزام والأربطة، والأرماح تحرق جلدها وتكويها، وهو أشدّ ما يكون من القِتْلَةِ؛ فيقول مخاطباً عَمْرَو بنَ يزيدَ السَّعديَّ[1]:

يا راكِبَ الحِجْرِ يَجْري في شَكيمَتِهَا ... كَيْفَ اسْتَبَنْتَ جَوَادي حينَ تُمْريهَا؟!

وقـدْ سَلَلْتَ حُسَاماً لاحَ بـارِقُـهُ ... يَبْري القَنَا وكُـمَاةَ الحَرْبِ يَفْريهَا

لـلـهِ دَرُّكَ! لـو نـالَـتْـكَ ضَرْبَتُهُ ... لَـطَـارَتِ النَّفْسُ تَهْوي منْ تَرَاقيها

لـولا فـوارسُ مـنْ سَعْدٍ لَـفُـزْتَ بِهَا ... عندَ الـلِّـقَـاءِ ومـا طَـاشَـتْ مَرَاميهَا

لكنَّهمْ عَـارَضُـوا خَـيْـفَـانَـةً فُلِقَتْ ... منها الـحَـزَائِـمُ والأَرمـــاحُ تَكْويهَا

وقريب من هذا الوصف ما نجده في نتفةٍ لثابت بن يزيد العوفيِّ، الذي يرىٰ الحرب وحشاً ضارياً كشَّرَ عن أنيابه، وقد جرّد قومه سيوف الهند ـ وهي من أجود السّيوف وأمتنها ـ والدّروع أو التّروس؛ يقول[2]:

إنَّا إذا الحربُ أَبْـدَتْ عنْ نَوَاجِذِهَا ... أَبْصَـرْتَ منَّا لـدىٰ رَيْعَانِهَا عَجَبَا

أَبْصَـــرْتَ منَّا حُـمَـاةً لا كِـفَـاءَ لهمْ ... يُــجَــرِّدُونَ سيـوفَ الـهِـنْـدِ والـيَلَبَا

أمّا عنِ الأوصاف الأخرىٰ التي كنَّا نتوقّع أن نجد منها شيئاً فمعدومةٌ؛ من مثل وصف مظاهر الطّبيعة الصّامتة أو الحيّة، التي أهملوها إهمالاً تامًّا، فلم تُلْمَحْ في بيت شعريٍّ واحدٍ؛ كوصف الطّلل والأثافي والرماد والنؤي والأواري وبعر الآرام والثُّمامِ[3] وحَطَبِ الوَلاَئِد[4]، وغير ذلك من مفردات الطلل. كما لم تلحظ في شعرهم حيوانات الصحراء المختلفة من سِبَاعٍ ضَاريةٍ، وضِبَاعٍ جَائعةٍ، ووحوشٍ مفترسة، ووعُولٍ مُعْتَصِمةٍ في أعالي الجبال، وثيرانٍ انكفأت علىٰ ذاتها تحت أرطاة، وطيورٍ جارحةٍ، وظباءٍ تبحث عن مأمن لها من مصيرٍ يُضْمِرُ لها الموت، ويضاف إلىٰ هذا إغفال شعراء خولان صورةَ السَّماءِ ومتعلَّقَاتِهَا؛ من ليل بارد، وسماءٍ غطّتها النجومُ المتلألئةُ، وسُحُب تُؤمَّلَ فيها المطر والخير،

---

(1) الدّيوان: ق95/ ب1 ـ 5.

(2) الدّيوان: ق98/ ب1 ـ 2.

(3) الثُّمَامُ: نبت صغير لينّ لا يطول، تُسدُّ به خصاص البيوت، فينزل عنها حين يتحمَّل أهلها، ويبقى دليلًا على الأرض من دلائل حياة تبدّدت.

(4) الولائد: الإماء التي تلتقط الحطب، فتفرّق الرياح ما بقي منه، وتنثره في الديار.

والبرق الذي يشبه المصباح، والقمر... إلخ، وأمّا ما جاء من وصفٍ للخيل أو السّلاح من سيف أو رمح أو ترس أو فرسان، فلم يكن حاله أفضل؛ إذ جاء عرضاً في طيّات قصيدة الفخر والحماسة، دون الالتفات إلىٰ وصفه وصفاً دقيقاً وتصوير ما فيه، خلا بيتاً واحداً لعمرو بن حجر المالكيّ الذي صوّر فيه رمحاً تعطّش للدماء، وسيفاً لاح في الجو كأنّه البرق سرعةً ومضاءً، ليتبيّن لنا أنّ شعراء خولان لم يعتنوا بموصوفاتهم عناية أقرانهم شعراء القبائل الأخرىٰ، ولا سيما الذين قطنوا في الصقع اليمانيّ مثل شعراء حِمْيَر[1] ومَذْحِجَ[2]، ولم نجد فيهم شاعراً واحداً اشتهر بشيء من الوصف اشتهار كثير من الشعراء[3].

3 ـ المَدْحُ:

المدح هو «فنّ الثَّناء والاحترام والإكبار»[4]، وقيل: هو «تعدادٌ لجميلِ المزايا، ووصفٌ للشمائل الكريمة، وإظهارٌ للتقدير العظيم الذي يكنُّه الشَّاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا، وعرفوا بمثل هاتيك الشَّمائل»[5] التي انماز بها رجالات قبيلة خولان؛ من أنفة، وإباء وكبرياء عظيمين، واعتدادٍ بالنَّفس، كلُّها نعوت حالت دون بذل المُحيَّا، فبدوا زاهدين في تَطَلّاب هذا الغرض الشِّعري، راغبين عنه، إلّا في مواضعَ قليلةٍ من أشعارهم، كان أكثرها حضوراً في داليَّة علقمة الخولانيّ ويتيمته التي كادت تكون خالصةً لوجه هذا الغرض، لولا بعض الأبيات التي أنهبها الشَّاعر وصف النَّاقة الراحلة إلىٰ الملك، وما عاناه قومُهُ في أثناء سفرهم من وحشة الطريق ووعورته وبُعْدِهِ. وأمَّا ما جاء في غيرها فنجد أبياتاً يسيرةً مبثوثةً؛ إمّا في متن القصائد، وإمّا في أبياتٍ مفردةٍ لطيمةٍ أو مقطّعاتٍ أو نتفٍ، هي بُقَيًا قصائد بلا أدنىٰ شكٍّ.

وما جاء في هذا الموضوع في أشعار القوم الجاهليَّة علىٰ حدِّ العادة: ثلاث مقطّعات لعمرو الحيوانيّ، ونتفةٌ لشاعرٍ جاهليٍّ مجهولٍ، وقصيدةٌ لكُثَيِّرٍ الشِّهابيّ مزج فيها بين الفخر الذاتيّ والقبليّ من جهة، والمدح من جهة أخرىٰ، وقصيدة علقمة الخولانيّ الذي كان رحَّالاً يجوب الآفاق والأصقاع والأمواه إلىٰ الملوك والأمراء باليمن والشَّام، وهو صاحب المشورة علىٰ رؤوس خولان باستنجاد سيف بن ذي

---

(1) شعراء حمير (الدّراسة) 307 ـ 309.

(2) شعراء مذحج ق85/ ب4 ـ 9، وانظر (الدّراسة) 224 ـ 229.

(3) ديوان بني كلب (الدّراسة) 394، وفيها فضل إيضاح من مقارنة شعراء كلب بغيرهم من شعراء الوصف.

(4) شعر يهود في الجاهليّة والإسلام 188.

(5) فن المديح: 5، وعنه في أشعار أهل اليمن في العصر الأمويّ 137.

يزن الحميريّ علىٰ قبائل قَيْس عَيْلَان[1]، وقد تناول علقمة القيم الفنيّة ـ التي نبّه د. وهب رومية علىٰ احتبائها بفناء غرض المدح؛ فقال: «وجدنا أنَّ حسن الجوار وما يتّصل به هو القيمة الأولىٰ التي يتغنّىٰ بها هؤلاء الشّعراء، ثمَّ تليها قيمة القوّة، وقد تتفرّع عنها، ويحتل الكرم المرتبة الثالثة، ويتأخّر عنها جميعاً النسب»[2]؛ من دون استجداءٍ أو توسّلٍ يبذل لنوالٍ ما يُطمع به.

وما أسبغه علقمة الخولانيّ علىٰ ممدوحه من صفات ونعوتٍ وأماديح هي قَارَّةٌ في شخصه؛ لأنَّ له من تلك المزايا ما جعله الأكثر شهرةً ودوراناً علىٰ ألسنة العرب قبيل الإسلام، فهو الذي أخرج الأحباش من اليمن (575م)، وجاءته وفود العرب مهنّئةً من كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، وفيها شعراؤها؛ كقريشٍ التي جاء وفدها يرأسه عبد المطلب، وفيهم أميّة بن أبي الصَّلت الثقفيّ الذي جرىٰ لسانه بالثَّناء علىٰ سيف جريان الشِّعر علىٰ ألسنة شعراء غيره[3].

فبعد خروج وفد خولان ـ وبينهم علقمة ـ من ديارهم إلىٰ صعدة، ثُمَّ منها إلىٰ صنعاء وسط بلد همدان = مسرعاً ليصل الملك سيف بن ذي يزن ليطلب عطاءه ونواله، بأن يمدّهم بجيش قويٍّ يعينهم علىٰ ردع قبائل قَيْس عيلان (هَوَازن وسُلَيم)، يبدأ بمدحه وإسباغ ثانية القيم وثالثتها عليه؛ وهي كثرة الرَّماد، والسَّخاء، وإباء النَّفس والبأس، الممزوجين بكرمه وسَمْحه[4]:

إلىٰ طَلِقٍ لَمْ يَعْقِدِ اللُّؤمُ كَفَّهُ ... ومَا زَنْدُه في المَكْرُمَاتِ صَلُودُ

نَمَاهُ إلىٰ العَلْيَاءِ نَفسٌ أَبِيَّةٌ ... وَبَأسٌ غَدَاةَ البَأْسِ مِنْهُ وَجُودُ

ثمَّ يُلِحُّ علىٰ قيمة الكرم والسَّخاء؛ فيقول[5]:

إلىٰ مَلِكٍ يُعْطِي البَرِيَّةَ مالَهُ ... وقَال لهُمْ: عُودُوا فَسَوفَ أَعُودُ

ثمَّ يصف ناقته وقد أصابها شيءٌ من الإعياء حينما تقاذفتها الأرض من وادٍ إلىٰ آخر، ثمَّ إلىٰ ملك تحمي عرشه جيوشٌ جرَّارةٌ، بلغ رشده وهو ما يزال وليداً حديثاً، وهو من بيتٍ كريمِ الأصلِ والمَحْتِدِ،

---

(1) انظر: ترجمته في الدّيوان.

(2) قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأمويّ 35.

(3) انظر: ترجمته في شعراء حمير (الدّراسة) 93، وانظر: قصيدة أميّة في ديوانه 453 ـ 459، وتروى لأبيه أبي الصَّلت، ورجّح الدكتور عبد الحفيظ السَّطلي أنّها منحولةٌ.

(4) الدّيوان: ق1/ ب9 ـ 10.

(5) الدّيوان: ق1/ ب17.

وهو الصّبور علىٰ النّازلاتِ والنّوائبِ، والشّاعرُ يعمد إلىٰ صيغ المبالغة لترسيخ تلك الصفات والنعوت في شخصه؛ يقول[1]:

تَعَالىٰ إلىٰ بَابِ امْرِئٍ ذِي مُرَكَّبٍ ... تَكَامَلَ فِيهِ العَقْلُ وهوَ وَلِيْدُ

أَقَبُّ طَوِيلُ البَاعِ مِنْ بَيْتِ أَسْلَمٍ ... صَبُورٌ عَلىٰ رُزْءِ الزَّمانِ جَلِيْدُ

ثمَّ نراه يمدح من لاذ بظلّه من حاشيته، فيجعلهم الأَنْجُمَ والسُّعودَ دون أن يصرِّحَ بأنّه القمر، ومَنْ بقي غيره؟! بل إنّه مِنْ خير مَنْ حَمَلَتْ به كرائمُ بني ذُهْلٍ (بني ذي يزن الأكبر)، وقد كَبُرَ فيه منصبه الذي يشغله في دولة حمير العظيمة، فهو ملكٌ وابنُ ملكٍ، يوم دحر جيوش الأَشْبَاء والصَّدفِ وحضرموت يوم غَيْمان، وداس عروش ملوكهم وسحج تيجانهم[2]:

فَصَبَّحْنَ ذا قَيْنٍ وكَبَّرَ وَفْدُنَا ... وقَدْ قَابَلَتْنَا أَنْجُمٌ وسُعودُ

تَوَمٌّ فتىٰ مِنْ خَيْرِ مَنْ حَمَلَتْ بِهِ ... كَرَائِمُ ذُهْلٍ والمَجِيْدُ مَجِيدُ

تَكَامَلَ فيهِ مَنْصِبٌ لَمْ يُلَتْ بِهِ ... ومُلْكٌ نَمَاهُ طَارِفٌ وتَلِيدُ

ومَدَّ إليهِ يومَ غَيْمانَ إذْ دَعَا ... مِنَ ابْنَاء عَمْرٍو أَشْبُلٌ وأُسُودُ

ثمَّ يتناول قيمة حُسن الجوارِ ويمسك بطرفٍ من أطرافها، معوِّلاً علىٰ مدده وعونه وقوّته، التي فاقت كلَّ ذي قوَّةٍ وبأسٍ مِنْ مثل فوارس قَيْس المشهود لهم بالبأس ورباطة الجأش والفروسيّة[3]، وهو الحامي للمال السَّائم في المراعي[4]:

يُؤَمِّلْنَ نَصْراً مِنكَ يا خَيْرَ سيِّدٍ ... وأَنْتَ وَصُولٌ للقَرِيبِ وَدُودُ

وحَامٍ لِسَرْحِ الجارِ عنْ بُعدِ دارِهِ ... لِخَوْفِكَ عَنْهَا حَيْثُ كانَ حُيُودُ

تَحَامَيْنَ أَحْمَىٰ مِنْ عُدَاةٍ أَقَرَّهَا ... فَوَارِسُ قَيْسٍ والمُقِرُّ يَذُودُ

ثمَّ يتناول القيمة الأخيرة وهي قيمة النَّسب، فيمدحه بأنّه خير بني حمير جميعاً، وهم يطمعون بنواله

---

(1) الدّيوان: ق1/ ب20 ـ 21.

(2) الدّيوان: ق1/ ب23 ـ 26.

(3) انظر: فحولة الشّعراء: 48.

(4) الدّيوان: ق1/ ب28 ـ 30.

وسخائه اللّذين يقيدان مصيبتهم، وقد أدميتْ جِرَاحُ ذلك الوفد، لعلّها تندمل وتبرأ من ألمها عندما يعودون بالذي سعوا إليه[1]:

أبا المُنْذِرِ الفَيَّاضَ يا خيرَ حِمْيَرٍ	وخيرَ بَني ذُهْلٍ، إلَيْكَ نُرِيدُ
نُرِيدُ نَوَالاً مِنْ سِجَالٍ غَزِيرَةٍ	فأنتَ لَها في النَّائِبَاتِ مُفِيدُ
....	....
وقَطَّعْنَ تِيْهَ الأرضِ منْ دِمْنَتَي دَفَا	إلَيْكَ وقدْ تُعْطِي المُنَىٰ وتَزِيْدُ
صَرَفْنَ إليكَ القومَ تَدْمَىٰ كُلُومُهُمْ	لِيُدْمَلَ قَرْحٌ منهُمُ ولَهودُ
ويَرْتَاشَ قِدْحٌ منهُمُ ذو تَمَرُّطٍ	ويَفْتَاقَ يوماً مِنْكَ وهوَ سَدِيدُ
ونَصْدُرَ مِنْكَ بالتي تَتْرُكُ العِدَا	عَبَادِيدَ مِنهمْ خَائفٌ وشَرِيدُ
لَعَمْرُكَ ما أُدْلِي بغيرِ مَوَدَّتي	ومَا لي سِوَىٰ ما قدْ علمتَ شُهُودُ

المتأمِّلُ في هذه الأبيات يجد أنّها صادرةٌ عن عاطفةٍ صادقةٍ من غير مواربة، وما جاء في البيت الأخير من قَسَمٍ خيرُ دليلٍ علىٰ صدقها، وعفويّتها الآسرة التي تخلو من التَّوسُّلِ والاستجداء؛ لأنَّه ليس لامرئٍ عربيٍ ملجأٌ إلّا هذا الملك الذي امتدَّ ظلُّه إلىٰ عرب الجنوب كُلِّهم، بل إلىٰ قبائل جزيرة العرب قاطبةً، ولا سيما أنَّ «العرب لا تتكسّب بالشّعر، وإنّما يصنع أحدهم ما يصنع منه مكافأةً عن يدٍ لا يستطيع أداء حقّها إلّا بالشّكر إعظاماً لها...»[2]. وعلىٰ هذا تبدو هذه المِدْحَةُ «مشرقةً زاهيةً، لا تسأل ولا تستجدي، وليس يعلوها الصَّغارُ، بل تشكرُ الصّنيع الجميل لأهله وتحمَدهُ، وتبتهجُ بالمودَّة، وتمور بالعاطفة»[3].

ولم يختلف دافع كُثَيِّر الشَّهابيّ عن دافع علقمة في مدحته التي أنفقها في سبيل الملك الحميريّ ـ وكان واحداً من أعضاء الوفد المؤلّف من سبعين رجلاً، الوافد علىٰ ابن ذي يزن ـ الذي جعله من أفاضل الخلق وأحاسنهم، وقد أَمَّلَتْهُ خولان في بسط رجائها؛ إذ قال[4]:

---

(1) الدّيوان: ق1/ ب38 ـ 39، 41 ـ 45.

(2) العمدة: 1/ 119.

(3) قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأمويّ 36.

(4) الدّيوان: ق17/ ب1.

يا خيرَ منْ أَصْبَحَتْ خَـوْلانُ تَأْمُلُهُ　　وقـد أَتَـتْـهُ بـأُخـرَىٰ جُـرعَـةَ الـذَّقَـنِ

ولم ينسَ أنْ يسبغَ علىٰ بعض الوفدِ الصّفاتِ الحسنةَ والمناقبَ الرَّفيعةَ، وقد أتوه معترفين بفضله وإحسانه لهم؛ فهم خَيْرُ قومهم وأفضلهم[1]:

فَسَـارَ نَـحْـوَكَ أَمْـجَـادٌ غَـطَـارِفَـةٌ　　مِـنْ آلِ خَـوْلانَ حَـمَّـالـونَ لِلمِنَنِ

هُـمْ خيرُ قَوْمِهِمُ، فابْسُطْ رَجَـاءَهُـمُ　　يُثْنُوا بِخَيرٍ لِمَا أَوْلَـيْـتَ مِـنْ حَسَنِ

ومِنْ مماد‌حهم مقطّعةٌ لعوفٍ الخولانيّ، يذكر فيها عِزَّ قومه بني حيّ بن خولان وسيادتهم للبريَّةِ كُلِّها، وقد حازوا المآثر الحسنة وحصَّلوا المكارم، بكثرة الطَّعن بالرِّماح الصُّمِّ الغليظة التي لا تنثني ولا تنحني، واعترفت خولان لهم بحيازتهم الملك في الزمان الخالس[2]:

أبـنـاءُ حَـيٍّ مـا سَـمِـعـتَ بِمِثْلِهِمْ　　حَـازوا المَكَارِمَ بالطِّعَانِ الدَّاعِسِ

رَأَسُـــوا الـبـريَّـةَ كُـلَّـهـا وتَمَكَّنوا　　فـوقَ الـفُـروعِ عَلىٰ المَحَلِّ الرَّائِسِ

شَهِدَتْ لهُمْ خَـوْلانُ عِنْدَ فَخَارِهِمْ　　بالمُلْكِ قِدْماً في الـزَّمَـانِ الخالِسِ

ومثل هذا ما نجده في مقطَّعةٍ أخرىٰ؛ منها يقول[3]:

أبـنَـاءُ حَـيٍّ قـدْ سَـمِـعْـتَ بِمُلكِهِمْ　　أَهْـــلُ الـمَـعَـالـي رُجَّـــحٌ أَحْـلامُـهَـا

وقوله في مقطّعة ثالثة مادحاً بني حيٍّ الذين اعترفت لهم خولان بفضلهم، وهم في الحرب كماةٌ أشدَّاء، لايعرف الفزع إليهم طريقاً ولا الجبن سبيلاً؛ يقول[4]:

أَقَـرَّتْ لَهم خَـوْلانُ قِدْماً بِفَضْلِهِم　　ولُبْسُهُمُ في الـرَّوْعِ نَسْجٌ مُضَاعَفُ

وثمة شاعرٌ خولانيٌّ مجهولٌ مَدَحَ شُرَحْبِيْلَ بن حُجْرِ بن ربيعة بن سعد بن خولان، فأسبغ عليه المكارم والفضائل، وجعلها لبوساً له؛ يقول[5]:

---

(1) الدّيوان: ق17/ ب3ـ4.
(2) الدّيوان: ق8/ ب1ـ3.
(3) الدّيوان: ق11/ ب1.
(4) الدّيوان: ق9/ ب1.
(5) الدّيوان: ق29/ ب1ـ2.

لَقَدْ لَبِسَ الْمَكَارِمَ واحْتَواهَا لَعَمْرُكُمْ شُرَحْبِيلُ بنُ حُجْرِ

أَخُو الغَارَاتِ، مُرْتَكِبُ المَعَالي ومُعْطِي كُلِّ موجُودٍ وذُخْرِ

فهذا الذي انتهىٰ إلينا من أماديحهم في العصر الجاهليّ، وإذا ما أعدنا النّظر كرّةً أخرىٰ ممحّصين في هاتيك الأشعار ومعانيها، وجدناها تتعلّق بأحسن الصّفات والنّعوت؛ من سخاءٍ وإباءٍ وعزّةٍ، وشجاعةٍ ونجدةٍ ونسبٍ أصيلٍ وحمايةٍ للجار وعلوٍّ في المكانة والقدر، وهي المعاني التي اعتاد الشّعراء انتهابها في غرض المدح، ولا تدلّ تلك الصّفات علىٰ تكسّب واستجداءٍ، وإنّما علىٰ إبراز صفاتٍ موجودةٍ في الممدوح حقيقةً؛ كما أسلفنا في مدح سيف بن ذي يزن الحميريّ.

أمّا ما جاء به الشّعراء المخضرمون في صدر الإسلام فقليلٌ ضامرٌ جسمه، خائرةٌ قُوَاهُ، بدا خجلاً في ظهوره لدىٰ عمرو بن يزيد العوفيّ ـ الذي تنهض أشعاره على حِيالها بديوانٍ مستقلٍّ ـ عندما مدح أبناء عمّه مالك بن زيد بن أسامة بن زيد الخولانيّ، لعلّهم يرجعون عمّا عزموا عليه من محاربتهم لرهط الشّاعر وقومه، فراح يُذَكِّرهم بأنّهم سندٌ لهم، ويدٌ يطولون بها الأعادي، وهم أناملُ لتلك الأيادي، وإخوة لهم في كلِّ الرّزايا والنّوازل، مصيرهُمْ واحدٌ؛ لأنّهم انحدروا من أبٍ واحدٍ كريمِ السِّيرة[1]:

فَأَنْتُمْ لنَا كَفٌّ نَطُولُ بها العِدَا وهلْ تُوْجَدَنْ كَفٌّ بِغَيرِ أَنَامِلِ؟!

ونَحنُ أَشِقَّاءٌ، أَبُونَا أَبُوكُمُ وإِخْوَتُكُمْ، في كُلِّ يومِ زَلازِلِ

أَلَيْسَ أَبُونَا منْ أُسَامَةَ في الذُّرَا شقيقَ أَبِيكُمْ، قِسْمَةً في المَنَازِلِ؟!

ومن مدحه ما نجد فيه بعض المعاني الدينيّة الخالصة؛ فهو يطلب من أبناء عمومته أن يخفّفوا من ثورتهم، ويرعوا جانب القرابة وأواصرها؛ لأنّ لهم بقومه سَنَداً متيناً في المُلِمّات، ولا سيّما أنّهم خاضوا حروباً معاً ضدّ أعدائهم وخصومهم؛ وهم يُشْتَمُون ويُسَبُّون في عقر دارهم، وليس فيهم من يزيّن صورتَهم ويُجَمِّلُهَا في غيبتهم، ولولا رحيل الشّاعر إلى يَثْرِبَ لأدَّبهم وأنزل فيهم عِقَابَهُ الشَّديدَ، ولكنّه أمّل أمراً لا يرجع دونه؛ وهو زيارة النّبيِّ محمّد صلى الله عليه وسلم ـ خيرِ بني لؤي بن غالب بن فِهر بن كنانة ـ المرسل بالكتاب المُنْزَلِ؛ يقول[2]:

مهلاً بَنِي سَعْدِ بنِ سَعْدٍ عَمِّنَا إِنَّا نَصَرْنَاكُمْ ولَمَّا نَخذُلِ

---

(1) الدّيوان: ق45/ ب2 ـ 4.

(2) الدّيوان: ق46/ ب1 ـ 4، 6 ـ 9.

فَـارعَـوا قَـرَابَـةَ مَعْشَرٍ نَصَـروكُمُ ... وازجُـوا مَـوَدَّتَـنَـا لِـعَـامٍ مُـقْبِـلِ

فَلَعلَّنَا يـومـاً نُـقَـارِعُ دُونَـكُـمْ ... ونَـذُبُّ مَـنْ يَغْشَىٰ الـبِـلادَ بِمُعْضِلِ

أَنَـسَـبُ فـي خـاقـانِـكُـمْ مـا مِنْكُمُ ... يـومـاً لَـنَـا فـي غَـيْـبَـةٍ بِـمُـجَـمِّـلِ؟!

....

لـولا رَحيـلـي يَـثْـرِبـاً لَـكَـرَرْتُـهَـا ... بـالـجِـدِّ مِـنِّـي لـلَّـئِـيـمِ الأعْـــزَلِ

أَمَّـلْـتُ أمـراً لـسـتُ أَرْجِـعُ دونَـهُ ... والـرُّشْـدُ فـي رِفْـقِ الفَتَىٰ المُتَأَمِّلِ

حـتَّـىٰ أزورَ نَـبِـيَّ صِـدْقٍ مُـرْسَـلاً ... يَـأتـيـهِ وَحْـيٌ بـالـكِـتَـابِ الـمُـنْـزَلِ

مِـنْ خـيـرِ بـيـتٍ فـي لُـؤيٍّ بَـيْـتُـهُ ... بيتٌ لَـعَـمْـرُكَ في الـرَّفِـيـعِ الأَطْـوَلِ

نلاحظ المعاني الدينيّة في الأبيات الأخيرة التي أسبغها الشّاعر علىٰ النّبيّ صلى الله عليه وسلم؛ من صدقٍ، وتفرّدٍ بالوحي المنزل على قلبه، ورفعة نسبه وعلوه، وسموق بيته الذي علا كلَّ بيوتات العرب.

وعندما نزل بنو شهاب على حُجْر بن الرَّبيعة بن سعد بن خَوْلَان ـ وهو في حقل صعدة ـ سألوه الحلف والمظافَرَة لمـّا أعجبهم ذلك الحقل، فأجابهم إلىٰ ذلك وأشركهم في الحمىٰ، فسكنوا صعدة من يومئذٍ، فراح عمرُو بن يزيد العوفيّ يذكر هذه المحالفة ويمدح جَدَّه حُجْراً، مُسْبِغاً عليه جُلَّ الصّفات الحسنة؛ من اتصال بأرومة شريفة في قضاعة، وحلوله في ذراً شاهقةٍ عاليةٍ، وبسط لنفوذه على مشارق البلاد ومغاربها؛ يقول[1]:

وكِـنْـدَةُ أحـلافٌ لـحُـجْـرٍ وقَبْلَهَا ... تَمَكَّنَ في فَرْعَـي قُضَاعَةَ مَنْصِبُهْ

نَمَتْهُ إلـىٰ العَلْيَا يـدٌ مِـنْ قُضَاعةٍ ... وعِـرْقٌ إلـىٰ خَيْرِ المَغَارِسِ يَجْذِبُهْ

وحَـالَـفَـهُ الـسَّـاداتُ مـنْ حَـيٍّ مُغرِقٍ ... فَـدَانَ لـهُ شـرقُ الـبـلادِ ومَـغْـرِبُـه

وفي شعر المسلم بن يغنم المالكيّ أربعة أبيات من قصيدة له، يمدح فيها بني مالك وينعتهم بالملوك الذين يختالون في مشيتهم عَظَمَةً وافتخاراً، أو أنّهم السادة الذائدون عن حمى بني عوف الذين يديرون

(1) الدّيوان: ق32/ ب1ـ3.

رحىٰ الحرب كيفما يشاؤون، ولا يتأخرون عن الزَّحفِ أبداً الذي تعلوه السّيوفُ المثلَّمَةُ، وإذا ما دعاهم أسيرٌ أو مستغيثٌ لبّوا مسرعين، هم في ذؤابة خولان وغرَّتِها، ما نُوزِعوا فيها وما دُوفِعُوا أبداً؛ يقول[1]:

والصِّيدُ مـنْ مالكٍ، أَرْبَـــابُ رايتِهَا	فِيْهَا المِصَاعُ وفيها البِيْضُ والحَجَفُ
كَـانُـوا حُـمَـاةَ بَنِي عَـوْفٍ وسَادَتَهَا	يوماً إِذَا خَفَقَتْ رايـاتُـهَـا زَحَـفُـوا
تحتَ السّيوفِ إذا عُضَّتْ مَضَارِبُها	وإنْ يُـنَـادِيْـهُـمْ مُسْتَلْحِمٌ عَطَفُوا
منْ فَـرْعِ خَـوْلانَ خَلُّوا في ذُؤَابَتِهَا	ما دُوفِعُـوا دونَ فَرْعَيْهَا ولا حُرِفُوا

وأمّا ما جاء في هذا الموضوع في شعرهم الأمويّ، فليس فيه ما ينقع بِلَّةً ويشفي صادياً؛ إذ لا نكاد نجد فيه سوىٰ مقطعةٍ لعُبَيْدِ الله بن عوف الخولانيّ، فأمّا مناسبتها فقدوم حسَّان بن النُّعمان الغسّاني من إفريقية، وكان أميراً عليها يومئذ يزيد عبد الملك بن مروان، وكان عبد العزيز بن مروان قد ولّىٰ علىٰ بَرْقَةَ عبداً له يقال له: تَلِيْد، فَكَبُرَ علىٰ أهل بَرْقَةَ أمامه عندهم، وبها أشراف النّاس، فكتب عبد العزيز إليه يوقفه، وقفل حسّان من عند عبد الله بولاية المغرب، فقال له عبد العزيز: اندفع لي عن ولاية بَرْقَةَ، فإنَّ بها تَلِيْداً. فأبىٰ ذلك حسَّان، فدعا عبد العزيز موسىٰ بن نصير، فعقد له علىٰ إفريقية سنة تسع وسبعين للهجرة، فتجهَّز موسىٰ، وحمل الأموال وخرج إلىٰ المغرب... ولمّـا دخل بجنده إلىٰ إفريقية، قال رجلٌ يقال له: عُبَيْد الله بن عوف الخولانيّ، مادحاً الأمير بصفات عَذْبَةٍ؛ مثل النَّصر الذي يقدمه، والحزم الذي يسبقه، والعفّة في أخلاقه، وعدم خموله وسكونه، وبعدله، وبإحقاقه الحقَّ، وبكثرة سخائه ورماده، وعطائه من دون مِنَّة[2]:

كُـنَّـا نُـؤَمِّــلُ حـسَّـانـاً وإمْــرَتَــهُ	حـتَّـىٰ أَتَـانَــا أمـيــرٌ غـيـر حَـسَّـانِ
النَّصْـرُ يَـقْـدُمُـه، والـحَـزْمُ سابِقُهُ	عَـفُّ الـخَـلائـقِ مـاضٍ غيرُ وَسْـنَـانِ
الـحـقُّ شِـيْـمَـتُـهُ، والـعَـدْلُ سِـيْـرتُـهُ	جَـزْلُ الـمَـوَاهِـبِ، مُعْطٍ غَيْرُ مَنَّانِ

إذا ما أرجع الباحث النظر كرّة أخرىٰ في أشعار القوم في العصر الأمويّ، فسيجد انعدام هذا الغرض انعداماً تامًّا، لولا المقطّعة السّالفة التي اعتنت بالمعاني التقليديّة للممدوح؛ مثل الشَّجاعة والبأس والشِّدَّة وعفَّة الخلائق، إلىٰ جانب اهتمامها ببعض المعاني الإسلاميّة؛ مثل إقامة العدل وإحقاق

---

(1) الدّيوان: ق61/ ب8 ـ 11.

(2) الدّيوان: ق97/ ب1 ـ 3.

الحقِّ. ولم تكن هذه الصفات وتلك ببغية التَّكسُّبِ والتَّطلاب، إنَّما كانت بدافع الإعجاب بالأمير وصفاته التي وقرت في شخصه، ولعلَّ شحوب هذا الغرض في أشعار القوم في عصورهم الثلاثة ونحوله، عائدٌ إلىٰ أَنَفَةِ رجالات خولان وكبريائهم واعتدادهم بأنفسهم، ثمَّ إنَّهم كانوا مشغولين دائماً بقيادة الحروب، وتشبيب نارها؛ لذا أنفقوا معظم قوافيهم في الفخر الذَّاتيّ والقبليّ، هذان الأمران حالا دون مدح أحدٍ من السَّادة أو الملوك أو الأمراء، حتَّىٰ قيل عنهم قديماً: «أَنْفُ قُضَاعَةَ»[1]؛ لما لهم من الأنفة والعزّة والشُّموخِ.

ويضاف إلىٰ ما سبق انشغالهم بحروبٍ مستمرةٍ كانت تدر عليهم الغنائم والأسلاب، ولم يكونوا بحاجة لعطاء أحدٍ أو سخائه[2].

نجد لهذه الظاهرة في أشعارهم مثيلاً عند غيرهم من القبائل؛ كحمير[3]، ومذحج[4]، وشعراء اليهود في الجاهليّة والإسلام[5]، وبني عامر الذين كاد ينتفي من شعرهم هذا الغرض ـ خلا ديواني: لبيد بن ربيعة العامريّ، وعامر بن الطفيل[6] ـ وشعر قريش[7]، «وشعراء بني كلب، وبني قشير وبني عقيل، وبني تغلب، وطيّء»[8]، فهذا هو حال المدح عند هذه القبائل ـ وفيها خولان ـ التي لم يبرز فيها شاعر مَدَّاحٌ مُتَكَسِّبٌ كالذي نجده عند القبائل الأخرىٰ؛ «كبني ذبيان قوم النّابغة، وبني عبس قوم الحطيئة، وبني بكر قوم الأعشىٰ، وبني الخزرج قوم حسّان بن ثابت، وبني أسد قوم بشر بن أبي خازم الأسديّ [حينما مدح عمرو بن الحارث الكنديّ، أو عبيد بن الأبرص الأسديّ عندما مدح حُجْر بن الحارث الكنديّ][9]، هؤلاء الشُّعراء الذين لولاهم لما كان هذا الموضوع بارزاً في الشّعر الجاهلّي»[10].

---

(1) شرح قصيدة الدّامغة: 173.

(2) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: 2/ 400.

(3) انظر: شعراء حمير (الدّراسة) 337.

(4) انظر: شعراء مذحج 288.

(5) انظر: شعر اليهود 192.

(6) انظر: شعر بني عامر 203.

(7) انظر: شعر قريش: 219.

(8) انظر: ديوان بني كلب (الدّراسة) 369، وشعراء قشير 240، وشعراء بني عقيل 173، وشعراء تغلب 1/ 355، وشعراء قبيلة طيّئ 1/ 597.

(9) انظر: شعراء بني أسد في الجاهليّة 274، وديوان بشر بن أبي خازم 38 ـ 39 (ق7/ ب17 ـ 23)، وديوان عبيد بن الأبرص 125 ـ 126، وفيهما مِدْحة قيلت في الملك المذكور آنفاً، وكانت في الاستعطاف والاعتذار أكثر منها في المدح.

(10) انظر: ديوان بني كلب (الدّراسة) 369.

4- الهِجَاءُ:

كانت الحروب التي تُسَعَّرُ بين القبائل والبطون لسبب ما، والمناوشات التي تنشب بين الأفراد، أرضاً خِصْبَةً لغرض الهجاء الذي يعدّه أحد الباحثين من أَسْيَرِ الموضوعات في الشّعر العربيّ في الجاهليّة والإسلام، وإن تقدّمه من حيث كثرة القوافي جلُّ الموضوعات الأخرىٰ؛ من حماسة وفخر ووصف ومدح وغزل ونسيب ورثاء[1]، وربّما لا أكون محابياً إذا قلت: إنَّ هذا المذهب حقٌّ، لا مِرْيَةَ فيه؛ لأنَّ غرض الهجاء هو ذمُّ الشّاعر وسلبه لخصمه الصّفات الحسنة، وبهذا يقترب من موضوعات الشّعر الأخرىٰ أو يدخل فيها من أحد جوانبها، حتىٰ عُدَّ أيضاً من أكثر الفنون الشعريّة اتصالاً بالحياة الواقعيّة للقبيلة، وقد أفردتْ له الكتبُ والمصنَّفاتُ التي اهتمت باختيار الشّعر الجاهليّ وجمعه أبواباً خاصة فيه[2]، وسيُتناول موضوع الهجاء في أشعار خولان بحسب ما اجتمع لدينا منها في دفتي هذا المجموع، غير أنَّ ثمة أمراً يحسن التنبيه عليه في بدو الكلام علىٰ هذا الموضوع؛ يكمن في قلّة ما وصل إلينا من شعر الهجاء، وهذا الأمر ينسحب على أشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بني أميّة.

أمّا ما جاء من أشعارهم في هذا الغرض في الجاهلية فمقطّعة لعمرو بن زيد، المشهور بمغرق الأكبر، يهجو فيها بني حيّ بني سعد بن خولان لـمّا أَجْبَرُوا بني سعد بن سعد بن خولان علىٰ إخراجهم من ديارهم إلىٰ صعيد مصر؛ لأنَّ رجلاً من بني الحارث بن سعد خطب إلىٰ بني حيّ إحدىٰ كرائمهم، فأكبرَ بنو حيٍّ نفوسهم عليه، فدافعوه، فلمّا ألحَّ عليهم خَصَوه، فغضب بذلك بنو سعد، الذين عدّوا ذلك الفعل مَسًّا بكرامتهم وحطًّا من قدرهم وشأوهم، فنشبت الحرب التي أدّت إلىٰ تشريد بني حيّ في صعيد مصر[3]، وفي هذا يقول عمرو بن زيد[4]:

أَبْـلِـغْ بَـنِـيْ زَيْـدٍ وأُسْــــرَةَ رَاسِــبٍ ... إِخْــوانَــنَــا فــي كُــلِّ يــومٍ خَــابِــسِ

أنَّ الــعِــدَا مــنْ آلِ حَــيٍّ قــلَّــدُوا ... إِخْــوَانَــهُــمْ عَــاراً بِــفِــعْــلٍ يَــابِــسِ

مَــثَــلُــوْا بِــأَمْــثَــلِــنَــا وجَــاؤوا سُــنَّــةً ... لَــمْ يَــأْتِــهَــا يَــوْمــاً جَــبَــابِــرُ فَــارِسِ

---

(1) شعراء حمير (الدّراسة) 292.

(2) انظر: منهاج البلغاء: 352، نقد الشّعر: 92 التّذكرة الحمدونيّة: 5/ 30، عيار الشّعر: 13، ديوان المعاني: 170، حلية المحاضرة 1/ 356، كتاب المناقب والمثالب: 278، كتاب الصناعتين 104 ـ 106، نضرة الإغريض 394، المرشد إلى فهم أشعار العرب 4/ 684، البيان والتبيين 4/ 35 ـ 45، والفروسيّة في الشّعر الجاهليّ 180.

(3) الإكليل: «المخطوط 1/ 63، المطبوع 1/ 286».

(4) الدّيوان: ق3/ ب1 ـ 4.

يَا ابْنَيْ قُضَاعَةَ فَاغضَبَا لأَخِيْكُمَا	لا خَيْـرَ فـي رُكْـنٍ ذَلِيـلٍ وَاهِـسِ

يصفهم بأنّهم أصحاب ضلال وخيبة وانهماك فيهما، وطيش وحمق، وقد ألبسوا إخوتهم عاراً ستذكره العرب ما عاشوا أحياءً، حينما أقدم سِفْلَتُهُم وأغبياؤهم علىٰ ضرب ذلك الخاطب وخَضْبِهِ، ولم يكن إلّا ابن عمهم، ومَنْ عَدِمَ تقديم الخير لأهله وذويه، عَدِم تقديمه للآخرين؛ فليس فيهم خيرٌ يُؤمَلُ ويُرْجَىٰ، وكيف وهم الأذلّاءُ المحقَّرون الصِّغَار؟!

إنّ ظهور معاني الهجاء في القافية السابقة خجلٌ، بل شاحبٌ، غير أنّه غُذِّي من صوره، وأُشْرِبَ من ورده، فجاءت صورته مُمتَتَحةً من حياة القبيلة الواقعيّة، ومن عنايتها بموضوع العصبيّة القبليَّة التي كانت معتمدَ القوم وأُسَّ حياتهم؛ فقد أقدم أبناء عمومتهم علىٰ فعلٍ وضيع لم يأته أكاسرة فارس، الذين لم يعتنوا بما اعتنىٰ به العرب من صلات القُرْبىٰ وأواصر الرَّحم.

ومن هجائهم قول خالد بن قيس الحيوانيّ، يشكو حيف ذوي القربىٰ الذي كان أشدَّ مضاضةً؛ فقد أُخرِجُوا من ديارهم وركبوا البحر قاصدين صعيد مصر، فغرق بعضهم ونجا آخرون، وكأنّي بالشاعر يَرُدُّ علىٰ قالة عمرو بن زيد السّالفة الذكر التي بيّن فيها فظاظة بني حي وإكبار نفوسهم، وفي قالته معاني الهجاء[1]:

وَلَدْنَا السَّـرَاةَ الغُلْبَ مِنْ عَبْدِ مَالِكٍ	فَقَامُوا عَلَيْنَا بالسُّيوفِ الهَوَاتِكِ
هُـمُ قَتَلوا حَـوْلَ السَّـريرِ خِيَارَنَا	ومَـالـوا عَلينَا بـالـذُّرَا والـحَـوَارِكِ
ومـا وَصَـلُـوا حَبْـلَ الـقَـرَابَـةِ بَيْنَنَا	فلا وُصِـلَـتْ قُـرْبَـىٰ بَني عَبْد مَالِكِ
هُـمُ نَصَـروا عَـوْفـاً عَلينَا ومَالِكاً	وحَـيَّ بَني حَـرْبٍ وحَـيَّ السَّمَاهِكِ
فَـلا قُـرِّبَـتْ قُـربَـاهُـمُ مِـنْ قَبيلَةٍ	ولا نُصِـرُوا تحتَ الرِّمَاحِ الشَّوَابِكِ
ولا زالَ منهمْ عَـاثِـرُ الـجَـدِّ دَاخِـرٌ	يُوَلِّيْهِ صَرْحَ الحَرْبِ صُمُّ السَّنَابِكِ
هُـمُ قَـتَـلُـونَـا طَـغْـوَةً وتَـبَـذُّخـاً	وَجَـاروا عَلَينا في الـدِّمَـاءِ السَّوَافِكِ

لم يعد في يد الشّاعر بعد خروجه وقومه من صعدة وتشرّدهم في صعيد مصر سوىٰ هذه الكلمة، التي حملت مفردات البيئة الجاهليَّة وما يلفّها من حياة الحرب ومفرداتها الطَّاغية فيها؛ فنجد حضوراً

(1) الدّيوان: ق15/ ب1ـ7.

للسّيوف الهواتك، والذرا والحوارك، والرِّماح الشَّوابك، وصرح الحرب، وصمّ السَّنابك، والدِّماء السَّوافك، وهي مفردات الحرب التي أَلَّفَ بينها الشَّاعر، وبسط قوله فيها موضِّحاً شكايته من أبناء عمومته الذين أشهروا رماحهم في وجوههم، وأعملوا السّيوف في رقابهم قتلاً، داعياً علىٰ هؤلاء بتقطع أواصرِ قرباهم وصلاتها؛ لأنَّهم لم يقيموا وزناً لصلة القربىٰ، كما يدعو عليهم بإخفاقهم تحت ظلال السُّيوف والرِّماح، ويدعو علىٰ المتأخرين منهم عن الزَّحف بالذِّلَّةِ والصَّغَارِ والمهانة والهزيمة التي ستضرب أطنابها فيهم، وينبزهم أيضاً بالضَّلالة والظُّلم والمبالغة فيهما، والتكبُّر والتطاول والإسراف، واللَّافت للنظر في هذه الكلمة أنَّها لم تكن مُقْذِعةً ولا فاحشةً، ولا بذيئة القول، علىٰ الرَّغم من السَّخائم والإِحَنِ اللاتي تغلي بها صدور بني حيّ بن سعد بن خولان؛ لما أصابهم من سوء المنقلب في الأمر، بل جاءت مُتَلَبِّسةً ثوب الدُّعاء علىٰ القوم بالمهالك والأهوال، ترفل في أسلوبه الرّصين، ولم تكن هذه إلّا من أخلاقهم العالية التي نشؤوا عليها، وتمسّكوا بِعُرَاهَا، في حين هَدَرها آخرون ولم يلتفتوا إلَّا لما تطمع به نفوسهم الطَّاغية.

وقد تنبَّه إلىٰ مثل هذا أجدادنا القدامىٰ؛ فقال الحَاتميُّ بسنده: «قال أبو عمرو بن العلاء: أحسن الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها، فلا يقبُح منها»[1]، ومن ذلك أيضاً كلام صاحب الوساطة: «فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزُّل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه وسهل حفظه، وأسرع علوقُه في القلب ولصوقه بالنفس، فأما القَذْفُ والإِفْحَاشُ فَسِبَابٌ مَحْضٌ، وليس للشّاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النّظم»[2]، ومن ذلك أيضاً قول خلف الأحمر: «أشدُّ الهجاء أعفُّه وأصدقُهُ، وقال مرَّة أخرىٰ: ما عفَّ لَفْظُهُ وصَدَقَ معناه»[3]. واتكاءً علىٰ هذه الأقوال تكون هذه الهجوة بمكان؛ لما لها من عِفَّةِ اللَّفظ وصدق المعنىٰ، وقربٍ من النفس وسهولة التناول، وبُعْدٍ عن الإقذاع والسِّبابِ.

وقريبٌ من هذه المعاني ما نجده في شعر المخضرمين وصدر الإسلام منهم؛ من ذلك هجاء عمرو بن يزيد العوفيّ، وكان ذا فروسيّة ورئاسة في قومه، وأخباره تشبه أخبار الفرسان ـ مثل عنترة العبسيّ وعمرو بن معدي كرب الزُّبيديّ ـ في الإقدام والشَّجاعة والبروز للعدوِّ. قَتَلَ عُمارةَ السُّلمي جَهْرَةً في وقعةٍ كانت بين خَوْلَان وسُلَيْم، وما انفكّ العوفيُّ هذا عن توعُّد فُرْسَانِ سُلَيْم وخِيَارِهَا، حتَّىٰ انبرىٰ

(1) حلية المحاضرة 1/ 365، وعنه في ديوان المعاني 1/ 176، والعمدة 2/ 867.

(2) الوساطة بين المتنبي وخصومه: 30، وعنه في العمدة 2/ 868.

(3) العمدة 2/ 868، وعنه في الفروسية في الشعر الجاهليّ: 184.

له عروةُ بن عُتْبَة الرَّحَال بن جعفر بن كلاب العامريّ - وكان حليفاً لبني سُلَيْم - بكلمة يتوعّده فيها بالويل الذي سينزل به؛ لأنّه أخذ عُمارَةَ غدراً وخِداعاً؛ فقال منها[1]:

قَتَلْتَ عُمَارَ الخَيْرِ غَدْراً وخِتْلَةً ... لكَ الوَيْلُ حتَّىٰ جِئْتَ في غَلَسِ الفَجْرِ[2]

فَمَا ظَفِرَتْ كَفَّاكَ يَوماً بمثْلِهِ ... فَلَا زِلْتَ تُرْمَىٰ في التَّرائِبِ والنَّحْرِ

ودُونَكَ عبَّاساً يَكِيْدُكَ دَائِباً ... يَخُبُّ إليكم بالمسوَّمَةِ الشُّقْرِ[3]

فدُونَكَ فانْزِلْ عُرَّةَ الحَقْلِ أو فَهَبْ ... لِنَفْسِكَ مَنْجًى في ذُرَا شَاهِقٍ وَعْرِ[4]

فكان مما أجابه عمرو بن يزيد العوفيّ[5]:

فَأَوْفِ بِما قَدْ قُلْتَ إنْ كُنْتَ صادقاً ... فَلَسْتَ علىٰ الضَّرَّاءِ يوماً بِذِي صَبْرِ

وقُلْ لابنِ مِرْدَاسٍ يُوَطِّئ حَرَارَةً ... رَسَتْ في فُؤادٍ منهُ تَغْلي عَلَىٰ الصَّدْرِ

ودونَكَ فَاطْلُبْ وِتْرَ عَمِّكَ إذ ثَوَىٰ ... بأَرْدَا مَحَلٍّ في تَميمٍ بِلا وِزْرِ

عَجَزْتَ أَمَ انْظَرْتَ الغَرِيْمَ وإنَّما ... أخو النَّجَدَاتِ منْ تَقَاضَاكَ في العُسْرِ

من السُّبل المسلوكة في الهجاء: الهجو بالكذب، وعدم الجَلَد والصَّبر علىٰ الملمّات والمصائب، والضَّعف والخور والعجز، كما أنَّ النَّعت بكثرة القيل والقال التي ليس من ورائها إلَّا الجعجعة من دون رؤيةٍ طِحْناً، وكلُّها من المعاني المتداولة بين الشّعراء. كذلك قوله حينما توعَّد مُرَّ بن عامر بن الحارث بأنّه سيقتله؛ لأنّه أخلّ بخولان إلىٰ هَوَازن، وخان العهود والمواثيق[6]:

لَحاكَ اللهُ مِنْ قَيْلٍ مَشُومٍ ... فَضَضْتَ اليومَ بَيْضَةَ آلِ عَمْرِو

فينبزه بالشَّرِّ والسَّواد، ويدعو عليه بالقبح واللَّعن.

---

(1) الدّامغة: 190.

(2) عُمارُ: حُذفت التاء المربوطة ترخيمًا في غير باب النداء؛ للضرورة وإقامة الوزن. الغلس: الظلمة في آخر الليل إذا ما اختلطت بضوء الصباح.

(3) يخبُّ: يعدو.

(4) عُرَّة: طَرَف، وعُرَّة الوادي: شاطئاه.

(5) الدّيوان: ق40/ ب1 ـ 4.

(6) الدّيوان: ق41/ ب14.

وعَيّر سعد بن اللَّيث المالكيّ عَمْرَو بن حُجْر - الذي آلت إليه رئاسة قضاعة وأجمعت علىٰ سيادته - بالبؤس الذي صار أخاً له، فبئس السَّيِّد إذا ما سُوِّد[1]:

فيَا عَـمْـرُو أَنْـتَ أَخٌ لـلـبُؤوسِ　　　فَـبِـئْـسَ الـخَـلِـيـفَـةُ إِذ خَـلَـفَـا

وفي مقطّعةٍ أخرىٰ يهجوه بسوء طالعه، وخيبته بكلِّ ما يَرُومُهُ مِنْ أمرٍ يسعىٰ إليه سِعَاية مُجِدٍّ، فلا يظفر إلا بمن رَجَعَ بخُفَّيْ حُنَيْنٍ[2]:

تَـقَـاضَـاكَ دَهْـرُكَ مـا أَسْـلَـفَـا　　　وأَمْـسَـىٰ الَّـذي رُمْـتَـهُ أَخْـلَـفَـا

ونلحظ لهجة التَّقريع والتَّأنيب في شعر عمرو بن حُجْر المالكيّ، الغاضب في قتل المقدام بن زيد الحيوانيّ - وكان خال أبيه - وذلك في قوله لرواقي الرَّبيعة عوف ومالك[3]:

أَلَـمْ تَعلَمَا يـا ابـنَـي يَـزيـدَ بأَنّني　　　حمَيتُ علىٰ العَوْراءِ يَغْلي بِهَا صَدْرِي؟!

فَأَرْدَيْتُمَاهَا ظُلْمَكُمْ لابـنِ عَمِّكُمْ　　　وقَـتْـلَـكُـمُ الـمِـقْـدَامَ بَغْياً بـلا وِتْـرِ

قَطَعْتُمْ بـهِ الأَرحَـامَ في ذاتِ بَيْنِنَا　　　فَأَصْبَحْتُمُ شتَّىٰ دمـاؤكُـمُ تَجْري

غلى صدرُ عمرٍو المالكيِّ واستشاط غيظاً بسبب فعلة أبناء عمومته الذين عَيَّرَهُم بالظُّلم والتَّجَبُّر والغَواية والضَّلال، ثمَّ يلتفت ليخبرهم بأنَّهم بقتلهم للمقدام سالت دماؤهم وأجريت؛ لتقطّع أواصر القربىٰ وصلاتها.

وإذا أعدنا النَّظر غير مرّةٍ فيما سلف فسنجد أنَّ هجاء هؤلاء لم يكن إفحاشاً ولا سباباً ولا إقذاعاً، وإنّما كان سلباً للخُلق الرّفيع والعادات الجاهليّة الحسنة التي سادت المجتمع حينذاك، سيادة المنافرات والخصومات التي كثيراً ما كانت تؤدي إلىٰ ما أشرنا إليه في المقطّعات الشّعرية السّابقة والأبيات المفردة، كما نلاحظ أنّ شعراء خولان كانوا يعمدون إلىٰ تصوير العيب الذي يقصدونه فقط، من دون مبالغة في القول أو إزهاقٍ لشرف ذلك المهجوِّ ومكانته في قومه، وبهذا يقترب هجاؤهم من الهجاء الذي وسمه خلف الأحمر بالعفيف الصّادق، أو غيره من أهل العلم والفضل.

وأمّا ما كان من هجائهم في العصر الأمويّ فنجده عند عمرو بن زيد الغالبيّ في قصيدة أفردها

---

(1) الدّيوان: ق67/ ب1.
(2) الدّيوان: ق66/ ب1
(3) الدّيوان: ق56/ ب1 ـ 3.

خالصةً لهذا الغرض، وهي القصيدة الوحيدة في هذا المجموع الشّعريّ التي أنهبت قوافيها غرضاً واحداً ـ أو غرض الهجاء ـ وقد انضوت تحت ظلال قصيدة الهجاء في الشِّعر القديم، التي تناولت الغمز بالنَّسب والطَّعن فيه، وهو من أمضّ الهجاء علىٰ المهجوِّ، ولا سيّما إذا كان هذا المهجو من أصحاب الشَّرف والسّؤدد، فيفشو بين النّاس وتتناقله الألسن، ويشيع إلىٰ الحدّ الذي لا يمكن دفعه. فقد عَيَّر عمرو بن زيد الغالبيُّ محمّد بن أبان الخنفريَّ بجدّه الأَصْبَغ لأمّه، ولهذا الجدّ رواية يرويها الهمدانيّ في إكليله؛ حيث يقول: إنّ الأَصْبَغ لم يُسْلِم مع إخوته وأحبَّ مشاقتهم، فقعد لمعاذ بن جبل رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتله، ولكن لم يظفر بطلبته، وظهر له ثعبان عظيم، فقطعه بسيفه نصفين، وقع نصفه الأعلىٰ بين أولاده فقتلهم جميعاً، وبعد أن أسلم وحسن إسلامه أثرىٰ الله في عياله، فَعُيِّر بقلة إيمانه وضعفه وخور إسلامه، ومحمّد هذا هو الذي أخرج بني حرب بن سعد بن سعد بن خولان وبني غالب بن سعد بن سعد بن خولان إلىٰ عَرْوَان والعَرْج من جبال مكَّة؛ بسبب قتل أخيه رفاعة، وكان يفاخر بنسبه قائلاً[1]:

أَنَـا ابـنُ خَنْفَرَ فِي صَمِيمِ أَرومِـهـا ... وتَـحُـفُّ بـي يـومَ الكرِيهَةِ مُـغـرِقُ

فأجابه عمرو بن زيد الغالبيّ ينبزه بنسبه وأشياء أُخَر[2]:

فَـلَا تَـفْـخَـرْ بِـقَـوْمٍ لَـسْـتَ مِنْهُمْ ... وَجَـدُّكَ فِي مَـحَـلٍّ بَـنِـي كَـلَـعْـدِ[3]

لَـئِـيـمُ الأُمِّ والأَخْـوَالِ فَـسْـلٌ ... يُـنَـادِي فِـي مَـنَـاهِـلِ أَهْـلِ نَـجْـدِ

لـهُ صَـنَـمٌ يُـعَـظِّـمُـهُ إِذَا مَـا ... يُـهَـيْـنِـمُ عِـنْـدَهُ وإِلَـيْـهِ يَـهْـدِي

فـلـمَّـا عَـايـنَ الـثُّـعـبانَ ولَّـىٰ ... جَـفُـوْلَ الهَيْقِ عَـنْ رَأْلَـيْـهِ يُخْدِي

يَـلُـوكُ لِـسَـانُـهُ فَـشَـلاً ويُـبْـدِي ... كَـلامَ مُـعَـانِـدٍ لِـسَـبِـيـلِ قَـصْـدِ

عَظُمَ هذا الهجاء لِعظَم المهجوّ وعلوِّ قدره ونباهته، ومثله لا يُضَارُّ، ولم يستطع أن يصيب عمرو منه شرفاً يقدح فيه، ولا مرتقًى يُحطُّ، ولا أرومة تُشَابُ، وإلىٰ مثل هذا أشار الجاحظ بقوله: «وناس سلموا

(1) ترجمه القفطي في مصنّفه «المحمّدون من الشّعراء» 190 ـ 191؛ قال: «ومحمّد بن أبان هذا سيّدهم وابن سيّدهم، وجدّه حجر بن زرعة القَيْل، كان على عهد سيف بن ذي يزن، وخرج مع نوال بن عتيك ومرّ بن عامر الحميريّ، يوم بعثهم سيف لنصرة خولان ومذحج على قَيْس عَيْلَان»، وانظر ترجمته في شعراء حمير (الدّراسة) 137 ـ 140.

(2) انظر: الدّيوان: ق80/ ب1 ـ 5.

(3) انظر: التعليق على البيت في الدّيوان ثمّة.

من الهجاء بالخمول والقلّة، كما سلمت غسّان وغَيْلَان من قبائل عمرو بن تميم، وابتُلِيَتِ الحَبَطَاتُ؛ لأنّها أنبه منها شيئاً، والنَّباهة التي لا يضرّ معها الهجاء مثل نباهة بني بدر وبني فزارة، ومثل نباهة بني عُدُس بن زرارة، وبني عبد الله بن دارم، ومثل نباهة الدَّيّان بن عبد المدان، وبني الحارث بن كعب، فليس يسلم من مضرَّة الهجاء إلّا خامل جدًّا أو نبيه جدًّا... وقد هجيت الحارث بن كعب، وكتب الهيثم بن عدي فيهم كتاباً، فما ضعضع ذلك منهم، حتىٰ كأنّه قد كتبه لهم»[1]. وما محمّد بن أبان إلاّ جِذْمٌ في الحميريَّة قوّةً، وشجاعةً، ونباهةً، وشدَّةَ بأسٍ، وكرماً، وحسنَ جوارٍ، ولينَ عريكةٍ، وذماماً، ونسباً[2].

ونراه يهجوه باللُّؤم من جهة أمّه، وبالحمق والغباوة والطيش من جهة جدّه، المتّكل علىٰ ما كان يفعله كفّار العرب وجحَّادُهُم من تعظيم الأوثان وتفخيم شأنها، بعد أن أشرقت الدنيا بنور الرسالة السّماوية المحمّدية، ودخول غالبيّة قبائل العرب في الإسلام، ولا سيّما قبيلة حمير التي كان لها «الأثر الحسن في حرب الرّدة، ثُمَّ في الفتوحات، وبناء المجتمع الجديد في كل من الشام ومصر»[3]، كما يعيّره بالجبن والضَّعف والخوف؛ وكأنَّه الهيق الذي ينهض عن رأليه يغذُّ مسرعاً خوفاً من أفعىٰ ضخمة تهاجمه، وبالبذيء من حديثه الذي لا يفتأ عن ذكر الخور والذلّ والمهانة وما إليها... وينعطف بعد هذه الأوصاف ليمدح بني حجر بن سعد بن عمرو الخولانيّ، بأنَّهم أهلُ الحميَّة والغيرة والتَّفدي، وخيرهم حُجْر بن سعد ثُمَّ يَعْلَىٰ بن حُجْر، وعمرو ـ مغرق الأكبر ـ هو أكثرهم كرماً وعِزَّةً وأنفةً وشجاعةً...أمّا أصبغ فأسوأ من اعتلىٰ ظهر ناقة سارت في وفد من الوفود؛ يقول[4]:

يَـلـوْكُ لِـسَـانَـهُ فـشـلاً ويُـبْـدِي	كـلامَ مُـعَـانِـدٍ لِـسَـبـيـلِ قَـصْـدِ
بَـنـو حُـجْـرٍ هُـمُ شـادوا المعَالي	هُـمُ أهـلُ الـتَـحَـمِّـي والـتَـفَـدِّي
فَـخَـيـرُ الـقـومِ حُـجْـرٌ ثـمَّ يَعْلىٰ	وعَـمْـرُهُـمُ فَـأَوْراهُـمْ بِـزَنْـدِ
وأَصْـبَـغُ شَـرُّ مـنْ ركـبَ المَطَايا	إذا سَـارَتْ مَـطَـايَـاهُـمْ بِـوَفْـدِ

وفي قطعة أخرىٰ له يستهلّها بمعانٍ من شعر الحنين والشّوق، ممزوجة ببعض الأسف علىٰ ما كان

---

(1) البيان والتبيين 4/ 38 ـ 39.

(2) الإكليل 2/ 131، وعنه في شعراء حمير (الدّراسة) 137.

(3) شعراء حمير (الدّراسة) 90.

(4) الدّيوان: ق80/ ب5 ـ 8.

من فتنةٍ بدَّدت شمل القوم، وشتَّت وحدتهم في البلاد والأصقاع، يرسل الغالبيّ الأشعار مستدرًّا عطف جرير بن حجر ـ وكان ابن خالته ـ يسأله العودة والرَّجعَة إلىٰ البلاد، فأعاده جرير بعد أن رقَّ قلبه وتفطَّر للذي سمعه من معاناة بني غالب ومكابدتهم؛ يقول[1]:

لا قـرَّبَ اللهُ قُـرْبَـاكُـمْ فلَيْسَ لكمْ ... عَطفٌ جَمِيلٌ بِمَحْمُودٍ منَ الشِّيَمِ

أنتم زَعَمْتُمْ بأَعْلىٰ ذُرْوَةٍ رُفِعَتْ ... منْ سرِّ خَـوْلانَ مَنْسُوبُونَ بالكَرَمِ

ونحنُ في حَـيٍّ قَـيْـسٍ يُـبْـرِمـونَ لنَا ... سـوءَ الحديثِ ونَخْشَىٰ زلَّـةَ الحُرُمِ

ظَـعَـائـنٌ مـنْ بنِـي خَـــوْلانَ رَتَّـبَـهَـا ... طِيبُ العَفَافِ شَـرِبْنَ الـذُّلَّ بالرَّغَمِ

قَـطَـعْـتُـمْ حُـرْمَـةً مـنْ حَـقِّـهـنَّ فمَا ... تَـرْعَـونَ قُرْبَىٰ ولا نَصْـراً لِـمُظَّلِمِ

يدعو عمرٌو الغالبيُّ علىٰ من يهجوهم بالبينونة والبعد، وهم لا يتمتّعون بشيء من الصّفات الحميدة الحسنة، على رغم ما يدَّعونه من نَسَبٍ شَرِيفٍ، ويخلُّون بأبسط ما يعتزّ به العربيُّ ويتمسّك؛ وهو أواصر القربىٰ ونصرة المظلوم.

فتلك كانت أشعار الهجاء لدىٰ الخولانيّين، وأوّل ما يلاحظه النّاظر فيها نحولها الواضح وقلّتها، فلا يقع فيما انتهىٰ إلينا في هذا المجموع إلا علىٰ قطعتين في الجاهليّة، ومثلها في شعر المخضرمين وصدر الإسلام، وأبيات مفردة لا تتجاوز أصابع اليد، وقطعتين في العصر الأمويّ، أنهبت إحداهما معاني الهجاء الشخصيّ.

وإذا ما أعدنا النّظر كرّة أخرىٰ في أشعار القوم، وجدنا أنّ دوافع ذلك الهجاء هي دوافع سياسيّة حربيّة؛ بسبب النّزاعات الدّائرة بين بعض بطون القبيلة، يضاف إليها الحروب التي خاضتها خولان ضدّ قبائل قَيْس عَيْلَان، وضدّ بعض الحميريّين، أمَّا المعاني التي تناولوها في هجائهم فكانت بعيدة عن الإفحاش والإقذاع، وجاءت لسلب الصفات الحميدة والمناقب الحسنة التي تَجمَّلَ بها العربيُّ في مجتمعه، وذلك في هجائهم الجاهليّ والمخضرم وصدر الإسلام والأمويّ، وتكاد تكون هذه الظّاهرة منتشرة عند غير الخولانيّين؛ أمثال بني كلب بن وبرة «إلّا في بيت واحد، وهو ما لوحظ في هجاء بني ذبيان وهجاء بني عُقَيْل، ولم يخل شعر طيّئ من هذا الفحش، بخلاف ما لوحظ في هجاء بني أسد؛ إذ

---

(1) الدّيوان: ق84/ ب6ـ10.

أكثر شعراؤهم من نهش الأعراض وقذف المُحْصنات، والفحش والبذاءة في اللّفظ»[1]، التي نجدها عند شعراء حمير أيضاً[2]. وقد تناول هجاؤهم في العصر الأمويّ الطَّعن بالنَّسب، ولا سيّما إذا كان المطعون من أشراف القوم وعليتهم، وتناول أيضاً بعض المعاني التقليديّة؛ مثل الهجاء باللّؤم والضَّعف والجبن والكذب والسُّوء، وشبيهة بها ما كان حاضراً في هجائهم الجاهليّ وصدر الإسلام من نعوت الخيبة والضَّلال والطَّيش والحمق ودناءة الفعل، والضَّعف والعجز وعدم الصَّبر علىٰ الضراء والشَّر والقبح... إلخ، وهي المعاني المتداولة عند شعراء القبائل الأخرىٰ، إلّا أنَّ ضعف هذا الغرض في أشعار خولان غَيَّبَ عنَّا أساليبه المتفشّية علىٰ ألسنة غيرهم، ومعانيه المتعدّدة التي نجد منها بعض مرادنا عند زهير بن جناب الكلبيّ، الذي يهجو بني تغلب بعد أن ظهرت بنو كلب عليهم وعلىٰ إخوانهم بني بكر بن وائل، فيعيّرهم بسبي نسائهم وبأسر سيّدهم مُهَلْهِل، الذي سخر منه ونبزه بفرار فرسانه من المعركة وبأسره عَنْوَةً؛ إذ قال[3]:

تَبًّا لِتَغْلِبَ إِذْ تُسَاقُ نِسَاؤُهُمْ ... سَوْقَ الإِمَاءِ إِلىٰ المَواسِمِ عُطَّلَا

لَحِقَتْ أوائلُ خَيْلِنَا سَرَعانَهُمْ ... حَتَّىٰ أَسَرْنَ علىٰ الحُبَيِّ مُهَلْهِلَا[4]

إِنَّا مُهَلْهِلُ لا تَطِيشُ رِمَاحُنَا ... أَيَّامَ تَنْقُفُ في يَدَيْكَ الحَنْظَلَا

وَلَّتْ حُماتُكَ هَارِبِينَ مِنَ الوَغَىٰ ... وَبَقِيتَ في حَلَقِ الحَدِيدِ مُكَبَّلَا

فَلَئِنْ قُهِرْتَ لَقَدْ أَسَرْتُكَ عَنْوَةً ... ولَئِنْ قُتِلْتَ لَقَدْ تكونُ مُرَمَّلَا

ومن المعاني المتداولة عند غيرهم من القبائل ما نجده في شعر جعفر بن الربيع القُشَيْرِيّ يهجو بني شافع بن عقيل؛ فيذكر أنَّهم يضربون ضيوفهم، وأنّ القرىٰ فيهم إحدىٰ الرزيّات، وأنّ كلبهم ليس له مهمّة إلّا طرد الضُّيوف عن بيوت هؤلاء حتىٰ لا يصل إليهم أيُّ ضيفٍ؛ يقول[5]:

انْهَوْا بَنِي شَافِعٍ عَنْ ضَرْبِ ضَيْفِهِمُ ... إِنَّ القِرَىٰ فِيْهِمُ إِحْدَىٰ الرَّزِيَّاتِ

---

(1) ديوان بني كلب (الدّراسة) 343، عن مقارنة عقدها د. شفيق البيطار بأشعار القبائل السَّالفة الذكر.

(2) شعراء حمير (الدّراسة) 298 ـ 300.

(3) انظر: ديوانه: 98.

(4) الحُبيّ: قيل: «هو ماء لبني بكر وتغلب ابني وائل، كانوا عليه حين قاتلهم زهير بن جناب، هكذا ذكر أبو عمرو الشّيباني فيما نقل عنه الأصفهاني في الأغاني 19/ 18، وقال ياقوت: حُبَيّ: بالضمّ ثم الفتح وياء مشدّدة، بلفظ التصغير؛ وهو موضع بتهامة كان لبني أسد وكنانة» ديوان زهير: 98.

(5) التّعليقات والنّوادر: 2/ 571. وعنه في شعراء بني قشير (الدّيوان) 72.

وكَلْبُهُمْ عَنقَشٌ يَـغْـدُو بِمُنْصُلِهِ ... يُـطَـرِّدُ الضَّيفَ عَنهُمْ بالعَشِيَّاتِ

إِنَّ الـبِـغَـالَ إِذَا أمـجَـدْتَـهَـا عَلَفاً ... شَابَهْنَ حَتَّىٰ تَقُولَ الأَعْـوَجِـيَّـاتِ[1]

لا يَسْتَوِيْ سَابِـقٌ فِي بَيْتِ مَكْرُمَةٍ ... وأَبْـغُـلٌ فـي رِبَـاطِ نَـخْـورِيَّـاتِ[2]

هُــرْدَانُ أكْـرَمُ مِـنْ عَـوْنٍ إِذَا نَزَلَتْ ... أَضْـيَـافُ لَيْلٍ وَأَنْـدَىٰ بالتَّحِيَّاتِ[3]

وقد يخرج الهجاء إلىٰ السُّخْرِيَة أحياناً، وهذا من المعاني المفقودة لدىٰ هُجَّاء خولان إنْ وجدوا؛ فمثلاً بنظرةٍ عَجْلَىٰ في ديوان مَذْحِجَ نجد أنّ نافع بن أصغر يَسْخَر من شعراء قَيْس بقوله[4]:

أَتُـوْعِـدُنِـي بالقَتْلِ أَفْـنَـاءُ عَـامِرٍ ... وَمَـا ضَــرِطُ البَلْقَاءِ إلا وَعِيْـدُهَا

فَـمَـا حَـوَّلُـونِـي مِـنْ مَـحَـلٍّ أَحُـلُّـهُ ... وَمَـا مَنَعُونِي حَـاجَـةً لي أُرِيْـدُهَـا

ومن معاني الهجاء الشَّخصي اللَّاذع ما وصف به ميمونُ بن عامر القشيريّ مدركَ بن يزيد الحَيْدِيّ؛ من أنَّه عجوزٌ خبيثٌ، وأنّ شعر حاجبه الكثيف هو أشبه بشعر الاستِ؛ يقول في قصيدة[5]:

مَـثَـلُ الـعُـجَـيِّزِ تَـرْتَـقِـي فـي حَـالِـقٍ ... تَبْغِي الخَبِيْثَةُ أَنْ تَصِيْدَ حَمَامَا[6]

....

قُـبْـحـاً لِـحَـاجِـبِـهِ الأَزَبِّ كَـأَنَّـهُ ... هُلْبُ اسْـتِ نَـابٍ تَسْلَحُ القُلَّامَا[7]

ومنه أيضاً ما هجا فيه يحيىٰ بن نوفل الحميريّ العُرْيَانَ بن الهيثم النَّخَعيّ، وكان تزوّج امرأةً من

---

(1) أمجدتها علفاً: أكثرت لها ذلك العلف، الأعوجيات: واحدها (أعوج)؛ وهو فرس لبني هلال، تنسب إليه الأعوجيات. اللِّسان (عوج).

(2) نخوريات: صحيحات الأصل.

(3) هُرْدَان: هو هُرْدان بن الوازع القشيريّ، شاعر من قشير، له شعر. انظر: التّعليقات والنّوادر 2/ 571. أندى: أبعد صوتاً.

(4) انظر: شعراء مذحج (الدّيوان) 611، وجاء في حاشيتها: «ضَرِطُ البلقاء: يضربُ للباطل الذي لا يكون، وللذي يَعِدُ الباطلَ، ونظيره: «ضَرِطُ البَلْقَاءِ جَالَتْ في الرَّسَنْ»، و«ضَرِطُ البَلْقَاءِ وَخْوَاخٌ نَفِقْ» (الوَخْوَاخ: الضعيف، والنَّفِقُ: السريع النَّفَار)، و«ضَرِطَ وَرْدَان بوادِ قِيٍّ» (وَرْدَان: اسم حمار، والقِيُّ: الفلاة). انظر: مجمع الأمثال: 2/ 310، 311، 312. ويروى (ضَـرِطُ) رفعاً ونصباً؛ فالرّفع على تقدير هذا ضرط، والنصب على المصدر؛ أي: ضَرِطَ ضَرِطَ البلقاء».

(5) التّعليقات والنّوادر 2/ 880، وعنه شعراء بني قشير (الدّيوان) 329.

(6) الحالق: الجبل المنيف المشرف.

(7) الأزبُّ: الكثيف الشَّعر، الهُلْب: شعر الذَّنب، النَّاب: النَّاقة المسنة.

ولد هانئ بن قبيصة الشَّيبانيّ يقال لها: زباد، كانت تحت الوليد بن عبد الملك، فطلّقها فتزوّجها بعد العريان الذي كان به من اجتماع الصّفات ما يحسن معه الهجاء وتجود معانيه فيه؛ من ذلك أنّه أَسْوَدُ، أَخْدَلُ، يسير في شقٍّ، قصيرُ الهامةِ، علاوة علىٰ هذه كلِّها خَلَفَ علىٰ امرأةٍ كانت عند الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي المعروف.

يقول من قصيدة له[1]:

أَعُرْيَانُ ما يَـدْري امـرُؤٌ سِيْلَ عَنْكُمُ	أَمِـنْ مَـذْحِـجٍ تُـدْعـونَ أَمْ من إِيـادِ؟
فإن قُلْتُمُ: مِنْ مَذْحِجٍ، إِنَّ مَذْحِجاً	لَبِيْضُ الـوُجُـوهِ غَيْرُ جِـدِّ جِـعَـادِ[2]
وأَنـتُـمْ صِـغَـارُ الـهَـامِ حُـدْلٌ كأنّما	وُجُـوهُـكُـمُ مَـطْـلِـيَّـةٌ بِـمِـدَادِ[3]

ثم يقول بعد عدّة أبيات:

لَـعَـمْرُو بني شَـيْبَانَ إِذْ يُنْكِحُونَهُ	زَبـادِ لَـقَـدْ مـا قَـصَّـرُوا بِـزَبَـادِ
أَبَـعْـدَ وَلِـيْـدٍ أَنْـكَـحُـوا عَبْدَ مَذْحِجٍ	كَـمُنْزِيَةٍ عَـيْـراً خِـلافَ جَـوادِ[4]

وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي يطول الوقوف عندها، ولو عرضنا معظمها لاحتجنا إلىٰ كراريس عديدة، ليتبيَّن لنا إغفال بني خولان لكثيرٍ من معاني الهجاء المتعاورة بين الشّعراء، المتفشّية علىٰ ألسنتهم، وهي معانٍ عامّة مشتركة بين جميع القبائل، ولعلَّ هذا عائدٌ إلىٰ مشكلة الضَّياع التي أشرت إليها فيما سلف. وإذا كنّا قد لاحظنا قلّة أشعار الهجاء في أشعار خولان، فإنَّنا نجد الأمر نفسه عند عدد من القبائل الأخرىٰ؛ نحو بني عُقَيْل[5]، وبني تَغْلِب[6]، وقُرَيْش[7]، ولم تكن قليلةً عند شعراء مَذْحِج[8]، في حين نالت جانباً كبيراً في أشعار حمير، وجاءت فيها قصائد تامّات أفردت في هذا الغرض

(1) شعراء حمير (الديوان) 178.

(2) جاء في الدّيوان: «الجعاد من الرّجال: يريد ذوي الشَّعر الجَعْد؛ وهو خلاف السَّبْط أو القصير منه، والواحد: أجعد».

(3) الهام: جمع الهامة؛ وهي من كل شيء رأسه. الحُدْل: جمع الأَحْدَل؛ وهو الذي يمشي في شقٍّ؛ أي: في اعوجاج.

(4) مُنْزِية: من النَّزْو والنَّزْوان؛ وهو الوَثَبان، ولا يقال إلاَّ للشاء والدَّوابّ والبقر في معنى السِّفاد. العير: الحمار أهليًّا كان أو وحشيًّا.

(5) انظر: شعراء بني عقيل 176 ـ 182.

(6) انظر: شعراء تغلب في الجاهليّة (الدّراسة) 358 ـ 361.

(7) انظر: شعر قريش: 137.

(8) انظر: شعراء مذحج في الجاهليّة 282 ـ 287.

خالصة لوجهه، بل فيها من صرف قوافيه جميعها في الهجاء؛ من مثل يحيى بن نوفل الحميريّ، الذي أحصى له صاحب حمير أربعين نصًّا بين قصيدةٍ ومقطّعةٍ ونتفةٍ وبيتٍ لطيمٍ[1]، وأشعار بني كلب بن وبرة التي امتزجت في كثير من الأحيان بشعر الحماسة والفخر ولا سيّما القبليّ منها[2]، وبني قشير الذين بدا لديهم هجاء القريب كثيراً ومتنوّعاً[3].

ونلاحظ بعد ما سلف من الكلام علىٰ موضوع الهجاء في أشعار خولان نحول هذا الغرض في أشعارهم نحولاً شديداً، يضاف إلىٰ هذا النُّحول عدم الإقذاع والفُحْش في مقالتهم الهجَّاءَةِ، وهذا يدلّنا علىٰ ترفُّعِ القوم عن بذيء الكلام، وإنّما سلك أصحابه الطريقَ اللاحِبَةَ للهجاء العربيّ؛ من تعبير بالمثالبِ، وسخريةٍ مُبَطَّنَةٍ، ونعتٍ بالرَّذائل، ووصمٍ بالمعايب من الأفعال التي يأباها العربيّ في مجتمعه، وهو ما كان سائداً عند القبائل العربيّة، مع مراعاة الاختلاف النّاجم عن الطّبع والبيئة والمناسبة التي وُلِدَ فيها الهجاءُ.

5 ـ الرِّثَاءُ:

يمتاز الرِّثاء بمكانة مرموقة بين فنون الشّعر الأخرىٰ؛ لما له من صدق العاطفة وسلامتها، النَّابعة من صدق الوجدان والإحساس السَّليم، ويُعَدُّ من أكثر المقالات الإنسانيّة لصوقاً بالنفس وعلوقاً بها؛ بسبب ما يجول فيها من مشاعر وأحاسيس هي أصدق مُخبِّرٍ عند وقوع المصيبة، فيتفطَّر القلبُ أسًى وحزناً، وتستعرُ نِيَارُ الأَشْجَانِ، فتأتي الألفاظ الشَّجية التي تُرقِّقُ القلوبَ القاسية، وتذيبُ الدُّموعَ الجامدة، ويثار الحزن من رَبْضَته، ويبعث الوجد من رقدته، ويعلو النَّشيج، وتصدّع القلوب. وإلىٰ مثل هذا أشار الجاحظ نقلاً عن الباهلي أنّه «قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ قال: لأنّا نقول وأكبادنا تحترق»[4]، ويذكر البيهقيُّ أيضاً أنَّه قيل لأبي عبيدة: «ما أجود الشِّعر عندكم؟ فقال: النمط الأسود؛ يعني الرِّثاء»[5] الذي تعدّدت دوافعه وتنوّعت؛ منها: الوفاء الذي أشار إليه أبو يعقوب الخريميّ عندما سئل: ما بال مدائحك لمحمّد بن منصور بن زياد ـ كاتب البرامكة ـ أحسن من مراثيك؟ قال: كنَّا يومئذٍ نعمل علىٰ الرّجاء، ونحن اليوم نعمل علىٰ الوفاء، وبينهما بون بعيد[6]. ومنها

---

(1) انظر: شعراء حمير (الدّراسة) 292 ـ 304.

(2) انظر: ديوان بني كلب (الدّراسة) 320 ـ 344.

(3) انظر: شعراء بني قشير 227 ـ 228.

(4) البيان والتبيين 2/ 320، ونحوه في المحاسن والمساوئ 2/ 35، والعقد 3/ 228.

(5) المحاسن والمساوئ 2/ 34.

(6) انظر: الشّعر والشّعراء 1/ 79، وعنه في العمدة 1/ 198.

أيضاً الإحساس بالفناء ودنو الأجل، ونهاية الحياة والتحوّل إلىٰ العدم[1]، وتعدُّ الفجيعة الذاتيّة من دوافع الرِّثاء المهمَّةِ، وعندها يكون الشِّعر أكثر مُكْنَةً من النفس، وألصق بشغاف القلب؛ فقد «قال: عمر بن ذَرّ: سألتُ أبي: ما بال النّاس إذا وعظتهم بَكَوْا، وإذا وعظَهم غيرُك لم يبكوا؟ قال: يا بُني، ليست النائحة الثَّكلىٰ مثلَ النائحة المستأجرة»[2].

وممّا يدلّ علىٰ ظهور موضوع الرِّثاء علىٰ موضوعات الشّعر الأخرىٰ: انصراف عددٍ من العلماء القدامىٰ لتطلاب هذه الأشعار علىٰ كثرتها، وسعيهم إلىٰ تدوينها منذ القرن الأوّل الهجريّ[3] في مصنّفات خاصّة بها؛ مثل كتاب (الرثاء والتّعازي) لابن خلّاد الرامهرمزي[4]، وكتاب (التعازي) لأبي الحسن المدائني (225هـ)، الذي صارت إلينا منه بعضُ أجزائه التي أفاد منها المبرد (285هـ) في نقولات ضمنها مصنَّفه (التعازي والمراثي)[5]، وثمّة كتاب رابع صنَّفَهُ اليزيديُّ (310هـ) وصرفه بتمّه وتمامه للمراثي.

وبلغ أيضاً من اهتمام العلماء أنّهم كانوا يفاضلون بين المراثي، فيقدمون هذه علىٰ تلك؛ كما فعل الأصمعيُّ حين قدم مرثية دريد بن الصِّمّة التي يقول منها[6]:

نَجِئْتُ كَـأُمِّ البَوِّ رِيـعَـتْ فَأَقْبَلَتْ ... إلـىٰ جِـذَمٍ مِـنْ جِلْدِ سَقْبٍ مُـقَـدَّدِ[7]

فما رَاعَـنـي إلَّا الـرِّمَـاحُ تَـنُوشُـهُ ... كَوَقْعِ الصَّيَاصِي في النَّسِيجِ المُمدَّدِ[8]

فعطف المبرِّدُ عليها بقوله: «وهي أهل ذاك»؛ يعني الجودة والحسن، وكرّر غيرها حين استجاد قول الخنساء فقال: «واعلم أنّ قول الخنساء من أجمل الكلام؛ حيث تقول:

---

(1) انظر: الصّورة في شعر تميم بن أبي بن مقبل: 145 وما بعدها.

(2) العقد الفريد 3/ 228.

(3) انظر: التّعازي والمراثي: 73.

(4) انظر: الفهرست: 172.

(5) التعازي والمراثي (المقدمة).

(6) التعازي والمراثي 21 ـ 23، وانظر: العقد الفريد 5/ 169. وانظر أيضاً تعليق الأصمعيِّ على مرثيَّة أوس بن حجر في العقد 3/ 265.

(7) البو: ولد الناقة يذبح ويحشى جلده تبناً أو حشيشاً؛ لتعطف عليه وترأمه فتدر عليه، والجذم: جمع جذمة؛ وهي القطعة. السقب: ولد الناقة. المُقَدَّد: المقطّع.

(8) الصَّياصي: جمع (صِيْصِية)؛ شوكة الحائك التي يسوّي بها السّداة واللّحمة. يريد أنّ أخاه دعاه والرماح تتناوله، ولها وقع كوقع صياصي الحاكة في ثوبٍ ينسجُ.

وإنَّ صَـخْـراً لَـوَالِـيـنـا وَسَـيِّـدنـا   وإنَّ صَـخْـراً إذا نَـشْـتُـو لَـنَـحَّـارُ

وإنَّ صَـخْـراً لَـتَـأْتَـمُّ الـهُـدَاةُ بِـهِ   كَـأَنَّـهُ عَـلَـمٌ فـي رَأسِـهِ نَـارُ»[1].

ومن عنايتهم بغرض الرِّثاء وأشعاره ما ذكره المبرِّدُ حين قال: «وأشعار الجاهليّة مشهورة معروفة، وإنّما نملي منها العيون»[2]، ومن ذلك أيضاً أنّ بني أميّة - وقيل: بنو مروان منهم خاصّةً - كانت «لا تقبل الرَّاوية إلّا أن يكون راويةً للمراثي، وقيل: ولم ذاك؟ قيل: لأنّها تدلّ علىٰ مكارم الأخلاق»[3].

ولمّا كان الرِّثاء مدحاً للميت - علىٰ رأي بعض أهل العلم[4] - وعَدًّا لصفاته وشمائله، فإنّنا نتوقع أن يكون الرِّثاء من أظهر الموضوعات وأبرزها في أشعار خولان، ولا سيّما أنّها قبيلة حرب، ألفت حياة الكرِّ والفرِّ، ولا شكَّ أنَّ هذه الحياة ستخلِّف وراءها قتلىٰ وصَرْعَىٰ، وهذا ما يستدعي قول المراثي. ولعلّ حال الرِّثاء كان ذاك، ولكنَّ اندثار أشعار كثيرة للخولانيّين وضياعها هو أحد الأسباب المهمَّة لقلّة شعر الرِّثاء وضعفه في دفتي هذا المجموع، فلم نقع فيما انتهىٰ إلينا من أشعار القوم كافَّةً إلّا علىٰ أبياتٍ مفردةٍ هنا وهناك، ونتفٍ ومقطَّعات لا يتعدّىٰ عددها أصابع اليد الواحدة، فضلاً عن انعدام الرِّثاء في أشعار الجاهليّين منهم؛ لذا سيُتناول الكلامُ علىٰ الرِّثاء بدءاً بأشعار المخضرمين الذين لم نجد في أشعارهم سوىٰ مقطّعتين ونتفتين وبيت نادٍّ؛ أوّلها كان للسان خولان عمرو بن يزيد العوفيّ يرثي بها ربيعة بن مسعود بن يزيد العوفيّ - وكان ابن أخيه - حين قتل علىٰ ماء الرَّقَبِ في حرب عمرو بن معدي كرب الزُّبيديُّ وحرب خولان؛ إذ يُقَرِّعُ عمرٌو فيها العينَ لتوقفها عن بكاء ربيعة المقتول، ويخاطبها بقوله: لا تملّي ولا تضجري من البكاء ما رأيتِ النُّورَ في كلّ صباح، ثمَّ يبدأ بتأبينه، فيذكر شمائله وصفاته؛ فهو من أفاضل بني عوف أصلاً ومَحْتِداً ومَنْبِتاً، يضرب الخصوم ويقهرهم؛ إمَّا في مبارزةٍ يجندلهم صرعىٰ، وإمَّا في عِرَاكٍ يدوسهم وَيُذِلُّهم، وهو سيِّدٌ وبطلٌ، إذا ما همَّ بأمرٍ عزم عليه أمضاه، لا يرجع عنه، قاتلٌ للكماة برماحٍ تغور في أجسادهم حَارَّةً أحشاءهم[5]:

يـا عَـيـنُ وَيـحَـكِ عَـبْـرَةً لا تَسْأمِي   وابْـكـي ربيعةَ مـا أُريـتِ صَبَاحَا

مـنْ خَـيْـرِ عـوفٍ مَنْصِباً ومُـرَكَّـبـاً   يَـغْـشَـىٰ الـكُـمَـاةَ عَـرِيـكَـةً ونِطَاحَا

(1) التعازي والمراثي: 27، وانظر: ديوان الخنساء 59.

(2) التعازي والمراثي: 24.

(3) البيان والتبيين 2/ 320.

(4) انظر: نقد الشعر 100، ونحوه في العمدة 2/ 831.

(5) الدّيوان: ق36/ ب1 - 3.

السَّـيِّـدُ الـبَـطَـلُ الـهُـمَـامُ إذَا غَـدَا ... أَرْدَىٰ الـكُـمَـاةَ وغَـاوَرَ الأَرْمَـاحَـا

انكسارُ قلب الشّاعر واضحٌ في المقطّعة التي تبدو بقيّة قصيدةٍ ضاع جُلُّها، ولعلّ في استمرار البكاء الذي يطلبه الشاعر من عينيه، ما يُوفِّي ذلك الميْت بعض حقّه، أو هو إعظامٌ لقدره ومكانته التي باتت خاليةً منه، ولا نبالغ إذا ذهبنا إلىٰ أنّ فعل البكاء هو شفاءٌ لهاتيك النفس الجزعة علىٰ فراق ربيعة، ليصير فعل البكاء معادلاً موضوعيًّا لتبرأ النفس من آلامها وأجزاعها التي غلبت عليها، وازداد الألم ألماً أن فقدت خولان خير رجالاتها ورؤوسها حينما صرعوا في حرب قبائل قيس عيلان[1]:

لَمْ يَكُنْ في سَـــرَاةِ قَـوْمـي نَظِيْرٌ ... لابـــنِ يَـعْـلـىٰ ومـالـكٍ وابـــنِ حـارِ

أَخَـذَ الـدَّهْـرُ مَـالِـكـاً وابـــنَ يَعْلىٰ ... وابـــنَ حَـــارِ هُـمَـامَـنَـا بـاقْـتِـسَـارِ

إنَّ معاني الأبيات غايةٌ في الوضوح والتناول، ونَسْجُهَا إلىٰ النثر هو أقرب منه إلىٰ الشّعر، ويبدو أنَّ حزن الشّاعر وحرقة قلبه قد أذابا جامد الدمع، وقرَّحا مآقي البكاء، وفاضا كلاماً معبّراً عن فَدْح الخطب وعِظَمِه، بل جَلَلِهِ حين استثقل اسم حارث فرخَّمَهُ، مقتصراً علىٰ بعض حروفه؛ وذلك لشدَّة جزعه علىٰ هؤلاء الذين باتوا صرعىٰ لا حَوِيْلَ لهم، لا سيّما عمرو بن الحارث العوفيّ الذي ألحَّ علىٰ مجيئه في نهاية البيت الثاني، ونعته بالهمام الذي لا يموت حتْفَ أنفه، بل فاد معترك الوغىٰ، ولم نلحظ تلك النبرة العالية المعروفة في غرض الرّثاء، التي تستلهم المعاني القويّة الجزلة، وكأنّي بنفس الشّاعر «تُخفِّضُ من نشيجها، وتَقتصِدُ في نحيبها، وتذهب مذهب الصَّبر والاستسلام»[2].

ويتحسّر المحنون العوفيّ علىٰ وفاة يعلىٰ بن سعد الخولانيّ ـ وهو أحد رماة خولان وشعرائها ـ فينعته بخير مَنْ حَمَلَتْ به امرأة ووَلَدَتْ[3]:

قُـلْ لِعَـمْـرٍو وقُـلْ لِشَـهْـرٍ: أَبُـوْكُـمْ ... خَـيْـرُ مَـــنْ أَنْـسَـلَـتْـهُ ذَاتُ نِـطَـاقِ

وهو في هذا النّعت يشير في طرف خفي منه إلىٰ كرم أصل المرثي وطِيْب مَحْتِدِهِ من أمّه، وهي من المعاني المتداولة في غرض الرّثاء.

ويلحظ في أشعار القوم رثاء الملك والتَّحسُّر عليه؛ وذلك ما نجده في مقطّعةٍ لعمرو بن حجر

---

(1) الدّيوان: ق42/ ب 1 ـ 2.
(2) العقد الفريد 3/ 228.
(3) الدّيوان: ق65/ ب1.

المالكيّ، الذي يفخر بحَواية الملك خمسين سنة في صِرْوَاح التي دوّىٰ صيتها بعيداً في أشعار العرب حين تملّك بها سعد بن خولان، ثمّ زاد علىٰ الخمسين سبعة أعوام، ليذكر تأسّيه وفَرَقَهُ علىٰ ضياع ذلك الملك المؤثّل الشّامخ آنذاك في صِرْواح، وتشتّت أمره وزواله، وقد بات مثل ليالٍ لم تبلَ مسوكُهَا، يقول[1]:

أقمنَا علىٰ صِـــرْوَاحَ خَمْسينَ حِجَّةً وسَـبْـعَـةَ أعـــوامٍ ونَـحْـنُ مُلُوكُهَا

فأَصْبَحَ ذاكَ المُلْكُ، بُـدِّد شَمْلُهُ كَـذَاكَ اللَّيالي ليسَ يَبْلىٰ مُسُوكُها

أقـامَ بها سَـعْـدُ بـنُ خـولانَ، جدُّنَا مَـحَـلًّ وُفُـودٍ يَـعْـتَـريـهِ ضَـريكُها

رأىٰ الشّاعر مزج الفخر القبليّ بالرّثاء، أو جعل هذا الرّثاء لائطاً بفناء الفخر الذي عَبّرَ عنه في البيت الأوّل، ولا نعدمه في البيت الثالث حين ذكر إقامة جدِّه ملكاً وتثبيته مجداً، تأتيه النّاس وتهوي إليه، ماثلةً بين يديه، وفي هذا ما فيه من معاني القوّة والشّجاعة، والبأس الذي يوحي بعظم ذلك الملك.

ومن هذا الرّثاء ما نجده في قصيدة لمسلم بن يغنم المالكيّ الذي يرثي ديار بني عوفٍ العالية السّامقة، التي لا ينالها العدوُّ بسوءٍ لمنعتها وإشرافها، ولكنها خَلَتْ من أربابها بعد تنازع أهلها علىٰ اعتلاء عرشها، فاصطلمت[2] الأعادي ذلك المُلْكَ من بعد عِزٍّ دوّىٰ صيته في الآفاق؛ يقول[3]:

أمّــا ديــارُ بَـنـي عــوفٍ فَـمُـنْـجِـدَةٌ والغُرُّ قَومي بِحَيْسٍ دَارُهَـا السَّعَفُ

مِـنْ بعدِ آطَـامِ عِـزٍّ كـانَ يَسْكُنُهَا منَّا مُـلـوكٌ وسَــادَاتٌ لهمْ شَــرَفُ

والمسلم لم يرضه صنيع قومه، ورعونتهم التي أدّت إلىٰ سوء منقلبهم؛ فانتابه الأسىٰ والحزن اللذان فتكا بقلبه، وأورداه غُصَصاً في حلقه وشَرَقاً؛ يقول[4]:

يا لَهْفَ نَفْسي! عَلىٰ قَوْمي ومَا ارتكَبوا مـا كَـانَ يَـقْـبَـلُ هــذَا سَــادَةٌ أُنُـفُ

أَبَــعْــدَ عــوفٍ يُـقِـيـمُ الـعِـزَّ بَيْنَكُمُ أَهْلُ الرِّبَاطِ وأَهْلُ النَّحْلِ إنْ شَنِفُوا[5]؟!

يقول: لقد أضعتم العِزَّ والسؤدد بعد عوف بن زيد بن أسامة الخولانيّ، وأنتم أصحاب المرابطة،

(1) الدّيوان: ق60/ ب1ـ3.

(2) الاصطلام: الاستئصال، واصطُلِمَ القوم: أبيدوا على بكرة أبيهم.

(3) الدّيوان: ق61/ ب1ـ2.

(4) الدّيوان: ق61/ ب6ـ7.

(5) شنفوا: غضبوا. النحل: الهبات والعطايا.

وأهل العطايا والهبات إن غضبتم وامتعضتم، لو كنتم تأبون الحيف والضَّيم ما اقترفت أيديكم سوء الفعل والصنيع.

فذلك ما انتهىٰ إلينا من موضوع الرّثاء في أشعار المخضرمين وصدر الإسلام من خولان، ونلاحظ ـ علىٰ نحوله وقلّته ـ انعدام القصائد، وما وصل إلينا هو بقيةٌ منها في هذا الغرض الشّريف.

وكذا نرى فيه توجّهه إلىٰ رجالات بني خولان وانحسارَهُ ضمن إطار القبيلة، بل ضمن إطار البطن الواحد؛ كرثاء عمرو بن يزيد العوفيّ لربيعة بن مسعود العوفيّ، ويضاف إلىٰ الملاحظتين السابقتين: قلّة التّفجع والجزع في الأشعار السّالفة، ولعلَّ هذا عائدٌ إلىٰ قلّة الأشعار نفسها؛ إذ لم يصل إلينا منها ما ينقع بِلّة ويشفي صادياً، وما ظهر هو تأسٍّ وحزنٌ، واقتصاد في النَّحيب إن وجد، وأسفٌ علىٰ الذي مضىٰ، من دون التياع وتفجّع، وسعاية وراء الألفاظ التي تكشف عظم المصاب وجَلَله.

أمّا في شعر العصر الأمويّ فلم يكن حاله أفضل من سالفه من ناحية شحوبه وضعفه؛ فقد وصل إلينا هزيلاً في أربعةِ مواضعَ فقط؛ أمّا الأوّل: فيرثي به الحارث بن عمرو السَّعديُّ ملوك بني حيٍّ، السّادةَ، العِظَامَ، الذين أعملوا السّيوف فيهم، وجرّوا إليهم جيشاً جرّاراً، عمدتُهُ خيولٌ سريعةُ العدوِ، حتّىٰ دَحَرَتْهُم عن مُلْكِهِم، وأخرجتهم من أرضهم، في قصيدة ينصح فيها الشّاعر ابن عمّه عمرو بن يزيد السَّعدي بالكفِّ عن البغي والطغيان، ضارباً له مثلاً مصرع زهير بن جَذِيْمَة العبسيّ حينما جار، وأخيه من بعده شأس العبسيّ، وصاحب البسوس كليب وائل، يقول راثياً[1]:

وَسَــادَةٌ مـنْ بَـنِـي حَـيٍّ أُتِـيْـحَ لَهُمْ ... مِـنَّـا بَــوَادِرُ مُــزْنٍ كـانَ مِـدْرارا

كَـانُوا المُلُوكَ وكنَّا نَحنُ نَتْبَعُهُم ... حتَّىٰ جَـرَرْنَـا لهمْ خَيلاً وأَغْـمَـارا

وأمّا الموضع الثاني فللمِسْور الخولانيّ، يتجرّع مرارة العيش ويتحمّل نكده بعد مصرع حفص بن الوليد، ورجاء بن الأشيم، ومن قتل معهما من أشراف حمص ومصر علىٰ يد الطّاغية حوثرةَ بن سُهَيْل الباهليّ، الذي تولّىٰ إمارة مصر لمروان بن محمّد آخر خلفاء بني أميّة، وكان رجلَ سوءٍ سفَّاكاً للدماء، ضرب رؤوس الفتنة وأزهق أرواحهم في مصر علىٰ ما زعم، يقول محذّراً ابن عمٍّ له من مروان بن محمّد[2]:

---

(1) الدّيوان: ق72/ ب1 ـ 4، 7 ـ 8.
(2) الدّيوان: ق96/ ب1 ـ 3.

وإنَّ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ مـسَـلَّـطٌ	على قتلِ أشْـــرافِ البِلادينِ فَاعلَمِ
فـإيَّـاكَ لا تجْني مـنَ الشَّـرِّ غِلْظَةً	فتُؤْذَىٰ كَحَفْصٍ أو رَجَـاءِ بنِ أشْيَمِ
فَلا خيرَ في الدُّنْيَا ولا العيشِ بَعْدَهُمْ	وكيفَ وقدْ أضْحَوا بِسَفحِ المُقَطَّمِ؟!

أما الموضع الثالث فهو قصيدة تامّة، أنفقها شاعر مجهول من بني سعد بن سعد بن خولان في رثاء مرّ بن عامر الحميريّ، الذي بعثه سيف بن ذي يزن الحميريّ لنصرة خولان ومن آزرها ضدّ قبائل قَيس عَيْلَان، فأخلَّ بها إلىٰ هَوَازن وسُلَيم، حتىٰ تَوَعَّدَهُ عمرو بن يزيد العوفيّ، فقتله جَبْهَةً، وذلك أوّلَ ما ظهرت دعوة الإسلام بمكّة؛ يقول[1]:

كُسِفَتْ نُـجُـومٌ مـنْ مَـقَـاوِلِ حِمْيَرَ	فِيْنَا وأَظْـلَـمَ شَمْسُهَا وبُـدورُهَـا
وطَـوَىٰ سَمَاحَتَها الـزَّمَـانُ وَهَـدَّهَـا	بالمُجْحِفَاتِ وغَـاضَ ثَـمَّ بُحُورُهَا
وتَـقَـطَّـعَـتْ منهَا الأَوَاصِـــرُ بيْنَها	ومَضَـىٰ سَنَاهَا عندَ ذاكَ ونـورُهَا
ومَضَـىٰ ابـنُ ذي يـزنٍ وخلَّفَ بيْنَهَا	حَـربـاً عَـوَانـاً مَـا يَـبُـوخُ سَعيرُها
ومَـضَـتْ قُـيـولٌ مـن سُـلالَـةِ زُرْعَـةٍ	وتَـبَـدَّلَـتْ شـرًّا وغـابَ سُـرُورها
وَرَمَـــىٰ الـزَّمـانُ ديَـارَهَـا بـأُزَيْـلِـمٍ	جَـذَعٍ، فَـهُـدَّتْ دُورُهَـا وقُصُورُهَا
ولَـقَـدْ تَـكُـونُ أنِـيـسَـةً مَـأهـولَـةً	وبـهَـا جُـمُـوعٌ مـا يَـنَـامُ سَميرُهَا

درج بعض من أقيال حمير وآلت ديارهم إلىٰ الخراب والظّلام، اللذين ألقيا بثقلهما في كلِّ مكانٍ، وأناخت الدَّواهي والمجحفات بكلكلها علىٰ نضارة هؤلاء الأقيال، وسيرهم الحسنة التي عرفت بالالتئام واللُّحْمَةِ فيما بينها، والتّعاضد والتّماسك كأنّهم يدٌ واحدةٌ على مَنْ عاداهم، ولكن ما إن درج سيف بن يزن حتّىٰ نشبت حرب ضروس بين هؤلاء الأقيال، ما انطفأ سعيرها وسكن، حتّىٰ أزالت قيولاً من سلالة زرعة، وحلَّ مكانها أشرارُ النّاس وأسوؤهم، جلبوا معهم دهراً جديداً مُلِئ بلايا ورزايا ومنايا أفنت عزّهم، وأزالت ملكهم في ديارهم التي كانت آهلةً بذويها وسكانها، فصارت مقفرةً خاويةً.

(1) الدّيوان: ق100/ ب1ـ7.

لقد قتلت بنو عوف مرَّ بن عامر الحميريّ، واستباحت أهله ودياره، حتىٰ أُذِيبَ جامد الدّمع الذي جرىٰ غزيراً؛ حزناً وألماً علىٰ ذلك المقتول المحمود النَّسب والأصل؛ وهذا ما جعل الثواكل يبكينه ويندبنه بشدَّةٍ تناسباً مع فَدْح الخطب وعظم الـمُصَاب؛ يقول[1]:

وَمَضَىٰ ابنُ عَامِرٍ واستُبيحَ حَرِيْمُهُ ... وهَـوَىٰ صَرِيعاً قَرْمُهَا ومُجِيْرُهَا

فَـرَدَتْ بَنو عـوفٍ مَجَامِعَ قَلْبِهِ ... فَـثَـوَىٰ قَتيلاً قَيْلُهَا وأَميرُهَا

وجَـرَتْ عُيونٌ بالـدُّمُوعِ غَزِيرَةٌ ... فيهِ وغُـودِرَ فـي الـمَكَـرِّ خفيرُهَا

يا مُرُّ يا بـنَ الأَكـرَمـيـنَ لقد جَـرَتْ ... منِّـي دُمـوعٌ يَسْتَـهِـلُّ غَزيرُهَـا

فَلَتُقْطَعَنَّ من الـقَريبِ قَرابَةٌ ... وَلَيُفْقَدَنَّ رَئيسُهَا وكَبيرُهَا

ولَيُصْبِحَنَّ ثَـوَاكِـلٌ يَنْدُبْنَهُمْ ... بِيضٌ تميلُ مـنَ الـقـرونِ عُفُورُهَا

أمّا الموضع الرابع فهو نتفة لعمرو بن زيد الغالبيّ، يرثي ملك آبائه وأجداده في صِرْوَاح التي دوّىٰ صيتها بعيداً في أشعار العرب، ولا سيما حين تملَّك بها سعد بن خولان ثمانين حولاً، ليتراخى ذلك الملك إلى ضياع المال والثروة فيه، ثمّ إلى ضياعه هو نفسه، فلم يستطع أن يثبِّت فيها (صرواح) مُلْكاً تناهبته فيما بعد صوارف الدّهر وغوائل الأيّام؛ يقول[2]:

أَبونَا الذي أَهْمَىٰ السَّروحَ بِمَأْرِبٍ ... وآبَتْ إلـىٰ صِرْوَاحَ يوماً نَوافِلُهْ

لِسَعْدِ بنِ خَوْلانٍ رسَا المُلْكُ واستَوَىٰ ... ثمانينَ حَـوْلاً ثـمَّ رَجَّـتْ زَلَازِلُـهْ

لا شكَّ أن هذه النتفة هي بُقَيًا قصيدة بدأها الشّاعر بالفخر، الذي أفضىٰ إلىٰ التحسُّر والتّأسي على ما مضى وانقضىٰ من عظيم المُلْكِ، وعِزِّ القوم وسلطانهم.

نلاحظ فيما وصل إلينا في شعرهم من هذا الغرض في العهد الأمويّ ـ علىٰ قلته ـ الآتي:

لم يخلُ رثاؤهم من الحزن الواضح والتفجُّع علىٰ مَنْ فات، ولا سيّما في بكاء الشّاعر الأمويّ المجهول علىٰ مرّ بن عامر الحميريّ؛ كقوله: «ثواكل يندبنهم»، و«جرت عيون بالدموع...»، و«جرت مني دموعٌ».

---

(1) الدّيوان: ق100/ ب8ـ 13.

(2) الدّيوان: ق83/ ب1ـ 2.

تجرُّعُ مرارة العيش بعد ذهاب الأحبة؛ كقول المِسْوَر الخولانيّ: «فلا خير في الدنيا ولا العيش بعدهم».

إقفار الديار من أهلها وذويها وذهاب ملكهم المؤثَّل، أثار الحسرة والأسىٰ في نفس الشّاعر الغالبيّ عندما قال: «ثمّ رجتْ زلازله». وأحكامنا مقصورة علىٰ ما وصل إلينا فقط من أشعارهم في هذا الغرض، الذي نلاحظ فيه بوجهة عامّة رثاء الممالك والقصور والمباني، التي أسّس فيها الخولانيّون مَلكاً عظيماً طبّق صيته الأصقاع، وضربت شهرته الآفاق، ويلاحظ في رثائهم عامّة انصرافه إلىٰ أفراد القبيلة أو البطن الواحد دون غيرهم، خلا قصيدة الأمويّ المجهول التي رثى بها مرّ بن عامر الحميريّ.

كما يُلاحَظُ في أشعار هذا الغرض الشُّحُوبُ والنُّحولُ، وهذا «الحكم ينطبق علىٰ سائر القبائل حين نستثني شعراء المراثي ـ كالخنساء السُّلَمية، ومُهَلْهِلِ التَّغلبيّ، ومتمّم بن نويرة اليربوعيّ ـ إلّا بني أسد؛ فقد لوحظ أن الرّثاء من الأغراض الواسعة في شعرهم، لا يتقدّم عليه سوىٰ غرض الفخر؛ لأنّ هذه القبيلة تعرّضت إلىٰ حروب شديدة مبيرةٍ، جدعت الأنفَ، واستأصلت الشّأفة؛ إذ كانت قليلة العدد، غير مرهوبة الجانب»[1]، وشعر حمير الذي احتلّ هذا الموضوع فيه المحلّ الثّاني بعد الفخر والحماسة[2]، ومذحج التي لم يكن هذا الغرض ضامراً في أشعارها؛ إذ نجد نوعين الأوّل: رثاء الآخرين؛ كرثاء الأبناء والآباء والإخوة، أو رثاء أفراد القبيلة. والثّاني: رثاء النفس[3]. وعند بني عقيل جاء غرض الرّثاء رابعاً بعد الغزل من حيث كثرة القوافي[4]، ولعلّ هذا التفاوت الذي لم يكن بالكبير راجعٌ إلى طبيعة الحياة المعيشة في كلّ قبيلة؛ فمذحج قبيلة كرٍّ وفرٍّ، مثل حمير التي كثرت حروبها، فكثر قتلاها وصرعاها؛ وهذا ما جعلها أرضاً خصبةً لغرض الرّثاء.

وثمة أمرٌ يحسن التنبيه عليه في ختام الحديث عن هذا الغرض؛ وهو أنَّ مراثي خولان تنماز من مراثي القبائل الأخرىٰ ـ علىٰ قلتها كما أسلفنا ـ بشحوبٍ كبير وهزالٍ غيرِ موجودٍ عند غيرها؛ فلم نحظ إلّا ببعض المعاني التي لا يتجاوز عددها أصابع اليد، في حين غاب كثيرٌ منها لغياب الشِّعر؛ مثل غياب المعاني الدينيّة جملةً، والشَّكوىٰ من الدَّهر وحتوفه، وتفدية المرثي بالنَّفس وتمني الموت دونه، وذكر ما كان عليه المرثي من نعيم العيش وغَضَارة الحياة، وذكر مفاخره، وخيانة الدَّهر والزَّمان،

---

(1) ديوان بني كلب (الدّراسة) 357 ـ 358 عن ديوان بني أسد 1/ 266، وانظر: شعر بني أسد في الجاهليّة 234.

(2) انظر: شعراء حمير (الدّراسة) 273.

(3) انظر: شعراء مذحج 258.

(4) انظر: شعراء بني عقيل 1/ 167.

وغير ذلك ممّا يطول ذكره؛ من النَّدب الذي يمتزج فيه الحزن والأسىٰ بذكر محاسن الميت وتعداد مناقبه والتأبين له، وما يتبعه من الثَّناء واقتفاء الأثر والذِّكر الحسن، كلُّ هذه المعاني نجدها عند القبائل الأخرىٰ، في حين لم نجدها عند شعراء خولان.

6ـ الحِكْمَةُ:

أفرغ العربي في حكمَتِهُ العظاتِ والنَّصائحَ والإرشاداتِ التي حَصَّلها من تجارب حياته الطَّويلة في مجتمعه، أو جاءت من سَعَةِ عقله وبُعْدِ تفكيره وتأمُّلِهِ، أو حسن تقديره وإدراكه لمشكلات الحياة التي تعتاص علىٰ كثير من أبناء القوم، فيؤدي بهم الغضب وسرعته إلىٰ الهلاك وركوب أمواجه وتَقَحُّمِهِم لُجَجَهُ، فيقعدون ملومين محسورين نادمين علىٰ ما قدّمت أيديهم من سوء الفعل، ولربَّ فتًى لـمّا يزل في طراوة العمر ويناعته، ما طَرَّ شاربه، يُعَرفُ بحكمةٍ لا يأتيها الشَّيِّبُ ولا يعرفون لها سبيلاً، وقد جاءت تلك الحكمة إلىٰ النثر أقرب صياغة منها إلىٰ الشِّعر، وكأنَّها وصيةٌ أو نصيحةٌ أو مَثَلٌ صُنِعَتْ شعراً سهل التناول، قريب الفهم، وهذا ما انمازت به أشعار الحكمة دون أغراض الشعر الأخرىٰ.

وثمّة أمر يحسن التّنبيه عليه في بدو الكلام ههنا؛ وهو أنّه لم نحظَ في أشعار خولان بشعر الشّكوىٰ من الهرم والدهر وصوارفه، قريناً للحكمة التي جاءت وحيدة في تضاعيف القصائد أو المقطَّعات أو النُّتَف أو الأبيات المفردة، عدا الحارث بن عمرو السَّعدي الذي يُعَدُّ من حلماء خولان وعقلائها، فأودع أشعاره حكمةً تنم على رجل عاقل، متروٍّ، متأمِّلٍ في شؤون الحياة وأمورها، وكادت تذهب تلك الحكمة بأشعاره إلا أقلَّها.

ومستهل الكلام علىٰ هذا الغرض في أشعار الجاهليّين الذي شَحَّ ونضب إلّا في موضعين فقط؛ الأوّل ما نجده لدىٰ عمرو بن زيد الخولانيّ المشهور بمغرق الأكبر، الذي استمدّ حكمته من تجربته الطويلة في الحياة؛ فهو سَيِّد مطاع في عصره، حكيم في شؤون قومه، نادَمَ العظام من أمثال سيف بن ذي يزن الحميريّ وغيره من السَّراة والأشراف؛ يقول[1]:

إذا مَا الـمَـرْءُ أَسْــــرَعَ فـي هَــوَاهُ	فَـــدَعْـــهُ ورَأْيَــــهُ فـيـمـا يُـريـدُ
فَـــإِنْ نَـــازَعْـــتَـــهُ رَسَـــنـــاً لأَمْـــرٍ	فَـــأَنْـــتَ لَـــهُ عَـــدُوٌّ أو حَـسُـودُ

ليس يخفى على أحدٍ أنّ ظاهر البيتين نصيحةٌ أو وصيةٌ صيغت في قالب شعريّ بسيطٍ قريب الفهم؛

(1) الدّيوان: ق2/ ب1ـ2.

فهو يوصي: إذا ما وجدتَ إنساناً تملَّكه الغضب وسيطر عليه، فاتركه يذهب في مذهبه أنّىٰ شاء؛ لأنّك إذا ناقشته وحاورته وحاولت أن تهديه إلى سبيل الرَّشاد، فأنت عدوٌّ له أو حسودٌ فيما ذهب إليه وتوصَّل.

ومثل هذه الحكمة ما نجده عند الرّبيعة الذي لم يرض بفعل بني سعد بن سعد بن خولان، يوم أتيحت الفرصة لهم وأخرجوا أبناء عمومتهم بني حيّ بن خولان من صعدة إلىٰ مصر، وما عانوه من سوء العاقبة؛ وذلك بسبب ركوب مراكب الجهل وتقحّم لججه، والعصبيّة التي كانت تأخذ سبيلها في علاقات القوم، فكيف يُهان فلان من بني سعد بن خولان؟ وكيف يصمت هؤلاء علىٰ ردِّ الإساءة بمثلها لبني حيّ الذين أكبروا نفوسهم؟ يقول[1]:

يُرَاسِلُنِيْ سَعْدُ بـنُ عَـمْـرِو مُـعَـذِّراً ... ولَـسْـتُ لأَفْـعَـالِ العَشِيرِ بِحَامِدِ

فَـخَـالِـدُ بَـاعَ الـذُّلَّ بالعزِّ وانْـتَـوَىٰ ... إلـىٰ أَرْضِ مِصْرٍ، خَيْرُ غَـادٍ ورائِـدِ

حَمِيتُمْ عَلَىٰ سَعْدٍ، وسَعْدٌ مُصِـرَّةٌ ... علىٰ حَـسَـدٍ ما مِنْهُمُ غيرُ حَاسِدِ

ولَـيْـسَـتْ بنو سَـعْـدٍ بـشَـاكِـرَةٍ لكُمْ ... ومَـا كُـلُّ ما أَوْلَـيْـتَ عُـرْفـاً بِحَامِدِ

وقد كمنت الحكمة أيضاً في تجَنُّبِ مالك بن عمرو بن رشَوَان بن خولان ـ صهر خالد بن قيس الحيوانيّ ـ هذه الحرب الضروس، وخروجه مع بني حيّ دون الدخول فيها؛ لأنّ مشاركته فيها ستزيد تلك الحرب استعاراً، وهي ممّا يوسع دائرتها ويضاعف عدد الداخلين فيها.

أمّا ما ورد من حكمة في أشعار المخضرمين وصدر الإسلام منهم، فنجده في بيت من مقطّعة لعمرو بن يزيد العوفيّ، الذي لم يكن طائشاً ولا فَرِقاً ولا جباناً، بل موجّهاً قومه بكلمة تحميهم ألسنة الغير، وتقيهم العيبَ والسِّبَابَ؛ بأن لا يقتلوا السّادات والأشراف، وخصوصاً إذا ما ألـمَّت بهم نائبة أو نازلة، أو تهيَّأت الفرصة لذلك كما حدث لعمرو؛ يقول[2]:

فَغَضَضْتُ طَرْفِي حينَ خَرَّ جَـوَادُهُ ... وحَبَسْتُ عَنهُ سِنَانَ رُمْـحٍ في اليَدِ

ما كانَ بي جُبْنٌ، ولا ارْتَعَشَتْ يَدِي ... لكنْ حَميتُ علىٰ الهُمَامِ الأصْيَدِ

---

(1) الدّيوان: ق23/ ب1 ـ 4.

(2) الدّيوان: ق37/ ب2 ـ 3.

يقول بعد ذلك ـ وهو موطن الشّاهد ـ[1]:

لا تَقْتُلوا سَادَاتِكُم فَتَغَيَّروا	فَمِنَ الكَبَائِرِ قَتْلُ كُلِّ مُسَوَّدِ

والإيمان بقدرة الزمان وإطلاق العنان لها في قلبها شؤون الحياة رأساً علىٰ عَقْبٍ، من الحكمة التي انثالت علىٰ لسان يَعْلَىٰ بن سعد المالكيّ حين نظر في تاريخ الأمم والملوك والأقيال، فوجد أنَّ الزمان قد ذهب بملك آل مُحَرِّق، وأزال أشدَّاءهم وسراتهم بيوم شديد، وكيف لا يكون التفكُّر بأخبار الأمم السابقة، والاتعاظ بسيرهم وأخبارهم، من الحكمة التي تنم على عقل صاحبها؟! يقول[2]:

ذَهَبَ الزَّمانُ بِمُلْكِ آلِ مُحَرِّقٍ	ورَمَىٰ صَفَاتَهُمُ بيومٍ قِمْطَرِ

وقد نسج قصيدةً كاملةً تناولَ فيها إيمانه بقدرة الزمان، وتمثيله بهؤلاء الملوك؛ منها قوله[3]:

وَكَبَا عَلىٰ اللَّخْمِيِّ يومَ حَليمةٍ	والخَيْلُ تُرْحَضُ في نَجيعٍ أَحْمَرِ
وبِسَعْدِ خَوْلانَ بنِ عَمْرٍو جَدَّنَا	مِنْ فوقِ صِرْواحٍ رَمَاهُ بأَعْصُرِ
وغَزَا بَني حُجْرٍ، فَصَاحَ بِحَبْرِهِمْ	كَبْشُ الكَتِيبَةِ في الرَّعيلِ المُصْحَرِ
وَعَلا ابنَ هندٍ عَمْرَو، خَبْطُ زَمَانِهِ	مَأْوَىٰ الطَّرِيْدِ ورَأْسَ آلِ المُنْذِرِ
وأشَتَّ كِنْدَةَ يومَ فرَّقَ جَمْعَهَا	وبِحَيٍّ كِنْدَةَ كانَ عُظْمُ المَفْخَرِ
وأَحَانَ ذَا اليَومَيْنِ ريبُ زَمَانِهِ	عَمْرَو بنَ هندٍ خيرَ آلِ المُنْذِرِ
وصَرَعْنَ مَتْنَ صَفَاةِ حَيٍّ بالقَنَا	والمَشْرَفِيَّةِ عنْ رفيعِ المنظرِ
منْ حَيٍّ سعدٍ يومَ سارَ خَمِيْسُهُمْ	وابْنَا أُسَامَةَ في زُهَاءِ العَسْكَرِ

وقد ردَّ المحنون العوفيّ علىٰ الحارث بن عمرو السّعديّ، الذي أنشأ يقول ويرفع صوته بعدم ابتداع البدع المخالفة لعادات العرب وأعرافهم، وذلك عندما حمىٰ عمرو بن يزيد العوفيّ حكيم بن العَلَّاف الذي دخل في ذمته، وتداعىٰ القوم إلىٰ القتال لولا تفرقة عمرو بن معدي كرب الزّبيديّ بينهم؛ يقول

---

(1) الدّيوان: ق37/ ب6.
(2) الدّيوان: ق53/ ب1.
(3) الدّيوان: ق53/ ب13 ـ 20.

المحنون[1]:

يا حَـارِ مَـهـلاً، فـإنَّ الـقـولَ مَجْبَنَةٌ ... بغيرِ فِعْلٍ، وخَيْرُ النُّصحِ ما سُمِعَا

فَـقُـلْ جَميلاً، فَـإنَّ الحقَّ مَغْضَبَةٌ ... وارْبَـعْ هُدِيْتَ، ولا تَرْمُوا لنا نَصَعَا

أمَّا مَنْ غلب عليه نَفَسُ الحكمةِ غَلَبَةَ الحماسة والفخر علىٰ عمرو بن يزيد العوفيّ، فالحارث بن عمرو السّعديّ؛ فشعره ـ إلّا أقلّه ـ حكم ونصائح وآداب، حتىٰ غدت تلك الحكمة غرضاً مستقلّاً قائماً بنفسه في إحدىٰ قصائده.

ولا غروَ في أن ينسج الحارث السّعديّ أشعاره علىٰ أوتار الحكمة والنصيحة؛ فهو أحد السّادة والحكماء الحلماء المعدودين في بلاد اليمن في عصره، كما يسميه الهمدانيُّ[2]. وإذا كان الشِّعر الجاهليُّ غنائيًّا ـ كما يقال ـ يعبر فيه صاحبه عن ذاته، وما يكتنفها من تساؤلات فلسفيّة، وما يعتلج فيها من رؤىً وأفكار ونوازع تجاه المواقف، فيكشف بذلك عن ثقافته ودقيق إحساسه، الذي أتاح له النفاذ إلىٰ وعي لحقائق الحياة وأهلها، فقد صاغ الحارث في شعره حكماً تعبر عن صفاء ذهنه، ونفاذ رأيه وتعقُّله وبُعْدِ نظره، بدا فيها صوت العقل واضحاً جليًّا، لم تحمل علىٰ كاهلها أصعب من فكرة إشعال الحروب وإثارة الفتن، وركوب مراكب العُنْجُهِيّةِ التي أصغى إليها أبناء عمومته، فأنفقوا فيها أعمارهم التي فنيت بفنائها، والحرب لا تشبُّ إلّا فتيَّةً ولا يبوخ سعيرها إلّا عجوزاً. يقول في إحدىٰ كلماته ناصحاً عمرو بن يزيد السَّعديّ وضارباً له الأمثال؛ عَلَّه يكفّ عن التكبُّرِ وإثارة الفتن وإشعال فتيل الحرب[3]:

يَـا عَـمْـرُو يا بـنَ يزيدٍ لا تكُنْ بَطِراً ... فالحربُ أَرْدَتْ زُهَيْراً حِيْنَما جَارا

لمـَّا مَضَـىٰ شَاسُ جرَّ الرُّمحَ مُعْتَرِضاً ... وقـامَ يَـبْـرِيْ بها نَـابـاً وأَظْـفَـارا

فَـصَـبَّـحَـتْـهُ جِـيـادُ الخيلِ مُـبْـكِـرَةً ... فـلـمْ تُـبَـقِّ لَـهـا غِـلًّا ولا ثَـارا

والـمَـرءُ وائـلُ لمَّـا إنْ طَغَىٰ بَذِخاً ... أَوْدَىٰ بطَعْنَةِ مَـخْـرورِ الحَشَا غَارَا

لا تَـقْـطَـعَـنَّ يَـسَـاراً مِـنْـكَ أَيْمُنُها ... واحْـذَرْ أحاديثَ قدْ تُنْبَىٰ وأَخْبَارا

وقـدْ سَمِعتَ بِبَهْرَا يـومَ سـارَ بِهِمْ ... قَـرْمٌ فَـدَوَّخَ بَـذَّاخـاً وجَـبَّـارَا

---

(1) الديوان: ق64/ ب1ـ2.

(2) الإكليل: «المخطوط 1/ 99، المطبوع 1/ 404».

(3) الدّيوان: ق72/ ب1ـ7.

وسَـادَةٌ مـنْ بَني حَـيٍّ أُتِيـحَ لَهُمْ ... منّـا بَـوَادِرُ مُـزْنٍ كـانَ مِـدْرَارا

ومن قوله في الحرص علىٰ الصَّداقة ومواصلة الصّديق: فكم من أخٍ لك لم تلده أمُّك، هو أحبُّ إليك وأقرب، ثُمَّ يزيد في النُّصح فيقول: إذا اختلفت عليك السُّبُل يوماً، فكن معتدلاً، ولا تتّبع صاحب جهالة وضلالة يوصلك إلىٰ المهالك والعواقب الوخيمة؛ فإنَّ الحِلمَ منارةٌ للإنسان يهتدي به، ويهلك أخو الخيبة والغيِّ، ثمَّ يوصي باللّين الذي يُفرِّج كلَّ ضيقٍ، وباللُّطْفِ الذي يزيل كلَّ عُسْر؛ يقول[1]:

إِذَا مَـا الـنُّـصْـحُ ضَـيَّـعَـهُ الـمُـوَالي ... فـلا تَـتْـرُكْ مُـوَاصَـلَـةَ الـصَّـدِيـقِ

فَــرُبَّ أخٍ لـنـفْـسِـكَ لَـمْ تَـلِـدْهُ ... لـكَ الأمُّ الأَلُــوفُ مع الشَّقِيقِ

إِذَا عَـمِـيَـتْ عَليكَ الـسُّـبْـلُ يوماً ... ولـم تَـظْـفَـرْ بـقَـارِعَـةِ الـطَّـرِيـقِ

فَسِرْ في القِسْطِ لا تَتْبَعْ سِوَاهَا ... فـإنَّ الـقِـسْـطَ مَـقْـرَنَـةُ الـرَّفِـيـقِ

ولا تَـتْـبَـعْ أخَـا غَــيٍّ جَـهُـولاً ... يَـدُلُّـكَ لِـلـمَـهَـالِكِ والـمَضِـيـقِ

رَأَيْـتُ الـحِـلْـمَ مُـنْـجِي رَاكِـبـيـهِ ... ويَـرْدَىٰ ذو الـغَـوَايَـةِ والـعُـقُـوقِ

ويُـفْـتَـحُ بـالـتَّـرَفُّـقِ كُـلُّ بَـابٍ ... ويُـفْـسَـحُ بـالـتَّـأَنّي كُـلُّ ضِـيـقِ

نلاحظ أنّ النصائح السّالفة أبوان رؤومان، يأخذان بيد مَنْ قلّب بصره في الآفاق مُخْتاراً، بل مَنْ خيّمت عليه شكوك الحياة ومفاسدها، وكيف لا؟ وهو يعيش في مجتمع تتقاذفه إحنٌ وسخائمُ وثاراتٌ لا تكاد تنتهي حتى تفني صاحبها، فكان لابدّ من ملازمة صديقٍ نصوحٍ يكون بمنزلةِ أخٍ لم تلده أمُّك، وما تزال حال المرء بخير ما حسن اختياره للرفاق والأصدقاء، الذين يدلّونه إلى السّبل الصحيحة البعيدة عن الغلوِّ والإفراط.

وقريب من هذا ما نجده في قطعة ينهىٰ فيها عمرو بن يزيد السّعدّي عن البغي وإثارة الفتن، ويضرب له مثلاً لذلك قصّة كليب وائل وجوره علىٰ أبناء قومه، التي أصبحت عبرة تحتذىٰ، ومَثَلاً يردّده في الشّعر كثير من الأقوام، وكلّهم لاموا كليباً بما قد ناله من الأجل وسوء الخاتمة؛ يقول[2]:

أَمَـا رأيْـتَ كُـلَـيـباً يـومَ تِـيْـحَ لهُ ... منْ كفِّ جَسَّاسَ مَطْرُورٌ لهُ شُعَلُ؟!

---

(1) الدّيوان: ق74/ ب1ـ 7.

(2) الدّيوان: ق75/ ب1ـ 3.

نَجَا بِهِ لِكُلاهُ حِينَ ثارَ عَلَىٰ نابِ البَسُوسِ، فَهَذا فِعْلُهُ مَثَلُ
يَحْكِيهِ في الشِّعْرِ أقْوامٌ وكلُّهُمُ لامُوا كُلَيْباً بما قَد نالهُ الأَجَلُ

ومن شعره أيضاً قوله في ركوب الجهل والغيِّ، وعدم سماع صوت العقل، والإصغاء لصوت العصبيَّة التي تفعل فعلها في الإنسان الجهول، فهو يقرِّعُ ابن عمه عمرو بن يزيد السَّعديّ علىٰ عدم سماعه النَّصيحة والإرشاد، ويُوَبِّخُه لركوبه السَّفاه والغَيّ، وإخفائه الغشّ والخِدَاع للحارث السَّعديّ من دون ذنب اقترفه أو جناية ارتكبها، سوىٰ أنّه قدم له نُصْحاً وخُلُقاً حَسَناً؛ يقول[1]:

نَهَيْتُكَ قِدْماً يا بنَ زيدٍ عَنِ الَّتي تَرُدُّ صُدورَ القَومِ دامِيةَ الكَلْمِ
فَأَضْمَرْتَ لي غِشًّا وأَبْدَيْتَ بِغْضَةً بِلا تِرَةٍ كانتْ لَدَيَّ ولا جُرْمِ
فَأَخْفَرْتَني غَيًّا ولم تَرْعَ حُرْمَتي وقالَتْ بنو سَعْدٍ: لَكَ الرَّأسُ بالجِسمِ
فَدُونَكَ فَاجْرَعْهَا ذُعَافاً كأنَّها مِنَ الصَّابِ والذِّيفانِ تُمْزَجُ بالسُّمِّ

وحذا عمرو بن زيد الغالبيّ حَذْوَ الحارث في إرسال النَّصيحة وإزجائها لابن عمّه عمرو بن يزيد السَّعديّ في بداية الفتنة التي أشعلها، بأن يكفَّ عن تلك الحرب الظَّالمة التي أضرم نارها ضدّ الرّبيعة بن سعد بن خولان، محذّراً إيّاه من تقطُّع أواصر القربىٰ وصلات الرّحم بين أبناء العمومة، وهو لا يحب أن يرىٰ نائحةً علىٰ زوجٍ أو أخٍ أو ولدٍ فُقِدَ، ولا سيما أنَّ الحرب قد كشّرت عن نواجذها، ولاح بريقها في الجوّ، وبات وشيكاً وقوعها الذي يهلك الكبيرَ قَبْلَ الصغيرِ، والقويَّ قبل الضَّعيف؛ يقول[2]:

يَا عَمرُو مَهلاً، فَإنَّ البَغيَ مَتْلَفَةٌ تُرْدِي الرَّئِيسَ وتُفْنِي كُلَّ مَا جَمَعَا
لا تَقْطَعَنْ بالمُدَىٰ منَّا أَوَاصِرَنَا مَهلاً، هُدِيْتَ فَخَيْرُ النُّصحِ ما نَفَعَا
لَسْنا نُحِبُّ نَرىٰ فِينَا مُوَلْوِلَةً تَبْكي وتَهْتِفُ إذْمَا إِلْفُهَا نُزِعَا
إنِّي أَرَىٰ الحربَ قدْ أَبْدَتْ نَوَاجِذَهَا فِينَا وأَصْبحَ مِنْهَا ضَوْءُهَا لَمَعَا

نلاحظ في مصادر الحكمة في شعر الخولانيّين أنّها تعود إلىٰ التَّأمّل وسَعَةِ عقل المرءِ، وبعد تفكيره وحسن تقديره، وهي حكمةٌ استُمِدَّتْ من حياة السابقين ـ كما مرَّ معنا عند يعلىٰ بن سعد المالكيّ

(1) الدّيوان: ق77/ ب1ـ4.
(2) الدّيوان: ق81/ ب1ـ4.

وعمرو بن الحارث السّعديّ - فرضتها تجارب تلك الحياة وما سادها من أحداثٍ ووقائع، كان لها أبلغ الأثر في نفوس هؤلاء الرّاشدين، فصاغوها شعراً يردّده من جاء بعدهم من الأمم والأقوام.

فهذا هو حال الحكمة عند شعراء خولان الذين لم يظهر فيهم شاعرٌ حكيمٌ - خلا الحارثَ السَّعديَّ علىٰ قلّة أشعارِهِ - ولا كاهنٌ له رَئِيٌّ من الجنّ تصدُر خولان عن رأيه وقالته كما عند بعض القبائل الأخرىٰ؛ من مثل مَذْحِج التي عُدَّ الأفوه الأوديُّ من حكمائها، وكانت عن رأيه تصدرُ، وداليته التي يقول منها:

مَعَاشِرُ مَـا بَـنَـوا مَـجْـداً لِقَوْمِهِمُ   وَإِنْ بنىٰ غَيرُهُمْ ما أَفْـسَـدُوا عَـادُوا

هي من حكمة العرب وآدابها[1]، ونحوه المأمور الحارثيّ الذي عُرِفَ بالكهانة حتّىٰ قيل: لم يكن في العرب أحدٌ أكْهَنَ منه، بأمره مذحج كانت تتقدّم وتتأخر[2]، ومثل حمير التي برز فيها أبو بكر العرزميّ، شاعر الآداب والنّصائح والأمثال والحكم[3]، فكثر الاستشهاد بشعره والتمثّل بمعانيه.

ومثل كلب بن وبرة التي نهضت بهذا الغرض، ومن بين شعرائها زهير بن جناب الكلبيّ؛ إذ يقول د. شفيق: «ونصادفُ مُعْظَمَ تلك الحكمة عند زهير بن جناب الكلبيّ»[4].

ونلاحظ في شعر الحكمة لديهم نحولاً كبيراً، لعلّه عائدٌ إلىٰ ضياع أشعارهم الذي أضاع كثيراً من المعاني، التي لم يصل إلينا منها سوىٰ قليلٍ لا يؤبه له مقارنة بغيره من أشعار القبائل. ومن المعاني الغائبة في شعرهم: المعاني الدينيّة وما يتعلّق فيها من مسألة القضاء والقدر، والشِّدَّة والرَّخاء في الحياة، ومسألة الموت الذي لا يقف دونه مانع، ومسألة الغنىٰ والفقر، والشّباب والهرم، والجود والبخل، واللِّين وحسن التأتي في طلب الحاجات، وحسن اختيار من يلبّون الطِّلْبَةَ ويحسنون إلىٰ ذوي الحاجة قبل بذل النفس، والتعالي علىٰ سفاسف الأمور وقشورها، والتَّحلِّي بأخلاق الفضيلة، والابتعاد عن السّوء والرذيلة، وغيرها من أبواب الحكمة التي تدخل في حياة المجتمع من كلّ جوانبه، فتتّسع لكلِّ تصرّفٍ يقوم به المرء في حياته.

---

(1) انظر: الأغاني (صادر) 12/ 119، وعنه في شعراء مذحج: 358.
(2) انظر: أمالي القالي 3/ 149، الحيوان 6/ 203، البيان والتبيين 1/ 362، نسب معد واليمن طبعة ناجي حسن 1/ 278، وعنهم في شعراء مذحج 467.
(3) انظر: معجم الشعراء 412، الوافي بالوفيات 2/ 421، الزهرة 3/ 561، مضاهاة أمثال كتاب كليلة ودمنة 25، 43، 55، الأعلام 6/ 258، وعنهم في شعراء حمير (الدّراسة) 147.
(4) ديوان بني كلب (الدّراسة) 404.

ولم يكن نحول هذا الغرض في أشعار خولان خاصّة دون غيرها من القبائل؛ فهذا هو حال الحكمة في الشعر القديم عامّة، فهي ليست «موضوعات مستقلةً في الشّعر الجاهليّ؛ إذ لا نجد فيه قصائد خاصّةً بها، كالذي نجده عند بعض شعراء الزهد في العصر العباسيّ كأبي العتاهية، وإنّما كان من عادة الشّاعر الجاهليّ أن ينثر بعض المعاني التهذيبيّة العامّة في موضوعاته المختلفة»[1]. وإنّما كان الشّاعر ينظم بضعة أبيات في الحكمة أو أنّها أشربت معنىٰ الحكمة، وأُسْقِيَتْ من مائها، فجاءت غير مقصودة لذاتها؛ نتيجة لفعل ما، أو ردٌّ علىٰ حادثة معيّنة؛ كما وصلنا من أشعار بني خولان حينما نثل الحارث السّعديّ حكمته وأرسلها لابن عمّه الظالم الجهول؛ علَّه يكفُّ عن إثارة الفتن وتشبيب نيار الحرب، وإن وقعنا على قصائد خالصةٍ وجوهها لغرض الحكمة، فذلك لأن صاحبها حكيمٌ، وعن رأيه يصدر قومه، ويمتثل أبناء عشيرته؛ كما كان من أمر الأفوه الأودي.

وثمّة أمور لا بدَّ من التنبيه عليها في ختام حديثنا عن الحكمة؛ وهي:

1 ـ خلو أشعار الحكمة ـ فيما اجتمع بين دفتي هذا المجموع لخولان ـ من معاني الشكوىٰ من الدّهر، وهذا حكم رهينٌ بما وُقِفَ عليه وانتهىٰ إلينا من أشعار القوم.

2 ـ لم تثبت المصادر التي جمعنا منها الشّعر ـ ولا سيما الإكليل أو شرح الدّامغة ـ أنّ أحداً من الشّعراء الذين استلّوا معاني الحكمة هو من المعمَّرين الذين ينطقون بالحكمة عادةً، وتسيل علىٰ ألسنتهم كما يسيل الشّعر علىٰ ألسنة الشّعراء الفحول؛ لأنّ تطاول العمر وتراخي الأيّام في حياة الإنسان مصدرٌ مهم لشِعر الحكمة.

3 ـ إنَّ المعاني الواردة في أشعارهم متعاورةٌ بين الشّعراء عامّة، ولو ذهبنا نتتبّع أشعار الحكمة عند غيرهم لوجدناها هي نفسها، ولكن القبائل الأخرىٰ جاءت بأكثر ممّا جاء به شعراء خولان، وقد علّلت هذا بضياع قسمٍ كبيرٍ من أشعار القبيلة التي كان فيها القوَّاد والأقيال، وأهل الخبرة والحنكة والدّهاء والفطنة، وغيرها من الصّفات المولِّدة لشعر الحكمة.

4 ـ إقامة الدّراسة علىٰ هذه الأبيات التي جاءت في الحكمة ـ وهي قليلة جدًّا، وقليلة أيضاً إذا ما قورنت بحكمة القبائل الأخرىٰ ـ حتىٰ صار هذا القليل كثيراً وموضوعاً للدّراسة والعرض؛ إذ أخفت وراءها ما تدلّ عليه من الحكمة ومعانيها العالية عند هؤلاء القوم.

5 ـ لم يكن في ألفاظ الأشعار التي انتهت إلينا جديدٌ؛ فهي من الألفاظ المستعملة في هذا الغرض

---

(1) ديوان أمية 248.

عند غير الخولانيّين؛ من مثل: «مهلاً...، فخير النصح، تفني، رأيت، عميت، لا تترك، الحلم منجي... لا تقطعنَّ، لا تكن...»، إلىٰ غير ذلك من الألفاظ الكثيرة التي يطول ذكرها.

6ـ عدم سيرورة هذه الحكمة والتمثّل بها والاستشهاد بمعانيها، وبقاؤها خبيئةً في الأشعار التي لم تنتشر وتفشو علىٰ ألسنة الرّواة والعلماء، ولعلَّ هذا عائدٌ إلىٰ عدم انتشار أشعار خولان خارج صعدة؛ لعدم زيارة العلماء والرّواة لها، ولو فعلوا لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء[1]، والدليل علىٰ ذلك انتشار أخبار حمير وأشعارها؛ إذ كانت خولان ـ أو بعض بطونها ـ قد سكنت أرضاً لحمير.

ويُخْلَصُ من هذا كلِّه إلىٰ أنَّ الأحكام المبنية علىٰ هذه النتف والأبيات المفردة تظل ناقصة ومبتورة، يعوزها أن تسعىٰ نحو الكمال الذي لا يكون إلّا لله وحدَه، وليس بالإمكان مع تقادم العهد وتغوّل الأيّام لهذه الأشعار وضياعها إلّا ما كان، عسىٰ أن يقف محظوظٌ يوماً علىٰ كشفٍ جديدٍ من أشعار خولان الخبيئة، أو الهاجعة في أحد الأمكنة من العالم، علىٰ رفوف مكتبة أو متحف أو في جامع... إلخ، فيصل إلىٰ أحكام مكتملة واضحة، مبنية علىٰ أشعارٍ أكثر من التي وُقِفَ عليها، وغزارة أخبار تنبئ عن حياة أصحابها من معمَّرين وغيرهم.

وبذلك ينتهي الحديث عن موضوعات أشعار خولان، وثمة مواضع في أشعارهم ـ ولا سيّما الأمويّون منهم ـ تحكي غرض الحنين إلىٰ الأهل والديار والأحبّة[2]، والعتاب ولوم الذات وتقريعها، وهي أبيات لا تكاد تنهض بموضوع مستقلّ للدّراسة والعرض والمقارنة[3].

---

(1) الإكليل: «المخطوط 1/ 60، المطبوع 1/ 275».

(2) انظر: شعر عمرو بن زيد الغالبيّ.

(3) انظر: شعر المسلم بن يغنم المالكيّ، شعر عمرو بن حجر المالكيّ، عمرو بن زيد الغالبيّ، عمرو بن يزيد السّعديّ.

الفصل الرابع

الخصائص الفنية

يحاول هذا المبحثُ الوقوفَ على أبرز الظواهر الفنية للذي اجتمع لدينا من أشعار قبيلة خَوْلَانَ، التي سكنت أرضاً شاسعةً تمتد من جنوب شرقي صنعاء وغربها إلى شمال صعدة من الصقع اليماني، الذي حكمته حمير نحو ستّة قرون ونصف القرن (115 ق.م ـ 525م) فبسطت نفوذها على جُلِّه، وصار معظم بلدان هذا الصقع ومن حكمها من أقيال وملوك ينتسبون إلى دولة حمير العظيمة، هذا فضلاً عن دخول عددٍ من بطون خَوْلَان في حمير، واختلاطها فيها، وانتسابها إلى أرومتها؛ وذلك ما جعلها عرضةً للتأثر بالحميريّة ولسانها الذي قال عنه أبو عمرو بن العلاء في القرن الثاني الهجري ـ فيما رواه عنه ابن سلام ـ: «ما لسانُ حِمْيَرَ وأقاصي اليمن اليومَ بلساننا، ولا عربيّتهم بعربيّتنا»[1].

إنّ ترامي خولان على أرضٍ شاسعةٍ ومتراميةٍ ـ ولا سيما أقاصي اليمن ـ وتداخلها بأرض حمير إلى حدِّ الاندماج والانصهار، جعلها متضمَّنةً في مقالة أبي عمرو بن العلاء السّالفة؛ إذْ لم يكن هناك قبيلة أكثر تداخلاً أو اندماجاً بحِمْيَرَ من خولانَ التي انضوت تحت لواء حمير ردحاً من الزمن، واحتبت بظلِّها على الرَّغم من قدمها الذي يعود إلى ما قبل نشوء حمير بوصفها دولةً عظيمةً[2].

لذا سيُلتفت إلى ألفاظ أشعارهم ومعانيها؛ لنعلم أفيها ما يثبت قالة أبي عمرٍو فيما ذهب إليه من بُعْد هذه اللغة وغرابتها، أم يُثبت قربها من لغة الشعر القديم المعروفة.

وسيكسر هذا المبحث على قسمين؛ أوّلهما: الخصائص المعنويّة المرتبطة بوضوح المعاني وغموضها، والصور البيانيّة التي تُبيِّنُ المعنى وتوضِّحُهُ، وتكشف عن خفاياه من تشبيه واستعارة وكناية، ثمَّ المحسّنات المعنويّة وما لها من دورٍ في كشف المعاني وجلائها؛ وتقديمها للقارئ بحلَّة قشيبة. ثُمَّ يتلوه الحديث عن مصادر معاني أشعارهم المختلفة التي استلهموها من البيئة المحيطة بهم، ومن كلِّ ما وقعت عليه عيونهم من مظاهرَ حضريَّة أو بدويّة أو تقاليدَ أو أعرافٍ... ومن الشِّعر الجاهليّ نفسه، ومن الذي أخذوه عن غيرهم من أمثالٍ وحكمٍ وعبر ووقائعَ أفادوا منها، فضلاً عمَّا استجدّ من أفكارٍ ومعانٍ وتعاليمَ أفاد منها شعراء الإسلام من القرآن الكريم.

وثانيهما: الخصائص اللّفظيّة المتعلّقة بمنهج بناء القصيدة وما إليها، وموسيقا الشّعر الخارجيّة والداخليّة، ثُمَّ يتلوه الحديث عن الظواهر اللّغويّة والنّحويّة والعروضيّة، ما أمكن إليها سبيلٌ.

---

(1) طبقات فحول الشعراء 1/ 11، وعنه في المزهر 1/ 174، وعنهما بتصـرّف مخلٍّ في الشّعر الجاهلّي (لطه حسين) 25.
(2) المفصّل 2/ 400، وفيه: خولان تعود إلى الألف الأولى قبل الميلاد؛ وهذا يعني أنّها أقدم من حمير.

1 ـ الخصائص المعنويّة:

لا تكاد تقع العين فيما انتهى إلينا من أشعار خَوْلان على غير الوضوح في المعنى وسهولة التناول، والبساطة البعيدة عن التّعقيد والتكلّف، والإغراب والحوشي. وهذه السِّمات عامّة تنسحب على أشعار القبائل العربيّة في الجاهليّة وصدر الإسلام وعهد بني أميّة، لا تختلف فيها قبيلة عن أخرى إلّا بقدر ما يختلف أحد شعراء هذه القبيلة عن أقرانه فيها، وقد عزا الدكتور شوقي ضيف ذلك إلى أنّ الشّاعر العربيّ «لم يكن يفرض إرادته الفنيّة على الأحاسيس والأشياء، بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أميناً، يُبْقي فيه على صورها الحقيقيَّة دون أن يُدْخِل عليها تعديلاً... وكان شعره وثيقةً دقيقةً لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته»[1].

غير أنَّ أشعار خَوْلان لم تكن خِلْواً من بعض المعاني العصيَّة على الفهم؛ لغرابة ألفاظها وصعوبتها، أو لضياعِ أبياتٍ ذات وشائجَ قويّةٍ بمبنى ما بقي منها تارةً، وبمعناه تارةً أخرى، أو لتقادم العَهْدِ، وعِظَم الشُّقَّة، وهي سافرةٌ لا غرابةَ فيها، تنجلي هذه الغرابةُ بتطلابِ معاني الألفاظ في معجماتِ اللُّغة، ولا بدَّ للباحث في الشِّعر القديم أنْ يواجهَ عِثَاراً في تناول الشِّعر وغرابة في ألفاظه؛ فهو ابن بيئةٍ يفصلنا عنها نحو قرنٍ ونصفٍ على أقلِّ تقدير.

وثمّة أمران لا محالة ههنا من التنبيه عليهما؛ يتجسّدان في:

خُلُوّ أشعارِ خَوْلَان من أيّ إشارة إلى حياة القبيلة الاجتماعيَّة منها والدِّينيَّة أو الاقتصاديَّة، أو فيما يخصّ اللَّهجات، خلا أمراً واحداً أشار إليه غيرُ شاعرٍ؛ وهو إقامتهم في قصورٍ شَاهقةٍ ومحافدَ عظيمةٍ دوّى صيتها بعيداً في أشعار الشّعراء.

غيابُ أيِّ إلماعٍ إلى ظاهرةٍ لغويّةٍ يمكن للقبيلة أو أحد بطونها أن يتفرَّدَ بها؛ ولا سيَّما أنَّ بعض بطون خَوْلان اختلطت بحِمْير واندمجت فيها، بل إنَّ جلَّ معاني النّصوصِ التي صارت إلينا كانت واضحةً، بسيطةً سهلةً، حذت خولان فيها حذو غيرها من القبائل العربيّة من غير جدَّةٍ يؤبه لها؛ كقول عمرو بن زيد الخولانيّ ـ مغرق الأكبر ـ[2]:

إِذا مَـا الـمَـرْءُ أَسْـرَعَ فـي هَـوَاهُ ... فَـدَعْـهُ ورَأْيَـهُ فِـيْـمَـا يُـرِيْـدُ

(1) العصر الجاهلّي 219.
(2) الدّيوان ق2/ ب1 ـ 2.

فَـإِنْ نَـازَعْـتَـهُ رَسَـنـاً لأَمْـرٍ ... فَـأَنْـتَ لَـهُ عَـدُوٌّ، أو حَـسُـودُ

ومثل هذا قول عمرٍو السَّعديِّ[1]:

يَقُولُ عَمْرٌو لَنَا والخَيْلُ مُشْرَعَةٌ ... تَحْتَ الكُمَاةِ وَقَدْ جَالَتْ عَوَادِيْهَا:

مَهْلاً لَكَ الخَيْرُ لا تَفْعَلْ، فَقُلْتُ لَهُ: ... أَقْصِرْ، فإنَّ مُمِيْتَ النَّفْسِ مُحْيِيْهَا

هَمَزْتُ مُهْرِي بِرِجْلِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: ... اِذْهَبْ، إِلَيْكَ، فَقَدْ سَارَتْ بِمَا فِيْهَا

أَكْرَهْتُهُ، فَمَضَى في جَوْفِ غَمْرَتِهِمْ ... وَالرُّمْحُ يَأْخُذُ صِيْداً ثُمَّ يُرْدِيْهَا

إنَّ مثل هذين النَّصين في سهولة ألفاظهما ووضوح معانيهما كثيرٌ في شعر خولان، وإنْ أحوجَ المرءَ بعضُهَا إلى البحث في المعجمات؛ لجلاء غرابة بعض المعاني، وكشف غُمَّة بعض الألفاظ التي تبدو عصيّة ـ أوّل وَهْلَةٍ ـ على الفهم الذي يحار في بعض النصوص؛ بسبب ما قد نالها من داءي التّصحيف والتّحريف؛ كقول عمرو بن زيد الخولانيّ ـ مغرق الأكبر ـ[2]:

وَحِمْيَرٌ قَوْمُنَا سَارَتْ مَقَاوِلُهَا ... وَمَذْحِجُ الغُرُّ سَارَتْ في تَعَابِيْهَا

والحَيُّ من صِيْدِ هَمْدَانٍ لها شَنَفٌ ... يَفْرِي الفَرِيَّ ويُقْمِيْ مَنْ يُنَاوِيْهَا

ومِنْ قُضَاعَةَ حَيًّا بَأْسِهَا نزلا ... نَهْدٌ وجَرْمٌ، وخَوْلانٌ تُواتِيْهَا

وسَارَ بَعْضٌ إلى بَعْضٍ بِرايَتِهِ ... وَقُدِّمَتْ لِعَوَادِيْنَا عَوَالِيْهَا

حَتَّى التَقَيْنَا بِأَكْنَافِ المَسِيْلِ وَقَدْ ... أَبْدَى لعَمْرُكَ مَا فِي النَّفْسِ مُخْفِيْهَا

كنَّا عَبِيَّ بَنِي شَيْبَانَ إذْ طَلَعُوْا ... فِيْهَا، بُجَيْرٌ أَخُو الغَارَاتِ يَهْدِيْهَا

ثم يقول بعد ذلك:

شُنَّتْ قِسِيٌّ مِنَ الشَّرْيَانِ مُشْطَبَةٌ ... مِنْ كُلِّ زَوْرَا، أَتِيِّ الذَّرْوِ بَارِيْهَا

ثُمَّ اسْتَخَفَّتْ بَنو شَيْبَانَ مَا لَبِثَتْ ... كالخُشْبِ مَالَ عَلَيْهَا سَيْلُ وَادِيْهَا

---

(1) الدّيوان ق88/ 1 ـ 4.

(2) الدّيوان ق6/ ب4 ـ 9، 11 ـ 13.

وَفَــازَ جَـمْـعُ كُلَيْبٍ عِـنْـدَ صَوْلَتِهِ ... في حِمْيَرَ الشُّمِّ إِذْ زَالَـتْ رَوَاسِيْهَا

فهذه الأبياتُ لا غرابةَ في ألفاظها ولا في معانيها، وإنْ تناول التَّصحيف بعضاً منها؛ مثل: تعاييها، يناويها، لعوادنيا، عَبِيًّ، يهديها، مشطبة، الذِّرو، استخفَّتْ، رَوَاسِيها؛ إذ وردت هذه الألفاظ مصحَّفة في مصدرها: تعانيها، يناديها، لعواديها، عَبَى، نهديها، مشطرة، بالذرو، استحقَّت، نواصيها. وبنظرة متأنِّية في أحد معجمات اللُّغة تُزَال العِلَّة وتَنْكَشِفُ الغُمَّةُ، ثمَّ ليس من بُدٍّ من معرفة معنى صِيد: وهو بطنٌ كبيرٌ من همدان، والشَّنفُ: النظر بمؤخرة العين، ويقمي: يُذِلُّ، وأكناف: نواحي، وشنَّت: صَبَّت، والخُشْبِ: الغليظ الخشن من الخَشَبَ نفسه من جذوع الشجر، أتى عليها سيل الوادي فجرفها.

ومنه أيضاً قول المقدام بن زيد الحَيْوانيّ[1]:

فَـنَـحْـنُ بَـنُـوهَـا مِـنْ أَعَــزِّ نَـبِـيْـتَـةٍ ... وَأَخْـوَالُـنَـا مِـنْ خَيْرِ عُـودٍ ومِـنْ رَنْـدِ

جاءت (نبيتة، لبابة) مصحَّفَةً في المطبوع وفق قراءة المحقّق ـ طَيَّب الله ثراه ـ و(رند، زند) مُصَحَّفة أيضاً، إلا أن نظرةً يسيرةً في جوِّ الكلمة تهدي إلى المرام والمراد.

وإذا كانت أشعار خَوْلان غيرَ خاليةٍ من غريب اللَّفظ، فإنّه لم يكن بالكثيف الذي يُعْيي الباحثَ، وهنا يجدر بنا التَّنبيه على أمرٍ؛ يتجسّد في عدم اشتهارِ أحد شعراء هذا المجموع من خولان بالغريب الذي عرفت به مجموعةٌ من الشّعراء؛ أمثال ابن مقبلٍ، وابن أحمرَ، وحُمَيْد بن ثورِ الهلاليّ، والرَّاعي النُّميري، ومزاحم العُقَيْليّ، والعجاج، ورؤبة[2]، كقول عمرو بن يزيدٍ العوقيّ[3]:

وَكِـنْـدَةُ أَحْـلافٌ لِـحُجْرٍ وَقَبْلَهَا ... تَمَكَّنَ في فَـرْعَـيْ قُضَاعَةَ مَنْصِبُهْ

نَمَتْهُ إِلـى العَلْيَا يَـدٌ مِـنْ قُضَاعَةٍ ... وَعِـرْقٌ إلى خَيْرِ الـمَغَارِسِ يَجْذِبُهْ

وَحَالَفَهُ الـسَّـادَاتُ مِـنْ حَـيٍّ مُغْرِقٍ ... فَــدَانَ لَــهُ شَـــرْقُ الـبِـلَادِ وَمَـغْـرِبُـهْ

شِعَارُهُمُ في الـحَـرْبِ دَعْــوَةُ كِنْدَةٍ ... إِذَا حَـانَ مِـنَ وِرْدِ الـمَنِيَّةِ مَشْرَبُهْ

(1) انظر: الدّيوان ق12/ ب5.

(2) انظر: المصون في الأدب 169، والعجّاج: حياته ورجزه: 406، وعنها في ديوان بني كلب (الدّراسة) 412، ونحو هذا في الصّورة في شعر تميم بن أُبيِّ بن مقبل 14، وديوان حميد بن ثور الهلاليّ 200، وشعر عمرو بن أحمر الباهليّ 32.

(3) الدّيوان ق32/ ب1ـ5.

وَلُبْسُهُمُ بَعْدَ المَطَارِفِ لِلْوَغَى إِذَا ثَوَّبَ الدَّاعِي مِنَ السَّرْدِ أَشْهَبُهْ[1]

ليس في هذه الأبياتِ غرابةٌ إذا علم الباحث أن ما ذكره أسماءُ قبائلَ وملوكٍ.

في حين تبدو بعض النصوص صعبةَ المنال؛ لما فيها من ألفاظٍ غريبةٍ تقاسمت أبيات النّصّ، إلّا أنّ غرابتها لا تصل إلى حَدِّ الغموض والإبهام، بل تُضْنِي الباحث قليلاً؛ كقول عمرو بن يزيد العوقيّ[2]:

إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا، جِنٌّ إذا غَضِبُوا تَحْتَ العَجَاجَةِ في أَيْمَانِهِمْ شُعَلُ

سِرْنَا إلى حِصْنِ مُرٍّ حِينَ لَاذَ بِهِ فَلَمْ يَكَدْ عَنْ ظُبَا أَسْيَافِنَا يَئِلُ[3]

وقد تَرَكْنَا نَوَالاً لا حَوِيلَ لَهُ كأَنَّهُ الجِذْعُ، جِذْعُ النَّخْلَةِ القَطِلُ[4]

لمَّا أَبَى حُكْمَ مَوْلَاهُ دَلَفْتُ لَهُ مِنِّي بِأَسْمَرَ أَلْوِيهِ فَيَنْفَتِلُ[5]

حَتَّى اجْلَعَبَّ عَلَى الخَدَّيْنِ مُنْعَفِراً وفَوْقَ حَيْزُوْمِهِ غَرَّافَةٌ نَهِلُ[6]

مِنْ كَفِّ أَصْيَدَ لا يَخْشَى عَوَاذِلَهُ وَلَيْسَ يَدْخُلُ فِيْهِ اللَّوْمُ والعَذَلُ[7]

يصف عمرو شجاعة قومه يوم قتل مرّ بن عامر الحميري، ونوال بن عتيك غلام سيف بن ذي يزن الحميريّ، اللذين أرسلهما سيف لنصرة خولان على قبائل قَيْس عَيْلَان، إلّا أنّهما خانا عهدهما، وكانت نهايتهما كما وصف الشّاعر سالفاً.

وكقول علقمة الخولانيّ في داليَّتِهِ اليتيمة مخاطباً سيف بن ذي يزن الحميريّ، الذي أمَّل منه النصرة والعون على هَوَازِنَ وسُلَيْم[8]:

---

(1) المطارف: واحدها (مطرف)؛ وهو رداءٌ من خزٍّ، مُرَبَّعٌ. الوغى: الحرب. ثوَّب: عاد بصوته مرَّة بعد أخرى. السّرو: اسم للدرع. أشهبه: قيل: الشُّهْبَةُ والشَّهَبُ: لون بَيَاضٍ يصدعُه سوادٌ في خلاله.

(2) الديوان ق48/ 3ـ8.

(3) ظبا: ج ظُبَة؛ وهي حَدُّ السَّيف والسِّنانِ والنَّصْلِ. يئل: يَلْجَأُ.

(4) القطل: المقطوع. حَوِيْل: قدرة وطاقة.

(5) دلفت: مشيت مشياً فوق الدبيب.

(6) اجْلَعَبَّ: تمرغ وجهه بالتراب أو الوحل.

(7) الأصيد: المختال في مشيه كِبْراً.

(8) الديوان ق1/ 38ـ44.

أبا المُنْذِرِ الفَيَّاضَ يَا خَيْرَ حِمْيَرٍ ... وخَيرَ بَنِي ذُهْلٍ، إلَيْكَ نُرِيْدُ(1)

نُرِيْدُ نَوَالاً مِنْ سِجَالٍ غَزِيْرَةٍ ... فَأَنْتَ لَهَا في النَّائِبَاتِ مُفِيْدُ(2)

شَوَازِبُ قَدْ تَطْوِي نَقِيْلاً وسَبْسَباً ... ورَوْحاً بِلَيْلٍ قُرُّهُنَّ شَدِيْدُ(3)

وقَطَّعْنَ تِيْهَ الأَرْضِ مِنْ دِفْتَيْ دَفَا ... إلَيْكَ وقَدْ تُعْطِي المُنَى وتَزِيْدُ(4)

صَرَفْنَ إلَيْكَ القَوْمَ تَدْمَى كُلُوْمُهُمْ ... لِيُدْمَلَ قَرْحٌ مِنْهُمُ ولُهُوْدُ(5)

ويَرْتَاشَ قِدْحٌ مِنْهُمُ ذُوْ تَمَرُّطٍ ... ويَفْتَاقَ يَوماً مِنْكَ وهْوَ سَدِيْدُ(6)

ونَصْدُرَ مِنْكَ بالتي تَتْرُكُ العِدَا ... عَبَادِيْدَ مِنْهُمْ خَائِفٌ وشَرِيْدُ(7)

وليس من بُدٍّ لقارئ هذه الأشعار - حتى لو كان ممّن له دربةٌ ومراسٌ في مقارعة الشِّعر القديم - إلّا أن يُقَلِّب في معجمات اللّغة غيرَ مرة؛ ليتبيَّن له غموضُ بعض معاني المفردات؛ كـ (سِجَال، مُفِيد، شَوَازِب، نَقِيْل، سَبْسَب، روح، قُرُّهُنَّ، دفتي، دفا، لهود، تَمَرُّط، يفتاق، عباديد)، ونحو ذلك فيما بقي من النّصّ مشتملاً على وصفِ حالِ القومِ الذي امتزج بمدح الملك الحميريّ.

وليستِ الغرابة وحدَهَا ما يقف حاجزاً منيعاً أمام فهم المعنى، بل إنَّ ارتصاف مبنى الألفاظِ بعضها إلى جانب بعض يكون عائقاً لفهم المراد؛ كقول عمرة الحيوانية مفاخرة بأبناء قومها(8):

أُسْدٌ ضَرَاغِمَةٌ بِيْضٌ غَطَارِفَةٌ ... غُلْبٌ جَحَاجِحَةٌ هِيْسٌ إذا اتَّصَلوا(9)

---

(1) ذُهْل: هو ذو يزن الأكبر، جدُّ سيف بن ذي يزن الحميري.

(2) السِّجَالُ: الدَّلو الضخمة المملوءة ماءً. النائبات: جمع نائبة؛ وهي المصيبة والنازلة.

(3) الشَّوازب: الضوامر من الأفراس. النقيل: الطريق أو الأرض، وقيل: مسيلًا للماء. السبسب: المغارة والقفر، وقيل: الأرض المستوية البعيدة، ليس فيها ماء ولا أنيس. قُرُّهن: من القرِّ؛ وهو البرد عامة، وقال بعضهم: البرد في الشتاء.

(4) دفا: اسم موضع من شمالي بلد خولان، وهي لبني صحار بن خولان.

(5) لهود: داء يصيب الناس في أرجلهم وأفخاذهم.

(6) يرتاش: يرَكّب على السهم ريشٌ. تمرط: نتفٌ للريش أو الشعر عن الجسد. يفتاق: الأصل فيه (فوق)؛ وهو من السهم موضع الوتر، وقيل: هو مَشَقُّ رأس السهم حيث يقع الوتر؛ أي: لا يخطئ الهدف.

(7) عبابيد: متفرقين.

(8) الدّيوان ق102/ ب5.

(9) غطارفة: واحدها (غطريف)؛ وهو السَّيِّد الشريف السَّخيُّ. جحاجحة: واحدها (جحجاح)؛ وهو السيد السمح الكريم. هِيْسٌ: جمع (أهيس)؛ وهو الشجاع المقدام الذي يدقُّ كلَّ شيءٍ.

وربما كان احتمالُ بعضِ ألفاظِ البيتِ الغريبةِ لأكثر من معنًى سبباً في شيءٍ من الغموض والتباين في تفسيره؛ مثل قول عمرة الحيوانيّة السالف؛ فـ (غُلْبٌ) تحتمل معنى: القهر والغلبة، ومعنى: الغلظة في الرقبة، وهو معنى يُوَصف به الملوك.

ومثل هذا ما نجده في قول مالك بن قطينة العوفيّ، حينما وصف فرقة أهله وأبناء عمومته بني عوف وبني مالك[1]:

تَـرَحَّـلَ عَـمْـرٌو عَـنْ قَـطَـائِـعِ قَـوْمِـهِ فَحَالَفَ مَـوْجَ البَحْرِ عَنْزَ بنَ وَائِـلِ

فَذُهِب إلى أنّ القطائع: هي الصَّدُّ والهجران الصادر من أهله وذويه، ويحتمل أن تكون القطائع بمعنى الأرض والسهول، وما يمكن أن يجعله السلطان لأحد من القوم.

وثمةَ غموضٌ يلفُّ بعض الأبيات؛ لضياع أبيات سابقة عليها، تتعلّق بها الأبيات التي انتهت إلينا؛ كقول عوف الخولانيّ في مقطّعة يفخر فيها بقومه بني حيّ بن خولان[2]:

أَقَـرَّتْ لَهُمْ خَـوْلَانُ قِدْماً بِفَضْلِهِمْ وَلُبْسُهُمُ فِي الـرَّوْعِ نَسْجٌ مُضَاعَفُ[3]

فَـهُـنَّ لَـنَـا دُوْنَ الـبَـنِـيْـنَ وِرَاثَــةٌ ومَـا كَـانَ فِيْهِمْ لِلْهُمَامِ مُخَالِفُ

وِرَاثَــةُ خَــوْلَانَ بـنِ عَـمْـرٍو فَنِخْ لَهَا حَبَانَا بِهَا القَرْمُ الشَّرِيْفُ المُسَاعِفُ[4]

إذا كان الشّاعر يفخر بقومه الذين أقرّت لهم خولان جميعها بمعروفهم وفضلهم، وهم مَنْ هم مكانةً ورفعةً، فعلى مَنْ يعود ضمير (هُنَّ) وهو لجمع المؤنّث؟ ولا سيَّما مع ما جاء في سياق البيت من معنى أنهم ورَثَةٌ لبني حيٍّ من دون البنين، واتكاءً على هذا يكون الضّمير عائداً على أبياتٍ سابقةٍ على ما انتهى إلينا من المقطَّعة، فيها تفسيرٌ جليٌّ للضّمير وما يرمي إليه من معنى.

ونحو هذا ما نجده في البيت الثاني من مقطّعة يتيمة لعمرو بن عوف الحيوانيّ، يذكر فيها الحرب التي دارت على قبيلة همدان، وكان بنو حيّ بن خولان من أشعل فتيلها[5]:

---

(1) الدّيوان ق92/ ب1.

(2) الدّيوان ق9/ ب1 ـ 3.

(3) مضاعف: ما كرر لحاجة معينة، وأراد دروعهم المنسوجة نسجاً مضاعفاً.

(4) فنخ: من النَّخ والإناخة: وهو الإبراك، وأراد طأطأة الرأس وخفضه للذلّة والمهانة.

(5) الدّيوان ق25/ ب1 ـ 3.

إنْ يَقْتُلُونَا فَإِنَّا سَوفَ نَقْتُلُهُمْ ... أو يَقْبَلُوا الحَقَّ، نُعْطِ الحَقَّ إنْ قَبِلُوا

يَا ابْنَيْ قُضَاعَةَ إنَّ الرَّأْيَ مُشْتَرَكٌ ... فَإِنْ زَلَلْتُ فَمَا في رأيِكُمْ زَلَلُ

سِيْرُوا طَرِيْقاً، أَكُنْ مِلْآنَ صَاحِبَكُمْ ... ولا خِلَافَ لكُمْ عِنْدِيْ وَلَا مَيَلُ[1]

فإنَّ في البيت الثاني منادًى مضافاً، والمضاف إليه قضاعة، ولا ندري مَنْ هما ابنا قضاعة، وهذا يدلّ على أنهما ذكرا في أبيات سابقة على الأبيات التي صارت إلينا، وهو ما يكسب البيت الثاني شيئاً من الغموض.

وقول عمرو بن يزيد العوفيّ يفخر بقتله لمالك الصَّدفيّ، في أثناء وقوفه إلى جانب سيف بن ذي يزن في حرب الأشباء والصَّدف[2]:

أَغْشَى الكُمَاةَ إِذَا تَراجَعَ لَحْظُهَا ... لا طَائِشاً فَرِقاً وَلَا رِعْدِيْدَا[3]

وَلَقَدْ جَلَسْتُ مَجَالِساً مَحْمُودَةً ... وَحَزَزْتُ مِنْ حَلْقِ المَلِيْكِ وَرِيْدَا[4]

وقَتَلْتُ ذَا التَّاجِ المُهَذَّبَ مَالِكاً ... وَلَكَمْ أَفَتُّ مُهَذَّباً صِنْدِيْدَا[5]

مَا قُلْتُ إِلَّا الحَقَّ قَوْلاً فَاعْلَمِيْ ... أُبْدِيْ بِذَاكَ بَرَاهِناً وَشُهُوْدَا[6]

نلاحظ أنّ شيئاً من الغموض قد لفَّ البيت الرّابع؛ لعودة ياء المؤنّثة المخاطبة على مجهولٍ لا ندري من هو؛ بسبب ضياع أبياتٍ سابقةٍ على التي صارت إلينا، ولو وصلت لتبيَّن معنى (اعلمي) وعلى من تعود الياء وترتبط به.

ولعلّ في مجيءِ بعضِ الأبياتِ يتيمةً ما يكسبها شيئاً من الغموض، على الرغم من سهولةِ ألفاظها ووضوح معانيها؛ كقول مالك بن قطينة العوفي[7]:

---

(1) مِلآن: الأصل فيها (من الآن)، حذفت النون لإقامة الوزن.
(2) الدّيوان ق39/ ب1ـ4.
(3) أغشى: أضرب وأقتل الخصوم. تراجع لحظها: تكرر رَجْعُهُ من جِهَةٍ إلى جِهَةٍ من الحَيْرَةِ والخوف. الفَرِق: الخوف والفزع. الرعديد: الجبان المضطرب.
(4) مجالساً: صرفت لإقامة الوزن والضرورة الشعرية.
(5) أفتّ: صرفته عن الوجود.
(6) براهن: جمع (برهان)؛ وهو الحُجَّةُ البَيِّنَةُ، وقد صرفه للضرورة وإقامة الوزن.
(7) الدّيوان ق93/ ب1.

أَرَى غُـدْوَةً حَتَّى تَرَحَّلَتِ الضُّحَى ... وَدَارَ أُوَارُ الشَّمْسِ فَـوْقَ الجَماجِمِ

فليس في وسع المرء أن يقف على المعنى الدقيق للبيت؛ ولا سيّما الشّطر الأوّل منه.

وثمّة غريبٌ مُتوهَّمٌ في نصوصٍ غيرِ قليلةٍ في أشعار خولان، عائدٌ إلى كثرة أسماء الأعلام والمواضع في تلك النّصوص، وليس هذا بالـمُسْتحدث في أشعار القوم، بل هو كثيرٌ في أشعار العرب قاطبةً، إلّا أنّ ما ورد في أشعار خولان من أسماء، كان قليلَ الدوران على الألسنة مقارنةً بغيره؛ لكونه ـ غالباً ـ أسماء أعلام ومواضع يمانية لم تنل حظّها من الشهرة كغيرها من الأسماء التي كانت سائرةً على ألسنة العامة قبل الخاصّة؛ كقول عمرو بن الحارث الحيوانيّ ـ وهو جاهليّ ـ يذكر زوال الملوك والأقيال حينما عصف بهم الزمان وأناخ بكلكه عليهم[1]:

بَـرَكَ الزَّمَانُ عَلَى ابْـنِ هَاتِكِ عَرْشِهِ ... وَعَـلـى أُذَيْـنَـةَ غُـدْوَةً وَرَوَاحَـا

وأَزَالَ عِـزَّ مُـلُـوكِ نَـاعِـطَ صَـرْفُهُ ... لَـمَّا سُقُوا كَـأْسَ الـمَنُوْنِ ذُبَاحَا

ونحو ذلك قول يعلى بن سعد المالكيّ ـ وهو مخضرم ـ يذكر حدث خروج بني حيّ بن خولان إلى مصر، مستشهداً بزوال سلطان الملوك والأقيال[2]:

وابْـنَـا أُذَيْـنَـةَ قَـدْ رُمِـي بِـنَـوَافِـذٍ ... كَانُوا الـمُلُوكَ وعِبْرَةَ الـمُتَفَكِّرِ[3]

وَلَـقَـدْ أَزَالَ مُـلُـوكَ نَـاعِـطَ صَـرْفُهُ ... وَرَدَى ابنَ زُرْعَـةَ واسْتَحَالَ بِشَمَّرِ[4]

وثَـنَى ابـنَ ذِيْ يَـزَنٍ فَثَلَّلَ عَـرْشَـهُ ... قَيْلُ الـمَقَاوِلِ واللُّبَابِ الأَنْضَـرِ

ونحو ذلك في قول الحارث السّعديّ ـ وهو أمويّ ـ يلوم أبناء عمومته على قتلهم الملوك[5]:

فَـأَجْـلَـوا مُـغْـرِقـاً وَبَـنِـيْ شِـهَـابٍ ... وَحَـلُّـوا في الـسُّـهُـولِ وفـي النِّجَادِ

وَنَـحَّـوا الـخَـنْـفَـرَيْـنِ وآلَ عَـوفٍ ... بِـقُـصْـوَى طَـوْطٍ أو بِـرْكِ الغِمَادِ

---

(1) الدّيوان ق22/ ب1ـ2.

(2) الدّيوان ق53/ ب7ـ9.

(3) النوافذ: بما خالط جوفه من سهمٍ أو سنان رمحٍ؛ لأنَّ النفاذ: مخالطة السَّهم جوف الرَّمية، وخروج طرفه من الشِّقِّ الآخر وسائره فيه. انظر: التاج (نفذ).

(4) استحال: تحول واعوجَّ بعد استواء، وأراد زوال الملك واندثاره بعد استوائه.

(5) الدّيوان ق71/ ب7ـ8.

ليس للباحث من مناصٍ ههنا إلَّا أن يستشير كتب الأنساب، ويضرب في بطونها غير مرّة؛ حتى تَنْفِرَ عن وجهها بعض هذه الأسماء التي تشبه الطِّلَّسمات - وهي تعثر أشدَّ العثرة - في أعين الدّارسين اليوم، وكيف لا يكون ذلك وقد يفصلنا عنها دهر دهيرٌ، لم يبق من صلب هؤلاء الملوك إلا من تثقل عليه أسماؤهم، ولا يستقيم له ضبطها أو تكوينها؛ فـ (شَمَّرُ) هو ابن الهَمَيْسَع بن حمير، في حين أنّ (شَمْرَ) من خولان قضاعة، وهو شَمْر بن باقر الخولاني، ومنها أيضاً (شَمِرَان)، أما (شِمْر) فكثير في العرب، وأما الخَنْفَرَيْن فهما محمد ورفاعة ولدا أبان الخنفريّ الحميريّ، ولعلّ طالب هذه الأسماء في كتب الأنساب العامّة إنّما يطلب شيئاً عزيزاً؛ لأنّها مقيدةٌ في مصنّفات الهمدانيّ التي أنهبها دهراً من حياته، ثمّ تناهبتها أيادي الضّياع، ولم يصل إلينا منها إلا قليلٌ اعتمدناه في هذا البحث أصلاً.

ونحو هذا ما نجده في أشعارهم من غرابةٍ في أسماء البلدان والمواضع - على غير أهلها - التي بدت أشدّ غرابةً؛ لقلّة دورانها على الألسنة، شأنها في ذلك شأن أسماء الملوك والأقيال؛ كقول علقمة الخولانيّ الذي وصف البلاد التي سلكها من بلده إلى صعدة، ثُمَّ إلى صنعاء؛ لطلب العون والنصرة من الملك الحميريّ سيف بن ذي يزن على قبائل هَوَازِنَ وسُلَيْم[1]:

فَلَمَّا بَطَنَّا السَّهْلَ مِنْ تَحْتِ بَهْتَرٍ ... وَأَسْفَرَ مِنْ ضَوْءِ الصَّبَاحِ عَمُودُ

سَلَكْنا بِهِنَّ السَّهْلَ سَهْلَ سُحَامَةٍ ... لها ذَمَلٌ مِنْ تَحْتِنَا وَسَمِيْدُ

تَرَامَى بِنَا مِثْلَ السَّعَالِي فَجَافِجٌ ... وذُو خَفْقَةٍ فَوْقَ القُتُوْدِ يَمِيْدُ

طَوَيْنَ جَمِيْلَ الخَافِقَيْنِ بِسُحْرَةٍ ... وَمَرَّتْ بِمَاءِ الحَبْطِ، وَهْيَ تَهُوْدُ

وَقَدْ وَدَّعَتْ هَضْبَي ثَقِيْفٍ مَعَ العَمَى ... بِأَوْسَطِ لَيْلٍ، وَالْعِبَادُ هُجُوْدُ

تَعَدَّتْ على مَاءِ العُمَيْشِ وقَدْ بَدَا ... مِنَ الظِّلِّ مَيَّاحُ الجَنَاحِ رَكُوْدُ

وقوله:

تَرَامتْ بِبُوْبَانٍ بِأَوَّلِ لَيْلِهَا ... ومَاءِ أُثَافٍ والعُرَيْبُ رُقُوْدُ

فَصَبَّحْنَ ذَا قَيْنٍ وكَبَّرَ وَفْدُنَا ... وَقَدْ قَابَلَتْنَا أَنْجُمٌ وسُعُوْدُ

فما (بهتر، وسهل سحامة، وماء الحبط، وهضبا ثقيف، وماء العميش، وماء أثاف، وبوبان، وذو

---

(1) الدّيوان ق1/ ب11 - 16، 22 - 23.

قين) إلا أسماء مواضع، يعرفها أصحابها معرفة العرب عامّة (ببرقة ثَهْمَد، وحومانة الدَّرّاج، والـمُتَثَلَّم، والرَّقْمَتَيْنِ، ومدافع الرَّيَّان، ومنىً، والجِوَاء) في رؤوس معلَّقات طرفة وزهير ولبيد وعنترة، غير أنَّ شهرة هذه المعلَّقات وأصحابها، وكثرة دورانها على ألسنة العامّة والخاصّة، أسقطتا غرابة ما اشتملتْ عليه من أسماء، في حين زاد بُعْدُ شعرِ علقمةَ عن أيدي العلماء وما حواه من أسماء وَحْشَةً وغرابةً اعتاصت على الباحثين، علاوة على تقييدها في مصنّفاتٍ خاصّة؛ وهذا ما زاد في غمورها وضعفها.
ومثل هذا ما نجده في قول الحارث السَّعديّ[1]:

وَدَارٍ بِـقَـيْـوَانٍ لـنَـا كَـانَ عِـزُّهَـا ... تَـوَارَثَـهَـا نَـسْـلُ الـمُلُوكِ القُمَاقِمِ
وَيَنْتُمُ دَارُ العِـزِّ مِـنْ دِمْـنَـتَـيْ دَفَـا ... إلى أَسْفَـلِ المِعْشَارِ فَـرْعِ التَّهَائِمِ
وَدَارٍ بِـكَـهْـلَانَ لِـشِـبْـلِ أَخِـيْـهُـمُ ... دِعَـامَـةُ عِـزٍّ مِـنْ تِـلَاعِ الـدَّعَـائِـمِ

ومنه قول عمرو بن زيد ـ مغرق الأكبر ـ[2]:

فَأَلْحَقْتُ حَيًّا بالصَّعِيْدِ بِمَا جَنَوا ... وأَقْـفَـرَ مِـنْـهُـمْ خُـنْـفُـعُـرٌ فَـقَـابِـلُـهْ

وكثيراً ما كانت ترد أسماء قصورٍ وحصونٍ ذات شهرةٍ عظيمةٍ، بعضها لا يزال شامخاً، دالًّا على حضارة أهلها، وقد دوَّى صيتها بعيداً في أشعار العرب؛ كقول عمرو بن النعمان السّعديّ مفاخراً بملك آبائه في صرواح[3]:

فَمدَّ عَلَى صِــــرْوَاحَ نُعْمَى مَهَابَةٍ ... فَـأُوْرِثَـهَـا سَـعْـدٌ زِمَـامُ الـفَـوَارِسِ

وكقول عمرو بن يزيد العوفيّ[4]:

مِـنَ اسْـفَـلِ غُـمْـدَانٍ جَلَبْنَا جِيَادَنَا ... تَـرَامَـى إِلَيكُمْ بالـمُثَقَّفَةِ السُّحْمِ

في حين أنَّ ما ورد في رؤوس المعلَّقات التي أشرت إليها، ليس سوى منابع ماءٍ وحرّاتٍ ومواضعِ نبت، عفا عليها الزّمان، وتناولتها عوامله بالبِلَى والدّروس، وهي ليست بشيءٍ يؤبه له إذا ما قيست إلى تلك المحافد الشامخة.

---

(1) الدّيوان ق76/ ب3 ـ 5.
(2) الدّيوان ق5/ ب2.
(3) الدّيوان ق62/ ب4.
(4) الدّيوان ق49/ ب4.

وبعد: فإنَّ السِّمةَ الغالبة على أشعار خولان هي الوضوح والبساطة وسهولة التَّناول والبعد عن التَّعقيد، وهي سمةٌ عامّةٌ في أشعار القبائل العربيّة، التي انبرى ثلّة من الباحثين للملمة قوافيها ودراستها؛ مثل: كلب بن وبرة[1]، وحمير[2]، وتغلب[3]، وقشير[4]، وطَيّئ[5]، ومَذْحج[6]، وغيرها من دواوين الشّعراء التي تنووِلت بالدّرس؛ كتميم بن أبيّ بن مقبل[7]، وحميد بن ثور الهلاليّ[8]، وكعب بن مالك الأنصاريّ، وغيرهم[9].

وكيف لا تكون أشعار خولان كذلك، وأصحابها هم الأمناء في تصوير ما يدور في بيئتهم التي ظلّت المنهل الصّفْو الذي لا كدر فيه لمعاني أشعارهم، مَتَحوا منها صورهم المختلفة من تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ؛ لإبراز معانيهم وزيادة إيضاحها وكشف جمالها، يضاف إلى تلك الصور الثراءُ اللّغوي المتجسِّدُ في فصاحة القول واتساق حروفه.

ولبيان ما تقدّم يجدر بنا الوقوف عند بعض هذه الصّور، والالتفات إلى قَدْرِ مشاركتها في تقديم المعنى وتوضيحه. وسنتناول منها التَّشبيه أولاً لتقدُّمِهِ إيَّاها؛ فمّما جاء من تشبيهاتهم في شعر الجاهليّة قول عمرو بن زيد ـ مغرق الأكبر ـ مفاخراً بجيشه الجرَّار الذي جلب نجائب الخيل من بطن تهامة، وقد أشبه الجبل الضارب في وسط المفازة[10]:

جَلَبْنَا عِـتَـاقَ الخَيْلِ مِـنْ بَطْنِ لِيَّةٍ   بِـأَرْعَـنَ مِثْلِ الـطَّـوْدِ تَحْبُو كَلَاكِلُهْ

وزاد على هذا التَّشبيه أنْ جعل لهذا الجيش المضطّرب لكثرته جماعاتٍ تحبو حبواً، وهذا ما يدلّ على تطاوله وكثرة عدده وقوّة زحفه.

وقوم عمرة الحيوانيّة الذين يُشْبِهُونَ الأسود الضَّواري في ساحات الوغى؛ لشدَّة بأسهم وفرط

---

(1) انظر: ديوان بني كلب (الدراسة) 416.

(2) انظر: شعراء حمير (الدراسة) 348.

(3) انظر: شعر تغلب 1: 377.

(4) انظر: شعراء بني قشير 1: 264 ـ 265.

(5) انظر: شعراء قبيلة طيّئ 1: 652 ـ 653.

(6) انظر: شعراء مذحج: 294.

(7) انظر: تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 262.

(8) انظر: ديوان حميد بن ثور الهلالي: 169.

(9) انظر: ديوان كعب بن مالك الأنصاري: 125.

(10) الدّيوان ق5/ ب1.

قوّتهم[1]:

أُسْـدٌ ضَـــرَاغِـمَـةٌ بِـيْـضٌ غَـطَـارِفَـةٌ غُلْبٌ جَحَاجِحةٌ هِيْسٌ إذا اتَّصلوا

وممّا زادته في جمل هذا التّشبيه أن جعلت هؤلاء القوم بيضاً؛ كناية عن تحدُّرهم من أرومةٍ عظيمةٍ، بل نقيةٍ لا تشوبها شائبة، وغطارفةً وغلباً وجحاجحةً، وهي أوصافٌ سُعِيَ بها لتصوير المثال الذي يطمح إليه الجاهليُّ؛ من الفروسيَّة، وصفاء النَّسب، والسِّيادة، والكرم الذي انماز به قومها حينما كانت النوائب تنزل بالقبيلة، وتشتدُّ الحاجة وتزداد الفاقة، فيبصر المرءُ فيهم جفاناً سوداً ـ لكثرة استعمالها ـ ملأى باللَّحم المشرف منها، وكأنه أكمةٌ صغيرةٌ[2]:

والـمُطْعِمِيْنَ إِذَا مَـا أَزْمَـةٌ نَزَلَتْ أَبْصَـرْتَ فِيْهِم جِفَانَ الشِّيْزِ تُهْتَبَلُ

قَـدْ كُلِّلَتْ بِسَدِيْفٍ فَـوْقَ ذُرْوَتِـهَـا كَـأَنَّ إِشْـرَافَهَا مِـنْ تَحْتِهَا الأُبُـلُ

ورأى علقمة الخولاني في النُّوق التي امتطاها أبناءُ قومه ـ يوم أوعروا في البلاد ميمّمين صوب سيف بن ذي يزن الحميريّ؛ لطلب العون على قبائل قيس عيلان ـ شبهاً بالأقواس التي تنحني بيد الفارس[3]:

تَقُولُ الَّتي مِـنْ بَيْتِها شَخَصَتْ بنا رَكَـائِـبُ أَمـثَـالُ الـعَـطَـائِـفِ جُـوْدُ

ورأى في نوال ابن ذي يزن دلواً ضخمةً مملوءةً بالماء؛ لسخائه وكثرة عطائه المأمولين[4]:

أبا الـمُنْذِرِ الفَيَّاضَ يَا خَيْرَ حِمْيَرٍ وخَـيْـرَ بَـنِـيْ ذُهْـلٍ، إلَـيْـكَ نُـرِيْـدُ

نُـرِيْـدُ نَـوَالاً مِـنْ سِـجَـالٍ غَـزِيْـرَةٍ فَـأَنْـتَ لَـهَـا فـي الـنَّـائِـبَـاتِ مُفِيْدُ

ومن الصور المألوفة في الشّعر الجاهليّ عند خولان وغيرها الممتَحة من جوِّ المعركة: تشبيه كثرة الرماح الـمُمْطَرة على صدر الفارس بالأشطان التي لُفَّ بها قليبٌ؛ كقول عمرٍو العوفيّ ـ وهو من الشّعراء المخضرمين ـ[5]:

(1) الدّيوان ق102/ ب5.
(2) الدّيوان ق102/ ب13 ـ ب14.
(3) الدّيوان ق1/ ب4.
(4) الدّيوان ق1/ ب38 ـ 39.
(5) الدّيوان ق33/ ب4.

وبعد: فإنَّ السِّمةَ الغالبة على أشعار خولان هي الوضوح والبساطة وسهولة التَّناول والبعد عن التَّعقيد، وهي سمةٌ عامّةٌ في أشعار القبائل العربيّة، التي انبرى ثلّة من الباحثين للملمة قوافيها ودراستها؛ مثل: كلب بن وبرة[1]، وحمير[2]، وتغلب[3]، وقشير[4]، وطَيِّئ[5]، ومَذْحج[6]، وغيرها من دواوين الشّعراء التي تنووِلت بالدّرس؛ كتميم بن أبيّ بن مقبل[7]، وحميد بن ثور الهلاليّ[8]، وكعب بن مالك الأنصاريّ، وغيرهم[9].

وكيف لا تكون أشعار خولان كذلك، وأصحابها هم الأمناء في تصوير ما يدور في بيئتهم التي ظلَّت المنهل الصّفْو الذي لا كدر فيه لمعاني أشعارهم، مَتَحوا منها صورهم المختلفة من تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ؛ لإبراز معانيهم وزيادة إيضاحها وكشف جمالها، يضاف إلى تلك الصور الثراءُ اللّغوي المتجسِّدُ في فصاحة القول واتساق حروفه.

ولبيان ما تقدّم يجدر بنا الوقوف عند بعض هذه الصّور، والالتفات إلى قَدْرِ مشاركتها في تقديم المعنى وتوضيحه. وسنتناول منها التَّشبيه أولاً لتقدُّمِهِ إيَّاها؛ فمّما جاء من تشبيهاتهم في شعر الجاهليّة قول عمرو بن زيد ـ مغرق الأكبر ـ مفاخراً بجيشه الجرَّار الذي جلب نجائب الخيل من بطن تهامة، وقد أشبه الجبل الضارب في وسط المفازة[10]:

جَلَبْنَا عِتَاقَ الخَيْلِ مِنْ بَطْنِ لِيَّةٍ ... بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْبُو كَلَاكِلُهْ

وزاد على هذا التَّشبيه أنْ جعل لهذا الجيش المضطّرب لكثرته جماعاتٍ تحبو حبواً، وهذا ما يدلّ على تطاوله وكثرة عدده وقوّة زحفه.

وقوم عمرة الحيوانيّة الذين يُشْبِهُونَ الأسود الضَّواري في ساحات الوغى؛ لشدَّة بأسهم وفرط

(1) انظر: ديوان بني كلب (الدراسة) 416.
(2) انظر: شعراء حمير (الدراسة) 348.
(3) انظر: شعر تغلب 1: 377.
(4) انظر: شعراء بني قشير 1: 264 ـ 265.
(5) انظر: شعراء قبيلة طيّئ 1: 652 ـ 653.
(6) انظر: شعراء مذحج: 294.
(7) انظر: تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 262.
(8) انظر: ديوان حميد بن ثور الهلالي: 169.
(9) انظر: ديوان كعب بن مالك الأنصاري: 125.
(10) الدّيوان ق5/ ب1.

قوّتهم[1]:

أُسْــدٌ ضَــرَاغِـمَــةٌ بِـيْـضٌ غَـطَـارِفَـةٌ غُلْبٌ جَحَاجِحةٌ هِيْسٌ إذا اتَّصَلوا

وممّا زادته في جمل هذا التّشبيه أن جعلت هؤلاء القوم بيضاً؛ كناية عن تحدُّرهم من أرومةٍ عظيمةٍ، بل نقيةٍ لا تشوبها شائبة، وغطارفةً وغلباً وجحاجحةً، وهي أوصافٌ سُعِيَ بها لتصوير المثال الذي يطمح إليه الجاهليُّ؛ من الفروسيَّة، وصفاء النَّسب، والسِّيادة، والكرم الذي انماز به قومها حينما كانت النوائب تنزل بالقبيلة، وتشتدُّ الحاجة وتزداد الفاقة، فيبصر المرءُ فيهم جفاناً سوداً ـ لكثرة استعمالها ـ ملأى باللَّحم المشرف منها، وكأنه أكمةٌ صغيرةٌ[2]:

والـمُطْعِمِيْنَ إِذَا مَـا أَزْمَــةٌ نَزَلَتْ أَبْصَـرْتَ فِيْهِم جِفَانَ الشِّيْزِ تُهْتَبَلُ

قَـدْ كُلِّلَتْ بِسَدِيْفٍ فَـوْقَ ذُرْوَتِـهَـا كـأَنَّ إِشْـرَافَهَا مِـنْ تَحْتِهَا الأُبُــلُ

ورأى علقمة الخولاني في النُّوق التي امتطاها أبناءُ قومه ـ يوم أوعروا في البلاد ميمّمين صوب سيف بن ذي يزن الحميريّ؛ لطلب العون على قبائل قيس عيلان ـ شبهاً بالأقواس التي تنحني بيد الفارس[3]:

تَقُولُ الّتي مِـنْ بَيْتِها شَحَصَتْ بنـا رَكَـائِـبُ أَمْـثَـالُ الـعَـطَـائِفِ جُـوْدُ

ورأى في نوال ابن ذي يزن دلواً ضخمةً مملوءةً بالماء؛ لسخائه وكثرة عطائه المأمولين[4]:

أبا الـمُنْذِرِ الفَيَّاضَ يَا خَيْرَ حِمْيَرٍ وخَـيـرَ بَـنِـيْ ذُهْـــلٍ، إلَـيْـكَ نُـرِيْـدُ

نُـرِيْـدُ نَــوَالاً مِــنْ سِـجَـالٍ غَـزِيْـرَةٍ فَـأَنْـتَ لَـهَـا فـي الـنَّـائِـبَـاتِ مُفِيْدُ

ومن الصور المألوفة في الشّعر الجاهليّ عند خولان وغيرها الممتَحة من جوِّ المعركة: تشبيه كثرة الرماح الـمُمْطَرة على صدر الفارس بالأشطان التي لُفَّ بها قليبٌ؛ كقول عمرٍو العوفيّ ـ وهو من الشّعراء المخضرمين ـ[5]:

---

(1) الدّيوان ق102/ ب5.
(2) الدّيوان ق102/ ب13 ـ ب14.
(3) الدّيوان ق1/ ب4.
(4) الدّيوان ق1/ ب38 ـ 39.
(5) الدّيوان ق33/ ب4.

ومختلفُ الـرِّمـاحِ على لَبَانِي كـأَشْـطَـانٍ أُلِـــفَّ بِـهَـا قَـلِـيبُ

ومنها أيضاً تشبيه الفرسان بالأُسْدِ ـ وهي من الصور الكثيرة في الشّعر القديم ـ لكثرة الحروب التي كانت ديدن القوم؛ كقوله[1]:

أَبْصَـرْتُ عَـمْـراً في الحَدِيْدِ كَأَنَّهُ لَـيْـثٌ هِـزَبْـرٌ فـي حَـدِيْـدٍ أَوْرَدِ

فقد شبّه خَصْمَهُ باللَّيث، وخصَّ ليث الهزبر لغلظته وشدَّة بأسه، فالتشبيه ههنا عَقْدُ مقارنةٍ حسيّةٍ، يُكْشَفُ بها عن الصّلة الجامعة بين عمرٍو واللّيث الضّخم؛ لما للمشبّه من صفات في أثناء المعركة تشبه صفات الأسد الضّاري، الذي إذا ما أنشب مخالبه في فريسته لا تقوم لها قائمة.

ومنها أيضاً تشبيه متني السّيف وجانبيه بلهيب الجمر؛ كقوله أيضاً[2]:

بِـكُـلِّ مُـهَـنَّـدٍ ذَكَــرٍ حُـسَـامٍ كَـأَنَّ بِـصَـفْـحَـتَـيْـهِ لَـهِـيْـبَ جَـمْـرِ

فالصّفات التي جعلها في السَّيف؛ من طبعٍ في الهند ـ وهو أشهر له ـ وذَكَرٍ وهو ما يكون أدعى للقوّة والبسالة، وحسامٍ وهو أكثر ما يكون حادًّا، صارت معادلاً للهيب الجمر في صفاته من الإحراق والكيِّ. واتكاءً على هذا لم يرمِ الشّاعر من عقد هذا التّشبيه إلى الإبانة والتّوضيح التّقليديّين فقط، بل أراد الكشف عن التّماثل الحاضر بين طرفي التشبيه، وتصويره بما يماثله تمام المماثلة[3]، وكثيراً ما أعجب القدماء بمثل هذا التّشبيه؛ لما له من قيمةٍ فنيةٍ وتأثيرٍ في المتلقّي؛ «إذ إنّ الشّيء... يُشَبَّهُ بغيره إذا شابهه في أكثر أحواله وصفاته؛ لقول ابن جنّي: «إنَّ العرب إذا شبّهت شيئاً بشيءٍ مكّنتْ ذلك الشّبه لهما، وعمَّرتْ به الحال بينهما»[4].

كما وجد عمرو العوفيّ في جُثّةِ نوال بن عتيك ـ غلام سيف بن ذي يزن الحميريّ ـ لـمّا قتله شبهاً بجذع النخلةِ اليابس الذي قطع عن أرومته[5]:

وقـد تَـرَكْـنـا نَــوَالاً لا حَـوِيْـلَ لهُ كأنّهُ الـجِـذْعُ، جِـذْعُ النَّخْلَةِ القَطِلُ

ومن تشبيهاتهم في العصر الأمويّ قول الحارث السّعديّ موبِّخاً ابن عمه عمرو بن يزيد السّعديّ؛

(1) الدّيوان ق37/ ب1.

(2) الديوان ق41/ ب10.

(3) الصورة البيانيّة في التراث البلاغي: 95.

(4) الصورة في شعر تميم بن أُبيِّ بنِ مُقْبِل: 95، وقول ابن جني في الخصائص 1/ 304.

(5) الدّيوان ق 48/ ب5.

لعدم سماعه النُّصحَ وركوبه مركب الغيِّ والضّلال؛ فقد أنهكته الحرب وأدمت ساعديه وشتّتتْ قومه، فوجد في مرارة خذلانه سُمّاً ذعافاً أشبه بالصَّاب الذي يُعْتَصَرُ من شجرة ـ وهو أمرُّ من العلقم ـ بل هو الذِّيْفَانُ الممزوج بالسُّمِّ القاتل من ساعته[1]:

نَـدُوْنَـكَ فَـاجْـرَعْـهَـا ذُعَـافـاً كَأَنَّهَا مِنَ الصَّابِ والذِّيْفَانِ تُمْزَجُ بالسُّمِّ

فمرارة الهزيمة التي لحقت بعمرٍو السّعديّ تماثل الصَّاب الذي إذا نزت منه نزيةٌ في العين تُضْعِفُ بصرها أو تكفُّهُ، بل هي سمٌّ يقتل من ساعته.

ومن الصور المألوفة في الشّعر القديم، التي تطرب لها النفس وتزدهي: تشبيه ضرب الفرسان لخصومهم ومقارعتهم إيّاهم بضرب غرائب الإبل التي تأتي الحوض لورد الماء، فتُضْرَبُ ضرباً شديداً لمزاحمتها الصُّويحبات منها[2]:

وَلُـيُوْثُ مُغْرِقَ يَضْـرِبُوْنَ فُرُوْعَكُمْ ضَـرْبَ الغَرائِبِ، أَعْرَكَتْكَ بِكَارُهَا

وخصَّ ذلك الضرب بالبكر منها؛ لقوَّتها وفرط نشاطها الذي لا نجده عند غيرها.

وشعراء خولان إذا ما رأوا تصوير فرسانهم، وسرعة إجابتهم لقائدهم ـ وهم الذين يفلقون الرؤوس ويكسرون الجماجم ـ شبهوهم بالجمال الضّخمة، وخصّوا البُزّل منها لمضائها وسرعة عدوها؛ قال محمّد المالكيّ[3]:

مَتَى أَدْعُ بالسِّبْطَيْنِ عَـوْفٍ ومَالِكٍ يُجِبْنِيْ حُمَاةٌ يَفْلِقُونَ الجَمَاجِمَا

يَـدِبُّـونَ حَـوْلِـيْ في الـحَـدِيْـدِ كَبُزَّلٍ تَـظَـلُّ ظِـمَـاءً لِـلْـوُرُودِ حَـوَائِـمَـا[4]

فقد زاد التشبيه إيضاحاً أن جعل هذه الجمال البُزّل ظماءً، وهي أكثر ما تكون في ذلك الموقف هيجاناً ونشاطاً، تدور حول المنهل في قرقعة حديدها ثائرةً، تطمح إلى ورد الماء والدخول فيه. فأضاف إلى قوّتها الطبيعيّة قوّةً إضافيّة من جانبين؛ الأوّل: بأن خصَّ منها البُزَّل التي تكون في سنِّ فتوَّتها وقوَّتها، والثاني: جعلها ظِماءً. ولم يعمد الشَّاعر إلى المشبَّه به إلّا لاشتراكه مع المشبّه في حكمٍ له ومقتضًى؛ وهو

---

(1) الدّيوان ق77/ ب4.

(2) الدّيوان ق89/ ب6.

(3) الدّيوان ق90/ ب4ـ5.

(4) البُزَّلُ: جمع (بازل)؛ وهو البعير الذي فَطَرَ نابه وانشقَّ، ويكون ذلك في التاسعة من عمره.

الثّورة والهيجان في حالة مخصوصةٍ، ولم يقع في الصفة نفسها وحقيقة جنسها، كما يقول الجرجانيّ في مثل هذا[1].

وقوله أيضاً يشبّه هؤلاء الكماة في ساحات الوغى بالأُسْدِ[2]:

رأَيْتَهُمُ كـالأُسْـدِ فِي حَـوْمَـةِ الوَغَى   يُعَالُونَ هَـامَ الـقَـومِ بِيْضاً صَـوَارِمَا

كلُّنا يعرف ما للأسد من صفاتٍ ومزايا تجعله يتربّعُ على عرش الشَّجاعة والجرأة، هذه الصفات هي الوسيلة التي استخدمها الشّاعر للكشف عن قيمة المشبّه في نفسه وعلوِّ قدره، بل عَبَّر بها عن حجم العلاقة الجامعة بينه وبين فرسان قومه الذين لا يجبنون ولا يخورون في ساحات القتال، حتّى لو خسروا حياتهم، فهم كالأسد لا يقتنصون إلا الفرائس الضخمة الدسمة؛ كرؤوس خصومهم وزعمائهم.

وثمّة تشبيه فيه من الجدّة والغرابة ما يستدعي الوقوف عنده؛ وهو تشبيه مالك بن قطينة العوفيّ عمرو بن حجر الخولانيّ يوم تركه قومه ينزل في بني عنز بن زائل، وحيداً غريباً، ليس له معينٌ ولا قريب يستأنس به، بوتدٍ تَشَعَّث رأسه وتشقَّقَ لكثرةِ ما ضرب، وهو ثابتٌ على موقفه ثبات الوتد في الأرض[3]:

فَقَدْ تَـرَكُـوا عَـمْـرَو بـنَ حُجْرٍ كَأَنَّهُ   شَجِيْجٌ مِـنَ الأَوتَــادِ بَيْنَ الجَنَادِلِ

ألمع الشّاعر إلى شيءٍ من الغربة التي كان يقاسيها عمرو ويذوق مرارتها في كلِّ حين، وكيف لا وقد بات وتداً تضرب رأسَهُ الحجارةُ الصَّلدة، كلّما دعت الحاجة أو هبّت ريحٌ صرصرٌ. ولا شكَّ أنّ الشّاعر وصل في هذه الحالة إلى الإحساس «بتفاهة الحياة وفراغها، وهشاشة الوجود الإنسانيّ وضعفه، [وهذا ما] خلق في نفسه رغبةً عارمةً في التشيؤ الصّلب تحديداً، فإذا أصابته أحداث الدّهر نبت عنه دون أن تصيبه بأذى»[4].

وكأنّ عمرَو بنَ حُجْرٍ صار شيئاً مستقلّاً عن ذاته، بل سلعةً موضوعيّةً تشبه أيَّ شـيءٍ في المجتمع[5]؛

(1) أسرار البلاغة 98، وعنه في الصورة الفنية عند شعراء البادية في عصر صدر الإسلام 115.
(2) الدّيوان ق90/ ب7.
(3) الدّيوان ق92/ ب3.
(4) شعرنا القديم والنقد الجديد 198، الصّورة في شعر تميم بن أبي بن مقبل 161.
(5) انظر: الإنسان والاغتراب 146.

ليواجه هذه الغربة بهذا التشيؤ الصلب. وهذا ما يساعد على كشف المستور في نفس الشّاعر الذي صرف الذّهن إلى المشبّه به.

أما عن وظيفة التّشبيه في الأمثلة السّابقة وفي غيرها من شعرهم، فجاءت لأغراض ثلاثةٍ؛ فإمّا أنّها جاءت توضيحاً لمعنىً ومبالغة فيه أرادهما الشّاعر؛ كقول عمرو بن زيد الخولانيّ ـ مغرق الأكبر ـ في تشبيه الجيش بالطَّود لكثرته وضخامته، وكما هو الحال أيضاً في تشبيه عمرة الحيوانيّة أبناء قومها بالأُسْد الضَّواري في ساحات الوغى، وقول عمرٍو العوفيّ في تشبيهه كثرة الرِّماح على صدره بالحبال التي لفَّتْ بئراً.

وعن هذا المعنى قال ابن الأثير: «إنّ التّشبيه لا يُعْمَدُ إليه إلا لِضَرْبٍ من المبالغة؛ فإمّا أن يكون مدحاً، أو ذمًّا، أو إيضاحاً، ولا يخرج عن هذه المعاني الثلاثة...»[1]، وإمّا أنها تأتي لاختصار المعنى وتقديمه في صورة مادّيّة محسوسة؛ كقول عمرو بن حجر المالكيّ الذي شبّه ملك آبائه الذي تقطّعت أوصاله وخارت قوته بالليالي التي لا تبلى مسوكها[2]:

فَـأَصْبَـحَ ذاكَ الـمُلْكُ بُـدِّدَ شَمْلُهُ كَـذَاكَ اللَّيَالِي لَيْسَ يَبْلَى مُسُوكُهَا

وإمّا أنّها أتت زينةً يزوّق بها الشّاعر كلامه؛ كما جاء في وصف عمرو بن يزيد العوفيّ للسَّيف الذي أشبه متناه لهيبَ الجمر؛ لجلائه وجودة صقله.

وقبل مغادرة الحديث عن التّشبيه لا بدَّ من الإشارة إلى أمرٍ يُعْتَقَدُ أَنَّهُ مهمٌّ؛ وهو غياب المعاني المجرّدة من تشبيهاتهم، واعتمادهم على الحسِّيَّة منها، ولعلّ مردَّ هذا الأمر إلى أنَّ التّشبيه أكثر شيوعاً من الفنون البيانيّة الأخرى في العصور القديمة، التي كان الشعراء فيها أقلَّ حِدَّةً في الخيال وإيغالاً، وأكثر انصياعاً لأحكام العقل والمنطق، والاستعارة أكثر شيوعاً من التَّشبيه في العصور الابتداعيّة التي يشطح فيها الخيال، فلا يكون للعقل عليها ضابطٌ[3]، يضاف إلى هذا أنَّ العلم الذي تلقَّفته النَّفس كان عن طريق الحواس والطِّباع أوّلاً، ثمَّ بعدها من جهة النَّظر والرَّوِيَّة[4]. ويلحظ في شعرهم قلّة التشبيهات وانحسارها في مواضعَ محدَّدةٍ، على خلاف ما كنّا نتوقّعه من كثرة هذا اللَّون البيانيّ الذي

---

(1) المثل السائر 2/ 102، وعنه في التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفنيّ 94.

(2) الدّيوان ق60/ ب2.

(3) الصورة بين البلاغة والنقد 46، نقلاً عن فنون الأدب، تشارلتين 80 ـ 82، ترجمة زكي نجيب محمود. ومثله في التّشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفنيّ 23.

(4) أسرار البلاغة: 122.

نجده في أشعار غيرهم[1]، فلم أقع على لوحاتٍ فنيّةٍ كان التّشبيه عمادها، سوى تشبيهٍ هنا وآخر هناك، في أبياتٍ محدودة.

وقد حلّق شعراء خولان ـ أحياناً ـ بأخيلتهم معتمدين على الاستعارة في نقل صورهم؛ لأنّ الاستعارة ضربٌ من المجاز القائم على التّشبيه، غير أنّها أكثر إمعاناً من التّشبيه في الخيال، فيتّحد طرفاها في كلمة واحدةٍ، بينما يُفْصَلُ في التّشبيه المشبّه عن المشبّه به؛ لذا قال عنها العلماء: تشبيهٌ حذف أحد طرفيه[2]. ومن هنا تتجلىّ قلّة الاستعارة لدى الشعراء الجاهليّين؛ لأنهّا تتطلّب قدراً من الرقيّ العقليّ الذي يساعد على التّجريد، والربط بين شيئين لا علاقة واضحة بينهما.

ومن صورهم الاستعاريّة قول عمرو بن زيد الخولانيّ ـ مغرق الأكبر ـ يفخر برجال قبيلة كِنْدَة العظام، الأذكياء العارفين بخفايا الأمور، وهم مشعلٌ يستضيء به كلّما حلَّ اللّيلُ[3]:

وفي كِـنْـدَةَ الشُّمُّ الـمُلُوْكُ نِقَابُهُمْ	ومـا زَالَ فِـيْـهِـمْ سَـــادَةٌ وقُـيُـوْلُ
بِهِمْ أَسْتَضِـيْءُ الدَّهرَ فِي كُلِّ بُهْمَةٍ	إذَا لـمْ يَـكُـنْ لِـي فِـي الـبِـلَادِ دَلِـيْـلُ

ومن الاستعارة في شعره قوله يذمّ بني حيٍّ على سوء فعلتهم التي أجبرته وقومه على قتالهم وإخراجهم من ديارهم[4]:

أَنَّ الـعِـدَا مِـنْ آلِ حَـيٍّ قَـلَّـدُوا	إِخْـوَانَـهُـمْ عَـاراً بِـفِـعْـلٍ يَـابِـسِ

فقد جعل العار ثوباً يُلْبَس، أو شيئاً يُعَلَّق على الصّدر وما شابهه.

ولم يأت الشّاعر بهذه الاستعارة إلّا ليؤكّد التداخل الدَّلالي بين قبح الفعل ومفهوم العار؛ الذي كان وما زال مرتبطاً بأسوأ ما يكون من تصرّفات الإنسان، ولا سيّما الجاهليّ الذي تتأبّى نفسه على الأفعال الوضيعة الصغيرة.

ورأى عمرو بن الحارث الحيوانيّ في الزمان ونوائبه جَمَلاً قد أناخ بحمله على الحارث بن الحارث بن زُرْعَة بن ذي غيمان الحميريّ، المشهور في زمانه بـ (هاتك عرشه)، كما أناخ على أذينة الحميريّ،

---

(1) انظر: شعر مزينة في الإسلام 438 وما بعدها. وانظر: تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره 275، الصّورة الفنيّة في الشّعر الجاهليّ 179.

(2) انظر: الصّورة الشّعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس 68 وانظر: حوالاته ثمّة.

(3) الدّيوان ق4/ ب6ـ7.

(4) الدّيوان ق3/ ب2.

المعروف بصاحب الأنواح[1]:

بَـرَكَ الزَّمَانُ عَلَى ابْـنِ هَاتِكِ عَرْشِهِ ... وَعَـلـى أُذَيْـنَـةَ غُـدْوَةً وَرَوَاحَـا

فالزّمان الذي يشبه الجَمَلَ في إلقاءِ حمله وثقله، ليس وسيلةً للقضاء على هؤلاء الملوك والأقيال، وإنّما عنى الإحساس بالفناء بتعاور الأيّام وتعاقبها؛ لأنَّ «الدهرَ دائمُ التسلُّط على الحياة والوجود الإنسانيّ، والوحدات الزمانيّة وأجزاؤها الدقيقة هي العامل المدمّر لتلك الحياة»[2].

ووجد علقمة الخولانيّ في شخص سيف بن ذي يزن الحميريّ طبيباً يداوي جِرَاح أبناء قومه وكلومهم، إذا ما لبّى طلبته بالعون والمدد للنصرة على قبائل قَيس عيلان (هَوَازِن وسُلَيم)، بل ذهب إلى أبعد من هذا عندما جعل هؤلاء القوم قِدَاحاً مرتاشةً تفتاق من الملك نفسه[3]:

صَـرَفْنَ إِلَيْكَ القَوْمَ تَدْمَى كُلُوْمُهُمْ ... لِـيُـدْمَـلَ قَـرْحٌ مِـنْـهُـمُ ولَـهُـوْدُ

ويَـرْتَـاشَ قِـدْحٌ مِنْهُمُ ذُوْ تَـمَـرُّطٍ ... ويَـفْـتَـاقَ يَـوماً مِـنْـكَ وهْـوَ سَـدِيْـدُ

ليس بخفيٍّ على أحدٍ دور الاستعارة في هذه اللَّوحة الفنيَّة في تقريب المعنى من النّفس، وتوضيح مراد الشّاعر الذي شبَّه الملك الحميريّ إذا لبّى طلب القوم وأمدّهم بجيش يعينهم على قبائل قيس عيلان، بالوتر الذي يدفع السَّهم نحو هدفه، وما القوم إلا سِهامٌ ارتاشت وجُهِّزَتْ لخوض الحرب، وقبل هذا كانت ممرطةً لا ريش فيها ولا ما يسترها.

فالعلاقةُ قائمةٌ بين طلب القوم وهم السِّهام الممرَّطة، وبين مَدَدِ الملك وهو حينئذٍ وترٌ لا يحيد سهمه عن الهدف والغاية.

وقد كشفت هذه الصورة الغطاء عن حالة الشّاعر النّفسيّة، وما يكابده من الهمّ الثقيل، والحزن المقيم؛ لما ستنتهي إليه حال قومه من الهزيمة والشتات، إذا لم يُمَدُّوا بجيش يعينهم على قبائل هوازن وسليم، فعمد إلى تصوير حال القوم وبُعد الطريق التي قطعوها والمخاطر المحدقة به؛ ليرأف بحالهم ويلبّي طلبتهم. ولكن من دون استجداءٍ أو تملّق، كما كان يفعل كثيرٌ من شعراء المدح بغية النوال والعطاء.

---

(1) الدّيوان ق22/ ب1.

(2) الصورة في شعر تميم بن أُبَيّ بن مقبل: 142.

(3) الدّيوان ق1/ ب42ـ 43.

ومن استعاراتهم في عصر الخضرمة وصدر الإسلام قول عمرو بن يزيد العوقيّ[1]:

فَمَا كِبَرٌ يُشِيْبُ لَبَابَ مِثْلِيْ ... ولكِنْ شَيَّبَتْ رَأسِي الحُرُوْبُ

مُغَارَاتِي لِكلِّ صَبَاحِ يَومٍ ... يُغِصُّكَ عِنْدَهُ اللَّبَنُ الحَلِيْبُ

ومُخْتَلَفُ الرِّمَاحِ عَلى لَبَانِي ... كَأَشْطَانِ أُلِفَّ بِهَا قَلِيْبُ

فَذَاكَ هَوَ الَّذِي أَبْلَى شَبَابِيْ ... وأَخْلَقَهُ وبُرْدَتُهُ قَشِيْبُ

فالحروب زمن دائر غطّى رأس عمرو بالشّيب، وقد رأى فيها ثوباً يبلى ويذهبُ جَدِيْدُهُ ويصير رثًّا، وقبلها كان مزركشاً نظيفاً.

ومنه قوله عندما قتل عُمَارة بن مرداس السُّلميّ، مجيباً أحد شعراء بني جعفر بن كلاب العامريّ[2]، الذي توعّده بالويل وبالمسوَّمة الشقر من الخيل[3]:

وقُلْ لابنِ مِرْدَاسٍ يُوَطِئْ حَرَارَةً ... رَسَتْ في فُؤَادٍ مِنهُ تَغْلِيْ عَلَى الصَّدْرِ

فقد جعل في غضب عبَّاس بن مرداس ـ أخيه ـ ناراً حامية في صدره، يغلي بها الماء إذا ما وُضِعَ فوقها؛ لشدَّة حرارتها وعلوِّ وهجها.

ومن ذلك قوله في أبناء قومه الذين سحقوا مُرَّ بنَ يعفر بن ناكور الحميريّ[4]:

لَمَّا أبَانَ لَنَا مُرٌّ عَداوَتَهُ ... مِلْنَا عَلَيْهِ بِرَجَّاسٍ لَهُ زَجَلُ

مِنْ آلِ عَوْفٍ إذَا حَرُّوا رِمَاحَهُمُ ... حَسِبْتَ مِنْهُمْ جبَالَ الأَرْضِ تَحْتَمِلُ

إِنْسٌ إذَا أَمِنُوا، جِنٌّ إذا غَضِبُوا، ... تَحْتَ العَجَاجَةِ في أَيْمَانِهِمْ شُعَلُ

جعل الأرض بشراً ترحل وتنتقل من أماكنها وأصقعها؛ خوفاً وذعراً من بني عوف الذين يبثّون الخوف والهلع في نفوس من يجاورهم، وذكر أنّ السّيوف في أيديهم شُعَلُ نارٍ مضيئةٍ؛ لجلائها ونصاعة بياضها، ومما زاد في جمال هذه الصورة الكليّة لأبناء قومه، الكنايةُ في البيت الأوّل عن صَخَبِ الجيش

(1) الدّيوان ق33/ ب1ـ4.
(2) هو عروة بن عتبة الرَّحال، شاعرٌ مِقدامٌ وجريءٌ، توعَّدَ عمراً بسبب قتله عُمَارة السّلميّ.
(3) الدّيوان: ق40/ ب2.
(4) الدّيوان: ق48/ ب1ـ3.

وكثرة جلبته، الذي أفنى مُرًّا وجيشه.

وأضاف تشبيه آل عوف بالبشر وطبائعهم إذا كانوا في حالة السلم، وبالجانّ إذا شدّوا مآزرهم لخوض حربٍ ضروسٍ، وكنّى عن المعركة وجوِّها من صياحٍ وغبارٍ بالعجاجة.

إنّ جوهر هذه اللَّوحة التي تشتبك خيوطها، هو مفهوم القوّة الذي يكاد يتردّد في كل شطرٍ، بل يطغى أحياناً كما في البيت الثالث على الألفاظ جميعها إلّا أقلّها، وكيف لا تكون القوّة؟ وهي بانية مجد آلِ عوف الذي تتممه قيمٌ أخرى؛ كالكرم والنُّبل والعفو والحكمة[1].

ومن صورهم الاستعاريّة المألوفة تشبيه الحرب بالنّاقة التي تلقح، فتحمل فتضع بكرها وهو شَبعٌ مُكْتَنِزُ اللَّحْمِ؛ كقول المحنون العوفيّ[2]:

فالحَرْبُ تَعْرِفُنَا يَـوْمـاً إذا لَقِحَتْ ... أَنَّـا سَنُنْـتِجُ مِـنْـهَا بِـكْـرَهَـا رَبَـعَـا

وممّا زاد في رونق هذه الصورة، معرفة الحرب لهم بأنّهم سينتجون منها فصيلاً شبعاً؛ إذا ما حطَّت أوزارها، ولعلّ في هذا إضافةً جديدةً على الصّورة المألوفة بتشبيه الحرب بالناقة التي حالت. ولو لم يرَ الشاعر في الحرب التي يخوضها قومه ما يراه في النّاقة، ما عمد إلى هذا التجسيد الذي بُنِي على قوة الشّبه بين طرفي الاستعارة التي اعتنت بمفهوم القوّة في حياتهم.

ونجد في شعرهم الأمويّ ما يدلّ على عنايته بالاستعارة أداةً من أدوات إبراز المعنى وتوضيحه؛ نحو هذا في قول حكيم خولان الحارث السّعديّ، ينهى ابن عمّه عمرو بن يزيد السّعديّ عن الكبر والطّغيان وإشعال الحروب، ويضرب في ذلك الأمثال والعِبَر[3]:

وقَـدْ سَمِعْتَ بِبَهْرَا يَـوْمَ سَـارَ بِهِمْ ... قَــرْمٌ فَــدَوَّخَ بَـذَّاخـاً وَجَـبَّـارَا

وسَــادَةٌ مِـنْ بَـنِـيْ حَـيٍّ أُتِـيْـحَ لَهُمْ ... مِـنَّـا بَــوَادِرُ مُــزْنٍ كَـانَ مِـدْرَارَا

كَانُوا الـمُلُوكَ وكنَّا نَحْنُ نَتْبَعُهُم ... حَتَّى جَـرَرْنَـا لَهمْ خَـيْـلاً وأَغْـمَـارَا

فعطاؤهم سُحُبٌ حملت أمطاراً غزيرةً، ليس فوقها ماءٌ البتّة، وكأنّه سَحٌّ دراكٌ مُتَتابعٌ لَكاكٌ، كما جاء

---

(1) انظر الدّيوان: ق30، ق36، ق37.

(2) الدّيوان: ق64/ ب3.

(3) الدّيوان: ق72/ ب6ـ8.

في وصف أحد الأعراب عن الأصمعيّ[1].

وشخّص الحلم بخيلٍ نجيبةٍ كريمةٍ تنجي مَن اعتلى ظهرها من الفرسان، بينما يسقط صاحب الضّلالة والعقوق؛ في قوله أيضاً[2]:

رَأَيْتُ الحِلْمَ مُنْجِيَ رَاكِبِيهِ ... وَيَرْدَى ذو الغَوَايَةِ وَالعُقُوقِ

وهذا عمرو بن زيد الغالبيّ، أحد مساعير الحرب وفرسانها في بني غالب بن خولان، يرى في الحرب حيواناً مفترساً قد كشّر عن أنيابه البيض، وقد أومض بريقها[3]:

إِنِّيْ أَرَى الحَرْبَ قَدْ أَبْدَتْ نَواجِذَهَا ... فِيْنَا وأَصْبَحَ مِنْهَا ضَوْءُهَا لَمَعَا

وشبّه حقد بني سليم وعامر ـ اللّذين بين أظهرهم أقام زَمَناً ـ بنارٍ تغلي عليه مراجله[4]:

أُقَارِعُ كَيْداً مِنْ سُلَيْمٍ وعَامِرٍ ... وحِقْدُهُمُ تَغْلِيْ عَلَيْهِ مَرَاجِلُهْ

وهذا عمرو السّعديّ يرى في السّيوف التي سلّها الخصوم، وأعملوها في رقاب القوم، شُعَلاً تتقد نارُها؛ لجلائها وجودة صَقْلِهَا، ويرى الجيش الذي زحف نحو قومه اضطراباً يشبه البحر في صوت أمواجه المجلجلة الباعثة على الخوف والرعب[5]:

صَاغُوا عَلَيْهِمْ مِنَ المَاذِيِّ مُبْهَمَةً ... خُرْسَ العُرَا وسُيُوفاً فِي الوَغَى تَقِدُ

وَقَوْمُنَا مُغْرِقٌ تَنَّوا بدَاهِيَةٍ ... وَهُمْ رَمَوْنَا بِرَجَّافٍ لَهُ مَدَدُ

ممّا زاد في جمال هذه اللّوحة أن جعل لهذا البحر أمداداً من الماء؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27]؛ أي: يزيد فيه ماء من خلفه تجرُّه إليه وتكثِّرُه، وهو يشبّه جماعات العساكر التي تمدُّ الجيش من خلفه؛ لتقوّيه وتكثّر عدده. وقد حقّق الشّاعر في هذه اللّوحة من التفاعل والتداخل ما جعله أكثر قدرة على العناية بالمشبه الذي أكسبه دلالاتٍ خاصّةً، بل إيحائيّةً بالإتيان بالمشبّه به؛ ليضمن للمشبّه مكانته

(1) انظر: كتاب وصف المطر والسحاب: 29.
(2) الدّيوان ق74/ ب6.
(3) الدّيوان ق81/ ب4.
(4) الدّيوان ق82/ ب4.
(5) الدّيوان ق87/ ب2ـ3.

وقدره في نفسه.

وبهذا نستطيع أن نقدّر سبب إعجاب أرسطو بالاستعارة التي عدّها «أعظم... الأساليب حقّاً، فإنّ هذا الأسلوب [يعني الاستعارة] وحدَهُ هو الذي لا يمكن أن يستفيده المرء من غيره، وهو آية الموهبة؛ فإنّ إحكام الاستعارة معناه البصر بوجوه التشابه»[1].

أمّا المسلم الشِّهابيّ، فصورُهُ لـمّا كان مفاخراً لا تخرج عن الاعتزاز بقومه لما لهم من قوّةٍ وفرط بأسٍ ورباطة جأشٍ في المعركة؛ فرماحهم ذات الرؤوس الحادة مشرعةٌ، وخيولهم تصول وتجول نشطةً في غبار المعركة، والسيوف تضرب بَيْضَ الرؤوس مصدرة قعقعةً، يضاف إلى هذا أن المنية أفنت مقاول حمير وأشرافها، وبقي بنو شهابٍ قرارها وبيتها الذي تأوي إليه[2]:

يا عَـمْـرُو لَـوْ عَايَنْتَ وَقْــعَ جِيَادِنَا ... لـدَفَـى فُــؤَادُكَ حِـيْـنَ ثَـارَ غُـبَـارُهَـا

والـسَّـمْـهَـرِيُّ شَــــوَارِعٌ أَسَـلَاتُــهُ ... قَـدْ لَاحَ مِـنْ بَـيْـنِ العَجَاجِ نِيَارُهَا

يَجْمَحْنَ بالفُرْسَانِ في رَهَـجِ الوَغَى ... والبِيْضُ يُـقْـرَعُ بالتَّرِيْكِ غِـرَارُهَـا

لَعَلِمْتَ مَـنْ يَلْقَى الـمَنِيَّةَ حِسْبَةً ... مِـنْـهُ، ومَــنْ نَـشِـبَـتْ بِـهِ أَظْـفَـارُهَـا

تَنْفِي مَـقَـاوِلَ حِـمْـيَـرٍ وَسَــرَاتَـهَـا ... وَبَـنُـو شِـهَـابٍ وَكْـرُهَـا وقَـرَارُهَـا

وقوله:

لَعَلِمْتَ أَنَّـا فِـي الـمَكَرِّ حُمَاتُهَا ... وَعَلِمْتَ أَنَّـا في الـصِّـلَاءِ جِمَارُهَا

فأسنّةُ الرّماح نيارٌ مشتعلةٌ، والمنيّة وحشٌ مفترسٌ ينشب أظفاره في جسد فريسته، وبنو شهاب بيت تأوي إليه المنية، بل هم جمار الحرب إذا ما حمي وطيسها، واشتدَّ أوارها.

لقد استطاع الشّاعر أن يطوّع اللّغة العاديّة في قالب فنيّ رائع؛ بأن جعل الحُسْنَ واضحاً بيّناً بين طرفي الاستعارة؛ «ليكون المستعار له صالحاً لأن يجعل من المستعار ويصير فرداً من أفراده، وأن يعبِّر بالثاني عن الأوّل، ولو كان الشّبه بعيداً والعلاقة خفيةً، لالتبس المراد وانطمست طريق الدلالة»[3]،

---

(1) في الشّعر: 128.

(2) الدّيوان ق89/ ب1 ـ 5، 10.

(3) التصوير البيانّي 332.

ومثال هذا ما وقفنا عليه في خلق المشابهة بين حِدَّة الأسلات والنيار، وما بينهما من صفات مشتركة، وخصوصاً في المشبه به (النار) الذي عَبَّر عن المشبه (رؤوس الرِّماح).

وإذا كانت الاستعارة تعتمد على عملية النقل في اللغة، «فإنّما استعارت العربُ المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يناسبه، أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه؛ فتكون اللّفظة المستعارة حينئذٍ لائقةً بالشيء الذي استعيرت له، وملائمةً لمعناه»[1]. وقد عمد الشّاعر إلى مثل هذه المشابهات بين طرفي الاستعارة لمناسبةٍ وقعت بينهما، ولشدّة ملاءَمة المستعار لما استعير له؛ كالالتقاء الحاصل بين أسنّة الرِّماح البيض الحادَّة والنَّار المحرقة، والمنيّة والوحش المفترس وفوارس شهاب إذا اشتدَّ أوار الحرب والجمر الحارق.

أمّا وظيفة الاستعارة في أشعار القوم فنجد أنّها وُظِّفَتْ لغرض توضيح المعنى والإبانة عنه؛ فالزَّمَانُ فارس يرمي القيول بسهامه التي صارت غوائل، فَجُسِّدَ - وهو معنىً عقليٌّ - بمحسوسٍ؛ كقول يعلى بن سعد المالكيّ[2]:

وَلَقَدْ رَمَى القَيْلَ الحَصِيْنَ بِصَرْفِهِ ... فَثَوَى وأَصْبَحَ في ضَرِيْحٍ مُغْدِرِ

وفي جعله وحشاً يُغِيْرُ على الناس؛ حتّى إنّه لا يغادر سيِّداً ولا قَيْلاً[3]:

وَلَقَدْ أَغَارَ على ابنِ هَاتِكِ عَرْشِهِ ... وعلى الخُضَارِمِ مِنْ مَقَاوِلِ حِمْيَرِ

أو أنّها أتت لغرض تنميق المعنى وتجميلِهِ؛ كقول عمرو بن زيد الغالبيّ الذي جعل للأنفاس مَقْبِضاً تمسك منه بعد أن وصلت فكرة المعنى[4]:

وحَيٌّ قَيْسٍ يَسُومُ الذُّلَّ سَادَتَنَا ... قد أَمْسَكُوا بِعُرَا الأَنْفَاسِ والكِظَمِ

وقد جاءت أيضاً لتأكيد المعنى والمبالغة فيه، وأكثر هذه الأغراض انتشاراً كان هذا الغرض في أشعار القوم؛ كقول المسلم الشّهابيّ في لوحته الفنيّة السالفة، وعمرو الغالبيّ الذي وجد في السّيوف شُعَلاً تتّقد نارها؛ وفي الجيش بحراً تتلاطم أمواجه التي تمدّها أمواجٌ أخرى من ورائها، وكقول مالك

---

(1) الموازنة 1/ 266، والصناعتين 268، ونحو ذلك في مقدمة تفسير ابن النقيب 134 في المفارقة بين الاستعارة والتشبيه.
(2) الدّيوان ق53/ ب2.
(3) الدّيوان ق53/ ب4.
(4) الدّيوان ق84/ ب5.

العوفيّ الذي رأى في أقارب عمرو بن يزيد العوفيّ قوادم طير لا تساعده على التحليق[1]:

لَئِنْ بَاعَهُمْ بالأَبْعَدِينَ فَأَصْبَحَتْ   قَــوَادِمُ عَـمْـرٍو نَهْضُهَا غَـيْـرُ طَائِلِ

وأقران هذه الصّور في أشعارهم كثيرةٌ، ويلاحظ في أشعارهم انتشارٌ ليس هيّناً للاستعارة، خصوصاً في صدر الإسلام والعصر الأمويّ.

ومن الأساليب البيانيّة التي توسّل بها شعراء خَوْلان في أداء معانيهم: الكناية؛ وهي ضرب من ضروب الإيجاز يُعَبَّرُ فيها عن الشّيء؛ وذلك كأن «يريد المتكلم إثبات معنًى من المعاني، فلا يذكره باللّفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنًى هو تاليه ورِدْفُهُ في الوجود، فيومىءُ به إليه، ويجعله دليلاً عليه»[2].

فمن ذلك في أشعار الجاهليّين قول علقمة الخولاني مادحاً سيف بن ذي يزن الحميريّ، يوم ساروا إليه طامعين في نواله ومدده[3]:

إلـى طَـلِـقٍ لَـمْ يَعْقِدِ الـلُّـؤْمُ كَفَّهُ   وَمَـا زَنْـدُه في الـمَـكْـرُمَاتِ صَـلُـوْدُ

فقوله: «لم يعقد اللؤم كفّه» و «وما زنده... صلود» كنايتان عن كثرة رماده وسخائه.

وإذا ما أرادت عمرة الحيوانيّة أن تعبّر عن قوّة بني حي وشدَّة فتكهم، وبأن لا تُسْبَى نساؤهم في معاركهم التي يخوضون، تقول[4]:

ولا تُسَاقُ لَهُمْ عَــذْرَاءُ إِنْ لَـمَعَتْ   بَــوَارِقٌ فـي خَـمِـيْـسٍ خَـيْـلُـهُ تَهِلُ

ففي أحلك الظّروف والأوقات شدَّةً لا تُمَسُّ نساؤهم، وفي هذا كنايةٌ عن قوتهم وبأسهم.

وقريب من هذا المعنى ما جاء في أشعار المخضرمين وصدر الإسلام الخولانيّين؛ كقول عمرو بن يزيد العوفيّ[5]:

---

(1) الدّيوان ق92/ ب4.
(2) دلائل الإعجاز 66، ونحو هذا في الطراز 1/ 366، 379، والكناية في البلاغة العربية 1 ـ 6 وفيها فضل إيضاح، وانظر: حوالاته ثمة. وانظر: التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني 149.
(3) الدّيوان ق1/ ب9.
(4) الدّيوان ق102/ ب10.
(5) الدّيوان ق41/ ب9.

وحَـرْبـاً تُـذْعَـرُ الـشَّـمْـطَـاءُ مِنْهَا ... وتُـطْـمَـثُ كُـلُّ عَـــذْرَاءٍ وبِـكْـرِ

فتذعر الشمطاء، وتطمث... كناية عن صفة الحرب التي يخوض غِمَارَهَا قومُهُ البُسْلُ، الذين لا يجبنون ولا يخورون إذا ما قرعت طبول الحرب[1]:

شِعَارُهُمُ في الـحَـرْبِ دَعْـوَةُ كِنْدَةٍ ... إِذَا حَـانَ مِـنْ وِرْدِ الـمَنِيَّةِ مَشْرَبُهْ

وَلُبْسُهُمُ بَعْدَ الـمَطَارِفِ لِلْوَغَى ... إِذَا ثَـوَّبَ الدَّاعِي مِن السَّـرْدِ أَشْهَبُهْ

فقوله: «حان من ورد المنيّة شربه» كناية عن دنو الأجل واقتراب ساعته، وكنّى في البيت الثاني عن شدّة استعدادهم لتلك المعركة بأنهم يلبسون من الثياب الأبيض والـمُنَمَّق؛ لاحتفائهم بتلك المعركة وفرحهم بما سيكون فيها.

وإذا ما أراد المسلمُ المالكيّ تصوير لهفته على قومه وما ارتكبوه يقول[2]:

يَا لَهْفَ نَفْسِيْ عَلَى قَوْمِي ومَا ارتكَبُوا ... مـا كَـانَ يَـقْـبَـلُ هَـذَا سَـادَةٌ أُنُـفُ

فقوله «سادةٌ أُنُف» كنايةٌ عن موصوفٍ؛ وهم الذين يأبون الضّيم والحيف، أو كنايةٌ عن عبوسهم. وأمّا ما جاء في أشعار الأمويّين، فنجد قول المسلم الشّهابيّ واصفاً فيلق جيشهم الذي يهدي سوابق ودقها جرارها؛ يقول[3]:

فيهِ الـكُـمَـاةُ عَـوَابِـسـاً تَـحْـتَ القَنَا ... تَسَلُ الـنِّـزَالَ وَقَـدْ بَـدَتْ أَخْبَارُهَا

تَـرْمِـي إِلَـيْـكَ بِـأَعْـيُـنٍ مُـحْـمَـرَّةٍ ... وَتَـسُـوْقُ رَيْـعَـانَ الـكُـمَـاةِ كِبَارُهَا

فقوله: «عوابساً» فيه كنايةٌ عن القوة والشِّدَّة، وقوله: «أعينٌ مُحْمَرّة» كناية عن غضبها وتوتّرها؛ وذلك ممّا يساعد على رسم صورة دقيقة لهؤلاء الكماة العُبُس.

وكثيراً ما توارد الشّعراء القدامى على كناية الغضب والتوتر، باشتعال نيارٍ في جوف الإنسان؛ كقول الشّاعر عبد الله بن الحارث السّعدي[4]:

---

(1) الدّيوان ق32/ ب4ـ5.
(2) الدّيوان ق61/ ب6ـ7.
(3) الدّيوان ق89/ ب8ـ9.
(4) الدّيوان ق20/ ب2.

أَخَذْنَا بِزَيدٍ نَفسَ زَيْـدٍ أَخِيْكُمُ   وَكَانَتْ نِيَارُ الجَوْفِ مِنِّيْ تَوَقَّدُ

فقوله: «نيار الجوف» كناية عن الغضب في نفسه.

أمّا مصادر هذه الألوان البيانيّة، فمردُّها - كما تبيَّن لنا من قراءة هذا المجموع الشّعري - إلى البيئة الحسّيّة الماديّة التي اقتنص شعراء خولان منها صورهم، وهي ظاهرة تنسحب على «أشعار قبائل العرب منذ الجاهليّة إلى آخر العصر الأمويّ، ولا يشذُّ عن هذا الحكم إلا النّادر من صورهم»[1]. ولعلّ هذه الحسيّة الطاغية على صورهم، جعلتهم يتواردون على صورٍ بعينها، كادت تكون واحدةً لولا بعض الفروق اليسيرة[2].

وثمّة أمرٌ لا مناصَ من التّنبيه عليه، يتّصل بسكن خولان وأمكنة إقامتها في القصور الشّاهقة، وهو أمر لم نلحظ له تأثيراً في أشعارهم؛ كالذي نجده مثلاً عند بعض شعراء حمير، على اعتبار أنّها سكنت في القصور والمحافد التي استلهم شعراؤهم منها مادة لأشعارهم[3]. يضاف إلى هذا أنّ معظم ما استلّه شعراء خولان من صورٍ بيانيّةٍ كان مرجعه موضوعَ الفخر والحماسة؛ لطغيان هذا الموضوع على أشعارهم؛ فإنّ خولانَ قبيلةُ حربٍ لم تكن في يومٍ من الأيّام هادئةً مستكينةً.

من الأساليب التي شاركت الصّور البيانيّة في توضيح المعنى وإبراز جماله لدى شعراء خولان، ما نجده من بعض المحسّنات المعنويّة مثل الطباق والمقابلة؛ فأمّا الطباق فهو في كلام العرب شعراً ونثراً الجمع بين الضدّين[4]؛ وذلك «لإثارة القارئ وإيقاظ نفسه، وتعميق الشّعور بالمعنى عنده، عن طريق إبراز المفارقة بشكل أكثر جلاءً من خلال المجاورة بين الضدّين»[5]. ومنه قول علقمة الخولانّي في مدح سيف بن ذي يزن الحميريّ[6]:

إلى طَلِقٍ لَمْ يَعْقِدِ اللُّؤْمُ كَفَّهُ   وَمَا زَنْدُه في المَكْرُمَاتِ صَلُوْدُ

فهو يؤمِّلُ رحلةً إلى كريمٍ معطاءٍ، لم تكن يده في يوم من أيّام الكرم مغلولةً، فطابق بين «طلق»

(1) ديوان بني كلب (الدراسة) 425، نقلًا عن العصر الجاهلي 220 - 221.

(2) انظر: العصر الجاهلي 221.

(3) انظر: شعراء حمير (الديوان) ق60/ ب7 - 12، ق58/ ب1، ق59/ ب1، ق42/ ب2، ق43، ق44.

(4) انظر: العمدة/ 565، ومقدمة تفسير ابن النقيب 302.

(5) البلاغة العربية في فنونها: 23، وانظر: جمالية الطباق ودلالاته في شعر أبي تمام، خير الدين قبلاوي - مجلة المعرفة - وزارة الثقافة في سوريا - العدد 518 - 2006م - الصفحة 113.

(6) الدّيوان ق1/ ب9.

و«صلود».

وقوله فيه أيضاً:

تَكَامَلَ فِيْهِ مَنْصِبٌ لَمْ يُلَتْ بِهِ ... ومُـلْـكٌ نَـمَـاهُ طَـارِفٌ وتَـلِيْـدُ

فطابق بين كمال منصبه في قومه، الذي لم يَنْقُص به، بل زاد من قدره وشأنه، وبين «طارف» و«تليد»، ليدلَّ على تأصُّل الـمُلْكِ في أسرة ابن ذي يزن وتجذُّرِه فيها.

وقوله في الركائب التي اعتلوا ظهورها للوصول إلى الملك:

وَمَالَتْ إلى رُكْنَي عَجِيْبٍ رِكَابُنَا ... يُـقَـلِّـبُـهَـا خَـفْـضٌ لَـهُ وَصُـعُـوْدُ

فطابق بين «خفض» و«صعود»؛ ليبيّن حجم معاناة تلك النوق وشدَّة إعيائها؛ لكثرة ما تقاذفها من نجود الأرض وحزونها.

ومنه قول عمرو بن زيد الخولانيّ ـ مغرق الأكبر ـ لمّا شاركت خولان بحرب خَزَازى، التي اشتدَّ أوارها حتى أهلكت جموعُ كليبٍ جيشَ اليمن[1]:

حَتَّى التَقَيْنَا بِأَكْنَافِ الـمَسِيْلِ وَقَدْ ... أَبْـدَى لعَمْرُكَ مَا فِي النَّفْسِ مُخْفِيْهَا

فطابق بين «أبدى» و«مخفيها»؛ ليبيِّن فتك الفرسان وضربَ بعضهم بعضاً، وقد بذلوا كلّ ما يملكون من قوّة وبأسٍ.

ومن أمثلة الطباق لدى المخضرمين قول عمرو بن يزيد العوفيّ في حجر بن الرّبيعة[2]:

وَحَالَفَهُ السَّـادَاتُ مِـنْ حَـيٍّ مُغْرِقٍ ... فَـدَانَ لَـهُ شَـرْقُ الـبِـلَادِ وَمَـغْـرِبُـهْ

فقد طابق بين «شرق» البلاد و«غربها»؛ ليدلّل على سعة ملكه وبسطه على أصقاعٍ شاسعةٍ، ونحو ذلك قوله في بني شهاب الذين يذبّون عنه ويبذلون الغالي والرخيص في سبيل سلامته، حتى صاروا كأهله، بل أغلى[3]:

أُولَـئِـكَ مَعْشَرِيْ وَسَـرَاةُ قَوْمِي ... بِـهِـم أَرْضَـى هُـنَـاكَ إذَا غَضِبْتُ

(1) الدّيوان ق6/ ب8.

(2) الدّيوان ق32/ ب3.

(3) انظر: الدّيوان ق35/ ب5.

فطابق بين «أرضى» و«غضبت»؛ ليبيّن أنَّ غضبه عند بني شهاب هو أحسن ما يكون من الرضى والقبول؛ لشدَّة حبّه لهم، وإخلاصه لسراتهم.

ومنه قوله أيضاً في أبناء عمومته بني مالك بن زيد بن أسامة الخولانيّ[1]:

بَنِي مَالِكٍ عُـوْدُوا بِفَضْلِ حُلُومِكُمْ وَلا تَـرْكَـبُـوْا فِي غَيِّكُمْ كُـلَّ بَاطِلِ

فطابق بين «الحِلْمِ» وهو العقل والفطنة، وبين «الغَيِّ» وهو الضلال والغواية؛ لينبِّه أبناء عمّه على عظيم فعلتهم ودنيئها.

ومن أمثلة الطباق في أشعار الأمويّين قول المسلم الشّهَابيّ[2]:

يا عَـمْـرُو لَـوْ عَايَنْتَ وَقْـعَ جِيَادِنَا لَـدَفَـى فُـؤَادُكَ حِـيْـنَ ثَـارَ غُـبَـارُهَـا

فطابق بين «دفى» و«ثار»؛ ليزيد إحساسه بقوّة هذه المعركة؛ إذ بقدر ما تكون المعركة حاميةً، يطمئن فؤاده ويهدأ.

وقول الحارث السّعديّ[3]:

فَـأَجْـلَـوا مُـغْـرِقـاً وَبَـنِـيْ شِـهَـابٍ وَحَـلُّـوا فِي الـسُّـهُـولِ وفـي النِّجَادِ

فطابق بين «السهول» و«النجاد»؛ ليدلّ على أنّهم نزلوا عمومَ الأرض، وافترشوا الليّن منها والصَّلد، وليعَمِّقَ الإحساس بفتك آل حربٍ وشدّة بأسهم.

وإذا كان الطِّباق قد جاوز الجمع بين ضدّين كان مقابلةً[4]، ولعلّها أبرز من الطباق وأوضح؛ لتقدّمها عليه باللّفظ والمعنى؛ فمن ذلك قول علقمة الخولانيّ في حديثه عن منازل أم الحصين التي عرفها ـ وهو جَاهليٌّ ـ[5]:

مَـنَـازِلَ مِـنْ أُمِّ الحُصَيْنِ عَهِدْتُـهَـا تَـقَـادَمَ مِنْهَا العَهْدُ وَهْـوَ جَدِيْـدُ

فقابل بين «تقادم... العهد» و«وهو جديد»؛ ليثبتَ للسامع معرفته التّامّة بتلك المنازل، على الرّغم

---

(1) انظر: الدّيوان ق45/ ب1.

(2) انظر: الدّيوان ق89/ ب1.

(3) انظر: الدّيوان ق71/ ب7.

(4) العمدة 1/ 583، نضرة الإغريض 125، نقد الشعر: 133.

(5) الدّيوان ق1/ ب2.

من قِدَمِ عهدِهِ في تلك الديار الذي كان يراه جديداً.

ومن المخضرمين قول عمرو بن يزيد العوفيّ في بني أسامة بن زيد الخولانيّ، الذين أضاعوا ملكهم بسفاسف الأمور[1]:

أَضَاعُوْا عِزَّهُمْ سَفَهاً وَنَوكاً ... فَلَا حِلْمٌ هُنَاكَ وَلَا ارْعِوَاءُ

فَبَعْضٌ فِي أَظِلَّتِهِمْ قُعُوْدٌ ... وَبَعْضٌ ظِلُّهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ

فقابل بين «السفه والنوك»؛ والسفه: هو خفّة العقل، والنوك: هو الحمق والجهل، وبين «الحلم والارعواء»؛ والحلم: هو العقل والفطنة، والارعواء: هو النزوع عن الجهل إلى التعقُّل والحِلْم؛ وذلك ليؤكّد تفاهة سلوكهم وغباء تصرّفهم، كما قابل بين القاعدين في منازلهم متفيئين، والقاعدين تحت ظلال الرماح. ومن ذلك قوله أيضاً مفاخراً بأبناء قومه[2]:

إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا، جِنٌّ إذا غَضِبُوا، ... تَحْتَ العَجَاجَةِ فِي أَيْمَانِهِمْ شُعَلُ

فقابل بين «إنس إذا أمنوا» و«جنٌّ إذا غضبوا»؛ ليدلّ على أخلاقهم الحميدة، وتمسُّكهم بالمثل التي شربوا من مائها.

وثمّة ضربٌ من المحسّنات يُعرف بحسن التّخلّص؛ «وهو أنْ يأخذَ المؤلّفُ في معنًى من المعاني، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنىً آخر غيره، وجعل الأوّل سبباً إليه؛ فيكون بعضه آخذاً برقاب بعضٍ، من غير أن يقطع المؤلّفُ كلامه ويستأنف كلاماً آخر؛ بل يكونُ جميعُ كلامه كأنّما أفرغ إفراغاً»[3]. ومثاله في داليّة علقمة الخولانيّ الذي أنفق أبياتاً منها بذكر الطّلل والمحبوبة، ثمّ انتقل إلى موضوعه الرئيس؛ وهو مدح الملك الحميريّ سيف بن ذي يزن المأمولِ في مدده وعونه لقبيلة خولان ومَنْ والاها من قبائل قضاعة ومَذْحِج ضدَّ قبائل قَيْس عَيْلَان[4]:

سَقَى طَلَلاً بالجَلْهَتَيْنِ رُعُودُ ... وَغُرٌّ سَوَارٍ سَيْلُهُنَّ مَجُوْدُ

مَنَازِلَ مِنْ أُمِّ الحُصَيْنِ عَهِدْتُهَا ... تَقَادَمَ مِنْهَا العَهْدُ وَهوَ جَدِيْدُ

---

(1) الدّيوان ق30/ ب2ـ3.
(2) الدّيوان ق48/ ب3.
(3) المثل السائر 3/ 121، ومقدمة تفسير ابن النقيب 292، وأسس النقد الأدبي عند العرب 308.
(4) الدّيوان ق1/ ب1ـ5.

وَقِدْماً أَرَاهَا وَهْيَ جَامِعَةُ الهَوَى يَنُوسُ بِهَا عَصْرُ الصِّبَا وَيَرُوْدُ
تَقُولُ الَّتي مِنْ بَيْتِها شَخَصَتْ بنا رَكَائِبُ أَمْثَالُ العَطَائِفِ جُوْدُ:
أَرَاكَ طَوَيْتَ الكَشْحَ هَجْراً عَلى الَّتي كَلِفْتَ بِهَا والقَلْبُ مِنْكَ عَمِيْدُ

ولعلَّ هذا الموضع هو الوحيد ـ فيما اجتمع لدينا من أشعار خولان ـ من حسن التخلُّص، وليس للمرء أن يعجب من هذا الأمر لسببين:

أولاً: إنَّ معظم ما انتهى إلينا من أشعار القوم لم يكن بالقصائد الطِّوال التي تحوي أكثر من غرض، بل جلّ ما صار إلينا هو بُقَيًّا قصائدَ قِصَارٍ ذاتِ غرضٍ واحدٍ.

ثانياً: إنّ هذا الضّرب من المحسّنات المعنويّة هو ممّا اعتنى به المتأخرون، دون العرب ومن جرى مجراهم من المخضرمين، بل كانت العرب تقول عند فراغها من نعت الإبل، وذكر القِفَارِ وما هو بسبيله: «دع ذا» و«عد عن ذا» ويأخذون فيما يريدون، أو يأتون بـ «إنَّ» المشدّدة ابتداءً للكلام الذي يقصدونه[1].

ومن المحسّنات المعنويّة التي تُسْهِمُ في كشف المعاني: التكرار؛ وهو أن يكرّر الشَّاعر لفظاً أو معنىً من المعاني، وأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وقد يستغرق التكرار شطراً كاملاً، وهو ليس بعيبٍ في كلام العرب إذا كان عفويًّا، بل شأنه شأن الاختصار، ولكلٍّ دوره في تأدية المعنى، ويأتي لأسبابٍ متنوعةٍ؛ فمنها ما يكون على جهة الوعيد والتهديد إن كان عتاباً موجعاً، ومنها ما يكون على سبيل التشويق والاستغراب، ومنها ما يكون على سبيل التّنويه بالممدوح والتعّظيم له[2]؛ كقول علقمة الخولانيّ[3]:

أبا المُنْذِرِ الفَيَّاضَ يَا خَيْرَ حِمْيَرٍ وخَيرَ بَنِيْ ذُهْلٍ، إلَيْكَ نُرِيْدُ
نُرِيْدُ نَوَالاً مِنْ سِجَالٍ غَزِيْرَةٍ فَأَنْتَ لَهَا في النَّائِبَاتِ مُفِيْدُ

أراد من تكرار الفعل «نريد» تأكيد معنًى واحدٍ؛ وهو شدّة حاجتهم إلى عطائه ونواله المتجسّدين في إمدادهم بجيش يعينهم على قبائل قيس عيلان.

(1) انظر: العمدة 1/ 378، وعنه في أسس النقد الأدبي عند العرب 309.
(2) العمدة 2/ 898، نقد الشعر 199، التكرار في شعر الخنساء 17 وانظر حوالاته ثمّة، أسس النقد الأدبي 466.
(3) الدّيوان ق1/ ب38 ـ 39.

ومن التكرار في أشعارهم ما جاء في قول عمرو بن يزيد العوفيّ في خبر مقتل أبناء أخيه[1]:

لَمْ يَكنْ في سَـرَاةِ قَـوْمِـي نَظِيْرٌ ... لابْـنِ يَـعْـلَـى ومَـالِـكٍ وابْـنِ حَـارِ

أَخَـذَ الـدَّهْـرُ مَـالِـكاً وَابْـنَ يَعْلَى ... وَابْـنَ حَـارٍ هُـمَـامَـنَـا بـاقْـتِـسَـارِ

فتكرار أسماء العلم دليلٌ على الخطب الجلل الذي حلَّ بهم، وعلى شدّة تفجّعهم وانكسارهم بفقدهم هؤلاء الفرسان.

ومنه أيضاً في أشعارهم ما جاء في قول عمرة الحيوانيّة حينما مدحت بني حيّ، وأسبغت عليهم من النعوت والصفات ما يرقى إلى المثال[2]:

لا يَهْجَعُونَ إِذَا مَـا ضِيْمَ جَـارُهُـمُ ... وَلَا عَلَى حُكْمِ خَسْفٍ لِلْعِدَا نَزَلُوُا

لا يَجْبُنُونَ إِذَا الـدَّاعِـيْ دَعَـا لَهُمُ ... مُحَنَّباً عِـنْـدَمَـا يَسْتَلْحِمُ الـرَّجُـلُ

ولا يُـقِـلُّـونَ إِنْ أَعْـطَـوا لِسَائِلِهِمْ ... ولا يَضِنُّوْنَ بالمَعْرُوفِ إِنْ سُئِلُوا

ولا تَـرَاهُـمْ إِلـى جِـيْـرَانِـهِـمْ فِـرَقـاً ... يَبْغُوْنَ فَضْلَ نَـدًى مِنْهُمْ إِذَا رَمِلُوا

ولا تُسَاقُ لَهُمْ عَـذْرَاءُ إِنْ لَـمَعَتْ ... بَـوَارِقٌ فـي خَـمِـيْـسٍ خَـيْـلُـهُ تَهِلُ

كرّرت الشّاعرة في الأبيات السّالفة النفي بـ «لا» سبع مراتٍ؛ للتعبير عن تيقُّظِهم وكثرة رمادهم وشجاعتهم وعزة نفسهم.

ومن التكرار أيضاً ما جاء في قول المصعب الحيوانيّ يعدّد مفاخر قومه وسبقهم إلى الملك[3]:

لَنَا الـمُلْكُ قِـدْمـاً لا نُـدَافَـعُ دوْنَـهُ ... وأَبْـنَـاءُ حَـيٍّ سَـادَةٌ فـي العَبَائِلِ

سَبَقْنَا جَمِيْعَ النَّاسِ فَوْتاً إلى العُلَا ... وآبـاؤنَـا شُـمٌّ كِـرَامُ الـشَّـمَـائِـلِ

إِذا انْتَسَبَتْ خَـوْلَانُ يَوْماً وَجَدْتَنَا ... لَنَا الـمُلْكُ مِنْهَا والسَّنَا في القَبَائِلِ

وإِنْ عَـدَّدَ الأَقْـوَامُ مَـجْـداً وَجَدْتَنَا ... لَنَا الفَخْرُ مِنْهَا فِي الفُرُوْعِ الأَطَاوِلِ

---

(1) الدّيوان ق42/ ب1ـ2.
(2) الدّيوان ق102/ ب6ـ10.
(3) الديوان ق21/ ب1ـ5.

لَنَا مُلْكُ خَـوْلَانَ بنِ عَمْرٍو فَسَلْ بِنَا ... فَلَيْسَ خَـبِـيْـرٌ بـالأُمُـوْرِ كَجَاهِلِ

فتكْرَارُ «لنا» غير مرّة ما هو إلا دليلٌ على حيازتهم الملك، وتجذّره فيهم منذ قديم الأزل.

ومنه قول عمرو العوفيّ مفاخراً بقوّته وفرط بأسه[1]:

حَـمَـلْـتُ على الكَتِيبَةِ مِـنْ مَعَدٍّ ... ولـو أنّـــي قُـتِـلْـتُ لَـــمَـا حَـفَـلْـتُ

حَمَلْتُ الـمُهْرَ إذ حَمِيَتْ لَظَاهَا ... ولَا والـلـــهِ مَـــا فِـيْـهـا نَـدِمْـتُ

ومن الأساليب التي سخَّرها شعراء خولان لإيضاح معانيهم وإبرازها: الأمثال الحسية؛ فالمثل يختصر حادثةً معينةً في بضع كلمات لها أثرها في ذهن القارئ، فيجلو المعنى ويشدُّ أواصره في الذّهن ويقرّبه إلى المتلقي، فيكون أدعى للاقتناع بما جاء فيه، والأخذ بعبرته[2]. وإليه انتهت البلاغة من إيجاز في اللّفظ، وإصابة المعنى، وحسن التّشبيه، وجودة الكناية[3]، ولم تكن الأمثال التي استخدمها شعراء خولان بالكثرة على غرار ما جاء عند المولدين الذين كلفوا بها، وإليها مالت نفوسهم، وهي مزيةٌ عامةٌ في أشعار العرب حتى نهاية عصر بني أميّة[4].

ومن الأمثال التي وردت في أشعار خولان قول الحارث السّعديّ النّاصح لابن عمِّه بأن يكفَّ عن إثارة الفتن وإشعال الحروب، وهو لم يفعل وأصمَّ سمعه وأغشى عينيه[5]:

فَــرُبَّ أَخٍ لِـنَـفْـسِـكَ لَـــمْ تَـلِـدْهُ ... لــكَ الأُمُّ الأَلُـــوْفُ مَـعَ الشَّقِيْقِ

أفاد الشاعر من ضرب العرب للمثل: «رُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْهُ أُمُّكَ»[6]. قيل: إنّه للقمان بن عاد، عندما رأى رجلاً مستخلياً بامرأة، فاتّهمه فقال: من هذا؟ فقالت: أخي، وصار مثلاً لغير ما قُصِدَ له؛ أي أنّه يضرب في الشكاية من أقرب الناس إلى المرء؛ وكأنّه ليس بأخٍ على ما قدم من سوء الفعل.

ومما ورد في الأمثال في طيّات أشعار خولان قول كُثَيّر الشّهابيّ[7].

---

(1) الديوان ق35/ ب1ـ2.

(2) انظر: العجاج، حياته ورجزه: 351،وديوان بني كلب (الدراسة) 434.

(3) انظر: مجمع الأمثال 1/ 70 (صادر).

(4) انظر: العمدة 1/ 465ـ466.

(5) الدّيوان: ق74/ ق2. وانظر: تفصيل المثل ثمّة.

(6) زهر الأكم 3/ 36، مجمع الأمثال (صادر) 2/ 42.

(7) الدّيوان ق17/ ب1.

يا خَيْرَ مَنْ أَصْبَحَتْ خَـوْلَانُ تَأْمُلُهُ وقـد أَتَـتْـهُ بـأُخْـرَى جُـرعَـةَ الـذَّقَـنِ

وكذا أفاد الشّاعر من المثل القائل: «أفلت فلانٌ جريعةَ الذَّقن»[1]. وهو مثلٌ يُضْـرَبُ للمفلتِ من الهلاك بعد قربه منه؛ أي: أفلت وقد بلغت روحه موضع الذَّقن، أو أنَّ روحه صارت في فيه؛ كقرب الجرعة من الذَّقن.

ونجد أمثلةً أخرى استقاها القوم من أمثال العرب في شعر يعلى بن سعد المالكيّ[2]، وشعر أحد المجهولين الأمويّين[3]، وكُثَيِّر الشّهابيّ[4].

وإذا كان كثيرٌ من أشعار العرب قد تحوّل إلى أمثالٍ سائرةٍ، فإنّ أشعار خولان لم تنل حظوة هاتيك الأشعار من السيرورة والانتشار، على الرّغم من وجود الحكمة في أشعارهم؛ وذلك لاحتجابها عن العلماء والرواة الذين عُنوا بتدوين هذه الأمثال، ولتفرّد الهمدانيّ برواية أشعار القوم التي تناهبتها أيادي الضياع.

وكما كانت الأمثال التي أفاد منها شعراء خولان ضرباً من ضروب معاني أشعارهم، فإنّنا نجد ضروباً أخرى كان لها فضلٌ في إسعافهم بالمعاني الشّعريّة؛ منها أخبار الأمم السابقة وعبرُهَا، وما آلت إليه أحوالها؛ من مثل قالة الحارث السّعديّ يذكر زوال ملك زهير بن جَذِيْمَة العبسيّ حينما جار وطغى، وابنه شأس الذي سعى إلى بسط سلطانه على أماكنَ شاسعةٍ من الصحراء، ومثله كليب وائل الذي جار أيّما جور، حتّى انتهى به الأمر بطعنة حرّت أحشاءه، وأردته قتيلاً[5]:

يَا عَمْرُو يَا بنَ يَزْيدٍ لا تكُنْ بَطِراً فَالحَرْبُ أَرْدَتْ زُهَيْراً حِيْنَمَا جَارَا

لَـمَّا مَضَـى شَاسُ جَرَّ الرُّمْحَ مُعْتَرِضاً وقَـــامَ يَـبْـرِيْ بِـهَـا نَـابـاً وأَظْـفَـارَا

فَصَبَّحَتْهُ جِـيَـادُ الـخَـيْـلِ مُـبْـكِـرَةً فَـلَـمْ تُـبَـقِّ لَـهَـا غِـلًّا ولَا ثَـارَا

والـمَرْءُ وَائِـلُ لـمَّا أنْ طَغَى بَذِخاً أَوْدَى بِطَعْنَةٍ مَـحْـرُوْرِ الحَشَا غَـارَا

لا تَقْطَعَنَّ يَـسَـاراً مِـنْـكَ أَيْمُنُهَا واحْـذَرْ أَحَـادِيْـثَ قَـدْ تُنْبَى وأَخْـبَارَا

---

(1) مجمع الأمثال 2/ 504 (صادر)، المستقصى 1/ 274، جمهرة الأمثال 1/ 115، ثمار القلوب 1/ 511.
(2) الدّيوان ق53/ ب13 وانظر: تفصيل المثل ثمّة.
(3) الدّيوان ق98/ ب6 وانظر: تفصيل المثل ثمّة.
(4) الدّيوان ق17/ ب9 وانظر: تفصيل الخبر ثمّة.
(5) الدّيوان 72/ ب1ـ6.

